

الفرق بين
حبي

تفسير القرآن

بالقرآن والسنة

تأليف

محمد الصادق

انتشارات فرهنگ اسلامي



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

الفهرست

۱۶ - ۱۷



الكتاب	الفرقان في تفسير القرآن كامپيوتر علوم اسلامی
المؤلف	الشيخ الدكتور محمد الصادق
الجزء	السادس عشر والسابع عشر سورة طه - الأنبياء
الطبعة	الثانية
المطبعة	مطبعة أمير - قم
الناشر	انتشارات فرهنگ اسلامی - تهران - تلفن ۶۲۰۰۸
سنة الطبع	۱۳۶۵ - ش
عدد المطبوع	۳۰۰۰

سماعة الشيخ
الدكتور محمد الصادقي

الفروق في تفسير القرآن بالقرآن والسنة

سُورَةُ طه سُورَةُ الانبياء

دار الفوائد الإسلامية
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان



(۲۰) سُورَةُ طٰهٍ مَّكِيَّةٌ
وَأَيُّهَا خَيْرٌ وَتِلَاوَتُهَا
مِنْ تَحْقِيقِ كَامِلِ عِلْمِ



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طه ﴿١﴾ مَا أَرْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ أَنْ لَتُنْقَلَىٰ ﴿٢﴾ إِلَّا
تَذِكْرًا لِّمَنْ يَحْتَسِبُ ﴿٣﴾ تَنْزِيلًا مِّنْ خَلْقِ الْأَرْضِ
وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَىٰ ﴿٤﴾ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴿٥﴾
لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ
الْثَرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَ وَأَخْفَىٰ ﴿٧﴾
اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ وَهَلْ أَتَاكَ
حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿٩﴾ إِذْ رَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي
هَآنَتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ

هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَمْوَسَىٰ ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا
 رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾
 وَأَنَا أَخَذْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿١٣﴾ إِنِّي أَنَا اللَّهُ
 لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾
 إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا
 تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ
 هَوَاهُ فَتَرَدَّى ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَمْوَسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ
 عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا
 مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَمْوَسَىٰ ﴿١٩﴾ فَالْقَهَا فَإِذَا
 هِيَ حَبَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا
 سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ
 بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ۚ آيَةٌ أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيكَ مِنْ
 آيَاتِنَا الْكُبْرَىٰ ﴿٢٣﴾ أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾
 قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾

وَأَحْلَلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾
وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ أَشَدُّ
بِيءَ أَزْرَى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ
كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾
قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ﴿٣٦﴾

ملاحظ السورة ومصارحها برهان قاطع لا مرد له انها كلها مكية، وفيها من ذكريات التسلية من تاريخ الرسالات ولا سيما الموسوية، ما تُطمئن خاطر الرسول الأقدس محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وكما تبده به « طه » وتختتم به : « فاصبر على ما يقولون .. ولا تمدن عينيك .. وامر اهلك بالصلاة .. قل كل مترقب فترى بصوا فستعلمون من اصحاب الصراط السوي ومن اهتدى » ١٣٥ وبينهما قصص موسى وهرون ، ثم آدم وزوجه وهما اهم القصص الرسالية ومعارضيتها طول التاريخ الرسالي ، واكثرها ذكراً في الذكر الحكيم .

ويا لها من ظل ظليل يغمر غالبية جوها ، علوي جليل تخشع له القلوب وتحار دونه الأبواب وتخضع النفوس : تجلي الرب بالوحي بالوادي المقدس على عبده موسى كما تجلي بربوات المقدسين على « فاران » حري ! تلك المناجاة الطويلة في بزوغ وحي التورات ، والليل ساكن وموسى وحيد ، وكما ناجى محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) في ساكن الليل والرسول وحيد بفاران ، وبين الرسولين والوحيين والكتابين تشابهات منقطعة النظير عن كل بشير ونذير ، مما تربط السورة كلها بهذا البشير

﴿ طه ١ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ٢ إِلَّا تَذَكُّرٌ لِمَنْ يَخْشَى ٣ ﴾

« طه » اسم من أسماء النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) نداء كـ « يس » ن « ن » (١) في القرآن او سواء (٢) وهنا « عليك . . لتشقى » دليلان اثنان على ذلك النداء ^{١٢٣} وثانيتها يبرهن على مدى شقاءه في مرضات الله ، هيماناً في الله ، وشغفاً في ذات الله ، ابتغاء مرضات الله ، اصطناعاً لنفسه اكثر مما هي ، واصطناعاً للمرسل اليهم اكثر مما هم ، وكما أمر بالأميرين في المزمّل « قم الليل إلا قليلاً . . ان لك في النهار سبْحاً طويلاً » فقدم الأمر من الأمرين فقام الليل طويلاً طويلاً حتى تورّمت قدماء فجعل يرفع رجلاً

(١) ففي القرآن ما في تفسير البرهان ٣ : ٢٩ عن التوحيد للصدوق سعد بن عبد الله عن ابراهيم بن هاشم عن غثم بن عيسى عن حماد الطنافسي عن الكلبي عن ابي عبد الله (عليه السلام) قال قال يا كلبي كم لمحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) من اسم في القرآن ، فقلت : اسمان او ثلاثة فقال يا كلبي له عشرة اسماء : وما محمد الا رسول - ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه احمد - ولما قال عبد الله - طه - يس - ن - يا ايها المدثر - يا ايها المزمّل - قد انزل الله اليكم ذكراً رسولاً - قال : الذكر اسم من اسماء محمد ونحن اهل الذكر .

اقول : وقيل انه من اسماء القرآن او السورة او اسم الله او مفتاح الاسم الطاهر والهادي ، والمصدق منها اضافة الى انه من اسماء رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) مفتاحاً لصفات من الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) واسماً للسورة .

(٢) الدر المنثور ٤ : ٢٨٩ - اخرج ابن مردويه عن ابي الطفيل قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : لي عشرة اسماء عند ربي قال ابو الطفيل : حفظت منها ثمانية : محمد واحمد وابو القاسم والقاتح والخاتم والمأحي والمعاقب والحاشر وزعم سيف ان ابا جعفر قال : الاسمان الباقيان طه ويس ،

سورة طه / آية ١ - ٣٦ ١١

ويضع رجلاً^(١) ، وكان يربط نفسه بحبل كيلا ينأ^(٢) ويضع إحدى رجله على الأخرى^(٣) وقد يروى عن أخيه علي (عليه السلام) : لقد قام رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عشر سنين على أطراف أصابعه حتى تورمت قدماه واصفرَّ وجهه يقوم الليل أجمع حتى عوتب في ذلك فقال الله عزَّ وجلَّ : طه ما انزلنا عليك القرآن لتشقى « بل لتسعد^(٤) ، ويؤوِّل « الليل اجمع » هنا بما يناسب آية المزمِّل كما أمر « قم الليل الا قليلاً » حيث قلَّ قليل النوم لحد كثير حتى صبح القول « يقوم الليل اجمع » فلم يكن مخالفاً لأمر ربه ، بل مرجحاً إمر الأمر المخير بين مربعه، ثم « لتسعد » بفتح التاء هي سعادته نفسه بالقرآن، بشقاء العبادة والذكر عن الخشية، وبضمنها هي إسعاده الآخرين ، والمعنيان عليهما معنيان ، فتحلَّق « لتشقى . إلا تذكرة » على شئون النزول كلها .

وهي بطبيعة الحال عتاب حنون يدل على شغفه البالغ لحدِّ رجح الأكثر مما عليه .

وكما يدل على الجهل البالغ في آباء الجهالات حيث نسبوه الى الشقاء

(١) المصدر اخرج ابن مردويه عن علي (عليه السلام) قال : لما نزل على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يا ايها المزمِّل قم الليل الا قليلاً قام الليل كله حتى تورمت قدماه فجعل يرفع رجلاً ويضع رجلاً فهبط عليه جبريل فقال : طه

(٢) المصدر اخرج ابن عساکر عن ابن عباس قال كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) اذا قام من الليل يربط نفسه بحبل كيلا ينأ فانزل الله عليه طه .

(٣) المصدر اخرج عبد بن حميد عن مجاهد قال كان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يربط نفسه ويضع إحدى رجله على الأخرى فتزله طه . .

(٤) نور الثقلين ٣ : ٣٦٧ في كتاب الاحتجاج للطبرسي روي عن موسى بن جعفر عن ابيه عن آبائه (عليهم السلام) عن الحسين بن علي (عليه السلام) قال قال امير المؤمنين (عليه السلام) ولقد قام رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) . . .

ينزل القرآن ، تركاً لما هم فيه وآباءهم من الجاهليات الساقطة فـ « بل لتسعد » تفسيراً لمقابل « تشقى » ناظرة الى شأني النزول ، فلا هو شقي بنزول القرآن خلاف ما افترى عليه ، ولا عليه ان يتعب نفسه به في نفسه وفي دعوته ، فقد وضع عنه إصر مثلث الشقاء عناء ، ورسول الهدى من غير السعادة في الشقاء براء .

ففي ذلك الخطاب العتاب الحنون رد على الذين قالوا « لقد شقي هذا الرجل بربه فانزل الله طه »^(١) وعله مثلث الشقاء ، وقد يروى عن طه « ان الله تبارك وتعالى قرأ طه ويس قبل ان يخلق السماوات والأرض بألفي عام فلما سمعت الملائكة القرآن قالت : طوبى لأمة ينزل عليها هذا وطوبى لأجواف تحمل هذا وطوبى لألسنة تتكلم بهذا »^(٢) .

ولأن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) كان دائب العبودية في أصعبها ليظهر أكثر وأكثر ، وكان دائب الدعوة الصارمة حرصاً على هدايتهم ، ضائق الصدر عن رداهم ، كما « لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى » لمحة إجمالية عنها ، وفي القرآن الفصل تفصيلها ، فعله لذلك خوطب هنا بطه ، انه الطاهر لقمتها دون شقاء في العبادة ، والهادي لقمتها دون شقاء في الدعوة ، فهو الطاهر الهادي فلماذا يشقى .

(١) الدر المنثور اخرج ابن مردويه عن ابن جرير عن ابن عباس وفي تفسير الرازي ٢٢ : ٣ قال مقاتل . ان ابا جهل والوليد بن المغيرة ومطعم بن عدي والنضر بن الحارث قالوا لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) انك لتشقى حيث تركت دين آباءك فقال (صلى الله عليه وآله وسلم) بل بعثت رحمة للعالمين قالوا بل انت تشقى فانزل الله تعالى هذه الآية رداً عليهم وتعريفاً لمحمد بان دين الاسلام هو السلام .

(٢) المصدر اخرج الدارمي وابن خزيمة في التوحيد والعقيلي في الضعفاء والطبراني في الأوسط وابن عدي وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن ابي هريرة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ان الله ...

سورة طه / آية ١ - ٣٦ ١٣

انه (صلى الله عليه وآله وسلم) الطهارة القمة فهو «ط»^(١) وهو الهداية القمة فهو «ة» وذلك بعصمة إلهية بما اصطنعه ربه واصطنع هو نفسه ، فتكفيه ما فرض عليه ربه في بعدي العبودية والدعوة دون زيادة وعيب فيه شقوة ، فيا له من مكرمة ربانية شغفاً بالغاً في تحقيق عُدَّة العبودية وتطبيق المسؤولية في الدعوة ، لحدّ يقول له ربه قف يا طه . ما انزلنا عليك القرآن لتشقى . إلا تذكرة لمن يخشى » وانت أول العابدين وسيد المرسلين وإمام الأولين والآخرين .

أم انه « طالب الحق الهادي إليه »^(٢) فكذلك الأمر ، حيث الطلب بالعبودية لاصطناع نفسه والهداية لاصطناع غيره .

وأما ان « طه » كلمة معربة عن لغة « عك » او النبطية او الحبشية او السريانية^(٣) فغير وجيه ولا صحيح ، ومعناها فيها « يا رجل » فكيف يخاطب أول العابدين وسيد المرسلين بـ « يا رجل » وهو رسول ونبي في سائر القرآن ؟ ومع الغرض عن ذلك الغرض في مكانته فلماذا لم يأت « يا رجل » في صيغته العربية ، انتقلاً الى لغة اجنبية غير بهية ؟!

ولا أنه بمعنى « طأ » قلباً لهمزته هاء ، قلباً لرجله الى الأرض بعد

(١) البرهان تفسير الثعلبي في « طه » قال جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام) طهارة اهل بيت محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ثم قرأ آية التطهير .

(٢) نور الثقلين ٣ : ٣٦٧ في كتاب معاني الاخبار باسناده الى سفيان بن سعيد الثوري عن الصادق (عليه السلام) حديث طويل يقول فيه واما طه فاسم من اسماء النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ومعناه يا طالب الحق الهادي اليه ما انزلنا عليك القرآن لتشقى بل لتسعد اقول : علّ التاء هنا مفتوحة ومضمومة حملاً على بعدي السعادة لنفسه والاسعاد لغيره .

(٣) وهي مروية على الترتيب عن الكلبي وسعيد بن جبير وعكرمة وقتادة كما في الدر المنثور .

رفعها ما رفع ، مهما وردت به رواية ، فانها مردودة الى راويها حيث تنافي القرآن البيان .

كلا ! انه الطاهر الهادي ، او طالب الحق الهادي اليه ، كما يروى في اخرى تناسب موقف القرآن لفظياً ، والخطاب معنوياً « ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى » .

ومن الموافقات هنا في منزلة ذلك البدر الساطع المنير أن « طه » حسب حروف الجمل^(١) .

وهي ليلة البدر ، أترأه بعد متخلفاً عن أمر ربه في « تشقى » حتى يُنهي هنا ؟ كلا ! فان ذلك كان طبيعة الحال في عبد شكورٍ مثله حتى تأتيه الرخصة تخفيفاً بعد أمره في المزمّل وبعد « انا سنلقي عليك قولاً ثقیلاً » وكما أجاب سائله « يا رسول الله لم تتعب نفسك وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال : أفلا أكون عبداً شكوراً !^(٢) » مما يدل على دؤبته في صعوبة العبودية على تخفيفه منها بعد طه ، وقد عده الامام السجاد (عليه السلام) في مجلس يزيد من مفاخره قائلاً : انا ابن من هو « طه ما انزلنا عليك القرآن لتشقى » .

والشقاء منها العناء في طلب الخير تبعاً فوق الميسور كما هنا ، ومنها العناء من جراء الشر وهي الضلالة في الأولى والأخرى ، وساحة الرسول الأقدس براء عنها ، و« ما انزلنا عليك القرآن لتشقى » تلمح لمحة لامعة بمناسبة الحكم والموضوع ان نزول القرآن كان له شخصياً ورسالياً منزل

(١) المصدر في اصول الكافي بسند عن ابي بصير عن ابي جعفر (عليه السلام) قال كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عند عائشة ليلتها فقالت يا رسول الله ... قال : وكان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقوم على اطراف اصابع رجليه فانزل الله سبحانه « طه ... » .

سورة طه / آية ١ - ٣٦ ١٥

الشقاء والعناء ولأنه قول ثقيل : « انا سنلقي عليك قولاً ثقیلاً » فالقول الثقيل يقتضي للمقول له العبء الثقيل ، والتعبء الثقيل ، دون ان يكتفي بالميسور القليل ، ولذلك اخذ يتكبد فيما يتعبد حتى جاء امر الجليل بالتقليل « طه . ما انزلنا عليك القرآن لتشقى » :

اجل ، ليس القرآن مجالاً للشقاء على أية حال ، حيث المحور الأصيل فيه في كافة مجالاته وجلواته يُسردون عُسر ، فانه ميسر للذكر لكل مذكر فضلاً عن منزل وحيه ومهبط رسالته : « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر » فلا تتجاوز تكاليفه طاقة الإنسان اياً كان ، اذ لا يفرض إلا ما في الطوق والسعة ، نعمة دون شقوة ونعمة .

كما اننا ما انزلنا عليك القرآن لتشقى في حمل الناس على الهدى ، فتغيظاً وتضييقاً حين لا يؤمنون ، واستزادة حين يؤمنون ، اذ ليس عليك هداهم ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ولأنك في ضيق مما يمكرون ، فإنما الغاية القصوى منه محصورة في :

« إلا تذكرة لمن يخشى » تذكرة للمذكر ، وبصيرة للمتبصر ، فـ « إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة واجر كريم » (١١: ٣٦) والاستثناء هنا من أوصل المتصلات دوغماً انقطاع ، فـ « ما انزلنا عليك القرآن لتشقى » في الأولى او الأخرى ، ولا لأمر أخرى « إلا تذكرة لمن يخشى » ومما يشهد لذلك الحصر ان الذكر هو من أسماء القرآن الأصيلة ، ذكراً لكافة الآيات آفاقية وانفسية جملة وتفصيلاً .

وقد تتوسع « لتشقى » وما أولاها ، الى انك تشقى وتتعب في نفسك ودعوتك تذكرة لمن يخشى ، حيث تنذر به قوماً لداً ، فما شقاءك وعناءك كرسول إلا للذكرى ، واما انت يا رسول الهدى فقد يكفيك ما انت دون نصب في تعبدك فإنك « أول العابدين » .

فالمعنى اذاً - ضمن ما يُعنى - « ما انزلنا عليك القرآن لتشقى » هكذا
« إلا » شقاء وعناء « تذكرة » بهذا القرآن « لمن يخشى »!

فلولا تعب المذكر في اضطناع نفسه ثم المحاولة في اضطناع غيره ، لم
تكن التذكرة تلك الكافية البالغة لمن يخشى .

والخشية هي الضراعة في الجوانح كما الخشوع للجوارح ، وهي خوف
يشوبه تعظيم عن علم بما يخشى منه فـ « إنما يخشى الله من عباده العلماء »
(٢٨: ٣٥) وعلى ضوءها الخشية من الحياة الأخرى : « إنما أنت منذر من
يخشاهما » (٤٥: ٧٩) : « الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة
مشفقون » (٤٩: ٢١) .

فحين لا تكون خشية فحمل القرآن حمل وشقاء ، واذا جاءت الخشية
فحملة نعماء مهما كانت فيه من عناء ، وانت يا أول العابدين في شغف بالغ
من خشية الله ، يسهل عليك كل عناء في سبيل الله ، ولكن لا عليك أن
تشقى بالقرآن فوق ما عليك

ولأن التذكرة ليست إلا عن غفلة ، فلتكن مادتها موجودة لمن يخشى ،
وهي كذلك لمن يخشى ومن لا يخشى ، حيث الفطر مفطورة على معرفة
اصول المعارف الدينية ، والعقول الصافية الضافية تبناها في نضدها
ونضجها ، استيحاء من وحي الله التي يكملها ويفصلها ، فالعقول تأخذ
من الفطر بشمائلها الميمونة ، ومن الوحي بأيمانها الميمونة ، وذلك المثلث
البارع ينتج ديناً بارعاً لا عوج فيه ولا ريب يعتريه .

وهكذا يكون القرآن تذكرة بالفعل لمن لم تحجب فطرته ، ولم تُكسف
عقليته ، فهو خاشع للحق ، متحرر عن الحق ، متربص تشريفه ليتذكر ما
استغفل ، ويكتمل على غراره ما هو قاصر ، فمن يخشى وهو يسعى فالقرآن
له ذكرى ، ومن لا يخشى وهو يتلهى لم يكن له ذكرى ، باقياً في غفلته ،

باغياً في غفوته وشقوته .

وترى لماذا التعبير عن عبء التعب بـ « لتشقى » دون صيغته الأصلية السائغة للكتاب البيان ؟ لأنه لا يعني - فقط - منعه (صلى الله عليه وآله وسلم) عن التعب البالغ في بعدي الرسولية والرسالية ، بل وجواباً عما افتري عليه : « انك لتشقى حيث تركت دين آباؤك » اذاً « لتشقى » بيان مجمل جميل عن هذا المثلث ، سلباً للشقاء عناءً وغير عناء ، وتثبيتاً لشقاءه وعنائه بعض الشيء تذكرة لمن يخشى .

إذا فشقاءه (صلى الله عليه وآله وسلم) في « لتشقى » بين موجبة وسالبة ، موجبة دون الحرج تذكرة لمن يخشى ، وسالبة حدُّ الحرج اذ تورمت قدماءه ، وسالبة ثانية هي فرية المفتريين عليه ان في نزول القرآن شقاءه اذ خرج عن دين الآباء ! .

وطبعاً ليست « لتعب » لتعني ما عتبه « لتشقى » من مثلث المعنى المعني حسب شئون النزول هنا .

﴿ تَنْزِيلًا مِّنْ مَّحَلِّقِ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ﴾ (١)

ذلك القرآن المنزل عليك ذكراً وتذكرة لمن يخشى ، حقاً فيه الكفاية لكل تذكرة ، دوغماً حاجة الى نسخ او تكملة ، لأنه « تنزيلاً من خلق الأرض والسماوات العلى » فكما ان خلقه التكوين يعم الكون كله ، كذلك كتابه التشريع التدوين يشمل الخلق كله « تذكرة لمن يخشى » في كل ذكرى تتطلبها الحياة الإنسانية العليا على مدار الحياة ومر الزمن .

وكما « الرحمن على العرش استوى » له ما في السماوات وما في الأرض وما تحت الثرى » سيطرة ملكية ومالكية على الكون كله ، كذلك كتابه العظيم مسيطر في ذكره على العالمين اجمعين .

وهنا في « تنزيلاً » وجوه عدة وجمعها أوجه : نصباً على المفعولية له يخشى « حيث يخشى تنزيلاً عن خلق الأرض والسماوات العلى » .

ونصباً ، بدلاً عن « القرآن » : ما انزلنا عليك القرآن . . تنزيلاً ، وثالثاً على المدح والاختصاص : نخص تنزيلاً . . . وذلك الاختصاص هو الذي يؤهله للتذكرة العامة الدائبة ، ورابعاً على الحالية للقرآن المنزل ، ومربع المحتملات محتملات تحتملها الآية لفظياً ومعنوياً .

وهنا تقابل الأرض للسماوات العلى يلمح انها جنس الأرض الشامل للأرضين السبع ، كما تلمح له ثانية « ما تحت الثرى » فهما - إذاً - تعبيران عن الكون كله ككل كتاب التكوين ، تأشيراً عريضاً ان القرآن هو كل كتاب التدوين .

وإشارة أخرى، الأرض هي اراضي القلوب خاشية وغاشية ، والسماوات العلى هي القرآن حيث تضم كل سماوات الوحي ، يحمله الرسول الخاتم (صلى الله عليه وآله وسلم) ، فلا شقاء للسماوات العلى ان تمطر غزيرة الوحي الهاطل على اراضي القلوب ، ثم لاشقاء للقلوب في تقبلها تلك الأمطار ، لاشقاء العناء ولا غير عناء، مهما شقيت قلوب مقلوبة خاوية عن الهدى ، مليئة بالردى .

ثم « العلى » في مواصفة « السماوات » دليل علوها على الأرض كلها حول اكنافها ، محيطة بها ، حائطة لها ، منزلة عليها من ماءها ومسائر رحمتها ، اذا فالأرض محاطة بالسماوات فمدورة كما السماوات ، سائرة حائرة في خضمها ، غير ماثرة في حراكها حيث « الله يمسك السماوات والأرض ان تزولا » (٤١: ٣٥) .

فكما الأمطار تنزل على الأرض من عليا السماوات مكاناً ، كذلك القرآن منزل من عليا سماوات الوحي مكانة ، اذ ليس لله مكان ينزل منه

القرآن ، وانما « تنزيلاً » من عليا الربوبية ، الى دنيا القلوب .

﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾

« الرحمن » - رفعاً ، خبراً عن « هو » المقدرة ، ام مبتدأ لـ « استوى » أو « الله » المؤخرة وكلها صالحة - هي من اعم الصفات الإلهية ، شاملة لكل الرحمات تكوينية وتدوينية ، فهو مستوٍ مستولٍ بعدما خلق على كل ما خلق تكويناً وتشريعاً ، دون تفلت لها عنه تعالى ، ولا تلفت له تعالى عنها ، فهو المدبر لها كما هو الخالق اياها ، سبحانه وتعالى عما يشركون .

فله عرشٌ قبل خلق السماوات والأرض وهو على المادة الأولية الأم : « الماء » « هو الذي خلق السماوات والأرض في ستة ايام وكان عرشه على الماء » (١١ : ٧) .

وعرشٌ بعد خلقهما في حياتهما الدنيا ، وقد تعنيهما العرش هنا « الرحمن على العرش استوى » وعرش في قيامتهما « ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » (٦٩ : ١٧) وكل ذلك يعني استيلاءه على الخلق ، مهما اختلف الخلق في مثلث نشأته .

ثم لا عرش لله فعلياً قبل خلق الخلق ، حيث السلطة تقتضي مسلطاً عليه ، اللهم إلا كامنأ في حيطته العلمية وفي القدرة في معنى « خالق اذ لا مخلوق » .

فالعرش على أية حال لا يعني مخلوقاً هو سبحانه متكياً عليه ، مهما كان الملائ الأ على من العرش حيث تصدر منه أوامره تكوينياً أو تشريعياً بعد الخلق .

وجملة القول في « الرحمن على العرش استوى » انه « استولى على ما

دق وجل «^(١)» و «استوى من كل شيء فليس شيء أقرب إليه من شيء لم يبعد منه بعيد ولم يقرب منه قريب استوى من كل شيء» «^(٢)» استوى تدبيره وعلا أمره «^(٣)» و «من زعم أن الله من شيء فقد جعله محدثاً ، ومن زعم أنه في شيء فقد زعم أنه محصور ، ومن زعم أنه على شيء فقد جعله محمولاً» «^(٤)» وإنما «بذلك وصف نفسه وكذلك هو مستولٍ على العرش باين من خلقه من غير أن يكون العرش حاملاً له ، ولا أن يكون العرش حاوياً له ، ولا أن يكون العرش ممتازاً له ، ولكننا نقول هو حامل العرش وممسك العرش ونقول ما قال : «وسع كرسیه السماوات والأرض» فثبتنا من العرش والكرسي ما ثبتته ونفيينا أن يكون العرش أو الكرسي حاوياً وأن يكون عز وجل محتاجاً الى مكان أو الى شيء عما خلق بل خلقه محتاجون اليه «^(٥)» فهو «المستوي على العرش بلا زوال» «^(٦)» .

وعلى الجملة «ان للعرش صفات كثيرة مختلفة له في كل سبب وضع في القرآن صفة على جذة فقوله : رب العرش العظيم - يقول : الملك العظيم ، وقوله : الرحمن على العرش استوى» يقول : على الملك احتوى ،

(١) نور الثقلين ٣ : ٣٧١ في احتجاج الطبرسي عن الحسن بن راشد قال سئل ابو الحسن موسى (عليه السلام) عن الآية فقال : ...

(٢) المصدر في كتاب التوحيد عن ابي عبد الله (عليه السلام) انه سئل عن الآية فقال : ...

(٣) المصدر في الاحتجاج عن امير المؤمنين (عليه السلام) حديث طويل وفيه قوله « الرحمن على العرش استوى » يعني وكذلك (٤) فيه عنه عليه السلام .

(٥) نور الثقلين ٣ : ٣٦٧ في كتاب التوحيد عن ابي عبد الله (عليه السلام) حديث طويل وفيه قال السائل فقوله : الرحمن على العرش استوى ، قال ابو عبد الله (عليه السلام) : ...

(٦) المصدر في كتاب التوحيد خطبة لامير المؤمنين (عليه السلام) وفيها : ...

سورة طه / آية ١ - ٣٦ ٢١

وهذا مُلْكُ الكيفوفية في الأشياء، ثم العرش في الوصل منفرد عن الكرسي لأنها بابان من أكبر ابواب الغيوب، وهما جميعاً غيبان، وهما في الغيب مقرونان، لأن الكرسي هو الباب الظاهر من الغيب الذي منه يطلع البدع ومنه الأشياء كلها، والعرش هو الباب الباطن الذي يوجد فيه علم الكيف والكون والقدر والحد والأين والمشية وصفة الإرادة وعلم الألفاظ والحركات والترك وعلم العود والبداء، فهما في العلم بابان مقرونان، لأن ملك العرش سوى ملك الكرسي وعلمه أغيب من علم الكرسي فمن ذلك قال: رب العرش العظيم، أي صفته اعظم من صفة الكرسي وهما في ذلك مقرونان^(١).

ثم الآية التالية بيان لذلك العرش وكما نجد له بياناً في كل آيات العرش:

﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴾^(٢).

« له » فقط لا سواء « ما في السماوات وما في الأرض » ومعهما - بطبيعة الحال - السماوات والأرض « وما تحت الثرى ».

عرفنا السماوات والأرض، فما هو الثرى وما تحت الثرى؟ هذه الآية منقطعة النظير في « ما تحت الثرى » فما هنالك آية أخرى تفسرها، إلا أن آيات انحصار الكون في السماوات والأرض وما فيها وما بينها، تجعل ما تحت الثرى مما تحتها، إما في السماوات أم في الأرض، هذه أم سائر الأرضين المعنية من الأرض؟ فلنفتش عن الثرى وما تحتها في هذه الثلاث.

(١) المصدر عنه بإسناده إلى حنان بن سدير قال سألت أبا عبد الله (عليه السلام) عن العرش والكرسي فقال: ...

الثرى هي التراب الندي ، او الذي اذا بلّ لم يصير طيناً لازباً ،
والأرض الثرية هي الندية واللينّة بعد الجذوبة ، وأثرى المطربلّ الثرى ،
وفي الحديث « فاذا كلب يأكّل الثرى من العطش » أي التراب الندي ،
وثرى التراب اذا بلّه ، وارض مُثرية اذا لم يجفّ ترابها .

إذا فـ « ما تحت الثرى » هو ما تحت الترابات الندية للأرض ، وهي
في الأغلبية الساحقة في باطن الأرض ، وهنا الثرى لا تشمل ما في الأرض
على اكنافها حيث تشمله « ما في الأرض » فلتكن الثرى الترابات الباطنة
لها ، وهي بطبيعة الحال ندية .

إذا فـ « ما تحت الثرى » تعم كافة المواد الأرضية التي هي تحت تراباتها
الندية من ثروات تحت الأرضية كالفلزات والبتروول والفحم الحجري وما
الى ذلك من أنقلها الباطنة تحت ثراها ، وإلى الواجهة الخلفية لكل افق من
الأرض ، فحينما كانت الكرة الأرضية مستورة الواجهات الأخرى ، وراء
الآفاق التي كانوا يعيشونها ، فـ « ما تحت الثرى » تعني-فيها تعني-خلفيات
الثرى كلها من ثرواتها، ومن الآفاق الخلفية الأرضية وراثها .

إذا فآية الثرى من آيات الكروية الأرضية ، وكما تلمح لأرضين أخرى هي
ايضاً « ما تحت الثرى » وتوضّحها آية الطلاق « ومن الأرض مثلهن يتنزل
الأمريبينهن » ارضون ست أخرى تماثل ارضنا ، وهي كلها « ما تحت الثرى »
منبئة حول الكرة الأرضية في خضمّ الفضاء ، فان كل افق من الأرض ما
تحتها واجهة أخرى من الأرض ، فارض أخرى غير هذه الأرض ، فقد تحوّل
الارضون الست حول هذه الأرض في مكاناتها ، كما ان ما تحت الثرى تعمها
كلها .

ولماذا « ما تحت الثرى » دون « ما فوق الثرى » حين تعني سائر
الأرضين ؟ لأن المجهول عند الناس حين نزول القرآن والى زمن بعيد هو

سورة طه / آية ١ - ٣٦ ٢٣

« ما تحت الثرى » واما ما فوقها وهي السماء بانجمها فمعروفة للناظرين ،
اذاً فحق الكلام كما هو : « ما تحت الثرى » .

واصدق ما يروى واحسنها تفسيراً لما تحت الثرى ما عن رسول الهدى
(صلى الله عليه وآله وسلم) حين سئل « ما تحت هذه الأرض قال :
خلق ، قال : فما تحتهم ؟ قال : ارض ، قال : فما تحتها ؟ قال : خلق ،
قال : فما تحتهم ؟ قال : ارض حتى انتهى الى السابعة . . . »^(١) .

ف « تحت هذه الأرض » تعني تحت الأفق الذي كان يعيشه السائل ،
وطبعاً فيه خلق ، فان في كل اكناف الكرة الأرضية خلق كما نحن ، ثم
« ما تحتهم ارض » هي الأرض الثانية ، توسعة في التحت لكل اكناف
الأرض ! اذا ف « تحت الثرى » تعم التحت المتصل بالأرض وهو ثرواتها ،
ووراءها ، والمنفصل عنها ومنها سائر الأرضين .

(١) الدر المشور ٤ : ٢٩٠ - اخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال كنت مع
رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في غزوة تبوك اذ عارضنا رجل مترحّب يعني
طويلاً فدنا من النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فاجذب بخطام راحلته فقال : انت
محمد ! قال : نعم - قال : اني اريد ان اسألك عن خصال لا يعلمها احد من اهل
الأرض الا رجل او رجلان فقال : سل عما شئت قال يا محمد ما تحت هذه يعني
الأرض قال : خلق الى السابعة - قال : فما تحت السابعة ؟ قال : صخرة ،
قال فما تحت الصخرة ؟ قال : الحوت . قال : فما تحت الحوت قال الماء قال فما تحت
الماء قال الظلمة قال فما تحت الظلمة قال الهواء قال فما تحت الهواء قال الثرى قال فما
تحت الثرى ففاضت عينا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بالبكاء فقال : انقطع
علم المخلوقين عند علم الخالق ايها السائل ما المسئول باعلم من السائل قال صدقت
اشهد انك رسول الله يا محمد اما انك لو ادعيت كنت الثرى شيئاً لعلمت انك لساحر
كذاب اشهد انك رسول الله ثم ولى الرجل فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)
وسلم (ايها الناس هل تدرون ما هذا قالوا الله ورسوله اعلم قال : هذا جبريل .
اقول : ونحن لا نعلم عما تحت الأرض السابعة مما روي عنه (صلى الله عليه وآله وسلم)
وسلم (شيئاً .

وقد تعني « ما تحت الثرى » كل ما نجهله من خلق الله ، فتحت ثرى الأرض منها وهو ثرواتها وخلفها المتصل بها ، ثم تحتها من سائر الأرضين الست ، هذه الثلاث هي من عامة ما كنا نجهلها ، وقد عرفنا شطراً منها بعد أمة من الزمن ! ثم يبقى علينا الأرضون الأخرى ولما نكشف النقاب عنها ، وقد صرح بها آية الطلاق كما لمحت لها آية الثرى، هذا ! .

وأما « ما تحت الثرى » ككل ما هنالك فهذه هي هيات عند ذلك ضل علم العلماء ^(١) « عند ذلك انقضى علم العلماء » ^(٢) وما يعلم تحت الثرى إلا الله ^(٣) مهياً كان الرسول (ص)

(١) المصدر عن ابان بن تغلب قال : سألت ابا عبد الله (عليه السلام) عن الأرض على أي شيء هي قال : على الحوت قلت فالحوت على أي شيء هو ؟ قال : على الماء قلت فالماء على أي شيء هو قال : على الصخرة قلت فعل أي شيء الصخرة ، قال : على قرن ثور امس ، قلت : فعل أي شيء الثور ؟ قال : على الثرى قلت فعل أي شيء الثرى قال : هيات ...

(٢) نور الثقلين ٣ : ٣٧٢ في تفسير القمي عن ابي عبد الله (عليه السلام) سئل عن الأرض على أي شيء هي ؟ قال : على الحوت ، قيل له : فالحوت على أي شيء هو ؟ قال : على الماء ، فقيل له : الماء على أي شيء هو ؟ قال : على الثرى ، قيل له : فالثرى على أي شيء هو قال : عند ذلك انقضى علم العلماء .

(٣) المصدر في علل الشرايع عن علي (عليه السلام) قال ليهودي وقد سأله عن مسائل : اما قرار هذه الأرض لا يكون الا على عاتق ملك وقدماء الملك على الصخرة والصخرة على قرن الثور والثور قوائمه على ظهر الحوت والحوت في اليم الاسفل واليم على الظلمة والظلمة على العقيم والعقيم على الثرى وما يعلم تحت الثرى الا الله

(٤) المصدر في اصول الكافي بإسناده الى الفضل بن عمر عن ابي عبد الله (عليه السلام) حديث طويل يذكر فيه الأئمة (عليهم السلام) وفيه : جعلهم الله . . . ومثله في بصائر الدرجات بسند عن محمد الجعفي قال سمعت ابا عبد الله (عليه السلام) يقول : . . . وفي الكافي عن سعيد الاعرج عنه (عليه السلام) مثله .

سورة طه / آية ١ - ٣٦ ٢٥

والأئمة « جعلهم الله ارشاد الأرض ان تبيد بهم والحجة البالغة على من فوق الأرض ومن تحت الثرى »^(١) والحجة البالغة على شيء عارف - بطبيعة الحال - ذلك الشيء ، فضلال علم العلماء وانقضائه عند « ما تحت الثرى » يعني غير الحجة البالغة ، واختصاص علمه بالله هو حق العلم بما تحت الثرى كما الثرى وما فوقها .

ومن تحت الثرى سكنة سائر الأرضين ، والأنجم العامرة التي فيها مدن كمثل التي في الأرض^(١) .

والأحاديث الواردة في ترتيب الثرى بما قبلها مجهولة المعنى إلا في تجهيل من سوى الله لما تحت الثرى .

ولنا ان نفتش عما تحت الثرى ، كما حصلنا لحد الآن على مواضيع منها ، وبقيت اخرى لما نصل اليها ، منها ما علنا نصل اليها على ركب العلم روحياً وزمنياً مهما ضل عنها الأولون ، ومنها ما لن نصل اليها كما يشير اليها أئمة الهدى « عند ذلك ضل وانقضى علم العلماء ، وما يعلم تحت الثرى إلا الله » .

وبعبارة اخرى وصيغة اخرى ، إن العلم الحق وحق العلم بكل ذلك ، كما حق القدرة والقدرة الحقة ، ان ذلك كله مخصوص بالله تعالى ، كما تلمح له « له . . » حيث يدل تقديم الظرف على الحصر ، ونحن لا نعلم - فيما نعلم منها - إلا ظاهراً ضئيلاً ، وجانباً قليلاً « وما أوتيت من العلم إلا قليلاً » !

﴿ وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾^٧

(١) في البحار عن الامام امير المؤمنين (عليه السلام) قوله : ان لهذه النجوم التي في السماء مدائن كمثل التي في الأرض مربوطة بعمودين من نور طولها في السماء اثني عشر عاماً .

« وان تجهر بالقول » أيأ كان ، مع ربك كما في صلاتك وسائر دعائك ، ام مع غيره او نفسك ، « فانه يعلم السر واخفى » فضلاً عن الجهر .

فلماذا « تجهر بالقول » مع ربك ؟ لأنه لا يعلم السر؟ « فانه يعلم السر واخفى » ! أم لأنك تلتذ بسماع صوت الدعاء الى الله منك أو سواك ، فلا عليك اذا أن تجهر بالقول ، ام لأنك تعني بجهرك أن تسمع الآخرين تشجيعاً على الدعاء ام تعليماً ؟ فكذلك الأمر ، ام لأنك ترائي في جهرك « فانه يعلم السر واخفى » مهما لا يعلم من نيتك السريرة غير الله : « وأسرؤا قولكم او اجهرؤا به انه عليم بذات الصدور » (١٣: ٦٧) سرأ وأخفى ، ولكن ادب الدعاء يقتضي دون الجهر العال : « ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلاً » (١١٠: ١٧) « واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والأصال ولا تكن من الغافلين » (٢٠٥: ٧) « انه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون » (١١٠: ٢١).

ولقد كان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يجهر - احياناً - في الدعاء تعليماً ، وهو محبور دون الجهر العال إلا اذا اقتضت الحال : فـ « كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) اذا سلم من صلاته يقول بصوته الأعلى : لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير لا حول ولا قوة الا بالله ولا نعبد الا إياه له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن لا اله الا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون » (١).

(١) تفسير روح المعاني للالوسي ١٦ : ١٦٣ قد صح ما يزيد على عشرين حديثاً في انه (صلى الله عليه وآله وسلم) كثيراً ما كان يجهر بالذكر وصح عن ابي الزبير انه سمع عبد الله بن الزبير يقول : كان رسول الله (صلى الله عليه وآله)

هذا ولكنه دون المرتفع العال وكما قال (ص) لمن ارتفعت اصواتهم «يا ايها الناس اربعوا على انفسكم فانكم لا تدعون اصم ولا غائباً انه معكم سميع قريب» (١) .

اجل ولكل قال مجال ، ولكل حال قال يقتضيه المجال ، فلا جهر لإسماع ربنا المتعال ، ولا فوق العال على أية حال ، فلا مرجح لجهر القول في الدعاء في ذاته بل هو مرجوح غير ممنوح ، اللهم إلا لتعليم او تذكير ، ام سن سنة الدعاء ، ام حَظوة من سماعها تزيد في عمقها .

ثم ذلك هو السرُّ فما هو الأخرى ؟ « السرُّ ما أكننته في نفسك ، وأخفى ما خطر ببالك ثم أنسيته » (٢) ثم وأخفى من ذلك الأخرى ما لم تنوّه ، او لم تعلمه ثم تنوّه ، أو لم تعلمه فتعلمه ام لا تفعله (٣) والأخرى المطلقة في الآية تعمهما وما لن ينوّه او يعلمه أو يفعله ابداً ، مثلث من الأخرى تُقابل السر ، والكل مقابل الجهر ، وهذه الخمس في علم الله سواء : « سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار » (١٣ : ١٠) مهما كان لا سواء بالنسبة لنا علماً وحظوة في الدعاء الجاهرة في رنينها وطنينها وحنينها .

-
- (١) المصدر عن الصحيحين من حديث ابي موسى الاشعري قال : كنا مع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وكنا اذا اشرفنا على واد هللنا وكبرنا ارتفعت اصواتنا فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) :
 (٢) نور الثقلين ٣ : ٣٧٣ بسند متصل عن محمد بن مسلم قال سألت ابا عبد الله (عليه السلام) عن « يعلم السر وأخفى » قال :
 (٣) الدر المنثور ٤ : ٢٩٠ - اخرج ابن المنذر وابن ابي حاتم والبيهقي في الاسماء والصفات عن ابن عباس في الآية قال : السر ما اسره ابن آدم في نفسه وأخفى ما أخفى عن ابن آدم مما هو فاعله قبل ان يعلمه فانه يعلم ذلك كله فعلمه فيما مضى من ذلك وما بقي علم واحد وجميع الخلائق عنده في ذلك كنفس واحدة .

وقد يعني « السر » ما هو سرٌّ عنك كما عن غيرك حيث أنسيته ، ثم « اخفى » ما لم تعلمه بعد ، وما لن تعلمه ، حيث السر هو الكائن السرير ، فالأخفى هو غير الكائن الذي بالامكان كونه بعداً ام لا ، وعوان بين السر والجهر هو النجوى ، فانه جهر لمن تناجيه وسرٌّ عن سواه ، وهي هنا مشمولة للسر ، وان كان مع النجوى كالظرف والمجرور اذا اجتماعاً افترقا واذا افترقا اجتماعاً : « ام يحسبون انا لا نسمع سرهم ونجواهم » (٤٣ : ٨٠) « الم يعلموا ان الله يعلم سرهم ونجواهم وان الله علام الغيوب » (٧٨ : ٩) .

فلأن الآية في مقام عرض العلم المحيط ، لم تكن الاخفى لتختص بما سوف تعلمه او تنويه او تفعله ، بل وما لن تعلمه من الحقائق الكائنة في الكون ، بل وغير الكائنة كُوتت بعداً ام لم تُكُون ، كما السر لا يختص بغير النجوى ، اذا فالسر هو دون الجهر من القول من نجوى يسمعها صاحبها ، ومن إخفات تسمعه في نفسك وقد يسمعه غيرك ، ام إخفات لا تسمعه في نفسك وانما تعلمه وهو النية السريرة .

ومثلث العلم لله : جهراً وسراً واخفى ، هي المواطن الثمانية ، ١ - جهراً ، ٢ - دون الجهر نجوى ، ٣ - إخفاتاً قد يسمعه غيرك ، ٤ - إخفاتاً لا يسمعه غيرك وتسمعه في نفسك ، ٥ - ام لا تسمعه ، ٦ - وسراً عن نفسك ما كنت تعلمه ثم أنسيته ، ٧ - ام لم تكن تعلمه وبالامكان ان تعلمه ، ٨ - ام ليس بالامكان ان تعلمه .

فهذه الآية تتكفل عرضاً موجزاً عن عرش العلم في مواطنه الثمانية كما آية الثرى عرضت عرش الملكية المالكية المطلقة ، فهما اذاً تفسيران لعرش الرحمن « فبأي آلاء ربكما تكذبان » .

ومن ثم الأسماء الحسنى لذي العرش الواحد القهار ، عرضاً لوحدة

الأسماء الحسنى :

﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾^١

« الله » قد يكون تعريف التصريح باسم الجلالة بعد المواصفات السابقة السابقة ، من « مَنْ خَلَقَ الْأَرْضَ .. الرَّحْمَنُ .. لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ .. فَانْه يَعْلَمُ » فذلك المربع الصفات هو « الله ... » خبراً عن « هو » المحذوفة ، وكما انه مبتدأ لخبريه « لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ - لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى » والجمع اجمع وأوفر ، رباطاً بما قدم وأخر ، مهما كانت هنالك احتمالات أخرى^(١) .

في سائر القرآن آيات اربع تتحدث عن اسماء الله الحسنى^(٢) هذه منها ، وقد تحدثنا عنها في حشرها^(٣) ونزيد هنا ان اسماء الحسنى لا تختص بالصفات ذاتية وفعلية ، بل والرعييل الأعلى من عباده المخلصين هم من اسماء الحسنى ، نتيجة الصفات الفعلية العليا ، فانهم يدلون على الله ويوجهون الى الله بما يحملون من رسالات الله وحياً أو إلهاماً .

وفيما أمرنا ان ندعوه بها ونذر ما وراءها : « وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذُرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَاءِهِ » (١٨: ٧) تعم الدعوة الدعاء الخالصة ، فهي بالأسماء الأولى ، كل دعاء باسم يناسبها ، ويواسطه المقربين ، سواء في دعاء الاستغفار وسواه « وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً » (٤ : ٦٤) .

(١) كأن يقال « لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ - لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى » هما وصفان و « الله » خبراً له « هو » اماذا والقرآن محال ذو وجوه فاحملوه على احسن الوجوه .

(٢) وكذلك الآيات ٧ : ١٣٧ و ١٧ : ١١٠ و ٥٩ : ٢٤ .

(٣) في الفرقان ٢٨ : ٢٦٥ - ٢٦٦ .

٣٠ الجزء السادس عشر

أم في دعاء المعرفة والعبودية فهي برجات الرسائل حيث يعرفونه كما عرف لهم نفسه ، ويبينون طرق عبوديته ومسالك طاعته كما بين لهم .

فدعاء الله بغير الأسماء الحسنى - سواء الأولى أو الأخرى - قبيحة ملحدة نذرهما وراءنا ظهرياً فـ «أياماً تدعوه فله الأسماء الحسنى» (١٧: ١١٠).

وأحسن الأسماء الحسنى هو «هو» وهو «الله» اسمان للذات المقدسة ، وهما مذكوران في كلمة التوحيد التي هي احسن الكلمات ، وهي ضمان الجنة كما يروى عن رسول الهدى (صلى الله عليه وآله وسلم) : «ما زلت اشفع الى ربي ويشفعني واشفع اليه ويشفعني حتى قلت يا رب شفّعي فيمن قال : لا إله إلا الله - قال : يا محمد ! هذه ليست لك ولا لأحد وعزتي وجلالي لا ادع احداً في النار قال : لا إله الا الله» (١).

اجل وهي الشجرة الطيبة الطوبى ، والكلم الطيب ، والحق المتواصى به ، والواحدة الموعوظ بها ، والوقف المشلول عنها ، والقول الثابت في الأولى والأخرى .

وقد قال موسى : يا رب علمني شيئاً اذكرك به ، قال : قل لا إله الا الله - قال : كل عبادك يقولون : لا إله الا الله ! فقال : قل لا إله الا الله ! قال : انما اردت شيئاً تخصني به ! قال يا موسى : لو ان السماوات السبع ومن فيهن في كفة ولا إله الا الله في كفة لمالت بهن : لا إله الا الله (٢).

وهي بطبيعة الحال ليست فقط قالة القال فانها قال ، بل هي قالة

(١) تفسير الفخر الرازي ٢٢ : ١٠ عن انس بن مالك قال قال عليه السلام : ...

(٢) تفسير الفخر الرازي ٢٢ : ١١ ان موسى بن عمران قال : ...

سورة طه / آية ١ - ٣٦ ٣١
حكاية عن الحال على آية حال وهي درجات .

وترى من قالها بقلبه ولما تظهر على لسانه دوغماً ضئلاً ولا استكبار ، هل هو من أهلها ؟ اجل ! وانها اجل من قالها باللسان لأنها حكاية عما في الجنان ، وهو محطة الإيمان ، فلو عكس الأمر ، قالوا باللسان دون الجنان فلا إيمان ، مهما قبلت كظاهر الإسلام !

هذا - ولكن الذي يعتقدها ثم لا يبرزها بلسانه ، كيف يُعرف إيمانه في كتلة الإيمان ؟ وحتى اذا عرف فما باله لا يبرزها باللسان وهو شعار الإيمان وشعور بالإيمان ! (١) اللهم « إلا من اكراه وقلبه مطمئن بالإيمان » (١٦ : ١٠٦) وطبعاً فيها إن كانت البقية على نفسه أنف من ظاهرة الإيمان .

ثم بعد اسمي الذات ، الأسماء الثلاثة لصفات الذات : الحي العليم القدير ، ومن ثم سائر التسعة والتسعين هي أسماء صفات الفعل ، وكلها حسنى .

فاختلاق اسماء الله في أي من هذا المثلث إلحاد في اسماءه ، كما اختلاق رسالة ليست من الله إلحاد في اسماءه .

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ۖ إِذْ رَأَى نَاراً فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ۖ ﴾

« وهل أتاك ؟ » ومتى أتاه ومن أين وهو أمي « وما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان » (٤٢ : ٥٣) . إلا ان يأتيه بالوحي ، وقد ذكرت القصة في القصص بتفصيل أكثر مما هنا ، وهي بطبيعة الحال مؤخرة عن « طه »

(١) تفسير الرازي ٢٢ : ١٠ - ان عمر قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : من قام في السوق فقال : لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير كتب له الله الف الف حسنة ومحا عنه الف الف سيئة وبني له بيتاً في الجنة .

وإلا فقد أتاه حديث موسى ان كانت مقدمة عليها ، مهما كان في النقلين فوارق تكمّل كل الأخرى ، والاستفهام هنا لتقرير العجائب عن حديث موسى وأولى به ثم أولى .

فالقصاص تقص الذي حصل لموسى قبل قصته هنا ، وهذا بداية الوحي الرسالي لموسى بعد وحي النبأ من ذي قبل : « ولما بلغ أشده واستوى آتينا» حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين » (٢٨ : ١٤) .

« اذ رأ ناراً » فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور ناراً قال لأهله امكثوا اني آنست ناراً لعل آتيكم منها بخبر او جذوة من النار لعلكم تصطلون » (٢٨ : ٢٩) . - .

« فقال لأهله امكثوا » مكثاً يسيراً « اني آنست ناراً » والإيناس هنا مما يلوح أنه كان في برد قارص كما يدل عليه « لعل آتيكم منها بقبس » « او جذوة من النار لعلكم تصطلون » كما تلمح انه ضل الطريق وكان الليل مظلماً « او اجد على النار هدى » (١) وكما يقال انه في رجوعه من مدين ضل الطريق في ليلة ظلماء وبردة قرصاء ، وريح عاصفة وغنم له متفرقة وطلق الزوجة ، فرأ ناراً فقال لأهله امكثوا ، كأنهم كانوا ناظرين فرجة إلهية وهي الآن على مشارفها ! .

وقد نهتدي من « أجد على النار هدى » الى تفرسه من هذه النار هدى رسالية بعد ضلاله في سنه العشر ، كما « لعل آتيكم منها بخبر » قد يخبر بهذه الفروسية .

وطبيعة الحال في هذه الفترة الطائفة عشر سنين تقتضي ان يتفرس في

(١) نور الثقلين ٣ : ٣٧٣ عن تفسير القمي في رواية ابي الجارود عن ابي جعفر (عليه السلام) في قوله : آتيكم منها بقبس « يقول : آتيكم بقبس من النار تصطلون من البرد او اجد على النار هدى - كان قد اخطأ الطريق - بقول : او اجد على النار طريقاً .

سورة طه / آية ١ - ٣٦ ٣٣

رجعته هذه من النار نوراً « لعلّي آتيكم منها بخبر » - « او اجد على النار هدى » وعلى هامشه القبس الجذوة لعلكم تصطلون ، « او اجد على النار هدى » لعلكم تهتدون .

هنا موسى - وهو بمنصرفه من مدين الى مصر ومعه اهله - يأنس من جانب الطور ناراً ، وذلك - بطبيعة الحال - استئناس شخصي لموسى دون اهله ، وإلا فلماذا « اذ رأ ناراً » دون اهله ؟ ولو كانت اهله ترى ما يرى فلماذا « قال لأهله اني آنست ناراً » دون « ألا تستأنسوا ناراً » وقد أكد شخصية الرؤية بـ « إني » ثم « لعلّي آتيكم » دون « تعالوا معي الى النار » مما يؤكد ان رؤية النار وأنسها كانت له دونهم ، فقد يُطمئن انه تفرس من النار نوراً ، فان كانت ناراً فـ « لعلّي آتيكم منها بقبس » - « او جذوة من النار لعلكم تصطلون » وان كانت نوراً « او اجد على النار هدى » دون « نجد » اذا فهي في الأصل هدى شخصية ، مهما كانت على هامشها هدى الطريق لأهله « لعلّي آتيكم منها بخبر » .

وترى أكانت معه زوجته فقط لمكان « اهله » ؟ اهله هنا هم جماعة منهم زوجته لمكان « امكثوا - تصطلون » ! وقد تركهم بعد هذه القالة المرددة ثم لاخبر عنم حتى نهاية الرسالة .

وان قصص موسى هي اكثر القصص المقصودة في الذكر الحكيم ، محلقة على الحياة الولادية والرسالية الموسوية في بنودها الأصيلة ، التي تمت بصلة في الدعوة الرسالية وما تبناها او تبنته من موادها .

وهي تعرض بمختلف المسارح المناسبة في سور عدة كما تناسب جو السورة ، وهنا في « طه » يسبقها مطلع يشف عن رحمة تعالى ورعايته لمن يصطفاهم لحمل أعباء الرسالة ، وبلاغ الدعوة ، طمئنة وذكرى لخاطر الرسول الأقدس (ص) القريح الجريح من أذى المشركين ولظاهم وكما هي

٣٤ الجزء السادس عشر

الحال في ذكريات سائر الرسائل «وكلاً نقص عليك من أنباء الرسول ما
نثبت به فؤادك» (١١: ١٢٠).

وكما هي في سائر مجالاتها وحلقاتها ، اذاً فلا تكرار في جلواتها ، إلا
تكراراً لمجالاتها المناسبة لها ، كل على قدر .

وترى كيف «را ناراً» وهي في الحق كان نوراً تشبه النار؟ انها في
رؤيته البدائية ومن بعد كانت ناراً ! ولأنه لم يتأكد كونها ناراً قال «اني
أنست ناراً» دون «رأيت ناراً» ثم «لعلي» مرددة بين «أتيكم منها بقبس
أو أجد على النار هدى» تؤكد انه لم يتأكد كونها ناراً ، مهما احتملت
«لعلي» عدم التأكد من احد الأمرين اذا كانت ناراً ، وهي قائمة مقام إن
شاء الله !

والنيران خمس : نار لها نور بلا حرقه وهي نار موسى ، ونار محرقه بلا
نور وهي نار جهنم ، ونار تجمعها وهي المعروفة لدينا ، ونار لا حرقه فيها
بالفعل ولا نور وهي نار الشجر الأخضر فمنه توقدون ، ونار كل مادة تظهر
في التفجرات الذرية .

و«حديث موسى اذ را ناراً» هو ما حدث له بالفعل لأول مرة في
بزوغ الوحي الرسالي ، ولماذا «أجد على النار هدى» دون «من النار» لأن
قضية الحال في النار الموقدة في الصحراء أن عندها اهلاً عليها فهم يهدوننا
الطريق ، ام إن على النار نفسها هدى وكما اهتدى بما أوحى له منها .
ثم «قبس» كما هنا ، و«جذوة» كما في القصص هما بمعنى ، وهو
قطعة منها تنجزى «لعلكم تصطلون» وتستوقدون فتعملون بها لأنفسكم ناراً
بها تكتفون^(١) .

(١) الدر المنثور ٤ : ٢٩٠ - اخرج احمد في الزهد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي =

﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى ١١ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ

حاتم عن وهب ابن منبه قال : لما رأى موسى النار انطلق يسيراً حتى وقف منها قريباً فإذا هو بنار عظيمة تغور من ورق شجرة خضراء شديدة الخضرة يقال لها العليق لا تزداد النار فيها يرى الا عظماً وتضمرماً ولا تزداد الشجرة على شدة الحريق الا خضرة وجسناً فوقف ينظر لا يدري ما يصنع الا انه قد ظن انها شجرة تحترق واوقد اليها موقد فناها فاحترقت وانه انما يمنع النار شدة خضرتها وكثرة مائها وكثافة ورقها وعظم جذعها فوضع امرها على هذا فوقف وهو يطعم ان يسقط منها شيء فيقتبسه فلما طال عليه ذلك اهدى اليها بضغث في يده وهو يريد ان يقتبس من لهبها فلما فعل ذلك موسى مالت نحوه كأنها تريد فاستأخر عنها وهاب ثم عاد فطاف بها ولم تزل تطعمه ويطعم بها ثم لم يكن شيء باوشك من خودها فاشتد عند ذلك عجبه وفكر موسى في امرها فقال هي نار ممتعة لا يقتبس منها ولكنها تتضرم في جوف شجرة فلا تحرقها ثم خودها على قدر عظمتها في اوشك من طرفة عين فلما رأى موسى ذلك قال ان لهذه شأناً ثم وضع امرها على انها مأمورة او مصنوعة لا يدري من امرها ولا بما امرت ولا من صنعها ولا لم صنعت فوقف متحيراً لا يدري ايرجع ام يقيم فينا هو على ذلك اذ رمى بطرفه نحو فرعها فإذا هو اشد مما كان خضرة ساطعة في السماء ينظر اليها يغشى الظلام ثم لم تزل الخضرة تنورا تصفر وتبيض حتى صارت نوراً ساطعاً عموداً بين السماء والأرض عليه مثل شعاع الشمس تكل دونه الابصار كلما نظر اليه يكاد يخطف بصره فعند ذلك اشتد خوفه وحزنه فرد يده على عينيه ولصق بالارض وسمع الحنين والوجس الا انه سمع حيثشذ شيئاً لم يسمع السامعون بمثله عظماً فلما بلغ موسى الكرب واشتد عليه الهول نودي من الشجرة فقيل يا موسى فاجاب سريعاً وما يدري من دعاه وما كان سرعة اجابته الا استئناساً بالانس فقال لبيك مراراً اني لاسمع صوتك واحس حسك ولا ارى مكانك فأين انت؟ قال : أنا فوقك ومعك وخلفك واقرب اليك من نفسك فلما سمع هذا موسى علم انه لا ينبغي هذا الا لربه فايقن به فقال : كذلك انت يا الهي فكلامك أسمع ام رسولك ، قال : بل انا الذي اكلمك ، فادن مني فجمع موسى يديه في العصا ثم تحامل حتى استقل قائماً فرعدت فرائصه حتى اختلفت واضطربت رجلاه وانقطع لسانه وانكسر قلبه ولم يبق منه عظم يحمل آخر فهو بمنزلة الميت الا ان روح الحياة تجري فيه ثم زحف على ذلك وهو مرعوب حتى وقف قريباً من الشجرة التي نودي منها فقال له الرب تبارك وتعالى : ما تلك بيمينك . . .

المقدس طوى ١٢

واخيراً اتاها « فلما اتاها نودي يا موسى » أمن النار ام من الشجرة الطالعة منه النار ، تقص لنا القصص انها من الشجرة المنورة المباركة : « فلما اتاها نودي من شاطيء الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة ان يا موسى إني انا الله رب العالمين » (٣٠) وطبعاً من النور المتطلعة عليها « اذرا نارا ... » .

أو كان هناك في الشجرة ام نارها النور تجل من الله ، حتى نودي موسى منها « يا موسى اني انا الله ؟ حتى يهرف هارف ويخرف خارف » اني انا الله « قائلاً :

روا باشهد « انا الحق » اذدرختي جـرانبود روا ازنكبختي ! :

اذا جاز لشجرة ان تقول : اني انا الله ، فلماذا لم يجز من سعيد مثلي : منصور الحلاج - ام با يزيد البسطامي - أن اقول : انا الله ، حيث تجل في الله كما في الشجرة مركز تحقيق كاميور علوم اسلامی

نص الآية « نودي يا موسى - من شاطيء الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة - : اني انا الله » فالشجرة - اذاً - هي - فقط - مذياع النداء من نورها ، وليس يلزمه ان يكون المذيع بذاته فيها ، وكما الملائكة يحملون ندآت الله ولا يحملون ذات الله ، فالنداء - كما الشجرة والنار النور - هي من فعل الله ، ومهما كان لنداء الله سميت وصوت ، فليس لذات الله سبحانه سميت ولا صوت ، وانما خلق منه كسائر خلقه ، من دون لسان ولا شفه ولا أي عضو ، فانما صوت مخلوق في الشجرة ، كما يخلق في الألسنة ، والفارق هو خرق المتعود من الصوت النداء ، وكما ان اصل الوحي خرق لعادة التعليم ، فذلك النداء خارقة في خارقة ، بارقة في بارقة نور النار في الشجرة المباركة الميمونة .

سورة طه / آية ١ - ٣٦ ٣٧

لقد كانت هذه النداء الربانية من نور من هذه الشجرة من جانب
الطور الأيمن « وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصيغ للاكلمين »
(٢٣ : ٢٠) وهي الزيتون « وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجياً »
(١٩ : ٥٢) « وما كنت بجانب الطور اذ ناديناه ولكن رحمة من ربك »
(٢٨ : ٤٦) « والطور . وكتاب مسطور . في رق منشور » (٥٢ : ١) « وطور
سين » (٩٥ : ٢) .

آيات بينات تتجاوب مع بعض في مذياع النداء لموسى انه النور
الساطع من الشجرة الزيتون في البقعة المباركة من شاطيء الواد الأيمن ،
دون ان يكون المذيع ماكناً فيها ، ام متجلياً لها ، اللهم إلا بانوار وحيه
في صوغ كلامه لسوق وحيه الى موساه ، ولذلك يقول هنا « إني أنا ربك »
وهي هنا ربوبية الوحي ، وهناك « انا الله رب العالمين » حيث الوحي
موجه الى العالمين « ربك » وحيّاً اليك و« رب العالمين » فانه بلاغ منك الى
العالمين !

فلقد كان يرجو ناراً فأوق نوراً ف« كن لما لا تر جوارجي منك لما
ترجو فان موسى (عليه السلام) ذهب يقتبس ناراً فانصرف اليهم وهو
رسول نبي فأصلح الله تبارك وتعالى أمر عبده ونبيه موسى في ليلة وكذلك
الله تعالى يفعل بالقائم الثاني عشر من الأئمة يصلح الله امره في ليلة كما
أصلح الله أمر موسى ويخرجه من الحيرة والغيبة الى نور الفرج
والظهور» (١) .

وقد عبر عن مجيء وحيه بجيئته تعالى لأنه اتيان ربوبيته وحيّاً الى رسله
وكما في الأصل العبراني في التورات تبشيراً بمهبط الوحي الثلاثة :

(١) بحار الانوار ١٣ : ٤٤ عن ابي عبد الله (عليه السلام) .

« وَزَيْتُ هَبْرَاخَاهُ أَشْرُ بَرِّخَ مُوشِيهِ إِيشَ هَا إِلُوهِيمَ إِتْ بِنِي إِسْرَائِيلَ لِفِنِي
مُوتُوا وَيَوْمَزْ يَهْوَاهُ مَسِينِي بَاوْ. زَارَحَ مَسْعِيرَ لَأُمُوا هُوَ فِيعَ مِهْرَ فَارَانْ وَآتَاهُ مَرِيئُتْ
قُدْشَ مِي مِينُوا إِشْ دَاتْ لَأُمُوا » . (سفر التثنية ٣٣: ١ - ٢) .

« وهذه بركة باركها موسى رجل الله بني اسرائيل عند موته^١ وقال :
الله من سيناء جاء . تجلي من ساعير ، تطلع من جبل فاران ، وورد مع
آلاف المقدسين ، من يمينه ظهرت الشريعة النارية »^(١) .

وقد جاء مثلها في دعاء السمات « وبمجدك الذي ظهر على طور سيناء
فكلمت به عبدك ورسولك موسى بن عمران ، وبطلعتك في ساعير ،
وظهورك في جبل فاران بربوات المقدسين وجنود الملائكة الصافين وخشوع
الملائكة المسبحين » .

وعلى أية حال فلا تجلي هناك للذات ولن يكون ، وإنما جلوات من
ربوبية الوحي على موسى كما على المسيح ومحمد (عليهما السلام) وسائر
المرسلين مهما اختلفت الدرجات والكيفيات ..

« فلما اتاها » وفي خلده أن يقتبس منها قبساً لعلهم يصطلون
أو يجد على النار هدى ، فإذا فاجتته هذه الجيئة بنداء من
الرب ، وطبعاً هو عرف انها ندائه دون ريب ، فان ذلك هو
طبيعة الحال في الوحي وان لم تسبق له سابقة ، فالذي يوحي الى
عبده ، يوحي له معه انه وحيه ، فانه لزام استقرار الوحي في مستقره ،
دون أية ريبة فيه ، ولا شبهة تعتريه .

(١) راجع كتابنا (رسول الاسلام في الكتب السماوية) ص ٤٤ - ٥٣ تجد تفصيل
البيان حول هذه البشارة الموسوية ومن حقوق النبي (عليه السلام) .

سورة طه / آية ١ - ٣٦ ٣٩

لا فحسب رجالات الوحي يعرفون نداء الوحي ، بل الإلهامات الإلهية
- كذلك - معروفة لدى اهليها قضية تقوى الله ، والتوسم الحاصل منها :
« يا ايها الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً » (٢٩ : ٨) وكلما كانت
التقوى أقوى فالفرقان على ضوئها أقوى ، حتى اذا كانت عاصمة
معصومة ، ففرقانها ايضاً عاصم معصوم ، لا يخالجه شك ولا ريبة .

وقد يروى انه « لما نودي يا موسى قال (عليه السلام) من المتكلم ؟
فقال : انا ربك - فوسوس اليه ابليس اللعين لعلك تسمع كلام شيطان !
فقال (عليه السلام) : انا عرفت انه كلام الله تعالى باني اسمعه من جميع
الجهات بجميع الأعضاء ! » .

ومهما يكن من شيء فلا ريب انه عرف كونه كلام الرب وحيّاً ومن
سائر الجهات ، اذ كان الكلام دون جهة من النور خارق العادات ، سمعه
بكل كيانه سمع الأذن والقلب ، وسمع الفؤاد المتفرد بنور المعرفة القمة ،
فاصبح هو ب كله سمعاً وسمعاً .

وقد تنادي « نودي » مجهولاً ، دون « ناديته » أن لم تكن نور الشجرة
مجلّ للذات الرب سبحانه ، وانما خلق فيها صوت النداء دون جهة خاصة .

وعلى أية حال كان ذلك وحيّاً دون وسيط ملك الوحي ، مهما كان
بوسيط كلام من لسان النور الساطع من الشجرة ، حجابان اثنان ، حيث
الوحي درجات عدة كما يقول الله تعالى :

« وما كان لبشر ان يكلمه الله إلا وحيّاً او من وراء حجاب او يرسل
رسولاً فيوحي باذنه ما يشاء » (٤٢ : ٥١) .

فَقَرْنُ « وحيّاً » به « من وراء حجاب او يرسل رسولاً » قرينة انه يعني وحيّاً
بلا أي حجاب ، اللهم إلا حجاب الذات القدسية الألوهية ، وقد حصل

٤٠ الجزء السادس عشر

ذلك الوحي - فقط - للرسول الأقدس محمد (ص) ليلة المعراج ، ام ليلة القدر حيث انزل عليه القرآن المحكم ، دون اي وسيط ، لا ملك الوحي ، ولا كلام ولا نور ولا نار ولا شجرة أما هيه من وسائل وحجب ، وانما من الرب الى قلبه القدسي الرسالي القمة : « فإوحى الى عبده ما أوحى » وهو في مقام « او أدنى » وهو لما تدلى ، خالعا نعل نفسه وحجاب ذاته بعد سائر الحجب ، فلم يكن حينئذ بينه وبين الله أحد حتى نفسه! (١)

وقد لا يكون سائر الوحي الى سائر رجالات الوحي وحياً أمام ذلك الوحي وكما في الشورى : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ... » (١٣).

كما وان صاحب ذلك الوحي القمة كأنه هو الرسول النبي لا سواء ، بما طواه وحواه ، وهو لامع من آيات عدة مخاطبه كأنه هو الرسول لا سواء .
واما متن النداء الاول لموسى - وما أمتها وأمكنها في قلبه بما طواه وحوى - فهو :

« انا ربك » انا المكلم اياك « انا » لا سواي « ربك » بربوبية رحيمية خاصة « فاخلع نعليك انك بالواد المقدس طوى » .

وفي مفاجأة هذه الجيئة ، بهذه المشاهدة المنيعة ، لقد كان القلب يحف ، والكيان يرتجف ، موسى الفريد في صمت مخيم ، بليل دامس ، وبرد قارص وهو كارت ، واهل بلا حارس ، فاذا بنداء لم تسبق لها نظير « انا ربك .. » !

(١) راجع الفرقان تفسير سورة النجم حول آيات المعراج .

سورة طه / آية ١ - ٣٦ ٤١

فأين هذه الذرة الصغيرة الهزيلة التي تتلاعب بها الرياح ، وواجهة
الجلال الذي لا تدركه الأبصار ، وتحار دون معرفته الأفكار ، وتتضاءل في
ظله الظليل كل حقير وجليل ، أين هي كما هي وتلقي ذلك النداء العال
من الرب المتعال ، لولا اختياره ؟!

وانها لحظة ترتفع فيها البشرية ، فبحسبها ان يلقى في جزء من اجزاءها
ان تتصل هكذا بالملأ الأعلى ، وافضل منه وأعلى ، أن يخاطبها الله بتلك
النداء!.

« يا موسى اني انا ربك فاخلع نعليك انك بالواد المقدس طوى »
فأنت الآن يا موسى بقرب من الحضرة العلوية ، فتجرد عن نعليك ، ولا
تطم الوادي بها وهو مجلى الطلعة المقدسة الربانية !.

أترى « فاخلع نعليك » لـ « اني انا ربك » ؟ وقد كان يعلم موسى أنه
هوربه ولم يكن خالغ نعليه ، وليس الذي حدث الآن معرفة له جديدة
انه هوربه حتى يخلع نعليه لـ « اني انا ربك » ! علوم ربى

ثم وليس على كل موحد لله ان يخلع نعليه على أية حال ، وانما
« فاخلع نعليك » لـ « انك بالواد المقدس طوى » .

و« الواد المقدس » الذي طواه، هو واد الوحي الرسالي ، وهو اقدس واد
في الكون ، فليكن طأويه أقدس من في الكون ، وخلع النعلين هو من
كمال القداسة المناسبة لواد الوحي .

عرفنا الواد المقدس وهو مهبط الوحي فما هي « طوى » التي طوى
ذكرها آيتا طوى ثانيتهما النازعات « إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى » .

قد تكون « طوى » اسماً للواد المقدس ، ام اسم وصف له لأن الوصول
اليه بحاجة الى طي مسافات بعيدة من مسالك المعرفة والعبودية أما هي ،

ولكنه يقتضي قلب التعبير كـ « انك بطوى الواد المقدس » فالواد بَدَلْ
- اذا - عن طوى ام عطف بيان .

ام هي مصدر الطي ، منصرفةً خلاف الأولى ، حالاً عن الواد المقدس
وعن موسى ، فهي بمعنى الفاعل والمفعول مبالغة في الطي ، فاعلاً للواد
المقدس حيث طوى موسى ، ومفعولاً لموسى المطوي به عما سوى الله ، وعما
سوى الوحي ، فليخلع نعليه اللذين طواه عن نور الوحي ، فليكن موسى
طوىً كما الواد المقدس طوى ، طياً عما طواه وحواه من حُجْب ، الى ما
طواه من الوحي وحواه في الواد المقدس ، فلما طوى ما طوى عن اهله
وتجمل عنهم وسواهم ، طواه الله بالوحي بعد انتشار حاله وتفرق باله .

وقد تكون « طوى » مثلث المعنى ، اسماً وصفيّاً للواد المقدس وحالاً
عنه وعن موسى ، ويا له من سمو المعنى .

ثم وما هما النعلان اللذان امر هنالك بخلعهما «فاخلع نعليك انك بالواد
المقدس طوى» ؟ هما نعلان رجله ؟ اذ كانتا من جلد حمار ميت ^(١) ولبس
المينة غير مشكور ، وهو في الصلاة محذور ، وطوى الواد المقدس هي
كالصلاة بل اولى ، لذلك فرعت « فاخلع نعليك » على « انك بالواد المقدس
طوى » وكان الواجب عليه خلعهما دون امر ، مع ما في لبسهما في الصلاة والواد
من غضاضة ^(٢) .

(١) تفسير البرهان ٣ : ٣٣ ابن بابويه في الفقيه سئل الصادق (عليه السلام) عن الآية
قال : كانتا من جلد حمار ميت وفي الدر المنثور ٤ : ٣٩٢ اخرج عبد الرزاق والفريابي
وعبد بن حميد وابن ابي حاكم عن علي (عليه السلام) مثله .

(٢) نور الثقلين ٣ : ٣٧٣ في كتاب كمال الدين وتمام النعمة باسناده الى سعد بن
عبد الله القمي عن الحجة القائم (ع) حديث طويل وفيه قلت فاخبرني يا ابن رسول الله
عن امر الله لنبيه موسى : «فاخلع نعليك انك بالواد المقدس طوى» فان فقهاء الفريقين =

سورة طه / آية ١ - ٣٦ ٤٣

إلا أننا لا نعرف غضاظتها في الشرعة الموسوية وحتى في الصلاة !
ولبس الميتة لا يلزم صحبتها في الصلاة ، بل ولا يصح لبس النعل الطاهرة
فيها لقداسة الموقف ، وقدسية الواد كانت بحاجة الى بيان وقد تبين « أنك
بالواد المقدس طوى » .

قد يعني « نعليك » مصاديق لها عدة ، أولاها في المظهر وأولاهها في
الظهور هما النعلان الملبوستان ، وهذه طبيعة الحال في كل واد مقدس

= يزعمون انها كانت من اهاب الميتة قال صلوات الله عليه من قال ذلك فقد افترى على
موسى واستجهله في نبوته لأنه ما خلا الأمر فيها من خطيئتين : اما ان تكون صلاة موسى
فيها جائزة او غير جائزة فان كانت صلاته جائزة جاز لبسها في تلك البقعة اذا لم تكن
مقدسة وان كانت مقدسة مطهرة فليست باقدس واطهر من الصلاة وان كانت صلاته غير
جائزة فيها فقد اوجب على موسى (عليه السلام) انه لم يعرف الحلال من الحرام وعلم ما
جاز فيه الصلاة وما لم يحز وهذا كفر ، قلت فاجبرني يا مولاي عن التأويل فيها قال
صلوات الله عليه ان موسى ناجى ربه بالواد المقدس فقال يا رب اني قد اخلصت لك
المحبة مني وغسلت قلبي عمن سواك وكان شديد الحب لأهله فقال الله تعالى : اخلع
نعليك أي انزع حب اهلك من قلبك ان كانت محبتك لي خالصة وقلبك من الميل الى من
سواي مغسول .

أقول هذا الحديث معارض بما تقدم ، ثم هو متهافت من جهات عدة ، منها « جاز لبسها في
تلك البقعة اذا لم تكن مقدسة » وهي مقدسة حسب نص الآية ! اثم « فليست باقدس
واطهر من الصلاة » وهي اقدس منها لأنها بقعة الوحي ومعراجها ارفع من معراج
الصلاة ! ثم « فقد اوجب الله على موسى انه لم يعرف الحلال من الحرام » ولماذا ، فحين لا
يعرف انها بقعة مباركة ، على الله ان يعرفه كما عرفه « أنك بالواد المقدس طوى » ولما عرف
خلع نعليه ، ثم « وعلم ما جاز فيه الصلاة وما لم يحز وهذا كفر » ، ماذا يعني ؟ فهل هو
علمه بالنسبة للصلاة وجهله حكمه بالواد المقدس ، وأين الكفر هنا او الفسق والوحي
يعلمه هنا انه الواد المقدس فاخلع ، ثم لا نعلم ان ذلك الخلع كان واجبا في الصلاة كما
هنا ام لا ، اذا فالحديث متضارب في نفسه بعد تعارضه الحديث الأول ، وعمل الحق ما
قلناه في المتن - تأمل .

يسطوي وارده طياً وينسطوي فيه انطواءً ، فكما ان ادب الحضور في الصلاة -وهي معراج المؤمن- يقتضي اصلاح الادب الظاهر على ضوء الباطن ، لبساً لظاهر الثياب ومحللاً ونظيفاً ، كذلك خلع النعلين مهما كانا نظيفين فانهما للمشي في الطرقات دون الغرف المفروشة فضلاً عن الواد المقدس طوى ، الذي هو اقدس من الصلاة وأطوى ، حيث العلوم الربانية فيها مطوية ، فالحفاء هناك اقرب الى التواضع والحفاوة ، ولأنه يلاصق قدمه الوادي فيتبرك به ، كما هو يتبرك ببركة الوحي الرباني ، فكيف يقدم الواد المقدس طوى وهو مطوي تعلقاً بغير الله ، ام في رجليه بنعليه ، اما هي من تسلفات تنافي الحضور المطلق .

وفي هذه الآية لمحة اكيدة ان لبس النعلين حالة الصلاة غير مشكور ، بل هو محذور ، «انك بالواد المقدس طوى» ولأنهما لم تقرنا بوصف الميتة ام سواها من محظورات ، تتلمح ان اصل النعلين غير صالح بالواد المقدس ، واي واد اقدس لنا من وادي الصلاة وهي معراج المؤمن ، وحالة التطامن والذل لا يناسبها الوقوف بمظهر المشي في الطرقات ، وقاية عن القذارات ، اللهم لمن اضطر غير متجانف لائم فلا اثم عليه ، كحالة الحرب والفرار عن المحذور ، والرواية القائلة ان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) صلى في نعله قاحلة مفترية عليه جاهلة^(١) .

ومن ثم الأهل زوجة واولاداً ، حيث يتمشى بهما الأهل في حياته ،

(١) في تفسير الفخر الرازي ٢٢ : ١٨ وقد صلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في نعليه ثم خلعهما في الصلاة فخلع الناس نعالهم فلما سلم قال : ما لكم خلعتن نعالكم ؟ قالوا : خلعت فخلعنا قال : فان جبريل اخبرني ان فيها قذراً ، اقول واقذر منه نسبة هذه الفعلة الهاتكة الى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) تاركاً امر ربه « فاخلع نعليك انك بالواد المقدس طوى » .

« هن لباس لكم وانتم لباس لمن » والنعل من اللباس^(١) والسالك الى الله ، والى وادي المقدس طوى ، عليه ان ينسى اهليه وعبيتهم في هذه السبيل ، قدر ما هم يصدون عن السبيل ، ام عن تكملتها ، أم يخرج حبهم عن قلبه ، مهما يهتم بامرهم قدر الواجب في شرعة الله ، فخالص الحب في الله ، ولا سيما بالنسبة لمن يحمل رسالة الله ، لا يلائمه حب غير الله ، فـ « ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه » وليكن قلب الرسول مليئاً كافة من حب الله والحب في الله .

وكذلك الأمر « خوفيك » خوفه من ضياع اهله وقد خلفهما بمخض ، وخوفه من فرعون^(٢) فـ « الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً الا الله وكفى بالله حسيباً » (٣٩: ٣٣)

فحين يريد الله ان يبلغ موساه الى مدرجة الوحي ، بالواد المقدس طوى ، وهو مطوي قبله بالكثرات ، يتليه بالعسرات ، حيث يسلط عليه البرد وهو مع اهله في الصحراء ، وظلمة الليل ، وتفرق الماشية ، ومخاض المرأة ، وعدم انقذاح الزئدة ، وضلال الطريق حتى اندهش بغاية الدهشة ، واستوحش بالغ الوحشة ، ثم يريه نوره بمظهر النار المؤنسة ، ويبلغه الى الواد المقدس طوى ، طالباً منه « اخلع نعليك انك بالواد المقدس طوى » .

ومن ثم رابعة: الخلع، ان يخلع نعلي الدنيا والآخرة ، ألا يهوى فيها ولا منها إلا رضوان الله ، دون هوات النعيم في الأولى ، ولا لذاته في

(١) ورؤيا النعل والحذاء في المنام تعبر بالزوجة ، ومن يقظته ان ابراهيم لما ذهب الى مكة ليزور اسماعيل فلم يجده في بيته ولم تستقبله زوجته ، قال لزوجته إذا جاء اسماعيل فقولي له بدل حذائك ، فلما سمعها اسماعيل طلقها تعبيراً للحذاء بالأهل .

(٢) تفسير البرهان ٣ : ٣٣ - ابن بابويه باسناد متصل الى الصادق جعفر بن محمد (عليهما السلام) انه قال في قوله عز وجل لموسى : اخلع نعليك يعني ارفع خوفيك

الأخرى ، فان نعيم القرب والرضوان انعم من نعيم الآخرة والأولى .
 وخامسة هي انخلاعه عن نعلي الحجب : حجاب الإنسية الذاتية ،
 والحجب الخارجية ، حتى يستعد للوحي في مقام قاب قوسين دنوا الى الله
 حيث ليس بينه وبين الله احد ، وكما يسئل الامام الصادق (ع) ما تلك
 الغشية التي تعترى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ؟ قال : ذلك هو
 الوحي ، ذلك اذا لم يكن بينه وبين الله أحد .

وسادسة هي انخلاعه عن نعلي الروح والجسم ، حيث الحيوية المتعودة
 تتبناها ، فليتركها وحالها ، متجرداً بقلبه الى الله ، سافراً سافراً الى الله ،
 لا يحسب نفسه شيئاً بجانب الله ، متغافلاً عما لديه عند الله ، متحللاً عما
 سوى الله ، متعلقاً بكل بالله .

هذه اماميه من نعال فيها انشغال عن الله ، عليه ان يخلعها « انك
 بالواد المقدس طوى » ! فالنعل ما يمشى بها الى بغية ، مادية ام معنوية ،
 فاذا موسى واصل الى بغيته القصوى ، الى الواد المقدس طوى ، فليخلع
 نعليه ، واقفاً حافياً بقدميه ، حيث يمشي منذ الآن ويمشي براحلة الوحي
 من الله ، فلا حراك له بعد ولا سكون الا بالوحي ، دون سائر التعلقات
 والوسائل الماشية سوى الوحي ، فانه منذ الآن يختار الله .

﴿ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴾ ١٣ .

وتبصر موسى المختار لربه هو أدنى من الواد المقدس حتى يؤمر بخلع
 نعليه ؟ اجل ! انه كموسى قبل ان يوحى اليه ادنى من الوحي وواديه ،
 وليست قدسية الوادي الا بقدسية الوحي ، فان شرف المكان بالمكين ، فلا
 قداسة ولا نحوسة لمكان او زمان ، الا بما حل في مكان او زمان ، وقد
 حلت بارقة الوحي البازغة لموسى في ذلك الواد ، فقدس بها كما قدس
 موسى ، وأمر أن يخلع نعليه « انك بالواد المقدس طوى » .

وذلك حكم عام لكل واد مقدس ، كالمساجد وحضور الرسول (صلى

الله عليه وآله وسلم) والأئمة^(١) ام قبورهم ، حرمة الله ، وتبجيلاً للمقرئين إلى الله .

هنا موسى خيرة الله - وطبعاً على علم - على العالمين، وإلاً فكيف يُبعث رسولاً إلى العالمين ، كما هو الصيغة الشاملة لكافة المرسلين ، انهم خير العالمين باختيار رب العالمين .

و « اخترتك » هنا هي بصيغة اخرى هي ادل واخرى في « طه » نفسها فلبثت سنين في اهل مدين ثم جئت على قدر يا موسى واصطنعتك لنفسي . اذهب انت واخوك بآياتنا ولا تنيا في ذكرى » (٤٢) و « اني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين » (٧ : ١٤٤) اجل والقبست عليك محبة مني . ولتصنع على عيني » (٢٠ : ٢٩) : تصريحات اربع تبين محنة الرفيع التربوي الرسولي والرسالي !

اجل والرسول كلهم صانع الرب لنفسه ، ليحملهم رسالاته آمين مأمونين ، حتى لا تشوبهم شائبة ، ولا تنال منهم نائلة نائبة ، فتصبح مساعيتهم خائبة .

فيا لموسى تكريماً كريماً ان يختاره الله ويصطنعه لنفسه ، وهكذا تكون رسالة الوحي ، لا تُستحق على الله ، فانها خيرة الرب لا سواء ، وليست سائر الأسباب للمختار برسالة الله ، إلا تقدمة لظرفها الصالح لها ، دون ان تكون المساعي الشخصية ، او الشورات ، لها مدخل قاطع في تلقي الوحي ،

(١) نور الثقلين ٣ : ٣٧٤ في الخرائج والجرائح قال علي بن ابي حمزة كنت مع موسى (عليه السلام) (اي موسى بن جعفر) بمى ثم مضى الى دار بمكة فأتيتنه وقد صلى المغرب فدخلت عليه فقال : اخلع نعليك انك بالواد المقدس طوى فخلعت نعلي وجلست معه .

٤٨ الجزء السادس عشر

فإنما هي خيرة الله : « الله يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس »
(٧٥: ٢٢) .

فهي إذا رعاية الرحيم الرحمان لهذا الانسان «فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟»

والإختيار افتعال من الخير، فقد يختار الانسان نفسه بما يعتمل من
صالحات فيكتمل ، ولكنه لقصوره في ذلك الاختيار لا يصل الى القمة
وهي العصمة علمية وعملية وتطبيقية .

ولكنه حين تمتد اليه يد الرحمة الإلهية الخاصة ، بعدما سعى سعيه وقد
اختار له ربه ظروف السعي العليا منذ أصلاب الآباء وأرحام الامهات ،
والى الولادة والنضوجة العقلية ، آنذاك تشمله الخيرة الإلهية الثانية لإفاضة
العصمة والتسيد الرباني ، فهو يختار الله في ابعاد ثلاثة ، والزاوية الوسطى
بينها هي مساعي العبد باختياره على ضوء ما قدم الله له من قبل ، ونظرة
ما يؤخره له من بعد ، والله الأمر من قبل ومن بعد .

وهاتان آيتان بدائيتان من الوحي القدامي أمام وحي الرسالة ، تهيئان
لموسى ظرف الإستماع لذلك الوحي بسمع القلب وقلب السمع ؛
« فاستمع لما يوحى » وكان سامعاً لما اوحى قبلها ولكن منذ الآن عليه
الإستماع بعد سمع ، تحضيراً لمسامع قلبه ولبه وفؤاده ، بعد سمعه .

فحين يتم الإختيار الرباني لرجل رباني يحين حين استماع الوحي بعد
سماعه ، وبعد تحمل مشاق في سبل التخير ، التي فيها أشلاء ودماء
وحرمانات وكل ما هو آت في هذه السبيل المليئة بالآتعاب والأشغاب .

وفي تفريع الاستماع « فاستمع لما يوحى » على الاختيار « وأنا اخترتك »
دليل ان الاختيار دليل الإستماع ، فلولا الاختيار لم يك استماع لما
يوحى ، فهو اختيار لوحي الرسالة ، بعدما اختير لعبودية كاملة هي ذريعة
للمرسلة .

سورة طه / آية ١ - ٣٦ ٤٩

وموسى هنا بطبيعة الحال يستعد للاستماع بكامله وقد يصح ما قيل فيه انه وقف على حجر واستند الى حجر ، ووضع يمينه على شماله ، والقى ذقنه على صدره واصفى بشرائره ، فأصبح كله أذناً صاغية واعية ، ومن أدب الإستماع حضور المستمع بكل محاضره ومسامعه ، تأهباً لتعلمه وتفهمه ، ثم تطبيقه ونشره ، وذلك هو الاستماع الكامل الحافل لغايته ، وهو استماع الرسالة ورسالة الاستماع ، وإلا فلا سماع ولا استماع .

فموسى الرسول هنا يستمع كرسول ، دون ما استمعه من قبل بما يتبنى شخصه قبل رسالته نبوءة شخصية : « فلما بلغ أشده آيتناه حكماً وعِلماً وكذلك نجزي المحسنين » (٢٨ : ١٤) .

فقد كان اصطناعه مرحلياً كسائر الرسل ، شخصياً كما يجب ثم رسالياً « فاستمع لما يوحى » :

وهنا يختصر الوحي في بدايته الرسالية في بنود ثلاثة مترابطة مع بعض ، التوحيد والعبودية والساعة ، وهي بصيغة اخرى : المبدء والمعاد وما بين المبدء والمعاد ، وهذه هي الاصول الموضوعية الرئيسية للشرعة الإلهية ككل وفي كافة الرسالات .

ولماذا « لما يوحى » بعد « انا اخترتك » دون « ما أوحى » ؟ علّه لأنه بما يوحى لكافة الرسل ككل ، لا فقط لموسى ، بل « لما يوحى » على طول خط الرسالات ، ايناساً له بعامة الوحي وهامته :
﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ ١٤ .

كلمات ثلاث هي العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى ، ومن ثم الى إحدى عشر آية، عرض لواجب الرسالة تدريجياً لآياتها « وما تلك بيمينك ..

٥٠ الجزء السادس عشر

لنريك من آياتنا الكبرى « ثم ذهاباً الى فرعون وهو رأس الزاوية في متاهة الضلالة ، ومن ثم اثني عشرة آية أخرى يتطلب فيها موسى من ربه شرح صدره ، وتيسير أمره ، وحل العقدة من لسانه ، وشد أزره بوزير من اهله تكملة لأمره .

فقد فصلت الأصول الثلاثة هنالك بعدما اجملت ، خلال ثلاث وعشرين آية ، عرضاً موجزاً عن كل الرسالة الموسوية وكافة الرسائل فانها سلسلة موصولة في خيوطها وخطوطها على مدار الزمن الرسالي اذ « لا نفرق بين احد من رسله » .

« انني » لا سواي « انا الله » لا سواي « لا اله الا انا » لا سواي ، توحيداً في كافة جنبات الالهية والربوبية .

وهذه هي قضية الحضور في الوحي ، تعريف المسمى الحاضر باسمه في توحيده ، تعريفاً للذات بوصف الاسم ، لا تعريف الاسم بوصف الذات ، فالنص « انني انا الله » لا « ان الله انا » .

فالله ذاته هو حاضر بذاته ، يعرف نفسه باسمه الذي يخطأه الجاهلون الى سواه : « انني انا » المسمى بـ « الله » لا سواي ، فـ « هل تعلم له سمياً » (١٩ : ٦٥) ؟

وهنا بعد اثبات انه هو الله دون سواه ، اذا فـ « لا اله الا انا » لان الكل غير الله ، فكيف يشرك غير الله بالله ، والالهية الاصلية خاصة بالله كما يعترف بها المشركون ، ولكنهم يشركون به من لا يسمونهم باسم الله ، وانما آلهة دون الله ، متهمين الله انه اشركهم بنفسه ، ام هم يشركونهم به اذ لا يصلون اليه نفسه ، فليصلوا بآلهة اخرى هم من خاصة عبادة « لا نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى » (٣٩ : ٣) .

وهنا « فاعبدني » يفرع عبوديته الوحيدة على الوهيته الوحيدة ، فاصل

سورة طه / آية ١ - ٣٦ ٥١

عبوديته لـ « انني انا الله » وانحصارها فيه حيث « لا اله الا انا » والعبودية وهي خالص الخضوع والخشوع للمعبود لا تحق إلا لخالق الوجود ومدبر كل موجود ، وهو هو الله الخالق المدبر « الاله الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين » (٧ : ٥٤) .

فالالوهية الوحيدة هي قوام العقيدة وقضية العمل وفقها ، والعبادة تشملها توجهاً الى الله الواحد في كل نشاطات الحياة وواجهاتها ، فليكن العبد بشرائه ظاهرة وباطنة عبداً لله وتعبداً في الله ، وليست العبودية الا بعد المعرفة حيث تتبناها في البداية ثم زائد المعرفة تتبنى العبودية كما تتبنى سائر وسائلها .

ولان الصلاة هي قمة العبودية وعمود الدين العبادة ، لذلك تختص بالوصية بعد مطلق العبودية : « واقم الصلاة للذكرى » فيا لهذا الوحي الحبيب من طلاوة ، وفي تلاوته من حلاوة ، حيث يؤثر فيمن يحمل غضاضة بكل هزازة وهو الخليفة عمر حيث يأخذ سيفه ليقتل محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) لأنه صباً وأصبأ معه جماعة آخرين ، فلما يقرأ طه الى هنا يومن !^(١) اجل « لتنذر به قوماً لداً » .

(١) الدر المنثور ٤ : ٢٩٢ - اخرج ابن سعد وابو يعلى والحاكم والبيهقي في الدلائل عن انس قال : خرج عمر متقلداً بالسيف فلقه رجل من بني زهرة فقال له ابن تغدو يا عمر قال : اريد ان اقتل محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : وكيف تامن بني هاشم وبني زهرة فقال له عمر ما اراك الا قد صبوت وترك دينك قال افلا ادلك على العجب ان اختك واختك قد صبا وترك دينك فمشى عمر حتى اتاهما وعندهما خباب فلما سمع خباب بحس عمر توارى في البيت فدخل عليهما فقال ما هذه الهيمنة التي سمعتها عندكم وكانوا يقرؤن طه فقالا ما عدا حديثنا تحدثنا به قال فلعلكما قد صبوتما فقال له ختنه يا عمران كان الحق في غير دينك فوثب عمر على ختنه فوطئه وطأ شديداً فجاءت اخته لتدفعه عن زوجها فتفحها نفحة بيده فدمى وجهها فقال عمر اعطوني =

ولان « اقم الصلاة لذكري » تحمل قمة البيان للصلاة والدافع لها وغايتها ، لانها بداية الوحي على موسى ، وهي موجّهة كذلك وباحرى الى محمد الطّه ، فلتكن حاوية كل ما للصلاة من صلّات بالعبد وبالله وبنفسها شروطاً واجزاء ومقارنات ومقدمات ، بهذه الصيغة الاجمالية الجميلة ، وهي كذلك حين نتأملها كيف نتعملها .

فـ « اقم » تحمل كافة القيامات الظاهرية والباطنية ، فردية وجماعية للصلاة ، فانها قد تؤتي غير مقامه بما يتوجب فيها ، وهذا قيام اليها دون اقامة لها « واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى يراؤن الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً » (٤ : ١٤٢) « ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى » (٩ : ٥٤) « لا تقربوا الصلاة وانتم ساكارى حتى تعلموا ما تقولون » (٤ : ٤٣) وهذه واشباهها هي من اضاعة الصلاة ولم تؤمر في كل القرآن إلا بإقام الصلاة .

والصلاة تعمها قالاً وحالاً وافعالاً ، فلتكن مُقامة في مثلثها على أية حال .

= الكتاب الذي هو عندكم فأقرؤهُ فقالت اخته انك رجس نجس وانه لا يمسه الا المطهرون فقم فتوضاً فقام فتوضاً ثم اخذ الكتاب فقرأ طه حتى انتهى الى « اني انا الله لا اله الا انا فاعبدني واقم الصلاة لذكري » فقال عمر : دلوني على محمد فلما سمع خباب قول عمر خرج من البيت فقال : ابشر يا عمر فاني ارجو ان تكون دعوة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ... فخرج حتى اتى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)

وفيه اخرج ابو نعيم في الحلية عن علي بن ابي طالب (عليه السلام) قال حدثنا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عن جبريل (عليه السلام) قال قال الله عز وجل : اني انا الله لا اله الا انا فاعبدني من جاءني منكم بشهادة ان لا اله الا الله بالاخلاص دخل في حصني ومن دخل في حصني أمن من عذابي .

سورة طه / آية ١ - ٣٦ ٥٣

ومن ثم « لذكري » تحمل احتمالات عدة تلائم ادب اللفظ وحذب المعنى :

فالذكر هنا بين دافع وغاية ، والاضافة في كل بين ما هي الى فاعل او مفعول ، واللام في « لذكري » بين توقيت وتعليل ، والظرف بين تعلقه بـ « فاعبدي » و « اقم » و « الصلاة » .

ثم الذكر بين قال وحال وافعال ، تواصلًا في ذلك المثلث البارع ، من ذكر اللسان وذكر الافعال وذكر الاحوال ، فطرية وعقلية ، وفكرية وصدرية وقلبية ، ولبية ، وفؤادية ، حتى يصبح المصلي كله ذكراً لله كما كله عبد وعبادة لله .

فدافع الذكر للصلاة هو باضافة المصدر الى فاعله : لذكري اياك ، فكما اني اذكركم في عطيات دائبة فاقيموا الصلاة ذكراً لي كما اذكركم ، ذكراً بذكر واين ذكر من ذكر .

ودافع ثان ان ذكري مفطور في فطركم وعقولكم فاقيموا الصلاة بدافع ذكري الفطري ، حيث فطرتكم بتوحيدي ، حتى وان لم آمركم بها ، حيث الاحكام الفطرية ليست بحاجة الى أوامر منفصلة ، اللهم الا ان تكون لها ذكري ، وكذلك سائر ذكري في الأفاق وفي انفسكم ، من وحي العقل ووحى الرسالات ووحى الكائنات ان لا اله الا انا فاعبدي حيث الكائنات برمتها هي ذكر لله بما قرره الله ! .

ثم وغاية الذكر بالصلاة هي باضافة المصدر الى مفعوله ، اقم الصلاة لذكرك اياي ، لتذكرني بها فانها خير ذكر قالاً وحالاً وافعالاً ، والى فاعله لغاية ذكري اياك في اولاك واخراك ، وهذه كلها في وجه التعليل المستفاد من اللام ، دافعية ام غائية .

ومن ثم « لذكري » توقيتاً ، « اقم الصلاة » حين تذكرني ، لا حين

٥٤ الجزء السادس عشر

الغفوة والغفلة كمن يأتون الصلاة كسالى أم سكارى ، ثم لوقت ذكرى الذي فررت له « ان الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً » (٤ : ١٠٣) ومن ثم توقيتاً هامشياً لمن نسي صلاته في وقتها فـ « اقم الصلاة لذكرى » حين تذكرها كما « اقم الصلاة لدلوك الشمس » (١٧ : ٧٨) .

وانما كررت - فقط - هذه الاخيرة فيما يروى عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وأئمة أهل بيته الطاهرين (عليهم السلام) ، لأنها اخفى مصاديقها بين المحتملات بما هي هامشية غير اصيلة .

فقد « سئل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عن رجل غفل عن الصلاة حتى طلعت الشمس او غربت ما كفارتها ؟ قال : يتقرب الى الله ويحسن وضوءه ويصلي فيحسن الصلاة ويستغفر الله فلا كفارة لها الا ذلك ان الله يقول : « اقم الصلاة لذكرى » (١) .

ومن هنا يتبين ان القائمة مقدمة على الحاضرة ، إلا اذا خيف على فوت الحاضرة كما استفاضت به الرواية عن الأئمة الطاهرة (٢) .

وهناك ذكر القال في قيلات الصلاة ، بحال ومنها النية الصادقة

(١) الدر المنثور ٤ : ٢٩٤ - اخرج الطبراني وابن مردويه عن عباد بن الصامت قال : سئل ... اقول : وقد اخرج قضاء الصلاة هكذا سناداً الى الآية بعدة طرق عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) .

(٢) نور الثقلين ٣ : ٣٧٥ بسند صحيح عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) قال : اذا فاتتك صلاة فذكرتها في وقت اخرى فان كنت تعلم انك اذا صليت التي فاتتك كنت في الاخرى في وقت فابدأ بالتي فاتتك فان الله عز وجل يقول : اقم الصلاة لذكرى - وان كنت تعلم انك اذا صليت التي فاتتك فاتتك التي بعدها فابدأ بالتي انت في وقتها فصلها ثم اقم الاخرى .

سورة طه / آية ١ - ٣٦ ٥٥
الصافية ، وبإفعال هي كل أفعال الصلاة ، وهذه المحتملات بضرب بعضها في بعض تصبح (٢٤٠) احتمالا وان كان بعضها مكروراً وآخر بين منكور ومشكور ، والقرآن حال ذو وجوه فاحملوه الى احسن الوجوه ، ولان الصلاة هي خير موضوع لذلك « لا تترك الصلاة بحال » .

وهكذا نرى ان للصلاة صلات عريقة دافعية وغائية وزمنية ، كلها تحور على محور ذكر الله « الا بذكر الله تطمئن القلوب » وكيف لا ؟ وانها اكمل صورة من صور العبادة وسيرها ، وافضل وسيلة من وسائل الذكر حيث تتمخض هذه الغاية ، وتحصل بذلك الدافع ، وتتجرد من كل الملابس الأخرى ، فتجتمع الانسان للاتصال بالله ، حيث تعلقه بالله بما دنى بها العبد أو تدلى ، فكان قباب قوسين أو ادنى ، ولذلك يروى عن صاحب المعراج قوله « الصلاة معراج المؤمن » !

ثم وفي تقسيم خاصر يحوي كل هذه التقاسيم « لذكرى » انه بين قلبي وقالبي ، وقلب الذكر هو ذكر القلب ، وليس القلب الا حاكياً عن القلب فمزيداً لذكر القلب ، والجمع فيهما هو جمع الذكر ، ان يصبح الانسان كله ذكراً لله ، ايصالاً للصلاة القلبية الى الصلاة القلبية ، ومن ثم الى كافة المراحل الروحية .

فحين تخلق الصلاة الذكر والذكر الصلاة على الانسان ككل ، يصبح كله صلات بالله بصلاة لله ، وأنداك « ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون » (٢٩ : ٤٥) .

ومن افحش الفحشاء الرثاء ، فصلاة المراثي ليست « لذكرى » بل لذكر الناس في اسفل درك من الرثاء ، ولجمع الذكرين في سائر دركاتها ، وان ذكر الفطرة وذكر العقل وذكر الوحي لله ، وكذلك ذكر الله وكل ذكر دافعاً وغاية ، انها تنافي الرثا وتنافيا الرثاء !

﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ﴾ ١٥ .

وفي هذه الزاوية الثالثة من أركان الشريعة الإلهية تكتمل اصول الدعوة مبدء ومعاداً وما بين المبدء والمعاد ، وهذا هو الوحي بأحكام العبودية وفي قمته الصلاة ، فتمت بذلك اصول الدين بفروع في صيغة مختصرة مختصرة ، هي لكل شريعة آلهية ، مهما اختلفت الشرائع في طقوس عبادية حسب المظهر والصورة .

ولانه ليس ليلتزم عبودية الله - فقط - لانه الله لا اله الا هو - إلا من شغفه حباً وهي عبادة الأحرار، وهم قلة قليلة بين عباد الله ، ثم الثلثة الباقية هم بين عبيد وتجار ، لذلك يثنى دافع المبدء بالتوحيد المعرفة الخالصة ، بدافع المعاد ، فيبين المبدء والمعاد يكثر العباد رغبة في الثواب وخوفاً من العقاب .

وعرض المعاد في ذلك المثلث البارح ، عرض عريض في المعنى الاجمالي عن المعاد واقعاً وغاية قصوى ، وهنالك تتم الشريعة الإلهية اصولاً وفروعاً في مطلع الوحي الموسوي كما هو في كافة المطالع الرسالية السامية ، وقد جمعت لسيد المرسلين وامام النبيين اتمها واعمها واهمها كما يناسب الخلود .

نجد «الساعة» المعنية بها القيامة في احدى واربعين آية بين (٤٨) مرة «الساعة» في سائر القرآن، وهي ثانية الاسماء كثرة وشهرة بعد القيامة السبعين ، مما يدل على مدى اهميتها تعبيراً عن ذلك اليوم العظيم .

واصل الساعة من ساع الشيء اذا زال وضاع ، فهي اذا وقت ضياع الكائنات عن بكرتها في قيامة التدمير ، واطلاق الساعة على جزء من الزمان انما هو لتصرفه وضياعه دونما رجعة ، وكذلك امر الساعة اذ لا رجعة فيها الى الاولى ، وانما هي الاخرى « لتجزي كل نفس بما تسعى » .

وقد تعني « الساعة » الساعات الثلاث كلها « ساعة الرجعة والموت والقيامة » لتجزى كل نفس بما تسعى « حيث المجهولية في كل منها تدفع الى السعي خوفاً منها ، مهما كانت الاخيرة هي الاصلية بينها ، والأوليان تتبنيانها .

ثم « اكاد اخفيها » في مواصفة الساعة ، قد تعني سلب الخفاء وإيجابها معاً ، فلوعنت السلب فقط ، فقضية الفصاحة : اكاد اظهرها ، حيث السلب في مادة الإفعال بحاجة الى قرينة تسلبها عن إيجابها كما في « وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين » اي مسلوبو الطاقة في الصيام ، ثم وعناية الايجاب هي قضية ظاهر الايجاب .

والجمع هنا بين سلب الخفاء وإيجابها جمع بين ما يعني من الساعة ، ف « اكاد اخفيها » سلباً لخفاءها للمدى الحتمية القاطعة لوقوعها ، لحد اكاد اظهرها قبل اوانها ، ام اعلن بوقتها قبل مرساها ، ولكن « يسألونك عن الساعة ايان مرساها قل انما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها الا هو ثقلت في السماوات والارض لا تأتيكم الا بغتة يسألونك كأنك حفي عنها قل انما علمها عند الله ولكن اكثر الناس لا يعلمون » (٧ : ١٨٧) .

فذلك السلب مستحيل ، و « اكاد » فيه مبالغة لتحقيق وقوعها لحد اكاد اسلب الآن خفاءها ، ومن ثم سلب الخفاء عن واقعها وهو إقامتها في وقتها ، وذلك ممكن ، واكاد فيه تقريب لوقوعها : « ويقولون متى هو قل عسى ان يكون قريباً » (١٧ : ٥١) .

وايجاباً : ان الساعة خفية حسب الحكمة العالية والمصلحة الملزمة ،

لحد « اكاد اخفيها » على نفسي^(١) كما اخفيها على غيري ، فـ « اكاد » هنا مبالغة لطيفة تعني غاية الخفاء لها ، لحد لو امكن لكنت اخفيها على نفسي !

و « اكاد » هنا لا تكاد تعني قرب الزمن لإخفاءها سلباً او ايجاباً ، وانما هي تأكيد لامعة لتأكد واقعها في وقتها ، واستحالة اظهارها قبل وقتها حيث « ثقلت في السماوات والأرض لا يحليها لوقتها الا هو » ! وما الطفها واعمقها تعبيراً عن مدى خفاء الساعة ، ولماذا ؟

« لتجزى كل نفس بما تسعى » : « ان الساعة لأتية .. لتجزى .. » و « اكاد اخفيها لتجزى » فأصل الجزاء هو غاية الساعة في اتيانها ، وخفاءها غاية « بما تسعى » ، ام « لتجزى كل نفس بما تسعى » غاية لها .

فان الساعة هي الموعد المرتقب للجزاء العدل والفضل ، فتتجه اليها النفوس المؤمنة فتحسب حسابها ، سائرة في الطريق مراقبة تخشى الإنزلاق بجيئتها المفاجئة الفجيعة .

فاذا كانت المجازاة هي المقصودة من اتيان الساعة ، فلتكن قاطعة الإتيان لحد « أكاد اخفيها » إزالة لخفاءها ، ولتكن خفية في وقتها ليكون الخلق في كل حين على حذر من مجيئها ووجل من بغتها ، فيستعدوا لها قبل

(١) نور الثقلين، ٣ : ٣٧٥ في مجمع البيان وروى عن ابن عباس « اكاد اخفيها من نفسي » وهي كذلك في قراءة ابي وروي ذلك عن الصادق (عليه السلام) اقول هذه القراءة مطروحة او مؤولة الى انها كتفسير لاختفيها وفي الدر المنثور اخرج تفسير « من نفسي » عن ابن عباس ومجاهد وقتادة وابي صالح وعن ابن مسعود : اكاد اخفيها من نفسي بقول : اكتمها من الخلائق حتى لو استطعت ان اكتمها من نفسي لفعلت ، وعن ابي : اكاد اخفيها من نفسي فكيف اطلعكم عليها .

حلولها ، ويمهدوا انفسهم قبل نزولها « لتجزى كل نفس بما تسعى » .

والمجهول زمناً ، القاطع اثياناً ، هو عنصر اساسي في حياة الانسان ام اي مكلف كان ، لتكوينهم النفسي ، متطلعين اليه ، متبينين حياتهم عليه ، فلو كانت الساعة لهم مكشوفة لوقفت نشاطاتهم ، وامنت حياتهم ، ولكنهم وراء المجهول المأمول يُجرون ، فيعملون لما يأملون ، ويجربون ويتعلمون ، ويكشفون المخبوء من طاقاتهم وسائر الطاقات ، فيرون آيات الله في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق او لم يكف بربك انه على كل شيء شهيد .

تلك الساعة المجهولة الأمد تبشرهم بشواها إن عملوا الصالحات ، وتحذّرهم عن عقابها ان عملوا الطالحات ، فهم بذلك مندفعون الى كل خير ، دافعون عن انفسهم كل شر ، حتى اذا اتتهم ساعة الجزاء فتبغثهم رابحين ، ساعة الموت او الرجعة ام القيامة الكبرى « لتجزى كل نفس بما تسعى » - « وان ليس للإنسان إلا ما سعى » . وان سعيه سوف يرى . ثم يجزاه الجزاء الاوفى « (٥٣ : ٤٠) .

وهنا نعرف ان السعي - فقط - هو عامل الجزاء ليس إلا ، فلا فوضى هنالك في الجزاء ، ولا تزر وازرة وزر اخرى ، ثم ولا جزاء بنية دون عمل فانها ليست مما « تسعى » اللهم الا نية الصالحات لمن لم يسطع ان يعملها ، فلصاحبها الجزاء الحسن فضلاً من العلي الاعلى ، وذلك بدلالات اخرى غير « ما تسعى » وكما ان آيات حصر الجزاء بالاعمال « هل تجزون الا بما كنتم تعملون » تخص العقوبات - فيما تخص - بالاعمال الطالحة دون النيات فقط .

ثم « بما تسعى » دون « بما تعمل » قد تلمح بكدح في العمل ، فالصالحات المتفلة دون سعي ، والطالحات مثلها كما اللمم ، قد لا يجزى

بها ام يقل ، ففي الاولى القلة حاصلة ، وفي الطالحات العفو على شروطه
المسرودة في الذكر الحكيم .

﴿ فَلَا يَصُدُّنَكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ﴾^{١٦} .

« فلا يصدنك عنها » تأكيد صارم صدأ عن الصد عنها ، تفريعاً على
« ان الساعة آتية اكاد اخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى » صدأ عقيدياً عن
إتيانها ، او خفاءها ، ام جزاء كل نفس فيها بما تسعى ، ام صدأ عملياً
رغم التصديق بها ، والصاد عنها هو « من لا يؤمن بها واتبع هواه » في
نكرانها والدعاية ضدها ، فلو صُدِّدت عنها « فتردى » في جحيم الضلالة
والمناهة ، بما تتردى في همجية الاعمال بسفاسف الاخلاق .

وهناك ردئ في نكران المبدء والمعاد هي أردى ، وهنا أخرى بنكران
المعاد عقيدياً ، وثالثة عملياً ، « فلا يصدنك » تشمل ذلك الثالث كله ،
حيث الصد عن المعاد بعد الصد عن المبدء أردى فتشمله « فتردى » باولى
واخرى .

وقد تعني « عنها » و « بها » - فيما عنتا - كلمة التوحيد المستفادة من « لا
اله الا انا » والعبادة المعنية من « فاعبدني » والصلاة المذكورة بنفسها وفي
خلاها الرسالة المبيّنة لها كما تعني الساعة اخيراً ، وقد تقتضيها طبيعة الحال
في بنود الرسالة المسرودة هنا ، فان اثباتها يقتضي تأكيد السلب عن الصد
عنها ، وهنالك تردّيات عدة في الإنصداد عن كل منها ، فهنا في المرجع
لضميري « عنها وبها » احتمالات يحتملها اللفظ والمعنى^(١) .

« فتردى » في هوات الإشرار بالله عند الصد عن كلمة التوحيد ،

(١) رجوعاً للأول تارة الى المجموعة المستفادة مما سبق ، واخرى الى كل واحدة منها ،
توحيداً ونبوة وعبادة وصلاة وساعة ، وهكذا الامر في الثاني ، والمحتملات ٢٨ .

سورة طه / آية ١ - ٣٦ ٦١

فتهلك في هذه الردى .

« فتردى » في الشهوات واللّهوات في صدك عن عبادته وعن الصلاة
لذكره تعالى .

« فتردى » عن التزامات العبودية والصلاة ولزاماتها عند الصد عن
الساعة ، فهناك - اذاً - ثالوث من التردّيات والتهلكات في الانصداد عن
مثلث المعتقدات .

وقد تعني كل من « عنها وبها » فيما عنتا ، كلاً من هذه الثلاثة ، حيث
اللايمان في كل منها يصد عن الاخرى كما يصد عن نفسها ، فنكران
التوحيد صد عن العبودية والساعة ، ونكران العبودية والصلاة صد عن
المبدء والمعاد ، ونكران الساعة كذلك صد عنها .

ومن هنا نعرف ان الواجب في اصول الدين وفروعه ليس هو الاعتقاد
بها والعمل لها فحسب ، بل والتصلب والصمود فيها لحد لا تنفصم عراها .

وهنا في واجب العلم بالاصول وفروعها مراحل : القناعة الشخصية
دون تزعزع ولا تلکوء ، ثم الحفاظ عليها في المخالطات الضرورية مع
الناس ، ومن ثم في السّبح الطويل في خضم المجتمع ، ثم الدعوة اليها
والدعاية الصالحة لها .

فالمرحلتان الاوليان مفروضتان ، اذ لا بد للانسان من مخالطة حيوية
مع المجتمع ، كضرورة للحياة ، والثالثة لا تصح إلا لمن صحح يقينه لحد
لا ينفصم بمن يصد عنه ، وإلا فذلك تورط وترد في ورطات وهوات .

والرابعة هي للدعات الى الله على شروطاتها ، اخذاً من الامر
بالمعروف والنهي عن المنكر ، والى القيادة الربانية الشاملة غير المعصومة ،
والى قيادة العصمة في ائمة الهدى ، الى قيادة الرسالة ، وكل درجات

« ولكل درجات مما عملوا وما ربك بظلام للعبيد » .

والبلاء العام في « من لا يؤمن بها » هو « واتبع هواه » اذ لا برهان على الصد عنها فطرياً ولا عقلياً ولا اياً كان ، اللهم إلا اتباع الهوى ، ولا يتبع هوى أصحاب الهوى إلا من هو من اصحابها ، تغافلاً عن فطرته وتجاهلاً عن عقليته ، وتعامياً عن آيات الرسالات الإلهية .

فـ « انما اخاف عليكم اثنين اتباع الهوى وطول الامل اما اتباع الهوى فيصد عن الحق واما طول الامل فينسي الآخرة »^(١) و « انما بدء وقوع الفتن اهواء تتبع واحكام تبتدع يخالف فيها كتاب الله ويتولى عليها رجال رجالاً فلو ان الحق خلص لم يكن للباطل حجة ولو أن الباطل خلص لم يكن اختلاف ولكن يؤخذ من هذا ضغث ومن هذا ضغث فيمسر جان فيجيان معاً فهناك استحوذ الشيطان على اولياءه ونجى الذين سبقت لهم من الله الحسنى »^(٢) .

وترى موسى المختار من ربه لوجيه ما كان موحداً يعبد ربه ويصلي لذكره ويعلم آتية الساعة ، حتى يخاطب في بازغ وحيه جملة عن تفصيل ما اوتي في الالواح ، بهذه الاصول المعرفية والعملية .

اجل ولذلك اختاره الله ، ولكنه كرسول يحمل - بما يوحى - رسالة الله الى العالمين ، اضافة الى تكملته نفسه باكمل مما كان كما هو قضية الحال في كل رسول على آية حال ، وقد امر محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) « واعبد ربك

(١) نور الثقلين ٣: ٣ عن اصول الكافي بسند عن يحيى بن عقیل قال قال امير المؤمنين (عليه السلام) : ...

(٢) اصول الكافي بسند متصل عن امير المؤمنين (عليه السلام) ومثله في النهج باختلاف يسير في بعض الفاظه .

سورة طه / آية ١ - ٣٦ ٦٣
حتى يأتيك اليقين » وما الى ذلك من اوامر ، تصطنع شخصه اكثر مما
كان ، ورسالته الى العالمين .

هنالك تمت المرحلة الأولى لنداء موسى ، حاوية جملة الرسالة ، وبينما
هو في شغف الاستماع وشغفه بكل كيانه حيث اصبح كأنه كله سمع
واستماع ، اذاً بمرحلة ثانية في مسائلته حبيبة :

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى ﴾ ١٧ .

« و » هنا عطفاً على نبوءة الوحي قد تلمح ان في سؤاله بجوابه وحي
آخر نبوءة أخرى كما مضت ، أم رسالة أما هي من خارقة إلهية .

ثم « ما » سؤال عن الماهية دون فاعليتها ، و « تلك » اشارة الى عصاه
تأشيراً انه تعالى يعرفها كما هي ولكنه يعني بسؤاله موسى ان يعرفها كما هي ،
يعرفها لبيان البون بينهما ، الذي لا يعرفه موسى .

و « بيمينك » دون « يدك » عليه لبيان الموضع ، فعلى بيساره شيئاً آخر
كالخاتم وسواه .

فلم يكن السؤال استفهاماً ، بل هو اختبار لمدى معرفة موسى بعصاه
حتى يزيد أخرى لا يعرفها ، وما اختبار موسى لما يوحى بالذي يدل على
انه يعرف الامور كلها ، بل هو كما كان هو الآن بحاجة في معرفة عصاه
الى تعريف من ربه ، فضلاً عما سواها من معرفيات .

ونرى موسى بدلاً عن ان يجيب عن ماهية عصاه ، يكتفي بذكر اسمها
ثم مآربها عنده ، وقد كان يكفي « هي عصاي » عسى ان يزيده ربه تعريفاً
بعصاه ، ولكنه لشغفه البالغ لتلك المحاورة الحبيبة مع ربه ، حين ما يسأله
عن أبسط شيء متعظفاً عليه ، لذلك يطول في الجواب بأقصى ما يعرفه عن
عصاه ، عساه ان يزيده ربه علماً بعصاه .

وقد عني من هذا السؤال ان يستحضر موسى معرفته بعصاه ، وانها كعصاه منسوبة اليه ليست إلا كما عرفها ، فلما تصبح حية تسعى او ثعباناً مبيناً بما ألقى ، يعرف ان ذلك من ربه وليس منه ، فقد كانت معه ردحاً كثيراً من الزمن فلم تكسب من معيته ما كسبت من مفارقتها باللقاء موسى ، ثم ليؤكد انها خشبة كسائر الاخشاب حتى اذا قُلبت حية تسعى فلا يخشاها ، بل يعرف انها قلبة آلهية عصاً رسالية لموسى بعدما كانت عصى بشرية ، واين عصى من عصا ؟ .

وترى ان موسى بذلك الخطاب دون حجاب يفضل على نبينا ؟ كلا حيث خطب نبينا (صلى الله عليه وآله وسلم) دون اي حجاب ، ولموسى حجاب النور والشجرة ، ثم موسى لم يصل في وحيه الى مقام « او ادنى » ومحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وصلها ، وقد اعلن الوحي الخاص الى موسى في اذاعة توراتية وقرآنية ، ووحى محمد الخاص به لم يعلن بعد : « فاوحى الى عبده ما اوحى » !

﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَاهْتَمِسُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴾^{١٨} .

« قال » موسى « هي » التي بيميني « عصاي » وفي الخبر انها « قضيب من آس من غرس الجنة »^(١) .

« كانت لآدم (عليه السلام) فصارت الى شعيب ثم صارت الى

(١) تفسير البرهان ٣ : ٣٤ عن الكافي بسند عن عبد الله بن سنان قال : سمعت ابا عبد الله يقول : كان عصا موسى قضيب آس من غرس الجنة اتاه بها جبرائيل لما توجه تلقاء مدين وهي وتابوت آدم في بحيرة طبرية ولن يلبيا ولن يتغيرا حتى يخرجهما القائم (عليه السلام) اذا قام .

سورة طه / آية ١ - ٣٦ ٦٥

موسى وانها عندنا»^(١) اي اهل البيت (عليهم السلام)، ولا تصدقها
«هي عصاي . . .» او تكذبها ، ولئن كانت فيها من قبل خوارق عادات
لذكرها في عداد العاديات من فوائدها ، اللهم إلا ان تكون معنية فيما يعنى
عن «مأرب اخرى» .

ولو ان «مأرب اخرى» تعني ما قد يروى من خوارق العادات ، فكان
موسى - اذاً - تعودها منها ، فلماذا يخافها اذا هي حية تسعى؟! «قال
خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الاولى»!

ومن المحتمل ان الخوارق من هذه العصا بدأت منذ ألقى ، والى
ضربها الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً ، والبحر فحصل بها فيه اثني عشر
طريقاً يساً ، ثم الى القائم منا (عليه السلام) وعساه يعمل بعصاه هذه اكثر
من موسى وكما قد يروى .

وموسى هنا بعد تسمية العصا ذكر لها مأربين من مأربه ، قاصداً
تطويل الجواب آنساً طائلاً في نداء ربه ، اذا بالكلام متفلتاً عنه استحياء
منه ام لعدم مساعدة الحال واضطراب البال فأجمل سائر مأربه الى قوله

(١) المصدر عن الكافي بسند عن محمد بن الفيض عن ابي جعفر (عليه السلام) قال:
كانت عصا موسى لآدم فصارت إلى شعيب ثم صارت إلى موسى بن عمران وانها لعندنا
وان عهدي بها آنفاً وهي خضراء كهيئته حين انتزعت من شجرتها وانها لتنطق حين
استنطقت ، اعدت لقائنا يصنع بها ما كان يصنع بها موسى (عليه السلام) وانها
لتروع وتلقف ما يافكون ، وتصنع ما تؤمر به انها حيث اقبلت تلقف ما يافكون يفتح
لها شعبتان احدهما في الأرض والاخرى في السقف وبينهما اربعون ذراعاً تلقف ما
يافكون بلسانها .

وفيه عنه (عليه السلام) قال : خرج امير المؤمنين (عليه السلام) ذات ليلة بعد عتمة
وهو يقول مهمة وليلة مظلمة خرج عليكم الامام عليه قميص آدم وفي يده خاتم
سليمان وعصى موسى .

« ولي فيها مآرب اخرى » او يعني بها ما يجمله الآن وقد تلمّحه من ملامح البيان عساه يذكره ربه لعصاه ، وبينهما مآرب التوكؤ والهش ، فلنفسه : « اتوكؤ عليها » اعتماداً في مثلث القيام والمشي والوقوف ، ولغنمه : « واهش بها على غنمي » خبطاً لأوراق الاشجار الهش وهو الرخو اللين سريع الحث والكسر لحد يكفيه هش العصا .

ثم ومن « مآرب اخرى » التي اجملها ، الاستظلال بها ركزاً لها وجاه الشمس وإلقاء لكسائه عليها ، ودفعاً لذئب وسواه من الضاريات حين تعرضه وغنمه اما هيه من مآرب اخرى معنية .

والمآرب جمع الماربة وهي الحاجة ، وقد ذكر منها اثنتين بعد تعريفه بما يمينه ، ثلاثة غير مسؤول عنها حيث السؤال بـ « ما » ليس إلا عن الماهية ، دون « كيف » واضرابها التي هي للكيفية ، ولكنه ما كان ليعرف من ماهيتها الا « هي عصاي » ثم الله ابرز لها ماهية اخرى فاذا هي حية تسعى .

﴿ قَالَ أَلْقَهَا يَا مُوسَى ١٩ فَالْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ٢٠ ﴾ .

ترى ولماذا إلقاءها هنا لتكون حية تسعى ؟ ان ذلك تدريب له بما تعدُّ له من آيات ربه الكبرى ، وليكون على معرفة وأهبة بما سوف يفعله الله عند فرعون آية لموسى ! .

وقد يعني على هامش ذلك المعني ابرازاً لسيرة ما يتوكؤ عليه من غير الله انه حية تسعى ، تخليصاً . لموسى ان يتوكأ نفسياً على اي متكأ سوى الله ، كما خلع عنه نعليه اذ هو بالواد المقدس طوى ، حيث التجرد من كل التعلقات لزام الحضرة الربانية لتلقى الوحي ، وهنالك ينعكس خلع النعلين - لتخليه عما سوى الله - وحيّاً يوحى ، ثم إلقاءه عصاه آية لوحيه أمام عدوه حية تسعى .

وكيف تنقلب العصا حية تسعى كما هنا ، ام جاناً مهتزاً كما في النمل^(٣١) والقصص^(٣٢) : « رآها تهتز كأنها جان » ام ثعباناً مبيناً كما في الشعراء^(٣٣) والاعراف (١٠٧) والأوليان حالة واحدة ، والأخيرة حين ذهب الى فرعون ؟ .

إنها خارقة آهية كآية تدل على وحي الرسالة ورسالة الوحي ، وركب العلم السائر مهما كان حائراً فيها وحق له ان يختار ، ولكنه يبلوغه ذروة من رقبته يختار ما فيه يختار ، انه في امكانية الانقلاب يوافق الاصول العلمية الثابتة ، ولكنه لا يسطع عليه الا الله دون سواه ، حيث العناصر تتركب من جزيئات ، وهي من ذرات ، وهي من اجزاءها من الكتلونات وبروتونات . .

إذا فالأصول الفيزيائية والكيميائية لكافة العناصر هي الذرات المنتهية الى اجزاءها معروفة وسواها ، وما اختلاف العناصر والجزيئات والذرات إلا باختلاف التركيبات مادة ومدة وعُدَّة وعُدَّة .

وقد اتيح للعلم لحد الآن تبديل عناصر الى اخرى ! أفلا يتاح للقدرة الربانية الخلاقة لها تبديلات أخرى لا يقدر العلم عليها ، اختصاصاً بساحة الربوبية كما هو في اصل الخلق وفروعه .

فالاجزاء التي تتشكل منها الحية هي التي شكلت منها العصا ، ثم هنالك . خارقتان اثنتان ، أولاهما القفزة الزمنية لذلك الانقلاب سراعاً ، وقد يحتاج الى الآفات من السنين وتوافقات لا يعلمها ويقدر عليها إلا الله ، وثانيتهما خلق روح الحية كما في سائر الارواح على الاطلاق .

إذا فليست الخارقة الإلهية خرقاً لضوابط العلية ، وحرقاً للعلل ، بل هي تسريع في ترتيب العلل بقفزة زمنية أما هي من جانب علة العلل ، فهو الخالق للأسباب والمسببات ، وله الامر في شروطها وكافة لزاماتها

وتدبيراتها وتقديراتها « ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين » .

ثم وما خَلَقَ حَيَّةً تسعى من عصا بأصعب منها المخلوقة بولادتها ، ام في اصلها الاول حيث خلقت من تراب ، والأفعال الإلهية كلها من اختصاصات ساحة الربوبية ليس لأحد فيها نصيب حتى المرسلين ، فانهم ليسوا إلا أداة ومظاهر لفعل الرب ، وحيأ ام آية تثبته .

﴿ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ﴾ ٢١ .

« وان التى عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولي مدبراً ولم يعقب يا موسى أقبل ولا تخف انك من الأمنين » (٢٨ : ٣١) « وألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولي مدبراً ولم يعقب يا موسى لا تخف اني لا يخاف لدي المرسلون . الا من ظلم ثم بدل حسناً بعد سوء فاني غفور رحيم » (٢٧ : ١١) .

لقد خاف موسى من حية تسعى وهي من عصاه ؟ عساها تلدغه علّه ظلم وعصى ، فنهاه ربه « لا تخف » بعيداً « ولي مدبراً ولم يعقب » « لا تخف انك من الأمنين » كمن معك ، و « لا يخاف .. إلا من ظلم » كما ظلم فرعون وخاف ثعبانه العظيم « اني لا يخاف لدي المرسلون »

« خذها ولا تخف » وهي حية تسعى « سنعيدنها » بعد اخذك اياها « سيرتها الاولى » وهي العصا .

وترى كيف يجوز لموسى ان يخاف فعل الله الآية ، وهو لدى الله ، رسالة من عند الله ، يخاف آية الرسالة الإلهية ؟ .

موسى هنا وفي بداية الحال، المنقطعة النظير حتى الحال، لم يكن يعرف انه آية إلهية لرسالته ، فعله حسبها امتحاناً من الله ببليّة جليلة عما قدم فأخبره عن رسالته وكما قال حين قضى على القبطي « إني ظلمت نفسي

سورة طه / آية ١ - ٣٦ ٦٩

فاغفر لي » (٢٨ : ١٦) ام خافها خوفاً ان تكون هي الحية التي اضل آدم وأغوى .

ثم وخوفه منها دليل ان قلب العصا اليها لم يكن من فعله فيما هو اذاً بسحر حيث السحر من فعل الساحر فلا يخافه ، وهكذا تكون آيات الرسالة كلها انها من افعال الله تظهر على ايدي رسل الله لتدل بذلك على اختصاصهم بالله فيصدقون في وحي الله .

وهنا « سعيدها » دليل امره باخذها وهي حية تسعى ، ولكنه تعالى طمأنه انه سيعيدها بعد اخذها سيرتها الاولى ، وهي آية اخرى ، فكما ان قلب العصا آية كذلك قلب الحية عصي آية ، وفيها كرامة لموسى ان اظهرهما بيده ، ولكي يعرف بذلك اختصاصه بكرامة ربه رسالة بآية بينة . فانما عليه الالتقاء وعلى الله قلبها بذلك حية تسعى ، ثم عليه اخذها وعلى الله ان يعيدها سيرتها الاولى ، وقوعاً للمعجزة في صورتها الاخرى كما كانت العصا في حالتها الاولى .

ولماذا « سيرتها الاولى » دون صورتها ، حيث الصورة الاولى لا تلازم السيرة الاولى ، فقد يجوز ان تتصور الحية بصورة العصا ، ولكن السيرة الاولى وهي الخشبية تلازم صورتها الاولى .

وترى ما هو عامل النصب لـ « سيرتها » أنصباً بنزع الخافض ؟ : الى سيرتها الاولى ، ام بفعل مقدر من نفس السيرة : تسير سيرتها الاولى ، والحذف دون مرجح ولا قرينة خلاف الفصاحة !

« نعيدها » ادبياً تتطلب مفعولاً ثانياً هو بطبيعة الحال « سيرتها الاولى » وهو المتعين معنوياً حيث الإعادة متعلقة بحية تسعى ، والمعاد هنا ليست الصورة الاولى بل مثلها ضمن السيرة الاولى الخشبية ، والمادة نفس المادة ، زيدت لها صورة حية تسعى بسيرتها ، ثم اعيدت المادة نفسها الى ما كانت

٧٠ الجزء السادس عشر

سيرة وصورة ، وذلك اعادة مثل الصورة الاولى الى المادة وليست هي الا هيه .

واعادتها صورتها الاولى نفسها مستحيلة في بعدين ، إعادة المعدوم فانها ممتنعة ، وتبديل المادة صورة بلا مادة ، واما إعادتها سيرتها فليست اعادة شيء بل هي تعني قلب الصورة الثانية وسيرتها الى الصورة الاولى وسيرتها والمادة هي المادة .

فهنا في قلب العصا حية تسعى ، قلب لصورة العصا وسيرتها ، إعداماً لها الى اخرى ، ثم في اعادتها سيرتها الاولى سلب أول هو سلب روحها ، وسلب ثان هو سلب صورة الحية ، وبينهما خلق لمثل الصورة الاولى ، ومجموع هذه الثلاث عبر عنها بإعادتها .

هناك قال موسى عن عصاه « هي عصاي اتوكؤ عليها » .. عصي لمآربه كموسى ، وهنا انقلبت الى عصي الرسالة حيث يتوكؤ عليها فيها ، ويهش بها على غنمه وهي أمته .. هشا لانفجار اثنتي عشرة عيناً من الحجر ، ولنفس العدد طريقاً يبساً في البحر ، ثم له فيها مآرب اخرى قدرها الله لهذه العصا ، علّ منها مآرب القائم المهدي (صلوات الله عليه) من هذه العصا افضل مما كان لموسى .

هذه آيتا العصا ، ومن ثم آية اليد البيضاء ، وهي ألصق به من الآية الاولى :

﴿ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى ﴾ ٢٢ .

سورة طه / آية ١ - ٣٦ ٧١

« اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم اليك جناحك من الريح فذانك برهانان من ربك الى فرعون وملأه انهم كانوا قوماً فاسقين » (٢٨ : ٣٢) .

الجناح هو الكتف والإبط تشبيهاً بجناح الطائر حيث يعني منه هنا أن يجنح طائر الرسالة الموسوية الى محطة الدعوة القاسية الفرعونية ، فاصبحت اليد والعصا برهانين من ربه الى فرعون وملاءه .

و « من غير سوء » تعني أن بيضاءها سليمة دون برص أو مرض^(١) ، فلذلك، ترجع الى ما كانت كما اعيدت العصا الى سيرتها الاولى .

وقد خرجت يد موسى - وعُلمها هي اليمنى - بيضاء مشرقة وقد كانت سمراء^(٢) وقد تكون اشارة الى اشراقه اليد الرسالية الموسوية في بلاغها ، وكما خرجت مشرقة في بلوغها، فهنا موسى يسلك يده ويدخلها تحت إبطه ، وقد صور له صورة الجناح لما فيها من رفعة وطلاقة في ذلك الموقف المُنجح الطليق من رتبة الارض وثقله الجسم لتخرج بيضاء من غير سوء آية اخرى .

﴿ لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴾^{٢٣} .

« لنريك » قد تتعلق بـ « ألقها » و « اضمم » كبداية وتقدمة : قلنا لك

(١) نور الثقلين ٣ : ٣٧٥ في كتاب طب الاثمة باسناده الى جابر الجعفي عن الباقر (عليه السلام) في الآية قال : يعني من غير مرض وفي البرهان ٣ : ٣٥ عن ابن بابويه بسند عن ابي عبد الله (عليه السلام) في الآية قال : من غير مرض .

(٢) البرهان ٣ : ٣٥ - عن تفسير القمي بسند عن ابي جعفر (عليه السلام) قال : كان موسى شديد السمرة فاخرج يده من جيبه فاضاءت له الدنيا .

الفها واضمم لنريك ... واخرى بـ « اذهب » كغاية : اذهب لنريك من آياتنا الكبرى ، كما قدمنا لك من آياتنا الصغرى مثلاً ونموذجاً للكبرى ، وحقاً إن الآيات التي أوتيتها موسى هي من الآيات البصرية الكبرى ، لها دلالاتها البالغة القصوى ، آيات لفرعون وملائه ، واخرى لهم ولقوم موسى .

وترى اذا كانت العصا واليد البيضاء « من آياتنا الكبرى » فكيف تكون آية القرآن هي الكبرى وهي في القمة العليا ، لا نظير لها ولا تسامي ؟ .

« من » هنا تعني أنها البعض من الكبرى ، مهما كانت الكبرى درجات ، كما اولوا العزم من الرسل خمسة وهم درجات ، ام تعني - فقط - الآيات البصرية وهي في الحق من الكبرى ، وقد تسامي آيات بصرية لرسول الهدى ، واما الآية البصرية فهي منحصرة في القرآن ، منحسرة عما سواه من كتابات الوحي ، فلا تعنيها هنا « الكبرى » لأنها الوحيدة لا تناظر او تسامي ، فلا تدخل في نطاق الجمع من « آياتنا الكبرى » وهي الكبرى الوحيدة غير الوهيدة بأية نظيرة في آيات الرسالات ، لأنها منقطعة النظر بين كل بشير ونذير !

﴿ اِذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴾ ٢٤ .

يُذكر فرعون في اربعة وخمسين موضعاً من الذكر الحكيم ، مما يدل على مدى فرعنته اللعينة ، ثم « الشيطان » في (٦٨) مهما ذكر ابليس (١١) مرة ، والمجموع تزيد خمسة وعشرين على فرعون ، فهو - اذاً - اخ له كبير بين الملائين الملاعين من اخوته الشياطين !

ولما تبلغ الفرعنة الى ذلك الطغيان على الله ادعاءً للربوبية : « انا ربكم

سورة طه / آية ١ - ٣٦ ٧٣

الاعلى » ، وعلى عباد الله استخفافاً فتعبداً له : « فاستخف قومه فإطاعوه »
عند ذلك التمرّد والتمرد التفرعن يؤمر موسى بالذهاب اليه ، دون نظرة
لذهاب فرعون اليه ، اذ صده طغيانه عن الله فضلاً عن رسول الله !

فالى هنا كان الوحي بآياته لموسى نبوءة دون رسالة ، وهنا بزغت
الرسالة الضخمة الصعبة الملتوية ، فلقد عاش جواً من طغيان الفرعنة ردحاً
من عمره ، فلا يرى من نفسه بنفسه نجاحاً تاماً في هذه الرسالة الا بإمدادات
ربانية ، فليسأل ربه في هذه الحضرة المباركة ما يطمئنه في هذه المواجهة
الخطيرة ، ويكفل له قوامه في هذه الرسالة ، فلذلك :

﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ^{٢٥} وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ^{٢٦} وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ
لِسَانِي ^{٢٧} يَفْقَهُوا قَوْلِي ^{٢٨} .

هنا يتطلب نصرة ذاتية متصلة بساحة هذه الرسالة في بنود ثلاثة ، ومن
ثم نصرة منفصلة في ثلاثة أخرى هي ازر لساوولى وأولى له ثم أولى ان
يستعد بزاد ازيد وراحلة ارحل في هذه السفرة الشاقة الطويلة ، لا لأمر إلا
له « كي نسجك كثيراً . ونذكرك كثيراً . انك كنت بنا بصيراً ! »

نرى سؤال موسى هنا في احدى عشر آية ، لم يكن ليسألها قبل امر
الرسالة ، مما يدل على انها كلها سؤال الرسالة بمسؤولياتها الخطيرة .

وبالبنء الاول من سؤاله الاول « رب اشرح لي صدري » وذلك شرح
لتلك الرسالة بعد شرحه للوحي النبوءة فليس - اذاً - سؤالاً لسؤال
حاصل ، فانه سؤال جاهل ، وسؤال قاحل ، فقد اختاره الله حين اوحى
اليه ، وكيف يختار ضائق الصدر عن تلقي الوحي ؟ وكما شرح الله صدر
محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وان كان دون سؤال : « الم نشرح لك

صدرك « لك » كرسول الى قوم لُدّ وامة خالدة ، وكذلك لموسى الى
فرعون اللدود وامة لدودة .

فانشراح الصدر لنبوء الوحي أمر ، وانشراحه للرسالة بعدها والنبوة
أمر آخر، حيث يلتقي فيها جماهير الامة ، ومكذبوا الرسالة ، فلكل مجال حال
ولكل حال مجال ، ولكل هدى شرح للصدر كما لكل ضلال ضيق : « فمن
يرد الله ان يهديه يشرح صدره لاسلام ومن يرد ان يضله يجعل صدره
ضيقاً حرجاً كأنما يصعد الى السماء .. » (٦ : ١٢٥) .

فانشراح الصدر في سبيل الرسالة يحول مشقة المسؤولية الكبرى الى
متعة ، وعناءها الى لذة ، مهما كانت السبيل شاقة شائكة وملتبسة طويلة ،
وهناك ينجح الرسول وتنجح الرسالة في هدفها الأسمى بمكانتها العليا .

اجل انه وجد لنفسه ضيقاً في هذه الرسالة دون ما قبلها : « واذا نادى
ربك موسى ان ائت القوم الظالمين . قوم فرعون الا يتقون . قال رب اني
اخاف ان يكذبون . ويضيق صدري ولا ينطق لساني فأرسل الى هرون .
ولهم عليّ ذنب فاخاف ان يقتلون » (٢٦ : ١٤) فشرح الله صدره عن
ضيقه في نفسه وبوزيره هرون .

وفي تقديم نداء الرب في الدعاء « رب » تعليم لكيفية الدعاء أنها تبدأ
باسم الربوبية ، فان من قضيتها الإستجابة بعد الدعاء بشروطها ، والتربية
الرسالية تتطلب في سؤالها شرح الصدر عطاءً من الله ، كما تتطلب العصمة
الإلهية .

و « لي » هنا دون « لنا » دليل الاختصاص لذلك الشرح ، فللمؤمنين
به ، الصابرين معه ، المثابرين على ايمانهم ، إن لهم شرحاً كاملاً ، ولموسى
الرسول شرح كرسول واين شرح من شرح ؟ .

اجل « اشرح لي » فاننا الذي امرتني بالذهاب الى فرعون، اشرح لي حتى لا يضيق اذا ازدحت عليّ عقبات الدعوة وخلفيات الدعاية .

والبند الثاني : « ويسر لي امري » وطبعاً هو امر الرسالة المعسور ، يتطلب الى ربه ان يجعله المسور ، وليس ذلك سؤالاً لتخفيف في رسالته ، ام تطفيف عن وحيه ودعوته ، كأنه يباين سؤال الرسالة ، فانه مزيد منها في كل حلقاتها ، وحيّاً وآية وسعة في دعوة ودعاية .

انما هو يسرها لموسى على عسرها ، بمثلث من التأييد الرباني ، مزيداً في تصبّره ، ووزيراً من اهله ، وتأيداً في نجاحه من عنده تيسراً للعسير ، لا قليلاً للكثير ، فانه حظ من ساحته ، ومس من كرامته ، وكيف يدعو عاقل ربه هكذا فضلاً عن نبي كموسى ! .

ففي ذلك التيسير ضمان لنجاح الرسالة ، مهما أوزي الرسول في سبيلها ، حيث الهدف الأسمى منها نجاحها ، لا أرجحية الرسول في حياته الدنيوية دوغماً أية صعوبة ، فان طبيعة كل رسالة هي الدوائر المتربصة بها ، المحتفة عليها ، كلما كانت الرسالة أوسع ، والمرسل اليهم اشرس ، فدوائر السوء عليها اكرس واكثر .

والبند الثالث : « واحلل عقدة من لساني . يفقهوا قولي » .

ففقه القول الرسالي ضرورة في متن الرسالة ، فلتحلل كافة العقّد عن لسان الرسول حتى يفقهوا ما يقول .

اترى « عقدة » هنا كانت حبة في لسانه لخلل عضوية^(١) ؟ وتلك حبة في اوصل وسائل الرسالة ، ونقص في الرسول ، فان السنة القولية هي

(١) في نور الثقلين ٣: ٣٧٧ عن تفسير القمي حدثني ابي عن الحسن بن محبوب عن =

٧٦ الجزء السادس عشر

من مثلث السنة المعصومة الرسالية ، بل هي أولها دلالة مهمل كانت العملية أولها تأثيراً ، فقصور اللسان أم تقصيره في بلاغ الرسالة خلاف كونه حجة بالغة آهية ، « والله الحجة البالغة » !

ثم « واخي هارون هو افصح مني لساناً فأرسله معي ردءاً يصدقني اني اخاف ان يكذبون » (٢٨ : ٣٤) انها تكذب نقص العضو ، وتحبس عن لسانه حبسته العضلانية ، فان معقود اللسان ليس فصيحاً حتى يكون هارون افصح منه .

ثم الفصاحة ليست سبب التصديق ، ولا خلافها سبب التكذيب ، فرب فصيح يكذب ، ورب غير فصيح أم اخرس يصدق !

فتلك اذا عقدة عن الإفصاح نقيّة أمّا هي ، فحل عقدة هنا هو إزالة النقيّة عن لسانه وكفاية سطوة فرعون وغواته ، حتى يؤدي عن الله آمناً ، ويقول متمكناً لا خائفاً ولا وجلاً ، فلا يكون معقود اللسان بالنقيّة ، ومعكوم الفم بالخوف والمراقبة .

فتراه يقول « ويضيق صدري ولا ينطق لساني فأرسل الى هارون .

= العلاء بن رزين عن محمد بن مسلم عن ابي جعفر (عليه السلام) قال : وكان فرعون يقتل اولاد بني اسرائيل كلما يلدون ويرى موسى ويكرمه ولا يعلم ان هلاكه على يده فلما درج موسى كان يوماً عند فرعون فعطس موسى فقال : الحمد لله رب العالمين - فانكر فرعون ذلك عليه وقال : ما هذا الذي تقول ؟ فوثب موسى على لحيته وكان طويل اللحية فهلجها اي قلّعها فألّه الماء شديداً فهم فرعون بقتله فقالت له امرأته : هذا غلام حدث لا يدري ما يقول وقد لطمته بلطمتهك اياه فقال فرعون : بل يدري فقالت له : ضع بين يديه تمراً وجرماً فان ميز بينهما فهو الذي تقول فوضع بين يديه تمراً وجرماً وقال له : كل فمد يده الى التمر فجاء جبرئيل فصرفها الى الجمر فاخذ الجمر في فيه فاحترق لسانه وصاح وبكى فقالت آسية لفرعون : ألم اقل لك انه لم يعقل فعفى عنه .

سورة طه / آية ١ - ٣٦ ٧٧

ولهم علي ذنب فاحاف ان يقتلون » (٢٦ : ١٤) فكما ان ضيق صدره كان بالنسبة لهذه الرسالة ، كذلك عدم انطلاق لسانه لانه ربي عند فرعون وليداً ، وقتل من غواته نفساً ، وطبيعة الحال هنا تقتضي بشاغل اللسان مهما كان فصيحاً ، ويتكذبه وهو اصدق الصادقين : « قال الم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين . وفعلت فعلتك التي فعلت وانت من الكافرين . قال فعلتها اذاً وانا من الضالين . فقررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكماً وجعلني من المرسلين . وتلك نعمة تمنها علي ان عبدت بني اسرائيل » (٢٦ : ٢٢) .

فقد يعقد لسان المتكلم الفصيح لعقد نفسانية ام خارجية ، فلا يسطع افصاحاً لمرامه ، او مضياً في مرامه ، او يطلق لسان غير الفصيح ، وحتى المعقود اللسان او الاخرس ، لطلاقة نفسية وتجارب خارجي ، وموسى على سابقته ، بمجابهة فرعون أن قتل منه نفساً ، رغم تربيته الولادية عنده ، ما كاد ليفصح عما يروم ، صيداً نفسياً عن إفصاحه ، وآخر خارجياً وجاه فرعون وغواته ، فلا بد له اذاً من وزير تخفيفاً عن وزره ، وشداً لأزره ، ورداء لكلامه .

هذا وان كنا قد نصدق حسب الرواية هذه الحبسة العضوية الى حين الرسالة ، حفاظاً على حياة موسى ، ولكنها حلت منذ الرسالة بدعاءه المستجاب : « قال قد أوتيت سؤالك يا موسى » وقد تلمح « عقدة » منكراً دون « العقدة » انها تعني العقدتين وقد حلها بإزالة الرئة العضوية والضيقة النفسانية ، ثم باخيه هارون رداً يصدق .

ومن هنا يبدأ بتطلب سؤله الثاني في بنود ثلاث ليكتمل الأول في إنجاح رسالته .

﴿ وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي ^{٢٩} هَارُونَ أَخِي ^{٣٠} أَشَدُّدٍ بِهِ أَزْرِي ^{٣١} »

وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي^{٣٢} كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا^{٣٣} وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا^{٣٤} إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا
بَصِيرًا^{٣٥} .

وهنا البند الأول « وزيراً من اهلي » وهو حامل وزر الرسالة الموسوية
وحياً ودعوة ودعاية، فكما الله وضع عن محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)
وزره بوزيره علي (عليه السلام) اخيه، كذلك يضع عن موسى وزره
بهارون اخيه ، وكما تواتر عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) « يا علي انت
مني بمنزلة هارون من موسى إلا انه لا نبي بعدي » فعلي يحمل وزر الرسالة
المحمدية دون وحي ورسالة ، وهارون يحمل وزر الرسالة الموسوية بوحى
ورسالة ، والوزارة هنا كالوزارة هناك إلا النبوة .

والوزير من الوزر : الثقل- حيث الوزير يحمل ثقل الملك مع الملك ،
ام من الوزر : الجبل الذي يلتجىء اليه ، حيث الملك يلتجىء اليه في
مهامه ، والاول اسلم لساحة النبوة حيث يكون فيه الوزير الحامل الثاني
لحمل الملك وعبثه ، وهو الشخصية الثانية لمسؤولية القيادة العليا ، زمنياً او
روحياً ام كليهما ، كما هما حق للقيادة الروحيتين انبياء وأئمة وعلماء ربانيين .

ثم البند الثاني والثالث هما كتفسير وايضاح لحدود الوزارة، فشد الأزر
هو تحكيم القوة الرسالية والعون فيها ، والشركة في الأمر هي في أمر بلاغ
الرسالة بالوحي ، وليس الوحي فقط اذ لم يكن عبثاً عليه شخصياً ، وإنما
هي في حمل الرسالة بكل مسؤولياتها ، واما الدعاية لها والدعوة اليها بعد
بلاغها الرسالي ، فهو على عواتق المؤمنين بها ككل ، دون اختصاص بوزير
من اهله ، فانهم كلهم وزراءه في ذلك الأمر قضية الإيمان به ، فالوزارة
- إذا - منصب خاص يتلو منصب القيادة العليا بانتصاب إلهي ليس إلا .

فلتكن الشركة المعنية هي في شؤون الرسالة وقيادتها الشاملة روحياً
وزمنياً ، فهو النائب الاول ، والوزير الوحيد في كل ما قل وجل من

سورة طه / آية ١ - ٣٦ ٧٩

الشؤون الاصلية الرسالية كما هي على عاتق موسى ، إزراً وردءاً وتصديقاً لتلك الرسالة السامية « واخي هارون هو افصح مني لساناً فأرسله معي ردءاً يصدقني إني أخاف ان يكذبون » (٢٨ : ٣٤) .

وقضية الحال هنا ان لودام هارون بعد موسى لكان خليفته في رسالته ، فان الوزير في حياة الامير هو الشخصية الاولى بين الشعب في كافة شروط القيادة ، فهو الامير بعد وفاته دون سواه .

هنا « وأشركه في امري » تقتضي الشركة في كافة شؤون الرسالة ، وحيأً وبلاغاً وحجة أما هي ، ولذلك نرى الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) يجعل علياً منه كما هارون من موسى ثم يستثنى النبوة .

ولا فحسب ان علياً (عليه السلام) وزير الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) في متواتر السنة تنظيراً بآية الوزارة ، بل وهو اخوة وولده بل ونفسه المقدسة لآية المباهلة ومتواتر السنة ، فقد كملت الشروط وافية فيه لعرش الخلافة الاسلامية ، ولادة واخوة ووزارة ونفسية نفيسة هي انفس القواعد الاربع لعرش الخلافة .

ولنرجع هنا الى مادة الدعاء لموسى في هذه الوزارة السامية ، لكي نتعرف الى الوزارة العلوية العالية ، وعلى ضوء متواتر الرواية عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) على غرار الآية وقرارها .

« واجعل لي وزيراً . . » دليل ان جعل الوزارة الرسالية مخصوص بالله ، وليس للرسول أن ينتصب لنفسه وزيراً في أمره فضلاً ، عن أمته فكما البرسالة هي من الله ، كذلك وزارتها من الله ، والا فلماذا يسأل الله ان يجعل له وزيراً .

و « من اهلي » وطبعاً هي الأهلوية الرسالية دون النسبية فحسب ، ولا سواها من أهليات لا تؤهل لوزارة الرسالة .

« هارون اخي » ويا للاحلية من جمع جميل ان تعم جانبي الرسالة والرسول ، فهارون اهل لذلك الرسول رسالياً ، واهل له نسبياً ، فهو اخوه في كلتا المرتبتين .

« اشدد به ازري » والأزر من إزار الرجل وهو الموضع الذي يشده اذا استعد لصعاب الامور ، وهارون يشد أزر موسى في بلاغ الرسالة رسالياً ، لا فقط ايمانياً ، فانه يعم كافة المؤمنين بهذه الرسالة ، ولذلك يلحق اشراكه في الامر بشد الأزر .

« واشركه في امري » شركة رسالية في كافة بنودها دونما إبقاء لواحدة منها ، إلا ان موسى هو القائد الرسالي وهارون وزيره .

فالأزر هنا هو ظهر الرسالة الموسوية ، لا يشد إلا بمظاهر رسالي من نفس النمط وهو عضد الرسالة كما قال « سنشد عضدك باخيك ونجعل لكما سلطاناً فلا يصلون اليكما بآياتنا » (٢٨ : ٣٥) .

وقد تنطبق هذه المواصفات بصورة اجلى وسيرة اسمى واعلى في وزارة علي (عليه السلام) للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) فسورة الإنشراح تشرح آية الوزارة ، ومتواتر الرواية عن طريق الفريقين يؤكد ذلك الشرح .

هنا تعال معي الى سرد لألفاظ ما أخرجه الحفاظ والرواة عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لتعرف ابعاد هذه الوزارة العلوية العلوية .

لقد روى حديث المنزلة اول ما روى الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) عن الله تعالى اذ « هبط جبرئيل على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)

(وسلم) فقال يا محمد ان ربك يقرئك السلام ويقول لك : علي منك بمنزلة هارون من موسى لكن لا نبي بعدك»^(١) .

ومن ثم يكرره الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في عدة مواطن وقد رواه عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) جماعة من الصحابة منهم الإمام علي (عليه السلام) نفسه ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) اراد ان يغزو غزاة فدعى جعفرأ فامرته ان يتخلف على المدينة فقال لا اتخلف بعدك يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال فدعاني رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال فبكت فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) علي ان اتخلف قبل ان اتكلم قال فبكت فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ما يبكيك يا علي ؟ قلت يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عليه وآله وسلم) يُبكي خصال غير واحدة ، تقول قريش غداً ما أسرع ما تخلف عن ابن عمه وخذله ، وتُبكي خصلة أخرى كنت اريد ان اتعرض للجهاد في سبيل الله لأن الله تعالى يقول : « ولا يظنون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح ان الله لا يضيع اجر المحسنين » فكنت اريد ان اتعرض لفضل الله ، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) اما قولك يقول قريش ما اسرع ما تخلف عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وخذله فان لك بي اسوة ، قالوا لي ساحر وكاهن وكذاب ، واما قولك : اتعرض الأجر من الله اما ترضى ان تكون مني بمنزلة هارون من موسى غير انه لا نبي بعدي»^(٢) .

(١) اخرجه جماعة عن اسماء بنت عميس عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) منهم محب الدين الطبري في الرياض النضرة (٢: ١٤٤) وفي ذخائر العقبى ص ٦٤ والقندوزي في ينابيع المودة ص ٢٠٤ .

(٢) رواه جماعة من القوم منهم النيسابوري في المستدرک ٢ : ٣٣٧ والحموي في فرائد السمطين والذهبي في تلخيص المستدرک والهيتمي في مجمع الزوائد ٩ : ١١٠ والمتقي

ومنهم عمر بن الخطاب انه رأى رجلاً يسب علياً فقال اني اظنك منافقاً سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول : انما علي مني بمنزلة هارون من موسى ، إلا انه لا نبي بعدي ^(١) .

ومنهم معاوية بن ابي سفيان حيث سأله رجل عن مسألة فقال : سل عنها علي بن ابي طالب (عليه السلام) فانه اعلم ، قال : يا امير المؤمنين قولك فيها احب الي من قول علي فقال : بش ما قلت ولؤم ما جئت به لقد كرهت رجلاً كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يفره العلم غراً ولقد قال له رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) انت مني بمنزلة هارون من موسى الا انه لا نبي بعدي ولقد كان عمر بن الخطاب يسأله فيأخذ عنه ولقد شهدت عمر اذا اشكل عليه شيء قال : ها هنا علي ، قم لا اقام الله رجلك ومحي اسمه من الديوان ^(٢) .

ولقد روى حديث المنزلة عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بالفاظ عدة في مواطن متعددة ثلثة من الأصحاب ^(٣)

الهندي في منتخب كنز العمال ٥: ٥٥٥ والبدخشي في مفتاح النجاص ٤٥ والخلبي في انسان العيون (٣: ١٣٢) والبغدادى في تاريخه ٧: ١٩٤ .

(١) اخرج عنه جماعة منهم البغدادى في تاريخ بغداد ٧: ٤٥٢ ومحب الدين الطبري في الرياض النضرة ٢: ١٦٢ وقلندر الهندي الحنفي في الروض الازهر ص ٩٨ .

(٢) اخرج عنه جماعة منهم ابن المغازلي في كتاب مناقب امير المؤمنين (عليه السلام) والطبري في ذخائر العقبى ص ٧٩ عن الامام احمد في المناقب وفي الرياض النضرة ٢: ١٩٥ والحموي في فرائد السمطين ، الواسطي في المناقب ص ١١٨ .

(٣) مثل سعد بن ابي وقاص ٣ - وجابر بن عبد الله الأنصاري روي عن عشرة كتب ٤ - وابي سعيد عن ١٥ ، ٥ - وحشبي ابن جنادة السلوي عن ٤ ، ٦ - وسعد بن مالك عن ٥ ، ٧ - واسماء بنت عميس عن ٨ ، ٨ - وابن عمران عن ١٠ ، ٩ - وابن ابي ليلى عن =

سورة طه / آية ١ - ٣٦ ٨٣

وهؤلاء الاعاظم كلهم سمعوا حديث المنزلة عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) اخرجهم عن كل منهم جماعة من الاساطين وهم حسب ترتيب العدد يذكر بعضهم في الهامش .

= كتب عدة ، ١٠ - ومالك بن الحريث عن كتب عدة ، ١١ - وسفيان الثوري عن ٣ ، ١٢ - وابن عباس عن ستة ، ١٣ - وام سلمة عن عدة كتب ، ١٤ - وعبدالله بن مسعود ، ١٥ - وانس بن مالك ، ١٦ - وزيد بن ارقم ، ١٧ - وابي ايوب ، ١٨ - وابي بردة ، ١٩ - وجابر بن سمرة ، ٢٠ - وغيرهم من الصحابة والتابعين من الحفاظ والمحدثين كلهم عن كتب معدودة هنا وغير معدودة واليكم اسماء قسم من الكتب :

٣ - فسعد بن ابي وقاص يرويه عنه ابراهيم بن سعد رويناه عن اربعة وعشرين من كتب اعاظم محدثي العامة ، وعائشة بنت سعد عن تسعة كتب وعامر بن سعد عن خمسة عشر ومصعب بن سعد عن احد وثلاثين وسعيد بن المسيب عن تسعة عشر ، وحديث آخر عنه عن اربعة ، وعبد الدين سعد عن ثلاثة وعبدالله ابن بديل عن عدة كتب .

٤ - وجابر بن عبد الله اخرجهم عنه احمد بن حنبل في المسند ٣: ٣٣٨ والترمذي في صحيحه ١٣: ١٧٥ والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ٣: ٤٨٨ وابن الأثير في جامع الأصول ١: ٤٦٩ والحموي في فرائد السمطين والقرشي في البداية والنهاية ٧: ٣٤١ والمسقلاني في لسان الميزان ٥: ٣٧٨ والسيوطي في ذيل اللثالي ص ٥٩ والميمني في شرح الديوان ١٧٣ والواسطي في المناقب ١١٨ .

٥ - وابو سعيد اخرجهم عنه وابن سعد في الطبقات الكبرى ٣: ٢٤ والقرشي في تاريخ الرقة ١٣٣ وابن المغازلي في المناقب واليتمي في مجمع الزوائد ٩: ١٠٩ والمهروي القاري في شرح العين ٣٥٦ والقندوزي في ينابيع المودة ٥٠ والنبهاني في الفتح الكبير ٣: ٣٤٣ واليتمي في مجمع الزوائد ٩: ١٠٩ والنعماني في تعليقه على تاريخ ارق ١٣٣ .

٦ - وحيشي بن خبابة اخرجهم عنه ابو نعيم في اخبار اصبهان ١: ٢٨١ والنعماني ١٣٣ والطبراني في المعجم الصغير ١٩٠ واليهيمي في مجمع الزوائد ٩: ١٠٩ .

٧ - وسعد بن مالك اخرجهم عنه ابن سعد في الطبقات ٣: ٢٤ واحمد بن حنبل في =

= مسنده ١٧٣:١ و ٥٧:٣ و ٦٦ و ٧٤ وفي المناقب ١٢٤:٣ والنسائي في الخصص نص ١٧ .

٨ - واسماء بنت عميس اخرجها عنها الامام احمد في المستدرک ٤٣٨:٦ والفضائل ١٠٧:٣ والنسائي في الخصائص ١٧ والبغدادی في تاريخه ٤٣:١٠ و ٣٢٣:١٢ وابن عبد البر في الاستيعاب ٤٥٩:٣ والحموي في الفرائد والذهبي في تاريخ الاسلام ٩٤١:٤ والهيثمي في مجمع الزوائد .

٩ - وابن عمران اخرجها عنه الهيثمي في مجمع الزوائد ١١٠:٩ .

١٠ - وابن ابي ليلى اخرجها عنه المتقي الهندي في منتخب كنز العمال ٣٠:٥ .

١١ - ومالك بن الحريث اخرجها عنه البخاري في التاريخ الكبير ٣٠١:٤ .

١٢ - وسفيان الثوري اخرجها عنه الخطيب في ٧١:٤ من تاريخه وفي موضع اوهام الجمع والتفريق والطبري في الرياض النضرة ١٦٣:٣ .

١٣ - وابن عباس اخرجها عنه ابو نعیم في تاريخ اصفهان ٣٢٨:٣ وابن المغازلي في المناقب وابن عساكر في التاريخ الكبير ١٠٧:١ والهيثمي في المجمع ١٠٩:٩ والبدخشي في مفتاح النجاة ٤٤ والقندوزي في ينابيع المودة ٢٣٤ .

١٤ - وام سلمة اخرجها عنها الدمشقي في البداية والنهاية ٢٤١:٧ والهيثمي في المجمع .

١٥ - وابن مسعود اخرجها عنه ابن المغازلي في مناقبه .

١٦ - وانس بن مالك اخرجها عنه ابن المغازلي والمتقي الهندي في منتخب كنز العمال ٢١:٥ .

١٧ - وزيد بن ارقم اخرجها عنه الشفشاوي في سعد الشمس والأقمار ٣٠٩ والهيثمي في مجمع الزوائد .

١٨ - وابو ايوب اخرجها عنه الهيثمي في المجمع ١١١:٩ .

١٩ - وابو بردة اخرجها عنه سبط ابن الجوزي في تذكرة الخواص ٢٣ .

٢٠ - وجابر بن سمرة اخرجها عنه القندوزي في الينابيع ٥٠ والهيثمي في المجمع .

سورة طه / آية ١ - ٣٦ ٨٥

وكل هذه الاخراجات متفقة في « انت مني بمنزلة هارون من موسى »
ام بزيادة « اما ترضى » ثم « الا انه لا نبي بعدي »^(١) « لا نبوة
بعدي »^(٢) « لا نبوة بعد نبوتي »^(٣) « الا النبوة »^(٤) « لا نبي معي »^(٥)
« غير انه لا نبي »^(٦) « ولو كان لكانته »^(٧) « إلا انك لست بنبي »^(٨) « الا

(١) هذا هو الاكثر المطلق ويعني « من بعدي » من بعد نبوتي لا بعد وفاتي ، كما
يفسره سائر النصوص .

(٢) اخرجه الكنجي الشافعي في كفاية الطالب ١٤٨ عن عدة طرق عن سعد بن عامر
عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) واحمد بن حنبل في المسند ١ : ١٨٥ وجماعة آخرون
من الحفاظ .

(٣) اخرجه الحافظ ابو نعيم في حلية الاولياء ٧ : ١٩٥ والنسائي في الخصائص ١٥ .
(٤) اخرجه الشيباني المروزي في المسند ١ : ١٧٠ وفي الفضائل ، والنسائي في
الخصائص ١٤ و ١٦ والحموي في الفرائد والدمشقي في البداية والنهاية ٧ : ٣٤٠ والمتقي
الهندي في كنز العمال ٦ : ١٥٣ وعبد الرحمن الرازي في علل الحديث ٢ : ٣٩٠
والخطيب في تاريخه ٨ : ٥٢ وابن المغازلي في المناقب كلهم عن عائشة بنت سعد عن
رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) والبخاري في التاريخ الكبير ١ : ١١٥ عن
سعد عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) .

(٥) اخرجه ابن المغازلي الواسطي في المناقب والقندوزي في ينابيع المودة ٨٦ .
(٦) اخرجه ابن عساكر في تاريخه ٦ : ١٠٧ دخل سعد على معاوية فقال له بعد مكالمته
بينهما : انك لتأمرني ان اقاتل رجلاً سمعت فيه من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)
يقول : انت مني بمنزلة هارون من موسى غير انه لا نبي فقال له معاوية من
سمع هذا معك قال : فلان وفلان وام سلمة .

(٧) الخطيب البغدادي في تاريخه ٣ : ٢٨٨ بسند متصل عن جابر قال قال رسول الله
(صلى الله عليه وآله وسلم) لعلي (عليه السلام) اما ترضى ان تكون مني بمنزلة هارون
من موسى الا انه لا نبي بعد ولو كان لكانته .

(٨) اخرجه ابن المغازلي في مناقبه والبدخشي في مفتاح النجا ٤٤ مخطوط وابن سعد في
طبقات الكبرى ٣ : ٢٤ عن البراء بن عازب وزيد ابن ارقم .

٨٦ الجزء السادس عشر

النبوة وانت خليفتي»^(١) «انه لا ينبغي ان اذهب الا وانت خليفتي»^(٢)
صارخة صارخة ان لا استثناء عن تلك المنزلة الا منزلة النبوة ، حيث ختمت
بمحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) بهذه التصريحات العشر .

وقد يروى عن رسول الهدى (صلى الله عليه وآله وسلم) قوله « يا
علي انت مني بمنزلة هبة الله من آدم ، ومنزلة سام من نوح ، ومنزلة
اسحاق من ابراهيم ومنزلة هارون من موسى ، ومنزلة شمعون من عيسى
الا انه لا نبي بعدي »^(٣) .

وحديث المنزلة على ضوء آيتها ليس يثبت لعلي (عليه السلام) فقط
الخلافة بعد الرسول ، بل الوزارة زمن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)
والوزير في حياة الرسول ، أخرى ان يكون الأمير بعد وفاته .

وهذه قلة من ثلة من احاديث المنزلة والتفصيل الى المفصلات .

﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ﴾^{٣٦}

والسؤل هو الحاجة وهي هنا حاجة عضد الرسالة وأزرها . وقد أُوتِيتُ
لموسى ، وكذلك سأل الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) لآخيه

واحمد بن حنبل في مسنده ١ : ٢٣٠ والفضائل ٢ : ٢٤٠ والنسائي في الخصائص ٨
والنيسابوري في المستدرک ٣ : ١٣٢ .

(١) أخرجه سبط ابن الجوزي في تذكرة الخواص ٢٣ عن أبي بردة قال خرج علي . . .

(٢) أخرجه ابن كثير في البداية والنهاية ٧ : ٣٣٨ .

(٣) البحار الطبعة الحديثة ٣٧ : ٢٠٤ بالاسناد عن الصادق (عليه السلام) عن آبائه

(عليهم السلام) قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) والأخراجات السابقة

نقلناها عن تعليقات احقاق الحق للعلم الحجة السيد شهاب الدين المرعشي النجفي ج ٥

ص ١٣٢ - ٣٣٤ .

سورة طه / آية ١ - ٣٦ ٨٧

علي (ع) ما سأله موسى لأخيه هارون فأوتي سؤله^(١) واين سؤال من سؤال وسؤال من سؤال، فقد سجل سؤال موسى بسؤله في الذكر الحكيم في آيات بضع ، وسجل سؤال الرسول دون سؤال في سورة الانشراح !
هذه هي المئة الثالثة على موسى ، وقبلها اصل الوحي والرسالة ،
وقبلها : ولقد مننا ...

وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ

مَرَّةً أُخْرَى ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مَا يُوحَى ﴿٣٨﴾

(١) الدر المنثور ٤ : ٢٩٥ - اخرج ابن مردويه والخطيب وابن عساكر عن اسماء بنت عميس قالت رأيت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بازاء ثبير وهو يقول اشرق ثبير اشرق ثبير اللهم اني اسألك بما سألك اخي موسى ان تشرح لي صدري وان تيسر لي امري وان تحل عقدة من لساني يفقهوا قولي واجعل لي وزيراً من اهلي هارون اخي اشدد به ازري واشركه في امري كي نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً وفيه اخرج السلفي في الطيوريات بسند عن ابي جعفر محمد بن علي قال : لما نزلت « واجعل لي وزيراً من اهلي هارون اخي اشدد به ازري » كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) على جبل ثم دعا ربه وقال : اللهم اشدد ازري باخي علي فاجابه الى ذلك وروى ابو نعيم الحافظ باسناده عن رجاله عن ابن عباس قال اخذ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بيد علي بن ابي طالب (عليه السلام) ويدي ونحن بمكة وصلى اربع ركعات ثم رفع يديه الى السماء وقال : اللهم ان نبيك موسى بن عمران سألك فقال : رب اشرح لي صدري ويسر لي امري .. وانا محمد نبيك اسألك رب اشرح لي صدري ويسر لي امري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي واجعل لي وزيراً من اهلي علياً اخي اشدد به ازري واشركه في امري قال ابن عباس فسمعت منادياً ينادي : قد اوتيت سؤلك .

أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي أَتَابُوتٍ فَأَقْذِفِهِ فِي آلِيْمٍ فَلْيُلْقِهِ آلِيْمٌ
 بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ ۚ وَالْقَبْتُ عَلَيْكَ حَبَّةً
 مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴿٢٨﴾ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ
 هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۖ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ
 كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَدْ جِئْتَكَ مِن قَبْلِكُمْ بِحَدِيثٍ
 مِّنَ الْغَمِّ ۚ فَوَسَّيْنَاكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ
 جِئْتَ عَلَيَّ قَلِيلًا يَمْوِسِي ﴿٢٩﴾ وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٣٠﴾
 أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِعَآيَتِي وَلَا تَنبَأُ فِي ذِكْرِي ﴿٣١﴾
 أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٣٢﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّسِنَا
 لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَحْشَىٰ ﴿٣٣﴾ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ
 يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْفِنَا ﴿٣٤﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا
 أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٣٥﴾ فَاتَّبَعَهُمَا فَقَوْلَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ
 مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِعَآيَةٍ مِّن
 رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴿٣٦﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ

إِنَّمَا أَنَا الْعَذَابُ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿١٨﴾

﴿ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىٰكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴾ ٣٧

وهي المنّة الاولى وان كانت هي الاخرى بالنسبة لما هنا :

﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أَمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴾ ٣٨

مهما بان البون بين وحيين ، فثانيهما « ما يوحى » الى رسول الهدى وحي رسالي ، والاوّل وحي الهامي الى ام موسى وقد شمل ذلك الوحي نبأ عن وحي التكوين الى اليمّ وان يأخذه عدو الله وعدو موسى .

وذلك المن الاول دون سؤال يؤكد تحقيق منه بسؤال ، ولا سيما بعد الرسالة ، وعمل « قد اوتيت سؤالك » تشمل كل سؤاله منذ ولادته الى تربيته والى رسالته ومتطلباتها ، فان ذلك قضية الماضي المؤكّد بـ « قد » في « قد اوتيت » فمَنه تعالى مرة اخرى وهي الاولى داخل في سؤاله فانه ليس سؤالاً حقّي يختص بالحال ، بل هو حاجة تقتضيه الحال على اية حال ، سألها بلسان القول او الحال ام لم يسألها في مقتضى الحال .

ولماذا « مرة اخرى » والمذكور في ما يوحى من ثمان ؟ علّه لانه نظراً الى حياته الرسالية وقبلها ، فالمن عليه في كل منها مرة مهما كانت شتى ، فقبل رسالته منة هي ثمان ام تزيد ، وقبلها اخرى هي ستة ام تزيد فهما متتان كمجموعتين ، وهما من - لاقبل تقدير - هي اربعة عشر كعديدها .

فالمن الاول من الأخرى : « اذ اوحينا الى امك ما يوحى » فان مادة الوحي كانت لصالح الحفاظ على حياة موسى :

﴿ أَنْ أَقْدِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْدِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوِّي وَعَدُوُّهُ وَالْقَيْتُ عَلَيْهِ حَبَّةٌ مِّمِّي وَلَتَنْصُنْعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾ ٣٩

اترى هذه المادة الهامة الخطيرة من وحي الإلهام كانت رؤيا في المنام ،
كان تأويلها قذفه في التابوت ثم في اليم ؟ وليست هنالك قاطعية في
تأويلات الروئيّ إلا ان يكون المؤول من الأنبياء ، والنص هنا لا يشير الى
رؤيا ولا تأويله ولا نبي في البين !

انها - بطبيعة الحال - وفي هذه الهامة الخطيرة ، إلهام الى قلبها في حذ
من الظهور والبهور لا يقبل اي تردد ، وكأنها تحس الواقع المستقبل من
نجات موسى ، لحدّ ألقته في التابوت إلى اليم .

كيف لا وه ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة
الا تخافوا ولا تحزنوا وابشروا بالجنة التي كنتم توعدون . نحن اولياءكم في
الحياة الدنيا وفي الآخرة » (٤١ : ٣١) .

أولست ام موسى من هؤلاء - وهي تحمل امانة الرسالة الإلهية - حتى
تستحق نزول الملائكة عليها بذلك الوحي ، حفاظاً على رسالة الوحي ؟!
وكما تمثل لام عيسى روح الامين « فتعمل لها بشراً سوياً » لكي يلقي اليها
غلاماً سوياً .

فهنا ام موسى يوحى اليها ما فيه الحفاظ على وليدها ، وهناك ام
عيسى يوحى اليها ليلقي اليها بشراً سوياً ، وهما من افضل الوحي فيما
سوى النبوة والرسالة ، ومن ادناه الوحي الى النحل ثم للأرض .

فما كل ما يسمى وحيًا، يحمل رسالة إلهية ، وهو في الاصل اشارة في
رمز تكويناً او تشريعاً ، خيراً او شراً ، كما « ان الشياطين ليوحون الى
اوليائهم ليجادلوكم » (٦ : ١٢١) !

وكما ان وحي الشيطان دركات ، كذلك وحي الرحمن درجات ، ادناها
للأرض ، واعلاها الى المرسلين وبينهما متوسطات .

سورة طه / آية ٣٧ - ٤٨ ٩١

فلقد قذف في قلب ام موسى لأول ما يوحى « ان اقذفه في
التابوت » . . .

ام حنون تلد ولداً كموسى ، فبدل ان تحتضنه تقذفه في التابوت ،
وهي ما يلقى في الماء !

صحيح انها تاكده وحيأ من الله ، ولكنها كيف تجرء على الإقدام بما
تؤمر ، والعاطفة المرفهة والهيمن البالغ تمنعانها عن ذلك ، مهما الوحي
يامرها بذلك ؟!

هنا قذف في التابوت ، ثم قذف في اليم ، قد يلمعان بسرعة في
العمل دون أية رعاية ، تعجلاً دون اي تأجيل ، مما يوحش ولا سيما الأم
الحنونة ، لولد تعرفه من هو ؟!

ولكنما النص التالي يُطْمِئِنُّهَا ان ليس في إلقاءه إلغاءه : « فليلقه اليم
بالساحل » أمراً تكوينياً لليم ان تلقيه من خضمها الى الساحل ، ثم امر آخر
كما الاول لا قسى قلب واعصى مرعب : « ياخذ عدو لي وعدوه » وهو
فرعون الطاغية ، عدو لله اذ ينكر ربوبيته بل يدعي هو الربوبية بديله ،
 وعدو لموسى إذ يعلم ان بيده قضاء فرعته وملكه، ولذلك اخذ يقتل الذكر ان
من بني اسرائيل^(١) ولكنه مأمور تكوينياً باختيار ان يأخذ عدوه موسى ويحتضنه

(١) بحار الانوار ١٣ : ٢٥ عن تفسير القمي حدثني ابي عن الحسن بن محبوب عن
العلاء بن رزين عن محمد بن مسلم عن ابي جعفر (عليه السلام) قال : لما حملت به
امه لم يظهر حملها الا عند وضعها له وكان فرعون قد وكل بنساء بني اسرائيل نساء من
القبط تحفظهن وذلك لما كان بلغه عن بني اسرائيل انهم يقولون انه يولد فينا رجل يقال
له موسى بن عمران يكون هلاك فرعون واصحابه على يده فقال فرعون عند ذلك
لاقتلن ذكور اولادهن حتى لا يكون ما يريدون وفرق بين الرجال والنساء وحبس
الرجال في المحابس فلما وضعت ام موسى بموسى نظرت اليه وحزنت عليه واغتمت =

ليحتزن به على جهله :

= وبكت وقالت : تذبح الساعة ، فعطف الله الموكلة بها عليه فقالت لام موسى مالك قد اصفر لونك فقالت : اخاف ان يذبح ولدي فقالت لا تخافي وكان موسى لا يراه احد الا احبه وهو قول الله : والقيت عليك محبة مني ، فاحبته القبطية الموكلة به وانزل الله على ام موسى التابوت ونوديت : ضعه في التابوت فاخذ فيه في اليم وهو البحر ولا تخافي ولا تحزني انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين فوضعت في التابوت واطبقت عليه والفته في النيل وكان لفرعون قصر على شط النيل منزله فنظر من قصره ومعه آسية امرأته الى سواد في النيل ترفعه الامواج وتضربه الرياح حتى جاءت به على باب قصر فرعون فامر فرعون بأخذه فأخذ التابوت ورفع اليه فلما فتحه وجد فيه صبياً فقال : هذا اسراييلي فالقى الله في قلب فرعون لموسى محبة شديدة وكذلك في قلب آسية واراد ان يقتله فقالت آسية : لا تقتلوه عسى ان ينفعنا او نتخذة ولداً وهم لا يشعرون انه موسى ولم يكن لفرعون ولد فقال التمسوا له ظئراً تربيه فجاءوا بعدة نساء قد قتل اولادهم فلم يشرب لبن احد من النساء وهو قول الله : وحرمنا عليه المراضع من قبل

وفي بحار الانوار ١٣ : ٤٦ فض فيه روى مجاهد عن ابن عمرو وابي سعيد الخدري عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في خبر طويل قال : ان موسى بن عمران (عليه السلام) كان فرعون في طلبه يقرر بطون النساء الحوامل ويذبح الاطفال ليقتل موسى (عليه السلام) فلما ولدته امه امرها ان تأخذه من تحتها وتقذفه في التابوت وتلقي التابوت في اليم فقالت وهي ذمرة من كلامه يا بني اني اخاف عليك الغرق فقال لها : لا تحزني ان الله يردني اليك فبقيت حيرانة حتى كلمها موسى وقال لها : يا ام اقلدني في التابوت والقي التابوت في اليم قال : فعلت ما امرت به فبقي في اليم الى ان قذفه الله في الساحل ورده الى امه برمته لا يطعم طعاماً ولا يشرب شرباً معصوماً مدة .

وفيه عن الكافي عن سندير الصيرفي عن الصادق (عليه السلام) قال : ان فرعون لما وقف على ان زوال ملكه على يد موسى امر باحضار الكهنة فدلوه على نسبه وانه من بني اسراييل فلم يزل يأمر اصحابه بشق بطون الحوامل من بني اسراييل حتى قتل في طلبه نيفاً وعشرين الف مولود وتعذر عليه الوصول الى قتل موسى لحفظ الله تبارك وتعالى اياه .

سورة طه / آية ٣٧ - ٤٨ ٩٣

« وَاوحِينَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضَعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَنْهُ فَالْقِيَهُ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعَلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ . فَالْتَقِطْهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا . . . » (٢٨ : ٨) .

هنا وهناك يُطْلِعُهُ رَبُّهُ عَرْضاً عَلَيْهِ مِنْ مَنَّهُ قَبْلَ رِسَالَتِهِ ، لِيَزِيدَ عِلْماً وَطُمَأْنِينَةً أَنَّهُ لَمْ يَذْهَبْ وَلَنْ . . . غَفْلاً عَنْ عَيْنِ اللَّهِ وَرِعَايَتِهِ حِينَ ضَعَفَهُ عَلَى آيَةِ حَالٍ ، فَكَيْفَ يَذْهَبُ غَفْلاً فِي تِلْكَ الْحَالِ وَقَدْ بَلَغَ أَشَدَّهُ وَارْسَلَ بِالْوَحْيِ وَأَيَّاتِ الرِّسَالَةِ الْقَاهِرَةِ الْبَاهِرَةِ ؟ .

اترى لماذا الإلقاء في التابوت وهي لحمل الجنائز مما يخيف بدل ان يُطْمَئِن ؟ .

« التابوت » معرباً دليلٌ أَنَّهُ صَنْدُوقٌ خَاصٌّ ، وَعَمَلُ أَصْلِهِ « تَابَوْهُ » مِنْ « تَبَاه » الْعِبْرِيَّة (אֲבִיבָה) وَهِيَ بَيْنُ : الصَنْدُوقِ - فَلَكَ نُوحٍ وَتَابُوتُ الْعَهْدِ ، وَالْهَاءُ فِي آخِرِ (تَبَاه) إِذَا أَضِيفَتْ إِلَى كَلِمَةٍ أُخْرَى تَقْلُبُ تَاءً فَيَقَالُ : تَبَتْ مِكتَابِيَّت = صَنْدُوقُ الرِّسَائِلِ . علوم إسلامي

إِذَا فَالتَابُوتُ لَغَوِيّاً صَنْدُوقٌ خَاصٌّ فِيهِ صِيَانَةٌ تَامَةٌ لِمَا فِيهِ ، وَشَاهِدٌ لَهُ قُرْآنِيّاً « أَنْ آيَةً مَلَكُهُ أَنْ يَأْتِيَكُمْ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ أَنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لَكُمْ أَنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ » (٢ : ٢٤٨) .

فَكَمَا فِي هَذَا التَّابُوتِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ، كَذَلِكَ التَّابُوتُ الَّذِي قَذَفَ فِيهِ مُوسَىٰ وَقَذَفَ فِي الْيَمِّ تَحْمِلُهُ رِعَايَةُ اللَّهِ فِي خِصْمِ الْيَمِّ « فَلْيَلْقَهُ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوِّي وَعَدُوُّ لَهُ » !

وَعَلَّهُ هُوَ التَّابُوتُ الْأَوَّلُ نَفْسَهُ وَقَدْ وَضَعَ مُوسَىٰ فِيهِ الْمَنَ وَعَصَا هَارُونَ

٩٤ الجزء السادس عشر

ونوحى العهد ، كما في الرسالة الى العبرانيين الاصحاح التاسع : وامر اللاويين ان يضعوا فيه كتاب التوراة بجانب عهد الرب في التابوت كما في تثنية التوراة ٣١ : ٢٥ .

وعلى اية حال هو فاعول يدل على مبالغة في معناه ، يوضع فيه الثمين الثمين حفاظاً عليه-بالغاً-عن الضياع ، وقد يسمى تابوت الميت باسمه ، لانه يصونه عن الضياع حيث كان يوضع في صندوق ويدفن معه بماله من حاجيات ضرورية حيوية عله يحتاجها في قبره ! .

ولماذا « فليلقه اليم بالساحل » دون « الى الساحل » ؟ علّ الساحل هنا مأمور كما اليم ، فاليم يلقيه بواسطة الساحل الذي يلتقيه ، فقد يلقي اليم ولا يتلقى الساحل ما ألقاه ، أم يتلقى الساحل ولكن اليم لا يُلقى ، فهنا هما مأموران تكوينياً دون اختيار إلقاء وتلقياً ، وكما فرعون مأمور قذفاً في قلبه تكوين الإختيار !

إذاً فهنا اوامر اربعة ، اولها لام موسى « وثانيها لليم : « فليلقه اليم » وثالثها للساحل : « بالساحل » ورابعها فرعون : « ياخذ عذولي وعدوله » .

وترى « اليم » هنا هو البحر ؟ او النيل النهر ؟ فلماذا لم يأت كل باسمه الخاص ! .

انه البحر وعظيم النهر ، فلان النيل كان في عظمه كالبحر المنتظم ، لذلك جاء بصيغة اليم .

والضمائر الاربعة كلها راجعة الى موسى « اقذفه . فاخذفه . . فليلقه . . ياخذ » فانه الأفصح الاصح من اختلاف المراجع ، في ادب اللفظ وادب المعنى ، حيث المحور الاصيل هنا هو موسى ، وما التابوت إلا

حاملًا له كسفينة مأمورة في امر النيم والساحل .

وكيف « ياخذ عذولي وعدو له » ؟ حيث « والقيت عليك حبة مني »
فان فرعون كان يعادي كل اسراييلي عله موسى ، فكان يعاديه كاحد منهم
بهذه الحائطة ، واصل عداؤه لان بيده انهياره ، فلم ينج بهذه الطريقة
الخارقة للعادة ان يأمر باخذه من الساحل الا بما بقي عليه حبة منه ولحد
تقول اهل : « قرة عين لي ولك لا تقتلوه عسى ان ينفعنا او نتخذة ولداً
وهم لا يشعرون » (٢٨ : ٩) ! أحبته فأحبه فرعون خلافاً لما يحكمه الجح
الفرعوني !

ف « القيت » إلقاء خاص بالغاء كل بواعث العدا وكوارثه ،
و « عليك » تجعل المحبة الملقاة سترًا له يشمله كله ، فظاهره يجلب وباطنه
يجذب ، اللهم إلا فيمن يعرفه من هو وهو يعاديه لانه هو ، كفرعون الطاغية ،
ولكنه عرفه بعد وعانده ما عاند .

وترى « مني » متعلقة بـ « القيت » : القاء مني ؟ ام بمحذوف كـ
« حاصلة » ؟ او المعنيان معنيان ، فكما المحبة ملقاة من الله كعناية خاصة ،
كذلك هي حاصلة من قبل الله لمن يحب الله فيحبه الله : « ان الذين آمنوا
وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً » (١٩ : ٩٦) .

فموسى وان لم يكن منذ ولادته كما وصف الله حتى يجعل له وداً - وهو
كما وصف وفوقه - ولكنه يوده لانه سيجعله رسوله ، فهو يصنعه على عينه ،
وذلك فوق الايمان شريطة لاستحقاق الود من الرحمن .

ثم « حبة » منكرة تلمح الى ضخامتها وفخامتها القليلة النظير ،
و « مني » تجعلها خاصة من لدنه ، فقد استقرت عليه حبة ربانية ، فلا
يراه احد إلا أحبه دون ان يعرفه ، الا ان يعرفه عدو له .

فيا للقدرة العجيبة التي تجعل من المحبة اللينة الهينة درعا تتكسر عليها الضربات ، وتتحطم عليه الأمواج ، وتعجز كل قوات الشر والطغيان عن ان تمس حاملها بسوء وان كان طفلاً رضيعاً ، كيف وقد بلغ اشده ، ثم حين عرفه عدوه يترصد به كل دوائر السوء فلا يقدر عليه او يغدر به حتى اذا اردركه الفرق ونجى موسى ومن معه !

فالقوى الطاغية المتربصة بالطفل لا تقوى عليه على طفوها ، حيث « محبة مني » تحرسه عنها ، دون نزال له ولا صيال ، وهي بكل صيال ونزال !

ولماذا « القيت عليك محبة مني » ؟ لأمور عدة تستحقها رحمة مني ولتُصنع على عيني ، وهكذا يصنع الله على عينه من يشاء ان يلقي عليه محبة منه .

ام « ولتضع على عيني » - « القيت عليك محبة مني » حيث الرسل صنائع الله يصنعهم على عينه كما يشاء ويصلح لحمل اعباء الرسالة الإلهية .

ف « عيني » هنا ، وهي ككل الرقابة ، تعني عين العلم والقدرة والتربية الربانية ، فمثلت العين التربوية الإلهية تصنعه كما يريد ، وليس يعني ان في الكون شيئاً يغيب عن رؤية الله ، ولكنه يفيد الاختصاص بشدة الرعاية وفرط الحفظ والكلاءة ان تترى بحيث اراك وارعاك ، فلان الحافظ لشيء في الأغلب يديم رعايته بعينه ، جاء هنا باسم العين بدلاً من الحفظ ، تلطيفاً في الكلام ، ومشابهة لما بين الانام ، فانه تعالى يكلمنا بالاستئنا .

وهذه الصناعة تخلق على كل كيانه وكونه ، منذ أصلاب الآباء وراحام الأمهات ، الى الولادة ، الى التربية ، الى النبوة والرسالة والنبوة ، والى ان قضى نحبه .

وقد تعني « ولتصنع » فيما عنته ، أمه ، فإن صناعتها هي من صناعته في طيب الحمل والولادة ، وحسن الصنعة باثتمارها امر ربها في قذفها في اليم ، وما اجمله جمعاً بين الصناعتين فانها صناعته . ولانه صيغة التذكير ، ليست لتختص بها فانها « لتصنعي » خطاباً ، اللهم إلا في غياب الصيغة وهو بعيد عن السياق ، والجمع اجمع واجمل .

انت تُصنَع على عيني تحت عين فرعون عدواً لي وعدواً لك ، كما تحت عيني أمك ، فكما انت على عين امك بكل حنانها ، كذلك تحت عين فرعون وفي متناوله بلا أي حارس وعلى أشرف كل كارث ، ولكن عينه لا تمتد اليك إلا على عيني ، لأنني « القيت عليك حبة مني » ! .

وترى « حبة مني » مِيزه لموسى وحتى على خاتم الانبياء (صلى الله عليه وآله وسلم) اذ لم يشمله النص ، ولم يختص بنص آخر ؟ ان الرسول محمد يفوق موسى ومن فوقه بفائقات عدة ، منها ان « لا تتم الشهادة إلا ان يقال : اشهد ان لا اله الا الله واشهد ان محمداً رسول الله ، ينادي به على المنابر فلا يرفع صوت بذكر الله عز وجل الا رفع بذكر محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) معه^(١) وذلك قوله عز وجل « ورفعنا لك ذكرك » ! وانه رسول الى النبيين كما الى جميع العالمين : « واذا اخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به

(١) نور الثقلين ٣ : ٣٧٩ في كتاب الاحتجاج روى موسى بن جعفر عن ابيه عن آبائه عن الحسين بن علي (عليهم السلام) قال : ان يهودياً من يهود الشام واحبارهم قال لامير المؤمنين (عليه السلام) فلقد القى الله على موسى (عليه السلام) حبة منة ؟ قال علي (عليه السلام) لقد كان كذلك ولقد اعطى الله محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) ما هو افضل منه لقد القى الله عز وجل عليه حبة منة فمن هذا الذي يشركه في هذا الاسم اذ تم من الله عز وجل به الشهادة فلا تتم الشهادة

ولتنصرنه قال : أأقررتهم واخذتم على ذلكم اصري قالوا اقررنا قال فاشهدوا
وانا معكم من الشاهدين « (٣ : ٨١) .

﴿ اِذْ تَمْشِيْ اُخْتُكَ فَتَقُوْلُ هَلْ اَدْلٰكُمۡ عَلٰى مَنۡ يَّكْفُلُهٗ فَرَجَعْنَاكَ اِلٰى اُمِّكَ
كَيۡ تَقَرَّرَ عَيْنَهَا وَلَا تَحْزَنَ وَفَتَلَّتۡ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُوۡنًا فَلَبِثْتَ
سِنِيۡنَ فِىۡ اَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلٰى قَدَرٍ يَاۡ مُوسٰى ﴾ ٤٠ .

« وقالت لاخته قصية فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون . وحرّمنا
عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلكم على اهل بيت يكفلونه لكم وهم
له ناصحون . فرددناه الى امه كي تقرر عينها ولا تحزن ولتعلم ان وعد الله
حق ولكن اكثرهم لا يعلمون » (٢٨ : ١٣) .

هنا - وبعد قذفه في اليم والتقاط آل فرعون له - تقصه اخته بأمر أمه
فتبصر به عن جنب وهم لا يشعرون ، ولأنه لم يكن يرتضع من اي ثدي
حيث حرمت عليه المراضع من قبل إلا امه ، عرضت لهم من يكفله رضعاً
ونصحاً ، كفالة لحاجته روحية اضافة الى بدنية ، وهم بطبيعة الحال
يفتشون عن هكذا مرضعة .

« اِذْ تَمْشِيْ » عله ظرف لـ « ولتصنع على عيني » اخذاً لصناعته منذ
رضاعته وهو صنيع ربه قبلها وبعدها حتى ارتحاله الى رحمة ربه ، ولكننا
الرضاعة لأهميتها هنا كانها بداية صناعة الرب ، وهو صنيعه منذ أصلاّب
الآباء وارجام الامهات حتى النهاية في تطواف الرسالة وقضاء امرها .

فلقد كان من صناعته له على عينه ان جعله لا يقبل ثدي المرضعات
« وحرّمنا عليه المراضع من قبل » فأل فرعون يبحثون له عن مرضعة
مرضية ، وتتسامع المرضعات هذه الطلبة الفرعونية فتتسابق الى القصر تكسباً
لهذه المفخرة ان تصبح إحداهن مرضعة فرعونية ، فيدبر الله امره ان تمشي
اخته ضمن المشاة فتقدمهما لما يتطلبون « فرجعناك الى امك كي تقرر

عينها ولا تحزن » ولكي يتم وعد الله له حيث حرمت عليه المراضع من قبل ، وذلك من قرير عينها ألا يرتضع الا منها جمعاً بين حق الربوبية وصالح الرسالة وبغية الامومة ! .

وهكذا يتم التدبير الرباني للطفل وأمه ، حيث تأتمر وحيه ، وتقذف فلذة كبدها في اليم ، ليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لله وعدو له « ولتصنع على عيني » فيكون الأمن بإلقاءه في خضم اليم الملتطم ، وتكون النجاة من فرعون بإلقاءه بين يديه بلا حارس ولا معين وبكل كارث ! .

وهنا يتناسى السياق مساع موسى منذ ارتضاعه الى بلوغ اشده ، الى عرض منة اخرى :

﴿ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ ﴾

« ولما بلغ اشده واستوى آتيناه حكماً وعِلْماً وكذلك نجزي المحسنين . ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان انه عدو مضل مبين . قال رب اني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له انه هو الغفور الرحيم . قال رب بما انعمت علي فلن اكون ظهيراً للمجرمين . فاصبح في المدينة خائفاً يترقب فاذا الذي استنصره بالامس يستصرخه قال له موسى انك لغوي مبين . فلما أراد أن يبطش بالذي هو عدو لهما قال يا موسى اتريد ان تقتلني كما قتلت نفساً بالامس ان تريد إلا ان تكون جباراً في الأرض وما تريد ان تكون من المصلحين . وجاء رجل من اقصى المدينة يسعى قال يا موسى ان الملا ياتمون بك ليقتلوك فاخرج اني لك من الناصحين . فخرج منها خائفاً يترقب قال رب نجني من القوم الظالمين . ولما توجه تلقاء مدين . . » (٢٨ : ٢٢) .

فلقد اغتم موسى بهذه القتلة الخاطئة غير القاصدة كما تلمح له « فنجيناك من الغم » - « قال هذا من عمل الشيطان » - « انك لغوي مبین » فقد وكزه وكزة فاصبحت قتلة خاطئة ^(١) وحتى لو كانت عامدة ما كانت منه خطيئة ، فان القبطي كان وثنياً محارباً وحكمه واضح ، ولكن هذه القتلة غير العامدة خلّفت تأخيراً للرسالة الموسوية ، وهي من هذه الناحية كانت خطأ وغماً فنجاه الله من غمه .

« وفتناك فتوناً » عدة ، منذ رضاعتك وصباك وبلوغ اشدك في البلاط الفرعوني ، إلى قتل النفس ، وإلى قضاياك في مدين ، وفتن الرسالة هي طبيعة الحال لمن يعدُّ لها عُدة ، ولكي يتمرن على المصائب المصاعب ، ويتدرب على درب الرسالة الشاقة الملتوية ، ويتجرب بما يحضّره لكل نائبة .

وتراه كيف قتل نفساً خطأ وهو صنيع ربه ، معصوماً عن كل وصمة عامدة او خاطئة ؟ علّه من فتن الله ، المعني من « فتوناً » ولكي يعرف انه لو وكله الى نفسه طرفة عين لتطوّف وانحرف ، وذلك قبل الرسالة الرسمية حيث حصلت بعد سني مدين الفاتنة له ، المربية اياه .

يتمتحنه ربه بالخوف والهرب من القصاص ، وبالغربة ومفارقة الأهل والوطن ، وبالخدمة ورعي الغنم ، نحلة لأهله ونفقة ، وقد تربى منذ ولادته حتى حينه في قصر اعظم ملوك الأرض !

(١) الدر المنثور ٤ : ٢٩٦ - اخرج ابن ابي حاتم وابن مردويه والخطيب عن ابن عمر سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول : انما قتل موسى الذي قتل من آل فرعون خطأ يقول الله : وقتلت نفساً فنجيناك من الغم وفي المجمع روي عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) انه قال : رحم الله اخي موسى قتل رجلاً خطأ وكان ابن اثني عشرة سنة .

﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى﴾ .

وهذه السنون هي من ضمن فتنة الفتون ، حيث يصنعه ربه على عينه في شغل رعاية الغنم ورعيها ، نبجلة عن زواجه ، واستعداداً لرعاية الرسالة العالمية ورعي الامة الاسرائيلية .

و « سنين » هذه بين ثماني حجج وعشر ، وعله قدم العشر تقديماً لافضل الأمرين الإمرين واتمهما^(١) كما هي شيمة الرسل بجنب الله .

وطالما النص يلوي عن عرض أشغاله في سنيّ مدين ، حيث الأهم هو عرض هامة الرسالة بينودها ، ولكن « ثم جئت على قدر يا موسى » تقدّر مقادير تحضره في سنيّه الفاتنة الفائتة .

وذلك القدر هو قدر ولاية عزم الرسالة كما قدر الله ، الوقت المقدر لما نضج واستعد وخرج عن كل هرج ومرج ، حيث ابتلي وصبر وامتحن فجاز الإمتحان ، كما وتبّيات الظروف في مصر لتقبل الدعوة الموسوية ، إذا فهو قدر التقدير وقتاً ، وقدر المقدار حالة نفسية كما « انا كل شيء خلقناه بقدر » (٤٩: ٥٤) واين قدر عام من ذلك القدر ، ومن قدره عمره الأربعون .

فموسى قبل جيئته هذه كان « إلى قدر » ولكنه بعد رده من الزمن ، وذوق الفتن كما الذهب غير الخالصة تفتن لخلاصها فخلوصها « ثم جئت على قدر » واصلا اليه ، محيطاً عليه ، لائقاً لابقاً لحمل أعباء الرسالة الى فرعون وملاه ، وفي هذه الجيئة الثانية :

﴿وَاصْطَلَعْتَكَ لِنَفْسِي﴾^(١) .

(١) نور الثقلين ٣ : ٣٨٠ في تفسير القمي قيل للصادق (عليه السلام) اي الاجلين قضى ؟ قال : انما عشر حجج .

وهي افتعال من صنعتك ، اذ ليست الصناعة الرسالية الموسوية كسائر الصنعة لسائر الناس ، فان فيها مزيداً عليهم ، يحضره رسولاً اليهم و « نفسي » بيان لغاية ذلك الإصطناع ، حتى يكون رسولاً معصوماً أميناً من الله .

فليس موسى لنفسه ولا لسواه إلا الله ، يعيش حياته الرسالية في الله والله ، دون اتباع لهواه آمن سواه ، فانه بعين الله ومختار الله وصنيع الله ، فكيف يكون لغير الله ! .

ثم المنتفع من غاية اصطناعه ليس إلا هو ومن ثم المرسل اليهم ، فان الله ليس لينتفع من عباده « فالله هو الغني وانتم الفقراء » وما لم يكن العبد لله لم يكن لنفسه ولا لعباد الله .

ولانني « اصطنعتك لنفسي » وجعلت لك وزيراً من اهلك هارون اخاك ف :

﴿ اِذْهَبْ اَنْتَ وَاخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تِئَامَ فِي ذِكْرِي ﴾ .

« اذهب » بجمل الرسالة العالمية لبلاغها « انت » كأصل فيها ورأس الزاوية لها « واخوك » أزرأ ووزيراً ، « بآياتي » الدالة على رسالتكما الإلهية « ولا تئام في ذكرى » من الوئي : الفترة والضعف والكلال والإعياء والإهمال والتقصير .

ثم « ذكرى » هي من اضافة المصدر الى الفاعل والى المفعول : ذكرى اياكم وذكركم اياي ، قالاً وحالاً وأفعالاً ، في انفسكم وفي المرسل اليهم ، حيث العقبات أمام ذكر الله كثيرة خطيرة ، فلتكافح الرسالة كافة العراقيل ، لتجتازها الى تحقيق رسالة الله في عباد الله .

ولقد كان الأمر قبل استجابته في سؤله يخصه : « اذهب الى فرعون

سورة طه / آية ٣٧-٤٨ ١٠٣

انه طغى « وهنا يُشْفَعُ به اخوه تحقيقاً لسؤاله ، وترى هارون الغائب الآن عن هذا المحضر كيف يؤمر بما يؤمر به موسى ؟ انه يؤمر ضمن ما يؤمر موسى ، وبلاغه اليه على عاتق موسى ، وكما اوحى الى هارون نفسه في نفس الوقت مهما كان بعيداً عن ذلك المحضر ، حيث الكون كله مُحَضَّرٌ لله ، يخاطب من يريد خطابه مهما اختلف الزمان والمكان .

ام انه خوطب بعدما اجتمع الى هارون ، ودليلاً عليه « قالوا ربنا انا نخاف ان يفرط علينا او ان يطغى »^{٤٥} والسياق القرآني يطوي الزمان والمكان ويترك فجوات بين مشاهد القصص ، هي معلومة من نفس السياق ، ليصل مباشرة إلى المواقف الحية الموحية ذات الأثر الأعمق في سير القصص وفي وجدان الناس .

وفي جمعية الآيات « بآياتي » ولم يؤت من ذي قبل إلا آيتي العصا واليد البيضاء ، تبشيرهما الى آيات اخرى .

﴿ اِذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ۖ ١٣٢ ﴾

وهنا تخص دعوة الداعية بعد عمومه فرعون الطاغية لانه رأس الزاوية في عرقلات الدعوة ، وكل دعوة أهية تبدء بالسلب وتنتهي الى الايجاب ، فما دامت الفرعنات قائمة ، لا تجد الدعوة الآهية مجالاً لتحقيقها ، اذاً ف « اذهبا » في بداية الدعوة « الى فرعون » ولماذا ؟ لـ « انه طغى » استعباداً لبني اسرائيل ، واستعباداً بالحكم عليهم ، فلتبدأ بحسمه وقصمه لكي تجد الدعوة سبيلاً الى تطبيقها .

ترى وكيف يصلح ذهاب الداعية الى الطاغية ، اصلاً له ، ام سداً عن بأسه وصدداً عن سلطانه ؟

﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ۖ ١٣٣ ﴾

١٠٤ الجزء السادس عشر

ونص القول اللين نجده في النازعات « اذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى . اذهب الى فرعون انه طغى . فقل هل لك الى ان تزكى . واهدك الى ربك فتحشى » (١٩) وكما نجده هنا « فقولاً . . . » .

ونرى الداعية موسى طول حوار مع فرعون الطاغية لا يقول له إلا قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى» ولكنه زاد طغوى على طغوى ، وهذه طبيعة حال الدعوة الصالحة ان تكون لينة بالتي هي احسن ، بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي احسن ، استنباطاً لدفين الحق المستور تحت ستار الهوى ، وفي آخر المطاف « فان عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتهم ولئن صبرتم هؤاخير للصابرين » (١) .

ثم القصد من هذا الذهاب الى فرعون بقول لين « لعله يتذكر » فتحصل له تقوى بعد طغوى ، ام اذا لم يتذكر هكذا « او يخشى » لاقل تقدير ، فتلك عبادة التجار وهذه عباد العبيد وقبلها للاحرار ان يعبدوا الله لانه الله .

مركز تحقيقات كامتور علوم اسلامی

(١) الدر المنثور ٤ : ٣٠١ - اخرج احمد في الزهد عن ابن عباس قال لما بعث الله موسى الى فرعون قال لا يغرنكما لباسه الذي البسته فان ناصيته بيدي فلا ينطق ولا يطرف الا باذني ولا يغرنكما ما متع به من زهرة الدنيا وزينة المترفين فلو شئت ان ازينكما من زينة الدنيا بشيء يعرف فرعون ان قدرته تعجز عن ذلك لفعلت وليس ذلك لهوانكما علي ولكني البستكما نصييكما من الكرامة عن ان لاتنقصكما الدنيا شيئاً واني لأذود اوليائي عن الدنيا كما يذود الراعي ابله عن مبارك الغيرة واني لاجنبهم كما يجنب الراعي ابله عن مراتع الهلكة اريد ان انور بذلك صدورهم واطهر بذلك قلوبهم في سيماهم الذين يعرفون بهم وامرهم الذي يفتخرون به واعلم انه من اخاف لي ولياً فقد بارزني وانا الثائر لاوليائي يوم القيامة .

اقول : مثل ابن عباس لا ينقل حديثاً قدسياً عن الله دون ان يسمعه من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إذا فهو عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) .

ولان موسى قد تربى عند فرعون ، ثم قتل منه نفساً ، ثم يأتيه رسولاً ، وهو الطاغية الباغية ، فهذه الاربعة تدفع الداعية الى قول لين معه اكثر من الواجب في طبيعة الحال الرسالية حيث القصد - لاقبل تقدير - سدّ اذاه وإخماد لظاه ، وخشن القول مما يزيد لظى في اذى .

وكيف « لعله » ولا تردّد في علمه سبحانه انه لا يتذكر ولا يخشى ؟ انه ترجّ للداعية نتيجة الدعوة بصورة عامة ، وحتى اذا تأكد انه لا يتذكر ولا يخشى ، فانها « عذراً او نذراً » فالنذر بين تذكر وخشية، والعذر لبلاغ الحجة ، ولكيلا تكون للناس على الله حجة ، حيث الناس في انقسامات ثلاث ، ناس وأشباه ناس ونسناس ، فالناس بين دعاة يدعون ، ومدعوين يتقبلون الدعوة، والنسناس هم المصرون على الباطل ، وأشباه الناس عوان بينهما متوقفين بين الأمرين .

وعلى الدعات ان يكونوا في دعوتهم « عذراً او نذراً » فالعذر أمام النسناس لبلاغ الحجة ، والنذر للذين يتقبلون الدعوة دون امهال فهم المتذكرون ، وللعوان المترددين المتقبلين بامهال فهم الخاشون ، و« لعله يتذكر او يخشى » يخص الاخيرين ويجمعهما « نذراً » ثم « عذراً » على الاولين .

والباعث القوى للدعوة ان يتذكر المدعو او يخشى ، وأما ان يطغى كفرعون فباعث الدعوة فيه ضعيف ، ورجاء التأثير في الدعوة هو الباعث لها بقوة .

فـ « عذراً او نذراً » هما رسم لخطوط الدعوة وخيوطها بصورة عامة ، واما الدعوة الخاصة كما الى فرعون ، فلا تصلح ان يؤكد فيها انه « عذراً » قطعاً بعدم التأثير ، فانه ونيّ للدعوة شاء الداعية ام ابن ، « فانما قال :

«لعله يتذكر أو يخشى» ليكون احرص لموسى على الذهاب»^(١) ام وباحرى انه تذكر وخشي ولكن متى ؟ عند رؤية الباس ، حين لا تنفعه الخشية والذكرى^(٢) .

(١) نور الثقلين ٣ : ٣٨٠ في علل الشرايع بسند متصل عن محمد بن ابي عمير قال قلت لموسى بن جعفر (عليهما السلام) اخبرني عن قول الله عز وجل لموسى « اذهب الى فرعون انه طغى فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر او يخشى » فقال : اما قوله فقولا له قولاً ليناً اي كنياه وقولا له يا ابا مصعب وكان كنيته فرعون ابا مصعب الوليد بن مصعب ، اما قوله « لعله يتذكر او يخشى » فانما قال ليكون احرص لموسى على الذهاب وقد علم الله عز وجل ان فرعون لا يتذكر ولا يخشى الا عند رؤية الباس الا تسمع الله عز وجل يقول : « حتى اذا ادركه الغرق قال آمنت انه لا اله الا الذي آمنت به بنو اسرائيل وانا من المسلمين » فلم يقبل الله ايمانه وقال : « الآن وقد عصيت من قبل وكنت من المفسدين » .

وفيه عن تفسير القمي عن عدي بن حاتم وكان مع امير المؤمنين (عليه السلام) في بعض حرويه ان علياً (عليه السلام) قال لبيبة الهريز بصفين حين التقى مع معاوية رافعاً صوته يسمع اصحابه : لاقتل معاوية واصحابه ثم قال في آخر قوله : ان شاء الله - يخفض به صوته وكنت منه قريباً فقلت يا امير المؤمنين انك حلفت على ما قلت ثم اشيت فيما اردت بذلك ؟ فقال : ان الحرب خدعة وانا عند اصحابي صدوق فاردت ان اطمع اصحابي في قولي كيلا يفسلوا ولا يفروا فافهم فانك تنفع بهذا بعد اليوم ان شاء الله تعالى ، وعن الكافي مثله وفيه بعد ان شاء الله تعالى : واعلم ان الله جل ثناءه قال لموسى (عليه السلام) حين ارسله الى فرعون « فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر او يخشى » وقد علم انه يتذكر ولا يخشى ولكن ليكون ذلك احرص لموسى (عليه السلام) على الذهاب .

(٢) البحار ١٣ : ١٣٥٠ عن ابي عبد الله (عليه السلام) في حديث له طويل حول القصة قال له سفيان قلت يا ابن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) هل يجوز ان يُطعم الله عز وجل عباده في ما لا يكون؟ قال : لا فقلت : فكيف قال الله عز وجل لموسى وهارون « لعله يتذكر او يخشى » وقد علم ان فرعون لا يتذكر ولا يخشى؟ فقال : ان فرعون قد تذكر وخشي ولكن رؤية الباس حيث لم ينفعه الايمان .

سورة طه / آية ٣٧ - ٤٨ ١٠٧

وعلى اية حال فالقول اللين لا يثير العزة بالاثم ، ولا يهيج الكبرياء
الزائف التي يعيشها الطغيات ، بل ومن شأنه ايقاظ القلب غير المقلوب ،
والحجة القاطعة على القلوب .

﴿ قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْفِئَ ﴾ (٤٥) .

هنا خوف الداعية في سبيل الدعوة ، يعرضه على الله ، لا اعراضاً عن
امر الله ، وانما سؤالاً لمزيد التأييد كما سأل من ذي قبل فاعطي سؤله .

فلم يكن خوفاً للداعية على نفسه « ولهم علي ذنب فأخاف ان يقتلون »
(٢٦ : ١٤) اذ طمأنه ربه لما اعطاه سؤله : « سنشد عضدك باخيك
ونجعل لكما سلطاناً فلا يصلون اليكما » (٢٨ : ٣٥) .

ف « ان يفراط علينا » كرسولين ، فرطاً على الدعوة تعجلاً بالعقوبة
قبل الآية المعجزة ، و « او ان يطفئ » هي طغوى عليهما وعلى بني
اسرائيل ، بعدما طغى ، فهي مزيد الطغوى ، اظهاراً لدفينها .

فذلك - اذاً - خوف على الدعوة ان يسبقها فرط من فرعون بقتل
الداعية ، ام يزيد طغوى على طغوى ، فلا تفيد - اذاً - هذه الدعوة الا
بنصرة الهية هي المطلوبة في ذلك العرض .

فها هما ذان الرسولان المأموران الخائفان على بلاغ الرسالة يتوجهان الى
ربهما بمخاوفهما ، وَيُطْمِئِنِّيهَا رَبُّهُمَا فَيُطْمِئِنَّا عَلَى طَوْلِ الْخَطِّ إِلَى نَهَايَةِ الْمَطَافِ .

﴿ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ (٤٦) .

« لا تخافا » على آية حال لـ « انني معكما » معية العلم والقدرة والنصرة
« اسمع » المقال « وارى » الحال ، ولست اهمل الرسول والرسالة ، او امهل
الفارط والطاغي على الدعوة ، فان ذلك نقص في الرسالة ، ونقص
للهدف من الدعوة !

وهذه المعية الربانية تعم المسلمين كافة والذين معهم على درجاتهم :
« انا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد » ولا
تعني النصر الضمان على حياة الرسول والمؤمنين ، وعدم أذاهم ، وانما هي
الضامنة لحياة الرسالة والايمان وتقدمهما وثباتهما مهما صعبت الظروف
والتوت .

فلا تعني « انني معكما اسمع وارى » عدم مسهما بأي اذى وقدمتهما اذى
كثيرة ، حتى ولا عدم قتلها مهما لم يقتلا ، وهذه هي سنة الربوبية في
الرسالات كلها « انني معكما اسمع وارى » .

وترى كيف خافا على اي امر كان وهما رسولان و « اني لا يخاف لدي
المرسلون . الا من ظلم ثم بدل حسناً بعد سوء فاني عفور رحيم »
(٢٧ : ١١) ؟

المهم هنا موقف « لدي » وقد حصلت لهما لما طمأنهما ربهما « انني معكما
اسمع وارى » فزال عنهما كافة المخاوف في سبيل الدعوة الى فرعون الطاغية
ومن معه ! .

ومن « قولاً لينا » هنا بعدما في النزاعات « هل لك الى ان تزكى .
واهديك الى ربك فتخشى » (١٩) : بصيغة اخرى تفصيلاً للاخرى :

﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعْذِّبْهُمْ
قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ^{٤٧} إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا
أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ^{٤٨} .

وتراهما كيف أتياه ومن عادة الطغاة عدم السماح لمن يستأذن منهم ، إلا
إذا كان لصالحهم وهم يعرفون بصدق لهم واخلاص ؟ .
يروى انه « اتى باباه فاستأذن عليه ولم يؤذن له فضرب بعصاه الباب

فاصطكت الأبواب مفتحة ثم دخل على فرعون فاخبره انه رسول من رب العالمين ..^(١) ولكنه خلاف اللين في اللقاء مهما كان مع البواب ، وقد تعامت الآية عن كيف دخل فنسكت عما سككت الله عنه .

ونرى هنا أَلين اللين في بزوغ الدعوة ، فلم يقولوا « انا رسولا رب العالمين » كيلا ينبري لإدخاله في العالمين ، وهو داخلهم ! ولا « انا رسولا ربنا » فصلا له عن ربهما وهو فصل عن قبول اصل الدعوة ، وهو الطاغية الداعية : « انا ربكم الاعلى » وانما « انا رسول ربك » الذي ربك ، فلست انت رباً لنفسك ، ولا لغيرك ممن هو مثلك من العالمين ، ولا انت رب

(١) البحار ١٣ : ١٢٠ عن القمي أبي عن ابن فضال عن ايسان بن عثمان عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : لما بعث الله موسى الى فرعون اتي باباه .. وفيه ١٣ : ١٠٩ الصدوق باسناده عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : ان فرعون بنى سبع مدائن فتحصن فيها من موسى فلما امره الله ان يأتي فرعون جاءه ودخل المدينة فلما رآته الاسود بصيصت بأذنانها ولم يأن مدينة الا انفتح له حتى انتهى الى التي هو فيها فقعده على الباب وعليه مدرعة من صوف ومد عصاه فلما خرج الأذن قال له موسى (عليه السلام) اني رسول رب العالمين اليك فلم يلتفت فضرب بعصاه الباب فلم يبق بينه وبين فرعون باب الا انفتح فدخل عليه وقال انا رسول رب العالمين فقال اتني بآية فالقى عصاه وكان لها شعبتان فوقعت احدى الشعبتين في الارض والشعبة الاخرى في اعلى القبة فنظر فرعون الى جوفها وهي تلتهب ناراً وأهوت اليه فاحدث فرعون وصاح يا موسى خذها ولم يبق احد من جلساء فرعون الا هرب فلما اخذ موسى العصا ورجعت الى فرعون نفسه هم بتصديقه فقام اليه هامان وقال : بينا انت اله تعبد اذ انت تابع لعبد واجتمع الملا وقالوا : هذا ساحر عليم ، فجمع السحرة لميقات يوم معلوم فلما القوا لهم وعصيتهم القى موسى عصاه فالتصمتها كلها وكان في السحرة اثنان وسبعون شيخاً خووا سجداً ثم قالوا لفرعون ما هذا سحر لو كان سحراً لبقيت حبالنا وعصينا ثم خرج موسى (عليه السلام) ببني اسرائيل يريد ان يقطع بهم البحر .. اقول « ثم هنا تفصل بين بداية امره ونهايته كما هو مستفاد من آيات القصة .

١١٠ الجزء السادس عشر
العالمين ، وانما لك رب ربك كما ربانا وربى سائر العالمين ، تهديماً لصرح
الخرافات الوثنية ان لكل قوم إلهاً أو آلهة كما كانت سائدة بينهم .

ف « ربك » هنا اختصاصاً له بربوبيته تعالى يوافق طبيعة حاله ،
ويستحثه على سؤاله العجائب ، من هو ذلك الرب ، وطبعاً هو ربكما كما
هوربي ، ولذلك ارسلكما الي على زعمكما .

وقد جمع في « إنا رسولا ربك » حجة بارعة قارعة على لينها ، دون ان
تؤثر اللينة في قاطعية الحجّة فتتقص عنها ، ولا ان تؤثر الحجّة في تحول
اللينة الى القساوة ، وهذه هي الجدال بالتي هي احسن ، ان تزداد عنها
مساويها ، وتزداد فيها محاسنها ، فتصبح قاطعة على لينوثه ، ولينة على
قاطعيته !

ثم في هذه البداية لا يفرعان على « إنا رسولا ربك » تطلب الإيمان
به من فورهما ، وانما ادنى ما يتطلب من مريبوب لربه ان يتخلى عن سلطته
الظالمة على مستضعفي عبادة :
مركز تحقيق وتطوير علوم إسلامي

« فأرسل معنا بني اسرائيل ولا تعذبهم » كان ذلك هو فقط مادة الرسالة
اليه لا سواها ، ولكي لا تأخذه العزة بالاثم والغيرة ، فيأتي بمعرة فوق
معرة .

« فأرسل معنا بني اسرائيل » كإيجاب واحد في هذه الرسالة « ولا
تعذبهم » كسلب واحد فيها ، و « لا تعذبهم » بدل « لا تظلمهم » ليونة
في التعبير ، حيث الظلم يخص القبيح ، والعذاب منه قبيح ومنه صحيح ،
ولأنهما يرأسان بني اسرائيل ، فلو انهم يستحقون العذاب فحول عذابهم اليها
وأرسلهم معنا ، فلا لكم ولا عليكم اي شأن منهم شائناً ام سواه .

ولئن تطلب برهاناً على هذه الرسالة ف « قد جئناك بآية من ربك » آية

ذات دلالتين ، اولاهما انه ربك ، وثانيتهما انا رسولا ربك .

ولماذا « آية » وقد اوتي موسى تسع آيات حيث ارسل « في تسع آيات الى فرعون وقومه » (٢٧ : ١٢) ؟ .

لان الموقف هنا في مقام اثبات رسالتهما بآية آلهية ، دون كمها وكيفها ، وان الآيات التسع هي كواحدة في اصل التدليل على صحة الربوبية والرسالة ، فأيات الرسالات كلها تنحو منحى هدف واحد هو اثبات الرسالة الإلهية ، على اختلاف صورها وسيرها .

وهنا بعد ثبوت الرسالة والألوهية - وهما الهدى الإلهية - يخطط مصير كل من اهل الهدى والردى بمسيرهما :

« والسلام على من اتبع الهدى » دون من عارضها ، ام لا لها ولا عليها ، فهلا تريد يا فرعون ان تكون من اهل السلام باتباع الهدى وترك الهوى .

ثم العذاب وانت تغذب ببي اسرائيل « انما قد اوحى اليها ان العذاب على من كذب وتولى » كذب الهدى بعد اتيانها ، وتولى عنه الى غيرها ، فهل انهم كذبوا الهدى وتولوا عنها حتى يستحقوا عذابك ؟ وهم موحدون مهتدون ! .

ام انت المكذب للهدى ، المتولي عنها ولذلك تطغى ، فاترك الطغوى الى التقوى حتى يسلم السلام على من اتبع الهدى ، وذلك تنديد بكل مكذب بحق متولٍ عنه اياً كان^(١) .

(١) نور الثقلين ٣ : ٢٨١ في اصول الكافي باسناده الى عبد الله بن ابراهيم الجعفري قال : كتب ابو الحسن موسى بن جعفر (عليه السلام) الى يحيى بن عبد الله بن الحسن : اما بعد فاني احذرك ونفسي واعذك اليم عذابه وشديد عقابه وتكامل نعماته =

نرى هنا في ذلك العرض الحكيم لتلك الرسالة السامية كل برهنة ساطعة قوية بكل ليونة ، فلا ينسبان الى الطاغية تكذيباً للهدى وتولياً عنها واستحقاقاً للعذاب بصيغة صريحة ، وانما يوضحان اسباب الهدى والردى بمسيرهما ومصيرهما ، وليعرف فرعون من هو من هذا البين « لعله يتذكر او يخشى » !

فهنا ترغيب واستمالة « والسلام على من اتبع الهدى » فلعله منهم ، يتلقى السلام باتباع الهدى ، ثم تحديد وتحذير غير مباشرين كيلا يستثيرا كبرياءه او يحبطاه من علواءه : « انا قد اوحى اليك ان العذاب على من كذب وتولى » فلعله ليس ممن كذب وتولى .

ولماذا هنا « رسولا ربك » وفي سائر القرآن « رسول - او - رسولا رب العالمين » ؟

لان الذي هو رب فرعون المدعي للالهية اخرى ان يكون رباً للعالمين اجمعين ، اذا فـ « رسولا ربك » صيغة اخرى عن « رسولا - او - رسول رب العالمين » ام انه قالهما بصيغة عامة لكافة المرسل اليهم واخرى خاصة بفرعون رعاية لليونة التعبير .

هنا يمتن فرعون على موسى ان ربه وليداً كانه نعمة تمنعه عن هذه

= واوصيك ونفسي بتقوى الله فانها زين الكلام وتثبت النعم - الى قوله - : احذرك معصية الخليفة واحثك على بره وطاعته وان تطلب لنفسك اماناً قبل ان تأخذك الاظفار ويلزمك الخناق من كل مكان فتروح الى النفس من كل مكان ولا تجده حتى يمن الله عليك بمنه وفضله ورقة الخليفة ابقاه الله فيؤمنك ويرحمك ويحفظ فيك ارحام رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) والسلام على من اتبع الهدى انا قد اوحى اليك ان العذاب على من كذب وتولى .

(١) ففي الاعراف والزخرف « انا رسول من رب العالمين (١٠٤) وفي الشعراء « انا رسولا رب العالمين (١٦) قال فرعون وما رب العالمين (٢٣) .

الرسالة جزاء بها : « قال الم نريك فينا وليداً ولثبت فينا من عمرك سنين .
وفعلت فعلتك التي فعلت وانت من الكافرين . قال فعلتها اذاً وانا من
الضالين . ففررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكماً وجعلني من
المرسلين . وتلك نعمة تمنها علي ان عبدت بني اسرائيل . قال فرعون وما
رب العالمين » (٢٦ : ٢٣) .

فهنا نرى الطاغية يلوي شدقه متجاهلاً ان الله ربه ، سائلاً موسى
وهارون عن ربهما دون ربه ولما يعترف به .

قَالَ فَمَنْ

رَبُّكُمْ يَا مُوسَى ﴿١٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ
خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴿٢٠﴾ قَالَ فَمَنْ بِالْقُرُونِ الْأُولَى ﴿٢١﴾ قَالَ
عَلَيْهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٢٢﴾
الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا
سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا أَزْوَاجًا مِنْ
نَبَاتٍ شَتَّى ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَمَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٢٤﴾ * مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا
نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ

ءَايَتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَإِنِّي ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِنُخْرِجَنَّا مِنْ
 أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمُوسَى ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ
 فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ
 مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشِّرَ
 النَّاسُ خُشْيَ ﴿٥٩﴾ فَنُتَوَّكَ فِرْعَوْنَ بِحَمَعٍ كَبِدَهُ ثُمَّ إِنِّي ﴿٦٠﴾
 قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيَلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ
 بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى ﴿٦١﴾ فَتَنَزَّعُوا أَمْرَهُمْ
 بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا السَّجُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا إِن هَذَا إِلَّا لَسِحْرَانِ
 يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا
 بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَّى ﴿٦٣﴾ فَأَجْمَعُوا كَيْدَهُمْ ثُمَّ أَتَتْهُمُ صَفًّا
 وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى ﴿٦٤﴾ قَالُوا يَمُوسَى إِمَّا أَنْ
 تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا
 فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا
 تَسْعَى ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةُ مُوسَى ﴿٦٧﴾

قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴿٧٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ
 تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ^ط إِنَّمَا صَنَعُوا كِبْدُ سِحْرِ ^ط وَلَا يُفْلِحُ
 السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴿٧٩﴾ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ بُجْدًا قَالُوا ءَامَنَّا
 بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ﴿٨٠﴾ قَالَ ءَامَنُتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ
 لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّكُمْ السِّحْرَ فَلَأَقْطَعَنَّ
 أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ ^ط وَلَأَصْلَبَنَكُمْ فِي جُذُوعِ
 النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴿٨١﴾ قَالُوا لَنْ
 نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ
 مَا أَنْتَ قَاضٍ ^ط إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٨٢﴾
 إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِئَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ
 مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَبِيرٌ وَأَبْقَى ﴿٨٣﴾ إِنَّهُ مِنْ بَيِّنَاتِ رَبِّهِ
 مُجْرِمًا فَإِنْ لَهُ جَهَنَّمُ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴿٨٤﴾
 وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ
 الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ﴿٨٥﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا

الْأَنْهَرُ خَلِيدِينَ فِيهَا^١ وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى^٢

﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى ﴾^٣

هنا يخاطب موسى في « من ربكما » اذ عرف انه الاصل في هذه الرسالة، وذلك السؤال تهكم في الحوار، وتراه دهرياً ناكراً لالوهية الله لقوله « انا ربكم الاعلى » وقوله هنا « من ربكما » ناكراً لربهما الذي لا يصدقه رباً لنفسه ، وفي القصص « وقال فرعون يا ايها الملأ ما علمت لكم من آله غيري فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً لعلني اطلع الى آله موسى واني لاظنه من الكاذبين »^(١) وهذا ظاهر الحال من قوله .

ام انه ناكراً لربوبيته وعبوديته دون الوهيته ، ولا دليل عليه إلا تأويل عليل ! .

انه ناكراً للربوبية العالمية ككل فضلاً عن ربوبية رب العالمين لنفسه فيقول هنا « ومن ربكما يا موسى » ثم في الشعراء « وما رب العالمين » استنكاراً للربوبية العالمية التي يقولها موسى وهارون لربهما .

وعلى اية حال فهذه النخوة الجاهلية هي من شيم الفراعنة ، وكما واجهه آذنه أول مرة بكلمته الهازئة اللاذعة « اما وجد رب العالمين من يرسله غيرك »^(٢) .

(١) وكذلك في المؤمن « وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحاً لعلني ابلغ الاسباب اسباب السماوات فاطلع الى اله موسى واني لاظنه كاذباً ... » .

(٢) البحار ١٣ : ١٣٧ يسوق القصة مرفوعة .. حتى انتهى الى قصر فرعون الذي هو فيه فقمعد على بابه وعليه مدرعة من صوف ومعه عصاه فلما خرج الأذن قال له =

اجل وهم كما قال الإمام أمير المؤمنين (ع) : ان الله سبحانه يختبر عباده المستكبرين في انفسهم باوليائه المستضعفين في اعينهم ولقد دخل موسى بن عمران ومعه اخوه هارون على فرعون عليها مدارع الصوف وبايديهما العصي فشرطا له ان أسلم بقاء ملكه ودوام عزه فقال : ألا تعجبون من هذين يشترطان لي دوام العز وبقاء الملك وهما بما ترون من حال الفقر والذل ، فهلا القي عليهما اساورة من ذهب؟ إعظاماً للذهب وجمعه ، واحتقاراً للصوف ولبسه ، ولو اراد الله سبحانه باتيئائه حيث بعثهم ان يفتح لهم كنوز الذهبان ومعادن العقيان ومغارس الجنان وان يحشر معهم طير السماء ووحوش الأرض لفعل ، ولو فعل لسقط البلاء وبطل الجزاء واضمحل الأنبياء ولما وجب للقابلين اجور المبطلين ولا استحق المؤمنون ثواب المحسنين^(١) .

﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ .

تعريف جامع خاصر حاصر رب العالمين ، فان كان فرعون شيئاً شملته ربوبية رب العالمين وهدايته ، وان لم يكن شيئاً ، فما للأشياء ان يعارض في الربوبية رب كل شيء ؟ .

ذلك اجمال من تفصيل الشعراء : « قال فرعون وما رب العالمين . قال رب السماوات والأرض وما بينهما ان كنتم موقنين ... ربكم

= موسى استأذن لي على فرعون فلم يلتفت اليه فمكث بذلك ما شاء الله يسأله ان يستأذن له فلما اكثّر عليه قال له : اما وجد ... فغضب موسى فضرب الباب بعصاه فلم يبق بينه وبين فرعون باب الا انفتح حتى نظر اليه فرعون وهو في مجلسه فقال : ادخلوه فدخل عليه ...

(١) البحار ١٣ : ١٤١ عن نهج البلاغة عن الامام علي أمير المؤمنين (ع) .

١١٨ الجزء السادس عشر

ورب آبائكم الاولين .. رب المشرق والمغرب وما بينهما ان كنتم تعقلون «
(٢٦ : ٢٨) .

و « اعطى كل شيء خلقه ثم هدى » هي الربوبية الشاملة لكل خلق ولكل هدى ، فليس الخالق غير الهادي - لو كان - رباً ، وليس الهادي غير الخالق - لو كان - رباً ، والرب هو الذي يجمع بينهما بصورة شاملة كاملة دون إبقاء .

ف « ربنا » هنا جواب عن « فمن ربكما » ثم « الذي .. » يتخطى فيه ربوبيته الى كل شيء ومنه فرعون وملأه ، وهذه بلاغة بارعة في الحوار ان يتبنى ما يتبنى عليه الخصم دون زيادة ولا نقصان ، فلما قال « انا رسولا ربك » قدمناه في صلاته بالرب ، ثم لما قلب الامر فحول اليهما : « فمن ربكما » تحولاً قائلين « ربنا » ولكنه في مواصفة تعرف به انه رب كل شيء ومنه فرعون وملأه .

وترى « خلقه » مصدر ؟ وهو فعل الرب ، لا يعطيه لاي شيء حتى افضل الكائنات ! ام هو المخلوق ؟ وكيف يُعطى مخلوق لمخلوق ! .

انه اسم المصدر ، واعطاء الخلق لكل شيء هو ايجاده عطية منه ربانية ، وحاصل الایجاد هو الوجود ، وحاصل الخلق هو المخلوق ، فالوجود المخلوق هو المعنى من « خلقه » .

وترى ما هو الشيء الذي يُعطى خلقه ، فان كانت العطية قبل وجوده فليس شيئاً حتى يُعطى خلقه ، وان كان بعد وجوده فهو تحصيل للحاصل ، إذاً فلا حاصل لـ « أعطى كل شيء خلقه » ؟

الشيء هنا هو الكائن مستقلاً ، واطلاق كلمة الشيء عليه باعتبار الأول دون الفعلية ، فمثله كمثل قوله « انما امره اذا اراد شيئاً ان يقول له

كن فيكون » .

ثم الشيء ان كان هو المادة الأولية للكون فاعطاء خلقه هو ايجاده لا من شيء ، وان كانت المواد الاخرى المتحولة عنها ، ثم كل عن الاخرى ، فاعطاء خلقه هو تحويله وتغييره ، فهو خلقه من شيء خلقه قبله ، فهناك شيء اول شيئاً سائر الاشياء منه على اختلاف ذراتها وجزياتها وعناصرها .

ومن ثم « ثم هدى » تعني تراخي الهدى رتبياً عن الخلق وزمناً على طول الخط ما دام الكون كائناً ، والهدى لزام الخلق عطاءً وإلا فضلال يخالف حكمة الخلق « الذي خلقتني فهو يهدين » (٣٦ : ٣٨) « سبحانه اسم ربك الاعلى . الذي خلق فسوى . والذي قدر فهدى » (٧٨ : ٣) .

فالهدى لزام الخلق بعده، ومهما كان معه زمناً فانه بعده رتبياً ، و « ثم » هنا تدل على التأخر رتبياً او زمناً ام فيهما ، فمن الهدى ما لا يصل اليها الخلق : إلا بعد شروط تتطلب زمناً بعيداً ، ومنها ما هي له منذ خلق ، هدىً اولى هي التي تخطو بالخلق إلى مراتب اخرى ، فكل خلق يعيش هدى تناسب حاله والهدف من خلقه ، وليس الضلال في كون او شرعة ام تطبيقها إلا تخلفاً من النسناس الذين يعارضون شريعة الناس ويعرقلون السير على السالكين سبيل الهدى ، ثم الهدى هنا بعد الخلق تعم التسوية والتقدير كما في آيتي الاعلى ، وهي ككل تعم الهدى التكوينية في كل شيء ، وهي القوانين المحكّمة على كل شيء ، هندسياً وكيمياوياً وفيزيائياً اما هي ، والغريزية في اصحابها ، ثم الفطرية والعقلية في العقلاء ، ومن ثم الهدى التشريعية لهم ، وعلى ضوءها تكوينية اخرى « والذين اهتدوا زادهم هدى » (٤٧ : ٢٧) .

ثم و « ثم هدى » كما تعني هدى كل الى الكمال اللائق به الهادف له ، كذلك هدى كل الى الآخر تكميلاً له او تكاملاً به ف « ما ترى في

خلق الرحمن من تفاوت « (٦٧ : ٣) .

فقد هدى الخلق ككل منذ البداية حتى النهاية بما تزاح به العلل ، ويتكامل معه الخلق ، من سلامة الاعضاء واعتدال الاجزاء وترتيب المشاعر والحواس ومواقع الاسماع والابصار ، لكل على حسبه وبمستواه ، وذلك هو الخلق الحكيم سبحانه الخلاق العظيم .

ومثالاً على تلك الهدى الشاملة هدى الأرض لتسجيل الصور والاصوات : « يومئذ تحدث اخبارها . بان بك اوحى لها » ثم هدى النحل الى هندسة بيوتها واستجلاب عسلها : « واوحى ربك الى النحل » ومن ثم كل وحي الى كل حي وميت من الكائنات تهدي به الى ما خلقت لأجله تكوينياً وتشريعياً من مختلف طرق التكامل مادياً^(١) ومعنوياً . وقد تعني « ثم هدى » مثلث الهدى ، ثانیتها هدى كل شيء الى ربه فـ« ان من شيء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » (١٧ : ٤٤) والثالثة هدى العقلاء-بإحكام الخلق في كل شيء الى الخالق الحكيم ، إذأفـ« هدى » تعني كل شيء الى شيء ، وبعض الشيء الى مخلوقه سائر الأشياء بدلالة عقلية ، فما من هدى تكوينية او تشريعية او شرعية فعلية ام مستقبلية إلا وهي من الله ، كما خلق كل شيء من الله ، ثم لغير الله الاختلاق والضللال ، كما له الخلق والهدى فـ« الخير كله بيديه والشر ليس اليه » .

فقد كان ذلك الجواب الحاسم القاصم للطاغية تعريفاً عريقاً برب العالمين

(١) نور الثقلين ٣ : ٣٨١ في الكافي عن محمد بن مسلم قال سألت ابا عبد الله (عليه السلام) عن قول الله عز وجل « اعطى كل شيء خلقه ثم هدى » قال : ليس شيء من خلق الله الا وهو يعرف من شكله الذكر من الاثني ، قلت : ما يعني ثم هدى قال : هداه للنكاح والسفاح من شكله .
اقول : هذه هدى لبقاء النسل كمصداق من المصاديق المادية للهدى .

حيث جمع كل جوانب الربوبية لربها كرب العالمين ، سلباً لسائر الربوبيات المدعاة ، فإن الكل فقيرة في ذاتها فضلاً عن اعطاء خلق ام هدى لسواها ! فالخلق يهداه الواسعة الشاسعة ، والشاملة كل كائن من الذرة وما دونها وما فوقها ، من الخلية الواحدة الى ارقى اشكال الحياة ، مشمول لـ « اعطى كل شيء خلقه ثم هدى » .

هذا الكون الكبير المؤلف مما لا يحصى من الذرات والخلايا ، كل ذرة فيه تنبض وكل خلية تحيا ، وكل كائن يتفاعل او يتعامل مع الكائنات الاخرى . . . تعمل منفردة ومجتمعة داخل إطار النواميس المودعة في كينونتها او غريزتها او فطرتها وعقليتها ، بلا تعارض كوني ولا خلل ولا فتور .

﴿ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ﴾ .

لما أفحم الطاغية بهذه الحجة البالغة المحلقة على الأصول الثلاثة ، انتقل في حوارهِ الى واجهة اخرى ، استبعاداً لها : « قال فما بال القرون الاولى » والبال هو الفكر والحال ، الحال التي يكثر بها كما يقال : ما باليت بكذا بالة ، اي ما اكثرت به ، والحال التي ينطوي عليها الانسان فيقال : خطر بيالي .

فهنا استبعاد اول في بال الفكر للقرون الاولى ، اذ كانت الاكثرية المطلقة منهم مشركين ، فاذا كان التوحيد حقاً فما بال القرون الاولى اذ كانوا مشركين ؟ سناداً في ابطال الحق الى الاكثرية الساحقة من القرون الاولى كانها حجة تدمغ بالغة الحجة .

ثم استبعاد ثان ، ان لو كان التوحيد حقاً وان العذاب على من كذب وتولى ، فيما حال القرون الاولى التي مضت وضلت في الأرض ، فهو كقيلة لهم اخرى : « وقالوا اذا ضللنا في الأرض إنا لفي خلق جديد... قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم الى ربكم ترجعون »

(٣٢ : ١١) .

ما شأن القرون التي مضت ، اين ذهبت ، وكيف ومتى عذبت ؟

﴿ قَالَ عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴾^{٥٢} .

لماذا لم يؤمنوا؟ « علمها عند ربي »! وكيف يتواجدون حتى يعذبوا؟
« علمها عند ربي في كتاب » ما كتبه عليهم من اعمالهم فهي ثابتة في
انفسهم وفي اماكنهم وسائر الشهود « انا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون » ...
« لا يضل ربي » عما خلق وهدى ، وعما أمات وأحى ، فهو عالم بخلقه على
أية حال ، ثم « ولا ينسى » بعدما علم ، علم دائم لا حول عنه ولا خلل
فيه ولا نقص يعثره .

فالخالق كل شيء ، الهادي كلا الى شيء بما أعد له من طاقات
وامكانيات ، كيف يضل عن فعله او ينسى ؟ .

ولماذا « ربي » دون « ربك » او « ربنا » او « رب العالمين » ؟ لعله
تأشير الى أن الربوبية الخاصة التي تجعل لكل عالماً هكذا ، فأفحمك بجملة
قاطعة ، إنها باحري ان تخلق عالماً على القرون الاولى وسواها .

إذا فليس « علمها عند ربي » تحويلاً للجواب الى ربه ، عالماً بأنه تعالى
ليس ليحييه ، بل هو جواب حاسم ان ربي لا يضل عما خلق وهدى ولا
ينسى ، لانه « اعطى كل شيء خلقه ثم هدى » .

ومن هداه الفطرية، وهي بال القرون الاولى مهما تخلفوا عنها ، ومن
هداه تسجيل اقوالهم واعمالهم والحفاظ على ارواحهم باجسادهم بعد موتهم
كما قبله ، فلا يضلون عن علمه ولا ينسون ، فهو هو يجازيهم يوم القيامة بما
كسبوا وما الله بغافل عما يعملون .

ومن ثم يذكر لربه مواصفات تؤكد علمه المحيط وجزءه الأوفى لكل

من سعى :

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَوَسَّلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى ۝﴾ .

« كم » فيها لا تختص بحاضر الانسان زمن الخطاب كقضية واقعية ، بل الخطاب فيها وامثالها قضية حقيقية تشمل مثلث الزمان حاضراً ومستقبلاً وغابراً ، منذ سكّن إنسان الأرض والى يوم الدين .

فلقد كانت الأرض قبلكم ولم تكن مهدياً ، ثم الله جعلها لكم مهدياً : متحركة بحراك دائم ، فكما مهد الطفل بحركته لإراحته ، وهو مربوط بربطتين تربطانه والطفل عن السقوط والتبعثر ، كذلك مهد الأرض فانها مربوطة برطانات منها القوة الجاذبية العامة ، تربطها واطفالها عن السقوط في هوات الأجواء البعيدة ، وهي متحركة بحركات عدة متداخلة لطيفة حنونة ، لحد لا ندرك منها الا كل رياحة .

ومن ثم هي مهد المهاد « الم نجعل الأرض مهدياً . والجبال أوتاداً » (٦: ٧٨) حيث مهدت الحياة الانسيان بسائر الأحياء المستخدمة لصالح الانسان ، فمهدت للانسان كل حاجيات حياته ، مهدياً حانياً على طفولة الانسان يضمه ويرعاه ، وتمهده - ان سلك فيها سبيل ربه - للحياة الاخرى ، وهي اخرى من الاولى وارقي .

ف « سلك لكم فيها سبلاً » لا تختص بالسبل الحيوانية لحياته ، بل وانسانية الحياة هي الأهم الأخرى ، « وان هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله (٦ : ١٥٣) .

وكذلك الامر في « وانزل من السماء ماءً فاخرجنا به ازواجاً من نبات شتى » : نباتات نباتية وحيوانية وانسانية اما هي : « والله انبتكم من الأرض نباتاً » (١٧: ٧١) .

و « ازواجاً » هنا تعم الذكورة والانوثة كظاهرة مطردة في كافة الأحياء الثلاثة الأرضية ، والنبات يحمل في الغالب خلايا التذكير

والتأنيث معاً في نبتة واحدة ، وأحياناً يكون اللقاح في نبتة ذكر منفردة كما هو الحال في الفصائل الحيوانية ، وبذلك يتم التناسق في نوااميس الحياة ويطرد في كل الفصائل والانواع .

وقد جمعت الآية عطية الخلق واهدى ، الناحية منحى هدى الإنسان الى غايته القصوى، اعطى الأرض خلقها ثم هداها بتمهيدها لطفولتها التي تحتضنها بمهدها ، وسلك سبلها ثم هداها ان سبلها لإنسانها في مختلف سؤله روحية ومادية ، وانزل من السماء ماءً ثم هداها وهدى الأرض ان اخرج منها ازواجاً من نبات شتى .

﴿ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى ﴾^(١) .

«كلوا» من نباته الشقى «وارعوا أنعامكم» منها ، ان في ذلك الإنعام لكم وللأنعام «لآيات» تدل على توحيد الله والحياة الأخرى وما بينهما «لأولى النهى» .

و «النهى» جمع النهي وهي العقل الناهي عن القبائح كلها، حيث التاء هنا للمبالغة كما في العلامة، فلم يقل «أولي العقول» حيث العقل منه مدخول لا ينهى بل وينهى بناهية النفس ومن ناحيتها ، ام لا ينهى ولا ينهى ، بتلة بطللة كأن لا كون لها ولا كيان ، فلا تستعمل لصالح الحياة ولا طالحها ، كالعقول المجنونة ، او المحجوبة عن فاعلياتها .

وهذه الآيات انما هي «لأولى النهى» تلك العقول الناضجة الناتجة عن تعقلات وتنهيات عن الهوى ، فالعقل ما عبد به الرحمن واكتسب الجنان ، فالذي في معاوية وكل طاغية هو النكراء والشيطننة ، حيث تستخدمه الهوى وتربطه بنفسها فيصبح صاحبه كله هوى دون أية نهى ، ورسل الله وائمة الهدى هم أفضل اولي النهى^(١) .

(١) نور الثقلين ٣ : ٣٨٢ في تفسير القمي حدثني ابي عن الحسن بن محبوب عن علي =

سورة طه / آية ٤٨ - ٧٦ ١٢٥

فما من عقل مستقيم يتأمل ذلك النظام البارع العظيم متطلعاً ، ثم لا
يسطلع فيه على آيات تدله على الخالق الهادي الحكيم « الذي اعطى كل
شيء خلقه ثم هدى » سبحانه الخلاق العظيم !

﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَمِنْهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾ ٥٥ .

« كم » في هذه الثلاث تعم كافة الأنسال الإنسانية الحالية الباقية الى
يوم الدين ، والسابقة المنقرضة .

وهذه الآية تحمل رباطات ثلاث بين الانسان ومهده المسبّل له في
مختلف مراحلها ، قبل الدنيا وفيها وبعدها ، وما اجمله تعبيراً عبيراً عن
مثلث الكيان للإنسان ، عبرة للمعتبر ، وتبصرة للمتبصر !

وهنا « خلقنا » دليل انه ليس من تنمة المقال لموسى ، وعمل « الذي
جعل لكم .. » ايضاً هكذا ، فلحدّ « لا ينسى » هي من حوار موسى ، ثم

مركز تحقيق كامبوز علوم إسلامي

= بن رثاب عن مروان عن ابي عبد الله (عليه السلام) قال : سألته عن قول الله عز
وجل : ان في ذلك لايات لاولى النهي « قال : نحن والله اولوا النهي ، قلت : ما معنى
اولى النهي ؟ قال : ما اخبر الله به رسوله مما يكون بعده من ادعاء ابي فلان الخلفاء
والقيام بها والآخر من بعده وثالث من بعدهما وبني امية فاخبر رسول الله (صلى الله
عليه وآله وسلم) وكان كما اخبر الله به نبيه وكما اخبر رسول الله (صلى الله عليه وآله
وسلم) علياً وكما انتهى اليها من علي فيما يكون من بعده من الملك في بني امية وغيرهم
فهذه الآية التي ذكرها الله في الكتاب « ان في ذلك لايات لاولى النهي » الذي انتهى
اليها علم ذلك كله فصبرنا لامر الله عز وجل فنحن قوام الله على خلقه وخزانه على دينه
نخزنه ونسره ونكتم به من عدونا كما كتم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حتى
اذن الله له في الهجرة وجهاد المشركين فنحن على منهاج رسول الله (صلى الله عليه وآله
وسلم) حتى يأذن لنا في اظهار دينه بالسيف وندعو الناس اليه فتصيرهم عليه عوداً كما
صيرهم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بدواً ..

الآيات الثلاث الأخرى تلحيقات تكملها في هذه الشريعة الأخرى .

وقد تكون هذه الثلاث في آيتنا تعنيها السجدةتان فيما عنت وعتتا فالسجدة الأولى : اللهم انك منها خلقتنا ، ورفع رأسك : ومنها اخرجتنا ، فقد تعنيها « منها خلقناكم » والسجدة الثانية : واليها تعبدنا ، ورفع رأسك من الثانية : ومنها تخرجنا مرة أخرى « (١) » .

ثم « منها خلقناكم » تعني تناسل الذرية الى جنب الانسان الاول ، مهما بان البون بين الخلقين من تراب ، « وفيها نعيدكم » اعادة ما خلق منها فيها « ومنها نخرجكم تارة أخرى » اخراج لما خلق منها وأعيد فيها ، و « كم » في هذه الثلاث تعني جزئي الكيان الانساني جسداً وروحاً وهي اخرى ان تعينها « كم » فقد خلقتنا بأرواحنا وأجسادنا من الأرض منذ البداية في تناسل الذرية ، فالانسان الأول خلق جسمه من تراب ثم روحه المنفوخ فيه سلالة من الجسم نفسه ، ثم الانسان عبر التناسل مادة ارضية حتى الجنين ومن ثم « ثم أنشأناه خلقاً آخر » روحه المنفوخ فيه هو انشاء خلقاً آخر ، سلالة من جسمه ، وعلى حد المروي عن ائمتنا هو « جسم رقيق قد البس قالباً كثيفاً » .

فجسم الانسان الظاهر وجسمه المثالي ، بروحه النباتي والحيواني والانساني ، انه في هذه الخماسية يُخرج من الأرض ثم يعاد فيها ثم يُخرج منها مرة أخرى كما الأولى ، بالأجزاء الأصلية التي عاشها طول الحياة وكما يناسب الحياة الأخرى .

(١) نور الثقلين ٣ : ٣٨٢ في العلل بإسناده الى احمد بن علي الراغب ، قال قال رجل لأمير المؤمنين (عليه السلام) يا ابن عم خير خلق الله ما يعني السجدة الأولى فقال : تأويله اللهم .

فهناك امر محفوظ من كل نفس في هذه المراحل الثلاث ، وعلة المنطقة التي خلق منها كل نفس بالروح المنفوخ فيها بعد اكتمالها جنيناً ، فالخارج من الأرض يوم الحشر هو المخلوق منها في البداية ، وسائر الاجزاء البدنية بين الخلق والحشر زيادات لا تعني حشراً ولا يعنيها الحشر ، حيث القصد ايصال الجزء الى الروح ببدنها الذي عاشته طول الحياة ، دون الاجزاء الاخرى التي هي اصول لنفوس آخرين ام فروع لكل نفس هي ضيف تأتي وتروح ، والادلة العقلية والنقلية الثابتة كتاباً وسنة لا تثبت اكثر من حشر الروح بيدن ما هو باحرى الجزء الاصيل الذي عاشه طول الحياة بما فيها حياة التكليف .

وهذه عظة وعبرة لاولي النهي وكما قرأها رسول الهدى (صلى الله عليه وآله وسلم) على بنته حين دفنها ثم قال : بسم الله وفي سبيل الله وعلى ملة رسول الله (١) .

﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى ﴾ ٥٦

وترى ما هي « آياتنا كلها » ولم تبرز في هذا المجال إلا آيتان ، ثعبان العصا واليد البيضاء :

« فالقى عصاه فاذا هي ثعبان مبین . ونزع يده فاذا هي بيضاء للناظرين » (٢٦ : ٣٣) وهناك آيات بجانب آية طه تذكر ما أريه فرعون

(١) الدر المنثور ٤ : ٣٠٢ - اخرج احمد والحاكم عن ابي امامة قال لما وضعت ام كلثوم بنت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في القبر قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : منها خلقناكم ... بسم الله

بجميع الآيات^(١) ومنها آية مضت من طه نفسها^(٢) .

« آياتنا » هنا وفي سواها تعني التسع التي ارسل بها موسى الى فرعون وملأه على طول الخط ، لا فحسب في بداية الرسالة : « ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاستل بني اسرائيل . اذ جاءهم فقال له فرعون اني لاظنك يا موسى مسحوراً . قال لقد علمت ما انزل هؤلاء الا رب السماوات والأرض بصائر واني لاظنك يا فرعون مثبوراً » (١٧ : ١٠٢)
« وادخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء في تسع آيات الى فرعون وقومه انهم كانوا قوماً فاسقين . فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين » (٢٧ : ١٣) .

واما « كلها » فقد تعني كل التسع المقررة للطاغية ، ام انها نماذج من كافة الآيات البصرية التي اعطيتها رسل الله ، مهما اختلفت عنها اشكالها ام توافقت ، ام انها مثلثة الآيات ، على التوحيد والنبوة والمعاد ، عقلية بصيرية وحسية بصرية ، فد « كلها » هي الكل الجمعي ، دون استغراق الأفراد منها ، موزعة على كافة الرسل

« فكذب » بها « وابي » عنها ، ناسباً لها الى سحر دوغما آية برهنة :

« قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى ۖ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرِ مِثْلِهِ فَأَجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى ۝٥٨ » .

هنا « بسحرك » دليل انه اراه من آيات الله ، فيهدده : « فلنأتينك

(١) ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا الى فرعون وملأه فظلموا بها . . . (١٠٣ : ٧)

(١٠ : ١٠) و (١٢ : ١١) .

(٢) وهي « اذهب انت واخوك بآياتي ولاتنيا في ذكرى » فانه ذهاب رسالي الى فرعون

وملائه ككل ، دون بدايتها حتى تخص بالآيتين النموذجيتين .

سورة طه / آية ٤٨ - ٧٦ ١٢٩

بسحر مثله « وكما في الاعراف : « قال ان كنت جئت بآية فات بها ان كنت من الصادقين . فألقى عصاه فاذا هي ثعبان مبين . ونزع يده فاذا هي بيضاء للناظرين . قال الملاء من قوم فرعون ان هذا لساحر عليم . يريد ان يخرجكم من ارضكم فماذا تأمرون . قالوا أرجه وأخاه وأرسل في المدائن حاشرين يأتوك بكل ساحر عليم .. » (١١١) .

« قال اجئنا » استفهام انكار بكل استكبار « ان تخرجنا من ارضنا بسحرك يا موسى » ؟ .

« قالوا اجئنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء في الأرض وما نحن لكما بمؤمنين » (١٠ : ٧٨) . « فقالوا انؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون » (٢٣ : ٤٧) .

و « لتخرجنا من ارضنا » نموذجة تعني هذه كلها ، ان تستلبونا سلطانتنا فلنخرج من ارضنا اذ لسنا نعيش تحت سلطنتكم ولا ان نبذل ديننا ، وذلك إحماء لنا عن كيانتنا ، واجتثاث لجذور حيواتنا .

« فلنأتينك بسحر مثله » مماثلة في اصل السحر ولكننا نحن الغالبون : « لعلنا نتبع السحرة ان كانوا هم الغالبين » (٢٦ : ٤٠) في سحرهم سحره فتطلب موسى في البداية ان يرسل معه بني اسرائيل ، والطاغية يقتل ابناهم ويستحي نساءهم خوفاً من تكاثرهم فتغلبهم ، ثم ظهور آية خارقة بيده ، لذلك خاف على ملكه ، وهذه الثلاث قاهرة باهرة على فرعون وملائه .

فهنا الطاغية يتهم موسى سياسياً لإثارة الساسة والرعية ومن يحبون ارض الوطن ، وفي نفس الوقت يتهمه دينياً « لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا » - وفي الغافر - يجمع بينهما : « اني اخاف ان يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد » (٤٠ : ٢٦) .

(٤٠ : ٢٦) .

وهما من اهم ما يهم كل امة ، تمسكاً بمبدئي العقيدة والقومية ، وحين
تجتمعان فهناك الطامة الكبرى على من يعارضهما ، وهكذا يكيد فرعون
امام موسى بمسمع ومرثى حاشيته وشعبه ، تفلتاً عن برهانه ، وتلفتاً الى ما
يصرفهم عنه علهم يثبتون « وما كيد فرعون إلا في تباب » .

ثم وليعارضه - على زعمه - يتطلب اليه ان يجعل موعداً لمغالبة في
سحره ! :

« فاجعل بيننا وبينك موعداً » لمعارضة السحر ومغالبة « لا نخلفه نحن
ولا انت » موعداً لا يعذر أحد منا عن حضوره ، « مكاناً سوى » وسطاً بين
الطرفين ، سويّاً دون ارتفاع ولا انخفاض ، فان السوى هي المستوي
طرفاه ، وهو يعم استواءه في نفسه وبالنسبة للطرفين في المبارات .

ونرى الطاغية في ذلك الكيد الاكيد يستحكم مواعده زماناً ومكاناً
سوى ، ولكي يخيل الى شعبه انه على شيء ، والا فلماذا اصل الموعد ،
ثم لماذا التأكد من زمانه ومكانه العام لتكون المظاهرة في مشهد ومسرح
عام ؟ .

انه يستحكمه اعتماداً على شايع قدرته وبالفها عند شعبه ، فلأن
موسى وليد بينهم فلا بد انه تلميذهم .

وقد كان ذلك بأشارة من حاشيته : « قالوا أرجه وأخاه وارسل في
المدائن حاشرين . يأتوك بكل ساحر عليم » (٧ : ١١١) .

وهذه طبيعة الحال عن يعارض البرهان ، فليس على موسى ان يتطلب
ذلك الذي طلبوه لأنه على حجته الباهرة القاهرة ، ثم على استعداد تام
ليكرر لهم حجته يوم حشرهم لتتم عليهم كلهم ، فلذلك يجاوبهم من
فوره :

﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضَحَى ۝٤٩ ﴾

وقد اختار موسى لتلك المبارات افضل وقت في اجمع يوم : « يوم الزينة » العيد الشعبي العام حيث الناس فيه يحشرون ، اضافة الى نداء العام ان يجمعوا فيه لهذه المبارات من سحرة ومن الناس « فجمع السحرة لميقات يوم معلوم . وقيل للناس هل انتم مجتمعون . لعلنا نتبع السحرة ان كانوا هم الغالبين » (٢٦ : ٤٠) .

ثم « وان يحشر الناس ضحى » ليكون الوقت ضاحياً في اوضح فترة من فترات النهار واشدها تجمعا يوم الزينة ، لا في الصباح الباكر والجميع لما يغادروا البيوت ، ولا في الظهيرة اذ قد يعوقهم الحرّ ام حاجة الغذاء ، ولا في المساء حيث يمنعهم الظلام من التجمع ام من وضوح الرؤية ، وانما وسطاً بين الظهيرة والمساء . وذلك مربع^(١) من الحائطة الفائقة لتجمع اكثر عدد ممكن لمسرح المبارات ، وليعلم فرعون وقومه ان موسى احرص منه واحرى بتلك المبارات ، وان عنده اقوى مما عند فرعون من قوة في ذلك الصراع .

﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ۝٥٠ ﴾

« فتولى فرعون » عن موسى وعن الحق الذي جاء به وعن مجلس المواعدة « فجمع كيده » المتشربين السحرة والحاشية الملكية وفي نفسه اللثيمة ، فما ابقى كيداً الا جمع بعضه الى بعض علّه يتغلب على موسى الذي زعمه ساحراً كسائر السحرة .

(١) وهو ان الموعد يوم الزينة - وقد دعي السحرة - ودعي معهم الناس - وان يحشر الناس ضحى ، وهذه الزوايا الاربع هي التي تجعل ذلك المجتمع اضخم ما يكون واهم .

فقد اجمل « كيده » كل قاله وحاله وفعاله في كيده مما اشار به ملائه
واشاروا له ، وما دار بينه وبين السحرة والحاشية من تحميس وتحريض
وتحريض ، ووعد بكل ثمين ورخيص ، « ثم » بعد ذلك الجمع الجامع
الجامع في ظنه « ان » يوم الموعد بكل خيله ورجله ورجاله^(١) فما هو
- اذن - دور موسى في ذلك الجو الكادح الكالح ! وليكون الباطل هو الفالج
والحق هو الفالج .

انه يبدء قبل كل شيء في هذه المبارات بالعظة الحسنة ، المذكرة
المحذرة :

﴿ قَالَ لَهُمُ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ
خَابَ مَنْ افْتَرَى ﴾^(٢) .

« قال لهم » وهم فرعون وملائه وسحرته فانهم من كيده^(٣) وضمير
الجمع راجع اليه بكيده الشامل لهم كاصول ، ثم سائر الجمع كهوامش
الضلالة ، وكلهم من المفتريين على الله كذباً ، فرية في اشراكهم بالله ما لم
ينزل به سلطاناً ، وتسميتهم وحي الله اساطير ، وآية الله سحراً ، ورسول

(١) البحار ١٣ : ١٢١ القمي عن الامام الصادق (عليه السلام) في حديث له طويل
عرض فيه القصة على طولها وقد مضى شطر منها « فلما ارتفع النهار من ذلك اليوم وجمع
فرعون الخلق والسحرة وكانت له قبة طولها في السماء ثمانون ذراعاً وقد كانت لبست
الحديد الفولاذ وكانت اذا وقعت الشمس عليها لم يقدر احد ان ينظر اليها من لمع
الحديد ووهج الشمس ... »

(٢) البحار ١٣ : ١٢١ في حديث الإمام الصادق (عليه السلام) . . وجاء فرعون
وهامان وقعدا عليها (القبة) ينظرا ن واقبل موسى ينظر الى السماء فقالت السحرة
لفرعون : انا نرى رجلاً ينظر الى السماء ولم يبلغ سحرنا السماء وضمنت السحرة من في
الأرض فقالوا لموسى اما ان تلقي واما ان تكون نحن الملقين ...

سورة طه / آية ٤٨ - ٧٦ ١٣٣

الله ساحراً ، وقد اشترك ذلك الجمع كلهم في هذه الافتراضات اصولاً فيها
ام فروعاً وهوامش ، فالنصح - اذاً - يشملهم كلهم ، و « ويلكم » كلمة
مركبة من « وي - و - لكم » اي تبا لكم وواهاً وعذاباً وآهاً .

« لا تفتروا .. فيسحتكم بعذاب » ان افتريتم على الله كذباً دون توبة
ولا أوبة ، والإسحات من السحت وهو استئصال الشعر بحلق ، فهو
الاستئصال والإهلاك الساحق الماحق ، و « بعذاب » يعم مثله ، هنا وفي
البرزخ والآخرى ، وقد شمل فرعون بجنوده في كل زواياه لانهم كانوا هم
الأصلاء في فرية الكذب على الله « وقد خاب » وخسر على أية حال « من
افترى » على الله ام وعلى خلق الله ، فالفرية دركات كما التصديق
درجات .

والخيبة وهي عدم الوصول الى الهدف من الفرية ، هي عذاب فوق
العذاب ، فللمفتري إسحات عذاب وخيبة أمل ، ظلمات بعضها فوق بعض .

لقد قال موسى كلمته القاطعة القاصعة ، فلمست منهم بعض القلوب
غير المقلوبة من السحرة فتلجلج في امر موسى ، واخذ المصريون على
المبارات يجادلونهم متنازعين :

﴿ فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوى ﴾ ٦٢ .

وهكذا تنزل الكلمة الصادقة كالقذيفة في معسكر المبطلين فتزعزع
نفسياتهم على قدراتهم فتوقع الربكة واللجلجة في صفوف السحرة المقربين
المدرين ، فتحوجهم الى إسرار النجوى خوفاً من فرعون وموسى ! .

والتنازع من النزاع وهو جذب شيء من مستقره لينقلع ، والنجوى هي
المسارة في امر بكلام وسواه ، وإسرارها هنا تعميق في اخفاءها كيلا يسمعها
موسى .

ولقد كان « امرهم » الذي تنازعوه بينهم امر التصديق والتكذيب لموسى ، فطائفة تحن الى تصديقه ، واخرى الى تكذيبه ، وثالثة عوان بين ذلك ، متجاذبين امرهم بينهم في سر مستسر ، فالاولى لا تجرء على اظهار امرها تخوفاً من فرعون وملائه ولما يظهر امر موسى ويظهر ، وحتى يتبلج امره بعدما تلجلج ، فضلاً عن ان يجذب المعاندين الى الحق ، والثانية تحاول جذبها والثالثة الى التكذيب ، وبالفعل اصبحت هذه الاقلية الصالحة تحت ضغط الاكثرية الكالحة فسكتوا عما :

﴿ قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ اِنِّ يُرِيدُ اَنْ يُخْرِجَكُم مِّنْ اَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَآ وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ ۚ ﴾ ٦٣ .

وعله خطاب ذو بعدين من الاكثرية المضللة ، لانفسهم استحكاماً لعرى ضلالهم ، وللحائرين مزيداً في تحيرهم ، سناداً الى اهم الامور الحيوية لكل امة سياسياً وروحياً ، اخراجاً من ارضكم ، واذهاباً بطريقتكم الروحية المثلى ، وكل ذلك بسحر دون أية حقيقة ، فهو - اذن - باطل يريد ان يذهب بحقين حقيقين بالبقاء لكل امة .

فاذا هو ساحر فانتم اولى بالسحر منه ، ثم اولى منه بأرضكم وعرضكم ، وطريقتكم المثلى التي لا نظير لها ، وذلك اخطر كيد على امة ، لتبقى تحت نير الذل والفرعنة دون ان يؤق لها مجال التفكير لصالحها يوماً ما !

فلقد استحثوا دفائن ثورتهم من فورتهم يداً واحدة ضد من يريد القضاء على بعدي الحياة الراقية ! فالיום هو يوم المعركة الفاصلة بين الحق والباطل :

﴿ فَاجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ اَتُوا صَفَاً وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ ۚ ﴾ ٦٤ .

اجماع كيد جماعي في صف واحد متراص للاستعلاء على من يريد القضاء على السلطة الزمنية والروحية ، وليس - فقط - من الاكثرية المضللة ، بل ومن الاقلية المتلجلجة ايضاً « وقد افلح اليوم من استعلى » !

ولإجماع الكيد بعد ان ، أولهما جمع كافة مكائدهم مع بعض البعض دون فراق ، وثانيهما ان يتشاوروا فيما بينهم في ذلك الكيد المجموع .

فالى ميدان النزال للنضال حتى يعرف الداني من العال ، آخذين كل حائطة حاضرة وبائنة :

﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ﴾ ٦٥ .

وهنا عدم البدء من موسى سياسة لائقة به لابقية في المبارات ، فانه مدافع وليس مهاجماً حتى يبدأ ، ثم الباديء في الحوار خاسر على أية حال لا سيما اذا لم يكن مؤيداً من عند الله ، فليخسروا هم بتلك البادئة الخاسرة ، فلا يرد عليه ان تقديم الشبهة على الحجة ادخال في اللجة ثم لا يعلم الخروج عنها ؟ لأن حجية هذه الحجة لم تكن لتظهر الا بعد ظهور الشبهة ، ثم البالغة الدامغة للشبهة !

ثم هؤلاء المتعودون على اتباع فرعون لم يكونوا لينظروا الى الحجة البادئة بعين الاعتبار لانهم في انتظار ما اتى به السحرة ، ولكنهم بعده يتأكدون من الحجة اللاحقة الماحقة له ، فلتكن حجة الرسالة لاحقة دمجاً لسحر السحرة .

وعلى خطورة الموقف دفعتهم الى تخيره في الإلقاء ، دون إلزام عليه احد الامرين ، ثم تقبلهم ما اختاره موسى هو من غلطات اقتراحهم واختياره ، ثم من غرورهم بعددهم وعددهم وهم بمحضر فرعون وملائته ، وكأنهم يرونهم في « اول من القى » متقدمين عليه بكل شجاعة وهيمنة

لا يتخوفون عن إلقاءه ، ولا يتخرجون دفاعه في إلقاءه !

﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِجَابُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْمَى ﴾ ٦٦ .

و « القوا » هنا خطاباً لجمع السحرة إلقاءً لسحرهم قبل إلقاءهم ، فلم يطمئن موسى الى غلبه عليهم كان « القوا » منه إلقاءً، لإلقاء نفسه بعدهم الى التهلكة ، وهذه اولى خطاه توهيناً لما يلقون ، وتوهيناً بإلقاء ما يلقون .

وترى كيف خيل الى موسى من سحرهم انها تسعى ، وقد آتاه الله ما آتى ؟ إن « يخيل » هنا هو طبيعة الحال من سحرهم لكل من رآ ، خيالاً لا يعارض يقيناً في بال على أية حال ، وذلك نصيب موسى من سحرهم ولكن لمن سواه « فلما القوا سحرهم اعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم » (٧ : ١١٦) .

ثم « يخيل » المستقبل دون « خيل » الماضي ، تقضي على ذلك الخيال ايضاً فلا تعني « يخيل » إلا طبيعة الحال من سحرهم لمن يخال دون واقع الخيال لموسى .

ثم السحر من السحارة وهي ما يتزع من السحر - طرف الحلقوم - عند الذبح ، فيرمى به ، وجعل بناءه بناء النفاية والسقطة ، فالسحر هو إصابة السحر كسقطة ونفاية دون واقع ، فالساحر كانه يذبح المسحور وليس يذبح ، ويأخذ عقله وحسه وليس يأخذ ، وانما هو تخيل لا يرجع الى عقل ولا واقع .

فالسحر مهما بلغ من حالة خارقة للعادة ، ليس ليأخذ مأخذه في القلوب والعقول ، وانما خطفة من عين ام أذن ، وهو يبطل بسحر مثله وكما

سورة طه / آية ٤٨ - ٧٦ ١٣٧

يُبطِل مثله، ولا يؤثر فيما يؤثر إلا بإذن الله : « وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله » (٢: ١٠٢) اللهم إلا في دعوى الرسالة ام معارضة آية الرسالة ، فانه اضافة الى القصور الذاتي فيها يبطله الله تعالى عن بكرته لكيلا ينغر به ضعف العقول ، فضلاً عن ان يأذن الله ! .

وتراه كيف يأمرهم بسحرهم والسحر محرم في شرعة الله ، ولا سيما ذلك المضلل لعباد الله ؟ .

انه يأمرهم به لكي يغلب الحق في صراع الباطل ، ولا يظهر له غلب عليه لولا ذلك الصراع ! ولكي يدافع عن نفسه تهمة السحر الموجهة إليه من فرعون وملائه .

وهنا « يخيل اليه » وهناك « بسحر عظيم » يشيان بعظمة ذلك السحر وضخامته عدداً وعدداً حتى ليوجس خيفة في نفس موسى :

﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ﴾^{٦٧}

والوجس هو الصوت الخفي ، فالإيجاس هو التصويت الخفي ، فلو كان جلياً لتجلى في صفحات وجهه، وكان محجوجاً بسحرهم قبل آيته ، فلم تكن إلا « خيفة » خفيفة واجسة طفيفة في قرارة النفس ، دون استقرار فيها ولا استقرار لها ، وانما هي على غرار ما خيل اليه .

وبما عظماء من سحرهم وواعجبااه اذ بلغت بهم البراعة في فنهم والبراعة في سحرهم الى حد يوجس في نفسه خيفة موسى ، وما هي النفس البشرية لو انقطعت عنها العصمة الإلهية آناماً، خافت عما لا يُخاف منها ، وقد تكون هذه الوجسة مشيرة الى عظم الموقف وضعف الواقف في نفسه حتى تدركه العصمة الإلهية بالبشرى ، وإيجاس الخوف لا يطارد العلم بانه غالب ، وكما يُخاف الميت على علم انه لا حراك له ولا ضرر منه .

ام قد تكون خيفة موسى من ضلال الناس في هذا المجال ، فـ « لم يسوجس موسى خيفةً على نفسه اشفق من غلبة الجهال ودول الضلال » (١) .

ام الوجستان معنيتان معاً وهما ناحيتان منحى براعة الصناعة وسرعتها وهيبتهما، فجاءته من ربه البشرى :

﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴾ ٦٨ .

انت الاعلى في آيتك العظمى ، وانت الاعلى في هدى من اهتدى حيث يتحرى عنها .

« لا تخف » - « اني لا يخاف لدي المرسلون » فمعك الحق كله ومعهم الباطل كله ، معك ربك ومعهم الطاغية ، معك العقيدة ومعهم الحرفة بغية اجر المبارات ، انت متصل بالقوة الكبرى وموصول النياط والنيات بالرب الاعلى ، وهم يتصلون بالارذل الادنى ، فـ « لا تخف انك انت الاعلى » .

« لا تخف » هنا كما « لا تخف » عندما القى عصاه فاذا هي حية تسمى ، فانه لم يكن عشيراً لحارقة قبل ان يرى ما رأى من آيات ربه الكبرى ، ام سحر خيل اليه بحبالهم وعصيهم انها تسمى ، فكان من طبيعة الحال خوفه ، ولكنه أمام الآية الالهية ظاهر « قال خذها ولا تخف » فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبراً ولم يعقب يا موسى لا تخف اني لا يخاف لدي المرسلون » (٢٧ : ١٠) .

فهنا خوف ظاهر يوليه مدبراً عن آية باهرة ، ولكن هناك إيجاس خيفة

(١) نهج البلاغة عن الإمام امير المؤمنين علي (عليه السلام) .

سورة طه / آية ٤٨ - ٧٦ ١٣٩

لأنها خارقة خارقة ، والخوف هو طبيعة الحال مما لم يأنسه الانسان على اية حال ، ولكنه لما طمأنه ربه - وقبل ان يلقي - اخذ يعظهم وينبئهم بغلبه عليهم بعد قليل « قال موسى ما جئتم به السحر ان الله سيبيطله ان الله لا يصلح عمل المفسدين . ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون » (١٠ : ٨٣) . ثم حقق ما أنبأ واوعد بامر الله :

﴿ وَالْقِيَ مَآ فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ١٠ ﴾

وهنا بصورة قاطعة إفلاج الساحر رغم محاولته في إفلاحه ، وهناك « ان الله لا يصلح عمل المفسدين » مما يبرهن ان الساحر المتحدي آيات الرسالة فالج غير فالج حيث أتى ، وبأية قوة وإبابة كيفية كانت ، وعلى ضوءه ندرس ان الآية المعجزة غالبية على اية حال على الساحر اياً كان وحيث أتى .

وهكذا نعالج بأس كل ساحر يسحره بقراءة آيات من الذكر الحكيم على موضع السحر بنية صادقة فيبطل .

وقد يروى عن رسول الهدى (صلى الله عليه وآله وسلم) : « اذا اخذتم الساحر فاقتلوه ثم قرأ : « ولا يفلح الساحر حيث أتى » : قال لا يأمن حيث وجد »^(١) والقدر المعلوم منه من يعارض بسحره آية النبوة .

وانما « ما في يمينك » دون « عصاك » على طوله واجمالها ، واختصارها وصراحها ؟ عصاه ينتبه مرة اخرى ان ليست عصاه بما هي عصاه تلقف

(١) الدر المنثور . ٤ : ٣٣ - اخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن جندب بن عبد الله البجلي قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ...

١٤٠ الجزء السادس عشر
ما صنعوا، تخلية لها عن اعتماده عليها، وتخلية لها بتجردها عن نسبتها اليه،
وان الله هو الذي يحولها كما يريد، وهو الذي يعيدها سيرتها الاولى كما
خلقها .

ثم و « تلقف ما صنعوا » كتيجة حاسمة لتحويلها ثعباناً مبيناً يلقف
كيد ساحر : « واوحينا الى موسى ان الق عصاك فاذا هي تلقف ما
يأفكون . فوق الحق وبطل ما كانوا يعملون . فغلبوا هنالك وانقلبوا
صاغرين » (٧ : ١١٩) .

فبالفعل ألقى موسى عصاه ووقعت المفاجأة الفاجعة الكبرى ،
فحولت كامل مشاعرهم لا يسعهم الكلام للتعبير عنه ، ولا يكفي النطق
للافضاء والافصاح به ، فانهارت كل طاقاتهم النفسية فوقعوا على الأرض
سجداً وكأنها دون اختيار ، حيث الساحر اعرف بسحره من غيره ، فأعرف
بالآية الربانية التي تختلف تماماً عن كل انواع السحر^(١) .

﴿ فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَجْدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ﴾ ٧٠ .

وهنا « فالقي » المجهول يصور ضخامة الموقف ، بمدى تأثير الآية

(١) البحار ١٣ : ١٢١ في حديث الامام الصادق (عليه السلام) . . . فالقى موسى
عصاه فذابت في الأرض مثل الرصاص ثم طلع رأسها وفتحت فاهها ووضعت شدقها
العليا على رأس قبة فرعون ثم دارت والتقت عصي السحرة وحبالها وغلب كلهم وانهمز
الناس حين رأوها وعظمها وهولها مما لم تر العين ولا وصف الواصفون مثله قبل فقتل في
الهزيمة من وطء الناس بعضهم بعضاً عشرة آلاف رجل وامرأة وصبي ودارت على قبة
فرعون قال (عليه السلام) فاحدث فرعون وهامان في ثيابهما وشاب رأسهما وعشي عليهما
من الفرع ومر موسى في الهزيمة مع الناس فناده الله : خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها
الأولى فرجع موسى ولف على يده عباءة كانت عليه ثم ادخل يده في قمها فاذا هي
عصا كما كانت . . .

سورة طه / آية ٤٨ - ٧٦ ١٤١

الالهية في نفوس السحرة لحد لم يتمالكوا انفسهم عن سجدة كأنها اتوماتيكية ، وتراهم كيف ألقوا سجداً بعدما ألقى موسى عصاه ، حيث ألقوا ما ألقوا ؟

لأنهم رأوها « تلقف ما يافكون » (٧ : ١١٧) واللقف هو تناول بحذق ، وقد تناول ثعبان العصا وتلقف كل ما افكوا .

فعصى صغيرة تتحول ثعباناً عظيماً فتلقف كل عصيتهم وحبالهم من ناحية ، ولها ما للثعبان من أعضاء خلاف حبالهم وعصيتهم التي كان يخيل اليه من سحرهم - فقط - انها تسعى دون أعضاء ، من اخرى ، وعدم رجوعها ما لقفته من ثالثة ، وعودها عصى صغيرة كما كانت من رابعة ، - وواحدة منها يستحيل ان تتم بأية حيلة ساحرة - كل ذلك جعل السحرة قاطعين كوضوح النهار أنها آية الهية قاهرة وليست حيلة ساحرة ! .

وإنها اللمسة المفاجأة القوية تصادف العصب الحساس فينتفض كيان الانسان كله ، كما تصادف الذرة فتفجرها وتشرق النور عن ظلامها ، وقد تحولت السحرة كلهم من ظلام الشرك الى نور التوحيد بكلمة واحدة ساجدين « قالوا آمنا برب هارون وموسى !

ولماذا « رب هارون وموسى » دون « ربنا » او « رب العالمين » ؟ حتى يميزوه تعالى عن أرباب اخرى . فـ « ربنا » و « رب العالمين » قد يخيل منه انه الطاغية لمكان دعواه « انا ربكم الاعلى » ولكن موسى وهارون الناكرين لكل ربوية الا الله ، كان التصريح بهما في ذلك الموقف صراحاً لتلك الربوية الصادقة الماحقة لسائر الربويات ، مهما بدلوا الصيغة في حوارهم مع الطاغية : « قالوا لا ضيرانا الى ربنا منقلبون » (٢٦ : ٥٠) . اعتماداً على تلك السابقة السابقة الصارحة الصارفة « رب هارون وموسى » وقد يتقدم هارون هنا على موسى لكي تحسم مادة ربوية الطاغية لموسى « ألم نريك فينا وليداً » فانه موسى دون هارون ،

فليقدم عليه هارون حسماً لذلك التخيل واستأصلاً له عن بكرته .

هنا «السحرة» - جمعاً على باللام الدال على الاستغراق -، ألقوا سجداً مؤمنين بالله وهم اليه منقلبون ، وفي يونس « فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على تخوف من فرعون وملائه ان يفتنهم » (٨٣) والسحرة جم غفير وهم لم يكونوا من قوم موسى فكيف التوفيق ؟ .

علّ هذه القلة المؤمنة من قومه كانت قبل ان يلقي عصاه - وقد القوا حبالهم وعصيهم - وبعد عظته لهم: « قال موسى ما جئتم به السحر ان الله سيبيطله . . . فما آمن لموسى . . . » .

ولكنها السحرة آمنوا به بعدما القى عصاه صامدين غير متخوفين كما هو صراح حوارهم مع الطاغية حين اخذ يهددهم !:

﴿ قَالَ آمَنَّا لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السَّحَرَ فَلَا قُطْعَنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَا صُلْبَ لَكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ آيُنَا أُشْدَّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴾ ٧١ .

ذلك إوائاً للطغاة أن يدركوا الإسلام ويميزوه عن الاستسلام ، أتى لهم ان يدركوا كيف تتقلب القلوب بامر من مقلب القلوب ، وحتى قلب الطاغية حيث احب عدوه موسى ورباه في حجره عُمرأ دون ان يعرفه بعداءه .

وهكذا يتخيل هنا الى الطاغية ان الايمان بالله هو - من ضمن سائر الاستسلامات لأمره - لا بد وان يكون باذنه، وكان القلوب من ممتلكاته كما القوالب ضمن ما سيطر عليه بالسيف والنار ، خلطاً بين القوالب والقلوب وهي لا تُقلب بإكراه ولا يُغلب عليها بإكراه فـ « لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » !

ثم وركيزة الايمان في القلوب درجات ، فقد تضعف ام تنمحي بما يتغلب عليها تسويلاً ، ام تبقى ولكن صاحبها يتظاهر بخلافها حفاظاً على حياته « إلا من اكره وقلبه مطمئن بالايمان » وقد تركز لحد تخلق على كل كيان المؤمن ، وللحفاظ على سيادة الايمان أمام السطاغية ، وهدي المستضعفين المستغلين الى الايمان ، لا يخافون اي تحديد او تهديد وكما نراه من سحرة فرعون ، فان موقفهم الحاسم كان يتطلب هكذا صمود في ظاهر الايمان كما في باطنه ، فما قيمة ايمان في الباطن بكفر يتقى به في الظاهر ، حيث يغري المتحرين عن الهدى ويبقي الباغيين للردى ، وليس « إلا من اكره وقلبه مطمئن بالايمان » إلا جواً لا يضر بكتلة الايمان ، ولا بالضالين المتقبلين له بحجة ظاهرة باهرة .

ونرى السطاغية هنا وقد خسر السحرة وهم كل من يملكهم من المحجة في تلك المبارات ، نراه يتهمهم كما اتهم موسى ، حسماً للموقف المتزعزع بين الحاضرين : « انه لكبيركم الذي علمكم السحر » فهناك تواطؤ بينكم ومؤامرة كانت خفية ، وقد ظهرت في ذلك المسرح الصريح .

وقد صبغ الموقف بصبغة سياسية اضافة الى الروحية ، ان السحرة احتضوا حول كبير لهم هو موسى وكما في الاعراف « قال فرعون آمنت به قبل ان آذن لكم ان هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها اهلها فسوف تعلمون « لا قطعن . . قالوا انا الى ربنا منقلبون » (١٢٥) .

وهذه هي دعاية متعودة بين فراعنة التاريخ امام الرسل والمؤمنين ، صداً لزعزعات المستضعفين ، تزييناً لهم سلطاتهم الروحية والزمنية ، وتهديداً بان في تقبل الدعوة الرسالية زوالها وهي حياة الرعية ، فالقائد يعارض تلك الدعوات حفاظاً على صالح الرعية روحياً وزمناً .

وان في ذلك تعمية منهم في بعدين بعيدين ، اولاهما هي فاسد السلطة

الروحية الحاضرة ، واخراها هي صالح الاخرى الزمنية المحتضرة ، اظهاراً للحق بمظهر الباطل والباطل بمظهر الحق « فهالك استحوذ الشيطان على اوليائه ونجى الذين سبقت لهم من الله الحسنى » .

ولما يرى الطاغية ان هذه الدعاية والفرية الماكرة لا تؤثر في صميم ايمانهم ، ولا يزعزع من مكين ايقانهم ، انتقل منها الى تهديد بنوع آخر : « فلا قطعن » استعلاء بالقوة الغاشمة الوحشية التي تستعمل مع الوحوش ، دون تمييز بين انسان يُقرع بالحجة وحيوان يُقرع بالنائبة .

« فلا قطعن ايديكم وارجلكم من خلاف » عذاباً معمولاً متداولاً بحق أفسد المفسدين ، ثم « ولا صلبتكم في جذوع النخل » عذاباً فوق العذاب لقمة الإفساد ، ولكي ينظر الناظرون فيعتبروا ، وينذر المنذرون فلا يتبعوهم ، ومن ثم « ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى » ؟ هل هو موسى بما يهددكم بعذاب الأخرى ، أم أنا الميعذب لكم هكذا في الاولى ، واين غائب من حاضر ، وموعود من واقع ؟ ثم « وأبقى » سلطة ، هل ان موسى هو الأبقى وهو في يدي وتحت سلطتي ، أم أنا الأبقى ، فاين إله موسى حتى يعذبني وملاي حتى لا نبقي ؟ واين هو من هذا المسرح حتى يبقى موسى فلا نبقي ؟ .

فلقد هددهم فرعون بما هدد فما أبقى ، ولكنه ما يصنع التهديد - ايا كان - بخديد الايمان وشديده بأشدّه ، اللمسة الإيمانية التي وصلت إلى اعماقهم ، واندغمت في ذواتهم ، فلا تزهد مهما أزهدت ارواحهم ، حيث أثروها على الحياة الدنيا بخذافيرها ، فلا يخافون إذا أظافيرها بخذافيرها :

﴿ قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا

أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا^{٧٦} إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى^{٧٧} .

« قالوا لا ضير اننا الى ربنا منقلبون . إنا نطمع ان يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا اول المؤمنين » (٢٦ : ٥١) - « قالوا اننا الى ربنا منقلبون . وما تنقم منا الا ان آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين » (٧ : ١٢٦) .

هنا نرى قمة الصمود على ضوء الايمان المحلّق على كل جنبااتهم الحويّة ، فلا يؤثرون عليه امرأ ، ولا يؤثر فيهم دونه امر مهما كان إمرأ .

ثم « الى ربنا منقلبون » قد تلمح بانهم كانوا من قبل موحددين ، ام انه انقلاب بحكم الفطرة والعقل والآية البينة ، ثم « وما اكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ » تصرّح انهم ما سحروا هناك مباراتاً بل مجاراتاً للطاغية اكراها منه عليه ، وعله بعد الانقلاب الاول لعصى موسى ثعباناً مبيهاً لدى فرعون ، وبعدهما وعظهم « فتنازعوا امرهم بينهم واسروا النجوى » ثم اكْرَهْتُمُ فرعون على سحرهم وأن « قالوا إن هذان لساحران . . » فلذلك تادّبوا وتليّنوا مع موسى في المبارات .

ولذلك اصبحوا هنا « اول المؤمنين » صموداً وزمناً ، ومن صمودهم إحالتهم إشار الطاغية « قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات » فطرية وعقلية وحسية وعلمية أما هيبة وعلى « الذي فطرنا » ، أم قَسَمًا بالذي فطرنا ، وهما معاً معنيان ، وانت كمثلنا مفطور له ، وقد فطرنا على فطرة التوحيد ، ففطر الخلق من ناحية ، وفطرة التوحيد المندغمة في الخلق من أخرى ، آيتان بيتان بجانب هذه الآية العظمى انه هو الله ربنا لا إله إلا هو « فاقض ما انت قاض » علينا كما تهددنا فـ « انما تقضي هذه الحياة الدنيا »

قضاء مقصوراً بها ، محصوراً فيها ، وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع قليل .

فـ « من البيّنات » هنا تعم الأنفسية إضافة إلى الأفاقية، ونفس قصة العصا بيّنات ، انقلاباً ولقفاً وعودة إلى سيرتها الأولى دون إعادة لما لفتت ! .

وترى كيف « تقضي هذه الحياة الدنيا » وليست قضاءه الا فيها على من فيها ام لهم ؟ علّها لانها مفعول به ، وقضاء هذه الحياة الدنيا هي ازالتها ، فقصارى قضاءك هنا قضاءها ، حياتنا كما حياتك ، واما الحياة الآخرة وهي العليا فليس لك قضاءها ، فانت تهددنا بقضاء هذه الحياة وهي الدنيا ، وشرعة الله تهددنا بالآخرة وهي الحياة العليا ، وانت شر وادنى وافنى « والله خير وابقى » .

ثم و « ما اكرهتنا عليه من السحر » قد تعني تعلمه وتعليمه وإعماله من قبل وفي هذه المبادرات ، والتماس الغفر عن الخطايا ليس الا في المقصرة العامدة ، ام والمكره عليها فيما يمكن التخلص عنها كهذه التي ارتكبوها وارتبكوا فيها ، والآن هم يستغفرون الله عنها في ذلك الموقف الحاسم ، القاصم ظهر الطاغية ، الجاسم الباسم ظهر موسى والذين معه ، وهذه هي من قمم التوبة العليا ، انقلاباً كلياً الى الله سناداً الى آياته الباهرة وتبييناً لها بين الجموع المحتشدة الحاضرة ، ملتسمين من الله ان يفرغ عليهم صبراً امام الطاغية ، وان يتوفاهم مسلمين ، تخلصاً لايمانهم عن هذه اليد الأثيمة اللثيمة، مهما قطعت ايديهم وارجلهم من خلاف وصلبوا في جذوع النخل ، فـ « انما تقضي هذه الحياة الدنيا - والله خير وابقى » !

انه « خير » في ذاته وصفاته وافعاله « وابقى » فيها ثواباً وعقاباً ، وذلك رد على قولة الطاغية « ولتعلمن ايّنا اشدّ عذاباً وابقى » .

﴿ إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴾ ٧٤ .

وتراها واللتين بعدها هي تنمة المقال للسحرة ؟ وكيف يكون لجديد
الايمان والناشيء على الكفر هذه المعرفة السليمة عن مستقبل المجرم
والمؤمن ! فهي اذا بيان رباني لقضية الموقف ، ام هم درسوا الشرعة الإلهية
من ذي قبل كما تلمحناها من ذي قبل فنقلوا ما قالوه عن لسان موسى .

« ومجرماً » هنا تعني اجرام ثمرة الحياة قبل إيناعها ، إجراماً عقيدياً
واجراماً علمياً واخلاقياً وعملياً ، فردياً وجماعياً ، نكراناً لخالق الحياة ام
إشراكاً به ، وتكذيباً بالحياة الأخرى ورسالة السماء ، فلا يعني فاعل
الصغيرة ولا الكبيرة فسانه لا يخلد في النار و« ان المجرمين في جهنم
خالدون . لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون . . ونادوا يا مالِك ليَقْضِ عَلَيْنَا
رَبِّكَ قَالَ انْكُمْ مَآكُثُونَ » (٤٣ : ٧٧) .

« انه من يأت ربه مجرماً » ان يموت بحالة الإجرام دون توبة صالحة
« فان له جهنم » حيث الحياة الإجرامية حياة جهنمية ، ثم و« يأت ربه »
دون « الله » هو إتيان الى يوم الرب برؤية الجزاء ، كما كان آتياً اليه يوم
الدنيا برؤيته التكليف ، فليس اذاً إتيان المجرم الى مكان للرب ، وانما الى
مكانة الربوبية المناسبة ليوم الجزاء - فد « انا لله وانا اليه راجعون » صادرون
منه وراجعون اليه .

ثم « لا يموت فيها ولا يحْيى » مواصفة لأبدية الخلود ، وقد يتمسك بها
في لانهايتها الحقيقية ، ولكن التعبير الصالح عنها « لا يموت » دون تقييد
بـ « فيها » ، حيث الموت فيها يعني بقاء جهنم بعد موت من فيها ، والآية
تنفيها ، واما الموت معها اذ لا نار ولا اهل نار ، فالآية لا تنفيها ، ثم تثبتها
ادلة اخرى كما فصلناها في مواضعها الاخرى^(١) ، ومن أهل النار

(١) كما في سورة الاسرى والنباء واضرابها حيث فصلنا البحث عن اشحالة الابدية

من يخرج منها ويدخل الجنة ، فلا يموت ابداً لا في النار ولا في الجنة فالآية - اذاً - تشملهم .

وقد نخص « لا يموت فيها » المؤبدن فيها ، واما الخارجون عنها فقد يموتون فيها ثم يحيون للجنة^(١) ولكنه احتمال لا نصير له قاطعاً ، والموت في الخبر مؤول الى موت الاجزاء البدنية الجهنمية .

اجل « لا يموت فيها » تخلصاً عن عذابها وهي باقية ، « ولا يحصى » في « لا يموت » حياة لها حظوتها ، بل هي موتات متواترة دون فصال ، حيث عوامل الموت حاصلة ، والحياة معها ماثلة ، وذلك اشد العذاب ان يوازي عمر المذب فلا هو ميت فيستريح ولا هو حي فيتمتع ، انما هو العذاب الواصب ما هو حي وما دام العذاب ، ثم لا نار ولا اهل نار .

وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ﴿٧٥﴾

فهناك اشد العذاب للأبدن في النار ، وهنا الدرجات العلى للمؤمن الذي عمل الصالحات ، وهذه تخص السابقين والمقربين وقسماً من اصحاب

= الحقيقية للعذاب . وموت اهل النار في محتملات اربع : موتهم فيها قبل فناءها ، ام موتهم بعد فناءها ، ام بقاءهم فيها دون زوال اطلاقاً ، ام موتهم معها فناء لها ، والآية انما تنفي الاولى ، والثانية تنفيها ابدية الخلود ، والثالثة منفية بادلثها ، والرابعة هي الصالحة بادلثها .

(١) الدر المنثور ٤ : ٣٠٣ اخرج مسلم واحمد وابن ابي احاتم وابن مردويه عن ابي سعيد الخدري ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) خطب فأتى على هذه الآية « انه من يأت ربه مجرمًا . . » فقال (صلى الله عليه وآله وسلم) : اما اهلها الذين هم اهلها فانهم لا يموتون فيها ولا يحيون واما الذين ليسوا بأهلها فان النار تميتهم اماتة ثم يقوم الشفعاء فيشفعون فيؤتى بهم ضبائر على نهر يقال له الحياة او الحيوان فينبتون كما ينبت القاء في حبل السيل .

سورة طه / آية ٧٧ - ٩٨ ١٤٩

اليمين ، فان لهم خالص الرحمة في الأخرى « فاولئك لهم الدرجات العلى » .

وبين الفريقين طائفة اخرى من اصحاب اليمين لهم درجات عالية ام متوسطة ام دانية حسب درجات الايمان والصلوات ، وهم لا يدخلون النار .

وطوائف من اصحاب الشمال يدخلون النار ثم يخرجون عنها قبل فناء النار ، طال مكوثهم فيها ام قصر .

وتلك الدرجات العلى ، الشاملة حظوة الروح والجسم معاً حيث « رضوان من الله اكبر » . هي :

﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَذَلِكَ جِزَاءُ مَنْ تَزَكَّى ﴾ ٧٦ .

والعدن هي الإستقرار ، والحياة المطلقة دون عات ام خروج هي قضية فضل الله ، كما الفناء مع فناء النار للأبدية في النار هو قضية عدل الله ، « وذلك » البعيد المدى والعظيم المثوى « جزاء من تزكى » قلباً وقالباً ، ايماناً وعملاً صالحاً .

وهذه من المشاهد القليلة النظير في تاريخ الرسالات حيث تعلن في إذاعة قرآنية مدى حرية القلب البشري باستعلائه على قيود الارض وسلطانها ، وانتصار الحق والايمان في واقع الحياة المشهود ، بعد انتصارهما في عالم الفكرة العقيدة .

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرِبْ لَهُمْ

طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفُ دَرَكًا وَلَا تُخْشَى ٧٧ ﴿٧٧﴾

فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ ۖ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾
 وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ
 قَدْ أَتَيْنَاكَ مِنْ عَدُوِّكَ ۖ وَوَعَدْنَاكَ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ
 وَزَلْنَا عَلَيْكَ الْمَنَ وَالسَّلَوى ﴿٨٠﴾ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ
 مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي ۖ وَمَنْ
 يَحِلَّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَنْ تَابَ
 وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ * وَمَا أَتَىكَ عَنْ
 قَوْمِكَ يَمْوَسَّىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ
 إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ
 بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ
 غَضْبَنَ أَسَفًا ۖ قَالَ يَتَقَوَّمُ الرَّبُّ بِكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدَا حَسَنًا
 أَفْعَالًا عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ
 مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ
 بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا

فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا
لَهُمْ خُورًا فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَاسِيَ ﴿٨٨﴾
أَفَلَا يَرَوْنَ إِلَّا بَرَجُ الْيَمِّ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا
وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَتَقَوِّمُ
إِنَّمَا فَتَنَّكُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا
أَمْرِي ﴿٩٠﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا
مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَهْرُونُ مَانِعُكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾
أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ
بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ
بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ لَمَّا خَطْبُكَ
يَاسْمَعِي ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ
قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي
نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ
لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ يُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَىٰ إِلَهِكَ

الَّذِي ظَلَّتْ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ
نَسْفًا ﴿١٧﴾ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ
كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٨﴾

هنا يطوي السياق طياً عن كل ما حصل بعد هذه المواجهة من فرعون وملائه مع موسى وملائه ، قفزة الى مسرح الانتصار الاخير بعد الاول وليعتبر اولوا الالباب ، وقد نتلمح كصرح من آيات اخرى للقصة ان لم يكن وحي الإسراء دون فصل عن ذلك المسرح ، وان هناك ردحاً من الزمن بينه وبين غرق فرعون وملائه^(١) عاشه موسى والمؤمنون به في الجحور الفرعوني ، حتى قضى موسى ما حُمِّلَ في تسع آيات الى فرعون وملائه . . . « (٢٧ : ١٣) وفرعون يحثل جثلاً لتشيويه السمعة الرسالية الموسوية : « وقال فرعون يا ايها الملأ ما علمت لكم من آله غيري فاوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً لعلني اطلع الى آله موسى واني لأظنه من الكاذبين » (٢٨ : ٣٨) .

وموسى يؤمر ان يتبوء لقومه بيوتاً : « وأوجينا الى موسى واخيه ان تبوءا لقومكما بمصر بيوتاً واجعلوا بيوتكم قبلة واقيموا الصلاة وبشر المؤمنين » (١٠ : ٨٧) .

(١) البحار ١٣ : ١٢٨ عن ابي جعفر الباقر (عليه السلام) قال : املئ الله عز وجل لفرعون ما بين الكلمتين اربعين سنة ثم اخذه الله نكال الآخرة والاولى وكان بين ان قال الله عز وجل لموسى وهارون : قد اجيبك دعوتكما وبين ان عرفه الله الاجابة اربعين سنة .

وذلك هو قضية الحال من تلك الآية الالهية في ذلك الحشد العظيم ، وما ركزت في قلوب من آثار، فلا يسطع فرعون ان يقتل موسى ومن معه لتثاقل الجؤ وتعاضله اذ كانوا يمنعونهم رغم همهم : « وقال فرعون ذروني اقتل موسى وليدع ربه اني اخاف ان يبدل دينكم او ان يظهر في الأرض الفساد » (٤٠ : ٣٦) .

مهما كان هناك مرتزقة من ملاءه يشجعونه على قتله : « وقال الملا من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وأهلك قال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وانا فوقهم قاهرون » (٧ : ١٢٧) .

فلما قضى موسى ما عليه من آيات بينات ، وتصبر ما كان له مجال على أية حال ، ووصل امره الى ملاحقة فرعونية شاملة حاسمة للدعوة والداعية ، اتى امر الله :

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرْكًا وَلَا نَحْشًا ﴾^{٧٧}

ووحى الإسراء هكذا يوحي بمدى الملاحقة الفرعونية بعد ذلك المسرح الصراح للحق في صراع الباطل ، و « عبادي » مما يلمح بايمان من آمن من السحرة كما المسناه ، أمّن سواهم كما هو قضية الموقف ، فلا تعني « عبادي » فقط بني اسرائيل مع ما لهم من تخلفات عن توحيد الله وعن شرعة الله ، فهؤلاء السحرة هم احق منهم واخرى بهذه الصيغة السائغة للصالحين ، وكأضرابهم في بني اسرائيل مهما كانوا قلة ، ومنهم من هم احرى من السحرة في « عبادي » ثم اللة الباقية منهم تشملهم « عبادي » قضية كونهم موحدين مهما ضعفوا ، وانهم كانوا يستضعفون، والله يضيفهم الى نفسه تحنناً عليهم وترحماً .

وعلى القدر المعلوم هنا من « عبادي » هم بنو اسرائيل حيث النص

لا يذكر السحرة من هذا المسرح الى آخر المطاف، فلعلهم قتلوا كما اوعدهم الطاغية، ام ولاقل تقدير سجنوا ام حوصروا كيلا يلحقوا بموسى، فضلاً عن سواهم من القبط الذين آمنوا هناك.

« ان اسر بعبادي » وهو سري الليل وسيره : « فأسر بعبادي ليلاً إنكم متبعون » (٤٤ : ٢٣) فسرى الليل سرً يخفى على الطاغية .

فاضرب لهم طريقاً في البحر ييساً : « ان اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم » (٢٦ : ٦٣) .

واليبس ما كانت فيه رطوبة ثم زالت او ماء فذهب ، فقد انفلق البحر واصبح طريقاً ييساً فـ « لا تخاف دركاً » من الطاغية « ولا تخشى » غرقاً في البحر .

وهنا « طريقاً في البحر ييساً » بصيغة الإفراد قد تطارد الرواية القائلة انه ضرب في البحر اثني عشر طريقاً حسب اقتراح الاسباط الإثني عشر ، ام تعني « طريقاً » جنسه المناسب لعديدة، ولا دليل عليه ولا هو الأظهر منه او الظاهر بل « فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم » (٢٦ : ٦٤) تلمح باهرة لوحدة الطريق .

ذلك ! إضافة الى ان في اتباع الحق اهوائهم ، ولا سيما هذه المفرقة بينهم وهم بحاجة الى توحيد الكلمة على كلمة التوحيد ، ان في ذلك فساداً لهم وكساداً للحق المرتجى منهم على ضوء هذه الرسالة القدسية الماحقة لمختلف الأهواء ، الساحقة لمختلف الآلهة ! .

ومن ثم فانقسامهم الى اقسامهم الاثني عشر ليختص كل بكل ، هذا يتطلب فرصة، وقضية الفرار ولا سيما بعد ما ترائى الجمعان ، هي التسرع دون اي لبث لأية مهمة او قرار ، فحتى ان كانوا متطلبين ذلك التفرق

سورة طه / آية ٧٧ - ٩٨ ١٥٥

إشباعاً لتفاصيل الأسباط ، لم يكونوا يتطلبونه وهم في خطر الإدراك وكما قالوا
« انا لمدركون » !

فهنا نقطع ان « طريقاً » هي واحدة ، والرواية هي من المختلقات
الاسرائيلية .

وهذه خارقة إلهية أخرى تظهر من عصا موسى، فيها نجاة بني اسرائيل
وغرق فرعون بجنوده :

﴿ فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ ٧٨ .

التبعية هي اللحق والمتابعة ، والإتباع هو الملاحقة ، فقد لاحقهم
فرعون بجنوده ليأخذهم ، ولكنه متى ؟ « فاتبعهم مشرقين . فلما تراء
الجمعان قال اصحاب موسى انا لمدركون . قال كلا إن معي ربي سيهدين .
فاوحينا الى موسى ان اضرب بعصاك البحر فانقلب فكان كل فرق كالطود
العظيم . وأزلفنا ثم الآخرين ، واتجينا موسى ومن معه اجمعين . ثم
اغرقنا الآخرين . ان في ذلك لآية وما كان اكثر مؤمنين » (٢٦ : ٦٧) .

« فغشيهم من اليم » غرقاً شاملاً « ما غشيهم » منه ، وما اجمله اجمالاً
عن غرقهم بصورة مهينة وكأنهم غثاء « فاخذناه وجنوده فنبذناهم في
اليم ... » (٢٨ : ٤٠) .

﴿ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى ﴾ ٧٩ .

ومن إضلاله قوله هم « وما أهدىكم الا سبيل الرشاد » (٤٠ : ٢٩)
حيث صور لهم ضلالة هدى ، وهدى موسى ضلالاً ، أضلهم على طول
الخط في سلطته الجبارة والى غرقهم ، وعمل منه ما يروى عن رسول
الهدى (صلى الله عليه وآله وسلم) ان قال : من قوله لعنه الله لجنوده :

« ترون البحر قد يبس من فرقي فصدقوه لما رأوا ذلك »^(١) .

وبطبيعة الحال لم يكن غرقهم اجمعين الا بعد اقتحامهم في البحر اجمعين ، نزولاً الى الطريق اليبس ، اذ لو رجع البحر حين نزلوا الى ما كان لم يلحق اخرهم اولهم ، وانما مكروا ببقاء الطريق اليبس حتى آخر نفر منهم ثم أطبق عليهم دون إبقاء ، بعدما نجى موسى ومن معه : « وانجينا موسى ومن معه اجمعين . ثم اغرقنا الآخرين » - فهـ « ثم » هنا تؤخر غرقهم عن نجات موسى ومن معه .

ويا لها من معركة صاخبة بين كتلتي الايمان والكفر ، فالاولون يملكون كافة الطاقات الروحية ، والآخرين لهم طاقات مادية ، فلم تكن الطاقتان متكافئتين في الواقع المادي ، فلا سبيل الى خوض المعركة مادياً حيث تكل الطاقة الروحية امام من لا ارواح لهم إنسانية .

فهناك تتولى يد القدرة الإلهية إدارة المعركة ، بعد ان اكتملت حقيقة الايمان والتصبر عليه في نفوس نفيسة لا تملك قوة سواها ، فترفع راية الحق مرفرفة عالية، وتنكس راية الباطل مخفضة خاوية ، وليعلم الذين آمنوا ان الله هو ناصرهم في حاضرهم كما في مستقبلهم : « ان الله يدافع عن الذين آمنوا » فقد ناسب الجوهنا التذكير بهامة النعم التي انعم الله بها على بني اسرائيل ، وما واجهوها بها من تخلف ونكران وكفران لأنعم الله ، مايوطىء الرأس لاصقة بالأرض تخجلاً لو كانت لهم رؤس انسانية ! :

(٢) نور الثقلين ٣ : ٣٨٥ في كتاب سعد السعود عن ابن عباس ان جبرئيل قال لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) - ونقل حديثاً طويلاً في حال فرعون وقومه وفيه « وانما قال لقومه « انا ربكم الاعلى » حين انتهى فرأه قد يبس في الطريق فقال لقومه : ترون البحر ..

﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى ^{٨٠} كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلُلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى ^{٨١} وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ^{٨٢} ۝

عرض لبعض النعم التي انعم الله عليهم ، سلبياً: « قد انجناكم من عدوكم » من سلطته الزمنية والروحانية الطاغية حتى صلح الظرف لايجاب السلطة الشرعية فايجاباً: « وواعدناكم جانب الطور الأيمن » اضافة الى منن مادية: « ونزلنا عليكم المن والسلوى » ومتى ؟ حين كنتم تتيحون في الأرض اربعين سنة في صحراء قاحلة جرداء ، وعليهما من الغذاء وسلوى الامن كما فصلناهما في البقرة .

قائلين لكم « كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تسطغوا فيه » : فيما رزقناكم طغياناً في نعم الله ، ابتغاء له من حرام ، ام صرفاً في حرام من سرف أو أيا كان ، ام نكراناً فكفران كذلك « ولا تطغوا في » الله ، في ألوهيته ان تشركوا به ام تنكروه ، « فيحل عليكم غضبي ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى » في هوات رغم ماله من قوات ، ولقد هوى فرعون أمامكم ، هويّاً عن عرشه إلى فرشه ثم هوى إلى الماء ومنه إلى جهنم وبئس المهاد . . والهوي يقابل الطغيان وهو من خلفياته طال أم قصر ، قل أو كثر .

وترى ماذا يعني غضب الله وهو تغير الحال والله لا يتغير من حال الى حال بل ليست له حال على أية حال فـ « لا يتغير بانغيار المخلوقين » ؟

انه من الله العقاب ، حيث الصفات والافعال المتشابهة المنسوبة الى الله تجرد عما لا يناسب ساحة الالهية ، اذا فغضب الله عذابه كما رضوانه ثوابه و « من زعم ان الله عز وجل زال من شيء الى شيء فقد وصفه صفة

مخلوق ، ان الله عز وجل لا يستغزه شيء ولا يغيره ^(١) .

واذا ابتليتم بذنب من اشراك بالله ام آية كبيرة عقائدية او عملية « واني لغفار ... » .

هنا « وواعدناكم جانب الطور الايمن » وفي البقرة : « واذا واعدنا موسى اربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وانتم ظالمون . ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون » (٥٢) وفي الاعراف : وواعدنا موسى ثلاثين ليلة واتممناها بعشر فتم ميقات ربه اربعين ليلة وقال موسى لاختيه هارون اخلفني في قومي واصلح ولا تتبع سبيل المفسدين » (١٤٢) .

اترى هذه الثلاث تحمل مواعدة واحدة جامعة مرة كما هنا ، ومفردة اخرى كما في هاتين ؟ .

كأنها هي ! حيث الأربعون هي الثلاثون المتممة بعشر ، أم الأربعون تجمع المواعدين ، الثلاثين الحاضرة الظاهرة ، والعشر المتممة لها بعدها ابتلاء لبني اسرائيل ، إلا انها لم تكن ظاهرة من ذي بدء .

وهذه المواعدة وان كانت تعم بني اسرائيل ، ولكنها موسى (عليه السلام) هو المحور الاصيل فيها ، فعلة لذلك « واعدنا موسى ثلاثين - او - اربعين ليلة » ثم هنا « وواعدناكم جانب الطور الايمن » وهو الجانب

(١) نور الثقلين ٤ : ٣٨٦ في كتاب التوحيد باسناده الى حمزة بن الربيع عن ذكره قال كنت في مجلس ابي جعفر (عليه السلام) اذ دخل عليه عمرو بن عبيد فقال له جعلت فداك قول الله تبارك وتعالى : ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى ما ذلك الغضب ؟ فقال ابو جعفر (عليه السلام) هو العقاب يا عمرو انه من زعم ... وفيه عن الاحتجاج عنه (عليه السلام) مثله وفيه : من ظن ان الله يغيره شيء فقد كفر .

الايمن حيث فيه يمين الوحي ويمينه . « واعدناكم » لنزول الواح التوراة الحامل لهذه الشرعة الإلهية .

« واني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى » علاج حاسم ذو قواعد اربع بالنسبة لكل عصيان او طغيان، ومنه الاشراك بالله وكما تطلبوه حين جاوزوا البحر : « وجاوزنا ببني اسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على اصنام لهم قالوا يا موسى اهل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال انكم قوم تجهلون » (٧ : ١٣٨) ، ومن ثم توغلوه في غياب موسى ، مهما كان قتل انفسهم شريطة التوبة : « واذا قال موسى لقومه يا قوم انكم ظلمتم انفسكم با اتخاذكم العجل فتوبوا الى بارئكم فاقتلوا انفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم انه هو التواب الرحيم » (٢ : ٥٤) .

والتوبة في هذه الاربعة هي الخطوة الاولى الى المغفرة ، وليست هي لفظة تقال ، انما هي عزيمة في القلب توبة الى الله في ترك الحوبة ، ومن المعصية الى الطاعة ، ومن طاعة الشيطان الى طاعة الرحمن .

ثم الخطوة التالية لها « وآمن » حيث العصيان يضر بالايمن او يمحيه ، فليرجع بالتوبة الى ما كان من الايمان ، فلا يكفي الاصلاح عملياً ما لم ينبع من ايمان .

ثم الثالثة « وعمل صالحاً » حيث الايمان دون العمل الصالح لا يفيد تلك الفائدة المترتبة ، فكما ان العاصي عصي في قلبه ويقال به ، فليؤمن بقلبه وقال به ، و « صالحاً » منكراً هو الذي يصلح ما أفسده ويزيله الى صالح لحظيرة الايمان وحضرة الرحمان .

ثم الرابعة والاخيرة في هذا المسرح « ثم اهتدى » اتراه لم يهتد بعد بهذه الثلاثة ، وكل من بنود الاهتداء ؟ اجل ، ولكننا المعني من « ثم اهتدى » بعدها ، هدى بعد هدى ، فلا تكفي للمغفرة الشاملة الكاملة ان

يهتدي عن خصوص ما ضل ، وله ضلالات اخرى غيرها ، قبل التوبة وبعدها ، فلا تضمن هذه التوبة الثلاثية إلا خصوص ما تاب عنها ، واما اذا ما « اهتدى » هدى عن كل ضلال « فاني لغفار » غفراناً مؤكداً بالغاً ذروته بالغاً ، يشمل كل ما يتطلب الغفران ، غفراً عما كان إجماعاً له ، ام عما يريد ليحصل صدأ عنه ، فهي اذا مغفرة رافعة ودافعة ، تجعل المغفور له في هدى صالحة غير كالحة .

وقد تعني « ثم اهدى » مع ما عنت ، الاهتداء الى الله بالسبل الى الله ، فما قيمة توبة وإيمان وعمل صالح دون وسيط الوحي ، وهو الرسول أولاً ومن ثم الأئمة من آل الرسول الذين يحملون كل ما حملة عن الله^(١) .

﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى ^{٨٣} قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَى أَثَرِي وَعَاجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ^{٨٤} ﴾ .

(١) نور الثقلين ٣ : ٣٨٧ في امالي الصدوق باسناده الى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) حديث طويل وفيه يقول لعلي (عليه السلام) ولقد ضل من ضل عنك ولن يهتدي الى الله من لم يهتد اليك والى ولايتك وهو قول ربي عز وجل « واني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى » .

وفيه عن اصول الكافي عن ابي عبد الله (عليه السلام) انه قال : ان الله تبارك وتعالى لا يقبل الا العمل الصالح ولا يقبل الله الا الوفاء بالشروط والعهود فمن وفى الله عز وجل بشرطه واستعمل ما وصف في عهده نال ما عنده واستكمل وعده ان الله تبارك وتعالى اخبر العباد بطرق الهدى وشرع لهم فيها المنار واخبرهم كيف يسلكون فقال : واني لغفار ... وقال : انما يتقبل الله من المتقين - فمن اتقى الله فيما امره لقي الله مؤمناً بما جاء به محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) .

وفيه عن تفسير القمي عن الحارث بن عمر عن ابي جعفر (عليه السلام) في الآية قال : الا ترى كيف اشترط ولم ينفعه التوبة والايمان والعمل الصالح حتى اهتدى ، والله لو جهد ان يعمل ما قبل منه حتى يهتدي ، قال قلت الى من جعلني الله فداك ؟ قال الينا .

لقد اعجل موسى عن قومه الى ميعاد ربه لمرضاته تعالى ، فانه مفتاق الى مناجاة ربه مشتاق ، و « المشتاق لا يشتهي طعاماً ولا يلتذ شراباً ولا يستطيب رقاداً ولا يأنس حمياً ولا يأوي داراً ولا يسكن عمراناً ولا يلبس لباساً ولا يقر قراراً ويعبد الله ليلاً ونهاراً راجياً بان يصل الى ما يشواق اليه ويناجيه بلسان شوقه معبراً عما في سريره كما اخبر الله موسى بن عمران (عليه السلام) في ميعاد ربه بقوله « وعجلت اليك رب لترضى » وفسر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عن حاله انه ما اكل ولا شرب ولا نام ولا اشتهى شيئاً من ذلك في ذهابه ومجيئه اربعين يوماً شوقاً الى ربه ^(١) .

فبالفعل ترك موسى قومه الى جانب الطور الايمن ، حيث غلب عليه الشغف الى مناجاة ربه وقد ذاق حلاوتها من ذي قبل ، فهو اليها مشتاق عجول ، فيسأله ربه عما أعجله عن قومه ، ولماذا لم يصاحبهم والمواعدة كانت تشملهم معه ، وهو يجيبه « هم أولاء على أثري » يتبعونني حسب القرار من فورهم « وعجلت اليك رب لترضى » حيث المواعدة انما هي لصالح الرسالة ، فليسبق الرسول قومه لتلقيه ، ولكي يحضر موسى نفسه قبلهم في ميعاد ربه ، وعلى أية حال لم تكن هذه العجلة إلا « لترضى » .

وقد تعني « على اثري » فيما عنت ، أثر التربية الرسالية فلا خوف عليهم رجعة عنها ، ثم وهارون اخي هو خليفتي عليهم فحتى اذا تأجلوا فهم تابعون اثري .

اترى ان قومه كلهم كانوا على ميعاد مع موسى ، وقد سبقهم ان

(١) مصباح الشريعة عن الإمام الصادق (عليه السلام) اقول : وقد يعني ترك ما ترك في ذلك الأربعين عدم الاهتمام به دون ترك مطلق حيث لا يطيق الانسان ايأ كان ان يترك حاجيات الحياة البدنية طيلة هذه المدة الطائلة .

يكونوا على أثره دون تأجيل ، فكيف يستخلف موسى اخاه هرون في هذه العجالة القريية : « وقال موسى لآخيه هرون اخلفني في قومي واصلح ولا تتبع سبيل المفسدين » (٧ : ١٤٢) .

قد تصلح الخلافة لفترة قصيرة كما الطويلة ، حيث الحفاظ على بني اسرائيل كان ضرورة دائبة على ضوء هدي الرسالة ، فليخلف موسى اخاه هرون في هذه العجالة، ولعلمهم تأجلوا عن أثره لحوقاً به ، فتخلفاً عن أثره في شرعته .

ام ان المواعدة لم تكن تعني الا السبعين المختارين : « واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا فلما اخذتهم الرجفة . . » (٧ : ١٥٥) وطبعاً لم يكونوا هم ممن عبدوا العجل وإلا فكيف يختارهم لميقات ربه ؟ .

وقد تلمح آية الاختيار بلحوقها آيات الإختبار في غياب موسى ، أنه اختارهم من بينهم بعدما عبدوا العجل .

فظاهر المواعدة وان كان يشمل قومه كلهم ، ولكن نكسة الاختبار حوّلهم الى ذلك الاختيار ، فلا يليق من عبدوا العجل لحضور الميعاد المختار .

وعلى أية حال فقد استعجل عن قومه كلهم او مختاريهم ، ونرى عرض القصة في الأعراف بنفس النمط باختلاف في صيغة التعبير يسير : « واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجباً جسداً له خوار لم يروا انه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً اتخذوه وكانوا ظالمين . ولما سقط في ايديهم وراوا انهم ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين . ولما رجع موسى الى قومه غضبان اسفاً قال بشما خلفتموني من بعدكم أعجلتم امر ربكم والقي الألواح واخذ برأس اخيه يحمره اليه قال ابن أم ان القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم

سورة طه / آية ٧٧-٩٨ ١٦٣
الظالمين . قال رب اغفر لي ولاخي وادخلنا في رحمتك وانت ارحم
الراحمين . ان الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة
الدنيا وكذلك نجزي المفترين . . ولما سكنت عن موسى الغضب اخذ
الالواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون . واختار موسى
قومه . . (٧ : ١٥٥) .

﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴾ ٨٥ .

لهذه الفتنة الاسرائيلية جانبان ، رباني وشرطاني ، والثاني مقسم بينهم
وبين السامري ، فقد كانوا منحازين الى الامور المادية والحسية في قرارات
انفسهم ، اضافة الى الاستعباد الطويل في ظل الفرعة المادية الطاغية ، مما
زاد في الطنبور نغمة اخرى ، تاركاً في كياناتهم النفسي خلخلة واستعداداً
لكل تقليد اعمى وانقياد ، فلذلك ما كان يتركهم موسى وانفسهم ، وترك
هم اخاه هرون في هذه العجالة ولكنهم فتنوا .

والسامري من ناحية اخرى اضلهم على ضلالهم ، وقد تركهم الله
واياه في ذلك المجال العجال فتنة لهم ونبهة لموسى ، فلو انهم كانوا مؤمنين
مطمئنين لانكسر السامري امامهم بكل جيله فاصبحت فتنة خير ، ولكنها
فتنة شر لهم لانهم كانوا على شر والى شر ، فأبدى الله كامن شرهم ، ولم
يكن من الله إضلال ، وانما اظهار الضلال في هذا المجال : « ونبلوكم بالشر والخير »
والينا ترجعون » (٢١ : ٣٥) « وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم
يرجعون » (٧ : ١٦٨) « ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم
والصابرين » (٤٧ : ٣١) وبالنسبة لخصوص هؤلاء الانكاد : « كذلك
نبلوهم بما كانوا يفسقون » (٧ : ١٦٣) وترى من هو السامري ؟ .

هنا تعترض الجمعية الامريكية على القرآن . . هذا من الجهل بالتاريخ
وعلم توقيع البلدان ان يسمى صانع العجل السامري ، ولم يكن في عصر

موسى شيء يقال له سامرة ولا سامري الا الذي ملك بعد سليمان
بخمسين سنة^(١) .

وهامشم العربي في تذييلاته المستقلة (٥٥) بعد تصديقه لذلك
التكذيب يقول : لا منشأ للتسمية بالسامري الى ان اشترى الملك عمري
ملك اسرائيل جبل السامرة من شامر بوزنتين وبني على الجبل ودعى المدينة
التي بناها باسم شامر السامرة فالقرآن يعزي صنعة العجل الذهبي الى
رجل من مدينة سامرة المبنية بعد موسى زهاء خمسمائة وسبعين سنة ! .

ولكنها غفلا عن تصريحات التوراة ان واحداً من ولد يساكر بن يعقوب
كان يسمى شَمِرون (تك ٤٦ : ١٣) وان جما غفيراً من ولد شمرون
وعشيرته كانوا مع موسى وهم وقتئذ يبلغون الالف (عد ٢٦ : ٢٣) .

وعربية القرآن تقتضي تعريب اللغات غير العربية فيه ومنها الشَمِروني
حيث عربت الى السامري ، والجمعية الرسالية تتحاشى عن ان يكون
الشَمِروني هو السامري صانع العجل جهلاً او تجاهلاً بالحقيقة ، في حين تصادق على ان
هارون هو الذي صنع العجل ! .

﴿ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ
وَعِدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ
فَأَخْلَفْتُم مَوْعِدِي ﴾^{٨٦} .

« فرجع موسى » من فوره « الى قومه غضبان » عليهم من فعلتهم
« أسفاً » على ذلك وعلى إعجاله عنهم « قال بشما خلقتُموني من بعدي »
(٧ : ١٥٥) وذلك الاسف والغضب والتنديد لم يخص فقط هؤلاء الذين
عبدوا العجل ، بل والذين سكتوا عن فعلتهم ، وحتى هرون الذي منعهم

(١) في ج ١ ص ٣٧ من كتاب جمعية الهداية .

عنها ولم يمتنعوا ! .

اترى موسى رجع فور وصوله الى ميعاد ربه ، اذ قال له حينه « وما اعجلك . . . قال فانا قد فتنا قومك » ؟ وقد ظل في الميعاد اربعين يوماً كما وعد، وليس من الممكن عادة حصول كلما حصل في هذه الفترة القصيرة ؟ ! .

طبعاً لا ، وعمل « وما اعجلك » كان بعد انقضاء الاربعين ، وواو العطف تعطف ما اعجلك بكل ما قاله تعالى وفعله طول الاربعين من إنزال الألواح وسواه ، واما انه إخبار له فور وصوله بما يحصل في المستقبل فلا يناسب ادب اللفظ ، ولا موقف موسى ان يصبر على ضلالتهم الآتي دون رجوع لصدهم ، اذ لم يكن القصد من تلك المواعدة إلا نزول التوراة ، وهو مؤخر رتباً وفي الحكمة التربوية عن تنزيههم وقد سقطوا في عبادة العجل في تلك العجالة .

هنا يأخذ في تأنيبهم « ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً » فيما واعد اربعين ليلة « فأخلفتم موعدى » ولم تلحقوني على اثرى ؟ و « وعداً حسناً » بانزال التوراة في هذه المواعدة « فأخلفتم موعدى » في انتظارها وعدم التخلف عن توحيد الله ؟ وطاعة هرون في هذه العجالة حق تلحقوني ؟ .

ووعدكم بمواصلة الإنتصار ودخول الأرض المقدسة في ظل التوحيد وظلال الشريعة الجديدة ؟ .

« افطال عليكم العهد » - « اعجلتم امر ربكم » (٧ : ١٥٠) فطال عليكم عهد فراقى ، وقد قصر ! وان كان طائلاً ؟ فيما تأخرتم عن موعدى ! ام طال عهد رجوعي بالألواح ؟ ولم يكن إلا كما واعد الله ! ام طال عليكم عهد الحفاظ على توحيدكم ؟ وهذا هرون نبيكم خليفتي ! ام طال عليكم عهد الرحمة السابقة السابغة اذ انجيناكم من آل فرعون واغرقناهم : « فطال عليكم الأمد فقست قلوبهم » (٥٧ : ١٦) ، ام « عجلكم امر ربكم »

بانزال الالواح ؟ وليس امره بايديكم ! .

ام « عجلتم » امر عذابه ان يحل بكم بما اخلفتم موعدي ؟ « ام اردتم ان يحل عليكم غضب من ربكم فاخلفتم موعدي » ؟ .

فحتى لو طال عهد الله فأخبره لحكمة عن مواعده ، كما حوّل الثلاثين الى الأربعين ، فانما هو ابتلاء لكم ، ليس ليحولكم في هذه العجالة القصيرة الى العجل ، لو انكم آتمتم بالله صادقين ، بل « اردتم ان يحل عليكم غضب من ربكم فاختلفتم موعدي » ! .

فمن طول العهد عليهم انهم عوهدوا في ظاهر الحال ثلاثين ليلة كما في آية الأعراف : « وَاَتَمْنَاهَا بِعَشْرِ » اذاً فتأخير العهد الظاهر هو من ضمن الفتنة التي فتنوا بها ، فتنة مثلثة الزوايا ثالثها : « وَاَتَمْنَاهَا بِعَشْرِ » وهم يزعمون ان الله اخلف وعده ، فلذلك انعطفوا الى عجل السامري بين المواعدين ، وكان عليهم ان يحملوا وعد الله على الأصلح ، ان الثلاثين غير حاصر ، فاضافة العشر اليها لانعاضها ، فهذه ضابطة عقلانية ان اثبات شيء لا ينفي ما عداه ، فمواعدة الثلاثين لا تنفي العشر ، وحتى اذا نفته ، فقد تتكرر بمواعدة اخرى تلحقها .

﴿ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَدَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴾ ٨٧ .

اعتذار عليل ، يكشف عن اثر الاستعباد والاستحمار الطويل ، والتخلخل النفسي والسخف العقلي الكليل الكليل ، يكشفون فيه عن ضوالة انفسهم وصغارها لحد كأنهم لا يملكونها امام مكر السامري .

« قالوا ما اخلفنا موعدك بملكنا » إذ كان الأمر اكبر من طاقتنا ، فهو يملكنا اكثر من ملكنا انفسنا فضلاً عن ان نملكه .

والمَلِكُ مصدر المَلِك ، فإِخلاف موعِدك كان خارجاً عن مَلِكنا ومقدورنا » ولكننا حملنا اوزاراً من زينة القوم ، فهل القوم هم آل فرعون ؟ فكيف اخذوا اوزاراً من زينتهم وهم كانوا تحت إمرتهم ، ثم من هذا الذي حملهم إياها دون ان يختاروها ، وهم كانوا بطبيعة حالهم راغبين إلى زخرفات الحياة وزينتها ، ولا سيما إذا كانت غنيمة من آل فرعون !

ام ان القوم هنا هم بنو اسرائيل انفسهم كما في الاعراف : « واتخذ قوم موسى من بعده من حيلهم عجلاً جسداً له خوار .. » ؟ إذا فالمحملون في هذه المكيدة هم أصول الضلال السامري اذ اصبحوا اداة لكيد^(١) والقوم سائر بني اسرائيل الذين اغتروا بقرار السامري ، فحملوا الاولين اوزاراً وثقالاً من زينتهم ، استجابة لما تطلبه منهم السامري فخذفوها في مقذفها كما قذف السامري .

ثم « فكذلك القي السامري » دون « قذف » قد تعم مع قذفه اوزاراً من الزينة كما قذفوا ، تعم إلقاء نيتهم هذه المكيدة المضللة ، ام هي الأصل في ذلك المسرح كما تلمح له الفاء .

ذلك ، والتسوية تنسب هذه المكيدة المضللة الى هرون كما في الاصحاح الثاني والثلاثين من سفر الخروج : « ولما رأى الشعب ان موسى ابطأ في النزول من الجبل اجتمع الشعب على هرون . وقالوا له قم اصنع لنا آلهة تسير امامنا لأن هذا موسى الرجل الذي اصعدنا من ارض مصر لا نعلم ماذا اصابه . فقال لهم هرون انزعوا اقراط الذهب التي في آذان

(١) البحار ١٣ : ٢١٦ عن ابي الحسن (عليه السلام) قال : ان الذين امروا قوم موسى بعبادة العجل كانوا خمسة انفس وكانوا اهل بيت يأكلون على خوان واحد وهم : اذينو و اخوه ميندويه وابن اخيه وابنته وامراته وهم الذين ذبحوا البقرة التي امر الله عز وجل بذبحها ... (الخصال ج ١ : ١٤٠) .

نساءكم وبناتكم وأتوني بها . فنزع كل الشعب اقراط الذهب التي في آذانهم واتوا بها الى هرون . فاخذ ذلك في ايديهم وصوره بالازميل وصنعه عجلاً مسبوكاً . فقالوا هذه آلهتك يا اسرائيل التي اصعدتك من مصر . فلما نظر هارون بنى مذبحاً أمامه ، ونادى هارون وقال غداً عيد للرب . فكبروا في الغد واصعدوا محرقات وقدموا ذبائح سلامة . وجلس الشعب للأكل والشرب ثم قاموا للعب « (١ : ٦) .

هكذا تتهم التوراة هارون عليه السلام ثم يعترض علماء العهدين على القرآن ان نسب صنعة العجل الى السامري لشبهة لغوية واهية ! .

﴿ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خَوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ ﴾^{٨٨} .

« فأخرج لهم » السامري بما القاه وقذفوا « عجلاً » وطبعاً بما أذاب الحلي فصنع لهم عجلاً ذهبياً ، ومهما لم ندر من هو السامري ندرى انه كان من صنّاع التماثيل والأصنام ، عارفاً بجنب صنعه . هكذا تدليس وتلبس لحد يتمكن من اضلال ذلك الحشد الكبير ، وفيهم هارون وقلة قليلة من المخلصين لم يقدرُوا على صده وايقافه لحدّه .

و « جسدًا » هنا تُخرج العجل عن كونه حياً ، و « له خوار » وهو صوت العجل تثبت له صوته ، فما كان - اذاً - له من آثار الحياة إلا خوار ، فالروايات القائلة ان الله احياء فتنة لهم مطروحة^(١) .

(١) الدر المنثور ٤ : ٣٠٤ - اخرج ابن مردويه عن وهب بن مالك عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : ان الله لما وعد موسى ان يكلمه خرج للوقت الذي وعده فينما هو يناجي ربه اذ سمع خلفه صوتاً فقال : الهي ! اني اسمع خلفي صوتاً ، قال لعل قومك ضلوا ، قال : إلهي من اضلهم به قال : السامري ، قال : كيف اضلهم ؟ =

وترى ذلك العجل الجسد أخرجه لهم السامري فمن اين « له خوار » والجسد ليس له خوار ؟ فهل الخوار من السامري ؟ وكيف يكون للانسان خوار- مهما احتال- من دبره الى فمه ! و « له خوار » ينسبه الى العجل الجسد نفسه دون السامري ، والا كان حق البيان « فخار فيه » ! ام انه من فعل الله ؟ والله لا يضل ولا سيبها هكذا مستضعفين في العقلية والعقيدة ! .

قد يكون « له خوار » ان جعل دبره في مهب الريح فصوتت من فمه كما الخوار ؟ ولكنه صوت الريح ، وليس خوار العجل لحد يشبه العجل الحي ! ثم « له خوار » مطلق لا يخصه بوضع خاص ! .

قد يلوح « انا فتنا قومك من بعدك » ان خواره كان من فعل الله فتنة لهم ليظهر مكنون حقهم من عمقهم ، وليس من البعيد وكما قال موسى : بعدما « اخذتهم الرجفة قال رب لو شئت اهلكتهم من قبل واياي اهلكنا بما فعل السفهاء منا ان هي الا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء انت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وانت خير الغافرين » (٧ : ١٥٥) (١)

قال : صاغ لهم عجلاً جسداً له خوار ، قال : الهى ! هذا السامري صاغ لهم العجل فمن نفع فيه الروح حتى صار له خوار ؟ قال : انا يا موسى ، قال : فبعزتك ما اضل قومي احد غيرك قال : صدقت قال يا حكيم الحكماء لا ينبغي حكيم ان يكون احكم منك .

وفيه اخرج الفريابي. وعبد بن حميد وابن المنذر وابن ابي حاتم والحاكم وصححه عن علي رضي الله عنه قال : لما تعجل موسى الى ربه عمد السامري فجمع ما قدر عليه من حلي بني اسرائيل فضربه عجلاً ثم القى القبضه في جوفه فاذا هو عجل جسداً له خوار فقال لهم السامري هذا الهكم وآله موسى .

اقول في الحديثين مواضع من مجال النظر فتأمل قياساً الى الاستفادة من القرآن .

(١) نور الثقلين ٣ : ٣٨٨ في محاسن البرقي بسند عن ابي جعفر (عليه السلام) ان فيها ناجى الله به موسى ان قال : يا رب هذا السامري صنع العجل ، الخوار من صنعه ؟ =

١٧٠ الجزء السادس عشر

فبالفعل « اخرج لهم عجلاً جسداً له خوار » وهم في بلاهة فكر وبلاهة روح ، وعقل معقول بحب الزينة ، وقلب مقلوب « فقالوا هذا آلهكم وآله موسى فنسي » .

هب انه « إلهكم » فكيف هو « إله موسى » وقد ذهب لمناجاته بمواعده ؟ .

إنه إلهة وقد ضل عنه فراح يبحث عنه على الجبل « فنسي » انه هنا لا هناك ! .

ام « فنسي » السامري الله الذي أنقذهم من آل فرعون وانعم عليهم بما لا يحصى ، فعكف على العجل الذهبي واعكفهم عليه واضلهم لحد

= فارحمي الله تبارك وتعال اليه : ان تلك فتنتني فلا تفحص عنها .

وفي البحار ١٣ : ٢٢٧ شي عن ابي بصير عن ابي جعفر (عليه السلام) في قوله الله « واشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم » قال : لما ناجى موسى (عليه السلام) ربه اوحى الله اليه ان يا موسى قد فتنت قومك قال : وماذا يا رب ؟ قال : بالسامري ، قال : وما فعل السامري ؟ قال : صاغ لهم من حليهم عجلاً قال : يا رب ان حليهم لتحتمل ان يصاغ منه غزال او تمثال او عجل فكيف فتنتهم ؟ قال : انه صاغ لهم عجلاً فخار ، قال : يا رب ومن اخباره ؟ قال : أنا ، فقال عندها موسى « ان هي الا فتنتك تفضل بها من تشاء وتهدي من تشاء » ، قال : فلما انتهى موسى الى قومه ورآهم يعبدون العجل القى الألواح من يده فتكسرت فقال ابو جعفر (عليه السلام) كان ينبغي ان يكون ذلك عند اخباره الله اياه ، قال : فعمد موسى فبرد العجل من انفه الى طرف ذنبه ثم احرقه بالنار فلذره في اليم ، قال : فكان احدهم ليقع في الماء وما به اليه من حاجة فيتعرض بذلك للرماد فيشربه وهو قول الله « واشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم » وفيه ص ٢٢٩ عن ابي عبد الله (عليه السلام) في الآية فقال موسى يا رب ومن اخبار الصنم فقال الله انا يا موسى اخرته فقال موسى : ان هي الا فتنتك وفيه ص ٢١٠ عن تفسير القمي زيادة قوله تعال : انا لما رأيتهم قد ولوا عني الى العجل أحبيت ان ازيدهم فتنة ...

سورة طه / آية ٧٧ - ٩٨ ١٧١

« قالوا هذا آلهكم وآله موسى فنسي » الله و « نسي » الاستدلال بحدث الاجسام على استحالة الوهيتها .

و « نسي » انه هو الذي اخرجهم ، فهو الخالق له فكيف اصبح آله
وآله سائر الحضور مع موسى ، وقد كان - إذا - هو احرى بدعوى الألوهية
وليس له ، فان موسى عمل ما هو اولى واعلى من خوارق العادة ولم تثبت له
الوهية .

« فنسي » آيات الله الكبرى التي أويتها موسى من ثعبان العصا واليد
البيضاء ، نسيان التجاهل التناسي .

والنص يساعد نسيان السامري وموسى ، ولكنه في نسيان موسى نقل
لكلامهم ، وفي نسيان السامري هو كلام الله ، والمعنيان معنيان حيث
يتحملها اللفظ ويناسبهما المعنى .

﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾^{٨٩}

هب ان العجل الذهبي خار وهو جسد ، فما هو فضله على العجل
الحيوان ؟ وهب ان خوار العجل الجسد خارقة! فقد سبق لكم ان الله
احيي لكم بقرة وهو خارقة اعظم ، وقلب عصى موسى حية تسعى ويده
بيضاء من غير سوء ، وفرق بكم البحر ، فهل ان خوار العجل الجسد
افضل من كل ذلك؟ وإن كان يدل على شيء فليدل على ما دلت عليه هذه
الآيات ، ام وهي فتنة شر فليجتازوها بخير .

ثم « افلا يرون ألا يرجع اليهم قولاً » لا قولاً منه يفهم ، ولا اجابة
لقولة الدعلة ، فكيف هو آله يعبد ولا يستطيع قولاً بدء ولا رجعاً ، وانتم
لكم القول بادئاً وراجعاً ، فليعبدكم العجل - اذا - لو جاز، دون ان
تعبدوه ، فانتم الذين شاركنم في صنعه بحليكم ، والسامري صنعه بحيلته

فليعبدكم العجل، والسامري .

ثم « ولا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً » ولا لنفسه : « ألم يروا انه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً اتخذوه وكانوا ظالمين » (١٤٨:٧) فما قولتهم العاذرة « ما اخلفنا موعداً بملكنا » الا قولة كاذبة مأكرة ، بل هم ظالمون بحق الحق وبحق انفسهم ورسولهم .

قال بعض اليهود لعلي (عليه السلام) : ما دفنتم نبيكم حتى اختلفتم ؟ فقال : انما اختلفنا عنه وما اختلفنا فيه ، وانتم ما جفت اقدامكم من ماء البحر حتى قلتم لنبيكم : اجعل لنا آلهة كما لهم آلهة^(١) . وترى لو رجع اليهم قولاً وملك لهم ضرراً او نفعاً او هداهم سبيلاً لكان بكل ذلك آلهة ؟ .

كلا ، وانما هذه كلها من الشروط البسيطة البدائية للالوهية ، فالفاقد لها يفقد - باحرى - كلها ، ثم الواجد لها قد يكون إلهاً حين يملك سائر الشروط ، ام لا يكون إلهاً حين لا يملكها كما لا يملكها .

فيا ويلاه كيف عبدوا عجلاً جسداً له خوار ولا يصل الى درجة الحياة الحيوانية الا خواراً ، فلا ينطح ولا يرفس ولا يدبر طاحونة ولا ساقية ، عبدوه - فقط - لان له خواراً ! - ذلك :

﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ إِنَّمَا فَتَنَّكُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴾^(٢) .

فتلك عقولهم المدخولة الظلمة في انفسهم . وضافة الى كل حجة بالغة انفسية لتزييف تلك العبادة الزائفة ، قد ذكروا بلسان الوحي « انما فتنتم به » فليس ذلك الخوار الا فتنة لكم ، فتنكم الله به بالسامري ، فليس ذو

(١) تفسير الفخر الرازي ٢٢ : ١٠٥ في ظل الآية

سورة طه / آية ٧٧ - ٩٨ ١٧٣

الحوار ربكم « وان ربكم الرحمن » الذي خلقكم والعجل والسامري والحلي
والعالمين اجمعين ، فهل ان العجل رحمان وانتم صانعوه ؟ ام « ان ربكم
الرحمن » الذي فطر الخلائق برحمته وقدرته ؟ « فاتبعوني » فيما خلقت بينكم
« وأطيعوا امري » دوغما تخلف عني ، فاني خليفة موسى الرسول حين
قال : « اخلفني في قومي واصلح ولا تتبع سبيل المفسدين »
(٧ : ١٤٢) .

ونرى هنا سرد الرسالة اجمالاً في اصولها وفروعها ، ابتداءً بالسلب فيما
فتنوا به ، ثم الايجاب « ان ربكم الرحمن » ثم الرسالة « فاتبعوني » ومن ثم
احكام الرسالة « واطيعوا امري » .

ولكنهم بالرغم من الحجة البالغة الفطرية والعقلية انفسياً ، والرسالية
آفاقياً ، صمدوا على كفرهم و :

﴿ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ﴾^{٩١}

واذا كان رجوع موسى رجعة لهم عن ضلالهم حجة لرجوعهم ،
فهذا اخوه هارون مؤمر مطاع من قبله ، وطاعته طاعته ومعصيته معصيته ،
ولا يقول الا قوله ، ولكن لا حياة لمن تنادي ، وان هي الا عاذرة حمقاء
ابتغاء لهذه الفرصة اللثيمة في عكوفهم على عجلهم .

ثم وفي « لن نبرح » قضاء على امده : « حتى يرجع الينا موسى »
حيث استحالوا رجوعهم عن عجلهم في هذه العجالة ، مهما اتهم من برهنة
قاطعة ، فهم اولاء - اذا - لن يرجعوا في تصميمهم الحالي ، مهما تحولوا بعد
رجوعه ورجعوا ! .

﴿ قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا^{٩٢} أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ

امري ﴾^{٩٣} .

وترى ما هو اتباعه له المرغوب المترقب منه الذي تركه حتى عده عاصياً لأمره فآخذ برأسه ولحيته « والقي الألواح وأخذ برأس أخيه يجره اليه » (٧ : ١٥٠) وقد سمعناه وعظهم ووبخهم وأمرهم بما أمرهم ؟ ونص الوصية الموسوية في هذه الخلافة « وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي واصلح ولا تتبع سبيل المفسدين » وقد خلفه وما أخلفه واصلح ما استطاع حتى كادوا يقتلونه . « ان القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني » (٧ : ١٥٠) ولم يتبع سبيل المفسدين تركاً لأمر أو نهي ، ام دخولاً في نهي .

الإتباع المرغوب هنا هو أن يلحقه بمن معه كما واعدهم الله مع موسى ، ولا سيما « اذ رأيتهم ضلوا » دون واجب الدعوة - فقط - والموعظة ، وقد فعل لحد كادوا يقتلونه « ان القوم استضعفوني وكانوا يقتلونني » ولم يبق من واجب نهيهم عن ضلالهم إلا قتالهم وقد استضعفوه ، او فراقهم وحيداً او بمن معه ، وما كان يتبعه إلا الذين اتبعوه ، وذلك تفريق بينهم و « اني خشيت ان تقول فرقت بين بني اسرائيل ولم ترقب قولي » فقد أمره ان يحافظ على وحدتهم كما في علوم

وطبيعة الحال في رسول كموسى انه لما يرى الحال هذه المزرية وبعد اللتيا والتي - أن يفور غضباً لله ، وظاهر الحال كان يدفعه هكذا سؤال ، دون ان يتهم اخاه هرون إلا تساءلاً لاتضاح الحال « أف عصيت أمري » وما هكذا الظن بك ، فوضّح لي الحال ، حتى يسكن البال ويصفو المجال .

فلم يكن له - اذاً - في اتخاذهم المعجل ذنب^(١) ، ولا في عدم اتباعه

(١) انور الثقلين ٣ : ٣٨٩ في كتاب علل الشرايع باسناده الى علي بن سالم عن ابيه عن ابي عبد الله (عليه السلام) حديث طويل وفيه قال قلت : فلم اخذ برأسه يجره اليه ويلحيته ولم يكن له في اتخاذهم المعجل وعبادتهم له ذنب ؟ فقال : انما فعل ذلك به لانه لم يفارقهم لما فعلوا ذلك ولم يلحق موسى وكان اذا فارقهم ينزل بهم العذاب ، الا ترى =

سورة طه / آية ٧٧ - ٩٨ ١٧٥

موسى ذنب ، إلا أن ظاهر الحال كان يقتضي ذلك التأنيب العجيب أن قال ما قال واخذ برأس اخيه يحره اليه كما والقى الواح التوراة ، ثم لما تبين امره استغفر لنفسه ولاخيه : « قال رب اغفر لي ولاخي وادخلنا في رحمتك وانت ارحم الراحمين » (٧ : ١٥١) .

﴿ قَالَ يَا ابْنَ أُمِّ لَا تَسْأَخْذْ بِإِخِيَّتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾ ٩٨ .

وذلك الاعتذار يبين بوضوح أن موسى (عليه السلام) لم يتساءله الا عن عدم اتباعه الى الطور الايمن ، أخذاً بهم معه ، ليعالجهم موسى ما خالجهم ، ام فراقاً عنهم كزاوية اخيرة للنهي عن المنكر .

لقد تهذرت اعصاب موسى حين رأى ما رأى لحد لم يتمالك نفسه ان يفعل إلا ما فعل ومن ثم اعتذر : « ... والقى الألواح واخذ برأس اخيه يحره اليه قال يا بن ام ان القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين » . قال رب اغفر لي ولاخي وادخلنا في رحمتك وانت ارحم الراحمين » (٧ : ١٥١) .

وهنا تساءلات حول تأنيب موسى واعتذار هارون :

كيف يأخذ برأس اخيه ولحيته يحره اليه دون ان يتأكد منه عصيانياً لأمره وكما تردد « افعصيت امري » وهو يعرف اخاه انه من اهم سؤله المجاب في دعوته ، وانه رسول الله معه ، فكيف يبتكه هكذا او يتردد في امره ؟ .

قد يُعذر موسى فيما فعل انه قضية الموقف المحترار ، وعلمه هكذا يفعل

= انه قال لهارون : ما منعك اذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعن افعصيت امري - قال هارون : لو فعلت ذلك لفرقوا « اني خشيت ان تقول فرق بين بني اسرائيل ولم ترقب قولي » .

بأخيه المختار ليدل المتخلفين من بني اسرائيل على مدى تخلفهم في فتنهم « فتنة لا تصيين الذين ظلموا منكم خاصة » وليرقبوا على انفسهم اشد من ذلك وانكى ، حين يفعل الداعية بخليفته البريء عما فعلوا وهو اخوه ، يفعل هكذا ، فماذا - اذا - يفعل بهم بما افتعلوا ، تعبيداً لجو التائب الشديد ، والأمر بالإمر أن « اقتلوا انفسكم » .

وهذه سنة سنية في النهي عن شديد العصيان والتحذير عما يخلفه ، فهو من باب : اياك اعني واسمعي يا جاره ، وكما يخاطب الله نبيه احياناً بخطابات تنديدية وهو يقصد الامة المتخلفة .

فليعلم عبدة العجل حينذاك انه ليس بتاركهم وقد فعل بأخيه البريء ما فعل لماذا لم يفارقهم اليه .

وهكذا يوجه قوله له كما يوجه فعله وجاء هؤلاء المتخلفين وليعلموا ان شرعة العدل لا تعرف نسبة ولا قرابة ولا خلافة في ظرف التخلف عنها ، فضلاً عن امة متخلفة هكذا ، وليعرفوا مدى عصيانهم لرسولهم إلا مسامحة فيه ولا سماح عنه .

ثم وكيف يعذر هارون عما قصّر إن قصّر خشية التفرقة بين بني اسرائيل ، وليست الوحدة مرغوبة إلا في ظلال التوحيد ، فحتى ان قتل دون منيعهم عما افتعلوا لكان حقاً رسالياً بمسؤولياتها الدعائية الاصيلية ، وما الدعوات الرسالية إلا مفرقة بين الناس من متقبل لها او معارض ، ثم بوحدة بين المؤمنين بها ، فكيف يعذر هارون ان قصّر بقوله « اني خشيت ان تقول فرقت بين بني اسرائيل ولم ترقب قولي » ؟ .

انه وعظهم ونسّد بهم حتى كادوا ان يقتلوه ، فلم يقصّر - اذا - في الدعوة ، ثم قتل الداعية انما يسمح فيه في شرعة الرسالة إن اثر في قبول الدعوة ام مزيد الحجة ، ولكن بني اسرائيل المعروفين بقتل النبيين لم يكونوا ليتأثروا بقتل هارون إلا حظوة لهم في البربرية ازالة لمن يصددهم ، وتقليلاً

لعديد الداعية ، فتعريض هارون نفسه للقتل لم يكن الا تعريضاً للرسالة الى الخمول وتضعيف الساعد المساعد لموسى الى الخمول ، ثم التفرقة المحظورة هي التي كانت تشجع المتخلفين في عكوفهم على عجلهم لما يرون الجودون معارض ومشاغب ، ثم تفريقاً بين المؤمنين ان يلحق بعضهم بعبدته ، واخرون يلحقونه الى موسى ، تمزيقاً لذلك الجمع دون فائدة عائدة الى صالح الحق ، إلا طالحاً ضد الحق ، ولقد كانت الرقابة لقول موسى الحفاظ على الوحدة ما دامت صالحة مهما ضل منهم من ضل ، حيث الفرقة آنذاك كانت تزيدهم ضلالاً على ضلال ، وفيها دلال لمن ضل وأضل .

ولماذا « يابن أم » دون « اخي » كما في عرض سؤله واجابته ؟ علّه لانه كان اخاه من امه ، ام جاء له من ناحيتها وان كان اخاً لابويه ، لأنها اشد حساسية وارهافاً واستجاشة للرحمة الاخوية ، تكسيراً عن شدته وتكثيراً لرحمته .

وكيف هنا « أم » وقضية الادب كسرهما للاضافة ؟ علها مخففة عن « أماء » نداء لها ضمن ندائه ليكون أكد في الاسترحام .

وترى موسى كيف لم يغضب عند ما اخبره الله ، غضبه حين رأى ما رآه ؟ انه على حد المروي عن اخيه المصطفى : « يرحم الله اخي موسى ليس المخبر كالمعاين ، لقد اخبره الله بفتنة قومه وقد عرف ان ما اخبره ربه حق وانه على ذلك لتمسك بما في يديه فرجع الى قومه فآهم فغضب والقى الالواح ... » (١) .

(١) البحار ١٣ : ٢٠٤ وقال الطبرسي روي عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) انه قال :

وعله - وبطبيعة الحال - غضب هناك كما هنا ولكنه أخف ولم يأت له ذكر إذ لا مظهر له وهنا آخره يظهره .

هذا دور هارون في قصة العجل ، ومن ثم السامري وهو اصل البلاء :

وانما بدء موسى بالقوم ، لأنهم هم المسؤول الاول في هذه الزلة الا يتبعوا كل ناعق وبمسمعهم ومرآهم آيات الله تترى من بين ايديهم ومن خلفهم .

ومن ثم هارون لأنه المسؤول الثاني في هذه المعركة ان يحول بينهم وبين هذه الهوة المضللة ، لأنه خليفة موسى والقائد المؤتمن في غيابه .

ثم السامري هو الاخير لانه لم يفتنهم بقوة قاهرة ام معجزة باهرة ، ولم يضرب على عقولهم ، وانما وجد الجوّ صالحاً للاضلال حيث انتضعف القائد وتحلف وتعنف المقود ، وقد كانوا يملكون ان يشتوا على هداهم فطريا وعقليا ، وعلى هدى نبيهم الاول ونصح الثاني :

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ۖ ٩٥ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَنْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا فَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ۖ ٩٦ ۝﴾ .

والخطب هو الأمر الخطير الذي يهيم صاحبه ، فما هذا الأمر يا سامري حيث اهمك في هذه المكيدة المضللة المدللة ؟ مسأ من كرامة الله ، وتضييعاً لرسالة الله ، ونكراناً لنعم الله ! « قال » : . . .

ولأن القصة منقطعة النظير في القرآن ، لا تحمله إلا هذه الآية ، وهي غامضة في نفسها ، لذلك تتطلب إمعان النظر أكثر مما له نظائر ، وقد تضاربت في تفسيرها الأقوال ، واصبحت مجالاً فاسحاً للقليل والقال .

« قال بصرتُ بما لم يبصروا به » : بَصُرَ به هو العلم والمعرفة عن بصر العين ، قد يعلمه غير الباصر وقد لا يعلمه ، وهنا « بما لم يبصروا به » تختص بالباصر الخفي كما « فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون » (١١: ٢٨) .
 فهناك امر بَصُرَ به وهم لا يُبصرون ، معرفة أو علماً بما يجهلون ، وكان بالامكان ان يبصروا به ولكنهم مستغفلون ، فلم تكن - إذاً - معرفة خارقة للعادة في مسارح المعرفة ، بل هي لمحة خفية لأمر عن تحرُّ وتفتيش ، لم يكن هؤلاء بصدده حتى يتلمحوا له ، والسامري يأتيهم هنا بما يجهلون بما سولت له نفسه من الإغراء لإجراء مكيدته البائسة الدفينة .

« بصرت .. فقبضت قبضة من اثر الرسول فنبذتها » وهنا القبضة متفرعة على البصر ، ثم النبذة تتفرع على الأثر ، وكل ذلك من تسويلات نفس السامري : « فكذلك سَوَّلَتْ لي نفسي » .
 فما هي القبضة ، وما هو الأثر ؟ وما هي نبذة الأثر ؟ ومن هو الرسول المقبوض الأثر ؟ .

فهل الرسول هنا هو جبريل ، وأثره موضع حافر فرسه ، فقبض قبضة من ترابه فنبذها في حليهم المركوم فأصبح عاجلاً جسداً له خوار ؟ كما قد تداولته أقلام المفسرين في الأكثرية المطلقة .

والتداول من « الرسول » في القرآن هو الرسول البشر ، مهما شمل جمعه الرسول الملك « الله يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس » (٢٢ : ٧٥) وليس يعني « انه لقول رسول كريم » جبريل الا بتاويل عليل ، ثم جبريل وهو الطائر القدسي الرسالي ليس يركب فرساً ! ولا يظهر لغير الرسول ، ولئن ظهر فانما هو في صورة البشر ، فكيف عرفه السامري ؟ أبصورته الاصلية ؟ ولا تصلح لغير الرسول ! ام بصورة .

انسانية ، فكذلك الأمر! ثم كيف يُعرف - إذاً - انه جبريل ، اللهم الا للرسول.

وتجلى جمع من الملائكة لقوم لوط لم يكن ملائكياً كما لم يعرفوهم ، ولم يكونوا حملة الوحي الرسالي ، ام اعواناً لقوم لوط المجرمين !

ومن ثم كيف يكون لأثر حافر فرسه ام قدمه ذلك الاثر المعجز، والآيات المعجزة إنما هي من أفعال الله ، ينخصها بمن يحملون رسالات الله تثبيتاً لها ، دون سواهم مهما كانوا رسل الوحي الى الرسل، فضلاً عن الدجالين المضللين، تجلياً لهم بحيث يعرفونهم، ويزيدون اضلالاً بآياتهم الخارقة !

ومهما كان ذلك فتنة من الله فليست الآية المعجزة منها ، ولو كانت آية لأصبح العجل الذهبي حيواناً ، ونص الآية « عجلأ جسداً » يطارده ! وليس الله يطارد آية منه بأية اخرى بل يؤيدها بها ويطل بها غيرها المدعى أنها منها « قال ما جئتم به السحر ان الله سيظهر ان الله لا يصلح عمل المفسدين » وصنع العجل الآية بقبضة من اثر الرسول هكذا ، إصلاح لعمل المفسدين سبحانه الله عما يصفون !

ام ان الرسول هنا هو موسى وأثره هو أوزار الزينة التي حملوها ، نسبت اليه هنا لانه أمرهم باخذها من القبط ، فقبض منها قبضة وطرحها مع القوم في النار فاخرج لهم عجلأ جسداً له خوار ؟

ولكن اوزار الزينة لم تكن للقبط بل هي من حليهم انفسهم « واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلأ جسداً له خوار » .

وأنى لهم ان يأخذوا من زينة آل فرعون وهم مستضعفون بينهم

وملاحقون ، فضلاً عن ان يحملوا اوزاراً من زيتهم ! اللهم ان تحملهم أمواج البحر بعد غرقهم ولا برهان له ، و « من حليهم » برهان عليه ، وهي على أية حال لم تكن اثر الرسول ، مهما كانت لأولاء ام هؤلاء ، وحتى لو كانت من ملكة موسى فالصيغة الصالحة لها « اثر موسى » دون اثر الرسول ، حيث الحلي والزينة هي من آثار الحياة الدنيا وليست « اثر الرسول » فانما اثره الرسالة بآثارها .

ثم القبضة المتفرعة على « ما لم يبصروا به » هي بطبيعة الحال عنهم خفية ، وهم عارفون انه ألقى مما ألقوا : « فذلك القى السامري » ! ومهما يكن من امر فالصيغة الصالحة له « فقبضت قبضة من زينة القوم » ولكنه على هذا الحال ايضاً لم يقبض من زينة القوم وانما « حملنا اوزاراً من زينة القوم فقذفناها فذلك القى السامري » ! ومن ثم فكيف يقال لموسى - وهو حاضر - قيلة الغائب والصحيح « من أترك - او - من حليك » !

ام انه هو هارون وهو غائب عن مسرح التخاطب مهما كان حاضراً بينهما ، والاثر إما كالاول او كالثاني ؟ ولكن الصيغة الصالحة عن هارون هي لفظه دون « الرسول » وإمامه موسى وهو اصل في هذه الرسالة ، ثم عليه ما على الاولين الا المحظور الاخير .

عل الرسول هنا هو موسى لانه المحور في هذه الرسالة ، الظاهر بنفسه وبرسالته وآثارها ، فالتعبير بالرسول كغائب دون « اترك » علّه للتدليل على ان ما قبضه كان آثار الرسالة ، بما فيه من تعريض على هذه الرسالة كما في نظائرها : « يا ايها الذي نزل عليه الذكر انك لمجنون » (١٥ : ٦) ولان السامري كان ناكراً للرسالة وقبلها للربوبية : « وانظر الى إلهك الذي ظلت عليه عاكفاً . . . » فقد يعني من قوله : « بصرت بما

لم يبصروا به « أني عرفت من بطلان هذه الرسالة ما لم يعرفه هؤلاء ، ولكي أبين لهم ضلالهم جئتهم من حيث يعرفون « فقبضت قبضة من اثر الرسول « وهو شطر من سنته ثم « نبذتها « إلغاء لها لأزلزل من اركان ايمانهم المزعزعة في نفسها ، ام « نبذتها « خلطاً لها بباطل من عندي ثم اظهرت حقها بمظهر الباطل والباطل بمظهر الحق .

ونفس النبذ هنا - دون القذف - خلاف ما هناك - وأنه رفض بعد القبض - مما يدل على انه تضليل بعد تدليل : « قبضت فنبذت » فالقبض هو الاخذ قبولاً وتصديقاً ، والنبذ هو الرفض تكذيباً ، وهذه هي اضل طرق الإضلال ان يقبض من اثر الرسول كمصدق له ، ثم ينبذ ويرفض نفس المقبوض تكذيباً وكما كان يفعله الدجالون : « آمنوا بالذي انزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون » (٧٢ : ٣) .

ولو كان المنبذ هنا هو المقذوف هنالك ام الملقى هناك لكان قذفها ام القيتها^(١) والنبذ صريح في الرفض دون الإلقاء والقذف ، فقد قذفوا حليهم بإلقاءه « فقذفناها فكذلك القى السامري » ومن قبل قبض قبضة من اثر الرسول فنبذها تهويناً لايمانهم ، فلو ظلوا على ايمانهم ما ضلوا

(١) لم يأت النبذ في القرآن الا بمعنى الرفض كـ « نبذ فريق من الذين اوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم » (٢ : ١٠١) « فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم » (٢٨ : ٤٠) « اوكلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم » (٢ : ١٠٠) « فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً » (٣ : ١٨٧) « كلا لينبذن في الحطمة » (٤ : ١٠٤) . وفيما جاء النبذ في غير المرفوض فهو نائب مناب المرفوض مثل يونس « فنبذناه بالعراء وهو سقيم » (٣٧ : ١٤٥) و « لولا ان تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم » (٦٨ : ٤٩) وكما مريم « اذ انتبذت من اهلها مكاناً شرقياً » (١٩ : ١٦) تباعداً عنهم لما وجدت من نفسها نبذاً ورفضاً لما حملت .

بالقاء قذفاً لحليهم ، وما قالوا « هذا إلهكم وآله موسى فنسي » فانما زعزعهم عن بقية الايمان بما قبض ونبد ، ثم القى بينهم قذف حليهم ليصنع لهم ما يعبدون كما كانوا يأملون ! .

وعَلَّ من اثره مواعدة الثلاثين ، التي انقلبت الى الأربعين ، فقد قبضها في قبضته ، ثم نبذها في نبذته ، قبضاً كوعد الله ، ونبذاً كخلف لوعده الله ، وعوداً بالله ! .

ومن اثره « إني معكم اسمع واري » فقد قبضه كتصديق ثم نبذه بتلك المواعدة ، ان لو كان إلهه معه فكيف واعدته الى جانبه الطور الأيمن ؟ ! .

هذا وقد يؤيده ان خطب السامري المسؤول عنه لم يكن صنعة العجل الجسد لأنها كانت ظاهرة لا تدفع لسؤال ، بل هو الأمر الخطير الذي اهمه فدفعه لصنعه والدعوة الى عبادته ، كما ويؤيده اخيراً « فكذلك سولت لي نفسي » .

مركز تحقيق كتاب موير علوم إسلامي

وطبيعة الحال قاضية في ذلك المسرح ان ليست صنعة العجل الجسد الذي له خوار بمجردا هي السبب لضلال من ضل ، إلا بتقديم ما يصفى الجو لتقبل ذلك الضلال المبين وقد فعل وافعل فأضل كما ضل .

ثم الحوار للعجل الجسد فتنة إلهية وليست آية تمكّن صاحبها من دعوى الألوهية او الرسالة ، كيف وقد انقلبت عصى موسى حية تسعى وثعباناً مبيناً ، وهذا العجل الذهبي ظل جسداً الا ان له حواراً ، وهذا الاحتمال على اية حال اسلم من كل ما قيل او يقال ، صيانة لكلام الله عن عضال لا يزول الا بمزيد اشكال ، ومشكلة الحوار قد تدفع بدافع غير ما ذكر انه كان بسبب صناعي ووضع خاص هندسي أمام الريح فهو كصوت العجل وليس صوته .

فلقد حدث السامري بقولته ما حدث ، وتقلص فيه وما تخلص ، واعترف في ذلك الموقف الحاسم القاصم ان ذلك من تسويل النفس ، ونرى موسى كيف يطرده من الجماعة طول حياته ويحرق آلهة أمام من ضل به وينسفه في اليم نسفاً ، إحراقاً لهذه الضلالة عن بكرتها ونسفاً لها .

﴿ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ نَخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ۝٩٧﴾

« قال فاذهب » من هذا الجمع المستضعف ، فليس لك هنا مكان ولا مكانة ، تغرب عنهم طريداً شريداً مدحوراً فريداً « فان لك في الحياة » ما هو اصعب واتعب من الممات « ان تقول لا مساس » ليس انك لا تمس احداً ولا يمسك احد في غربتك ، بل وتتعذب بأي مساس كان رحمة لك عيشة بين الجماهير ، تتعذب لحد ليس لك في الحياة إلا ان تقول « لا مساس » ! فقد اصبح قصاصه « لا مساس » وهو شر قصاص ! فالغربة المطلقة في الحياة عذاب ، وعذاب القرية فيها عذاب فوق العذاب ، حيث بدلت له الرحمة زحمة وكما بذل نعمة الله كفرأ وأحل قومه دار البوار جهنم يصلها ويشس القرار .

ولان « مساس » مصدر من المفاعلة كما الضرب من المضاربة ، فهو مس من الجانبين ايأ كان المس ، سمعياً او بصرياً او بدنياً ، ام اية معاطاة اخذاً وعطاءً روحياً او مادياً ، فقد اصبح المساس الذي به الحياة الزاهرة بين الجماهير ، شراً من الممات وكأنه من دوافعه ، إبعاداً له عن حظوظه ، وابتعاداً لهم عن شذوذه ، فاصبح - بالفعل - لا هو ميت ولا هو حي ، مجموعاً له شر الحياة وشر الممات اضافة الى العذاب الذي هوأت .

ويؤسأه لمن اذا سأله عن حاله يقول « لا مساس » واذا قلت له ام

سورة طه / آية ٩٩-١٢٣ ١٨٥

سمعت قاله يقول « لا مساس » واذا تدنّت اليه أهله ام ولده يقول « لا مساس » واذا دنيت اليه ما له ام حاجة من حاجياته يقول « لا مساس » فان لك في الحياة ان تقول لا مساس « فماذا اذا بعد الممات ؟ :

« وان لك موعداً لن تخلفه » بعد الممات ، العقوبات التي وعدها المصلّون المكذبون بآيات الله .

ثم « وانظر الى آهلك الذي ظلت عليه عاكفاً » وظلّوا اولاء بما أضللتهم « لنحرقنه » حرقاً لنفسك التي سوّت لك ، وحرقاً لقلوب من ظلوا عليه عاكفين « ثم لننسفنه » في اليم نسفاً « طرحاً له فيه طرح النسافة وهي ما تثور من غبار الأرض ، حيث يبدله الحرق غباراً لا يبقى له صورة ولا سيرة ، اعداماً له عن بكرته ، ازالة حاسمة لأثر الضلال .

كل ذلك بمسمع ومرأى الذين عبدوا العجل وسواهم ، وعلى مشهد الإله المزخرف المزيف المحرق المنسف يعلن الداعية حقيقة العقيدة الصالحة :

﴿ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ ٩٨ .

دون هذا الإله المعدّم ، وهو في وجوده له شركاء افضل منه واعلى ، ولا علم له بنفسه حتى يدافع عنها ، بل هو الذي لا إله الا هو وسع كل شيء علماً ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء . ومهما ختم السياق هنا الى ما هنا ، فليس ليختم في واقع الحال إذ امر الذين عبدوا العجل ان يقتلوا انفسهم كما في البقرة .

كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ

سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَنْ أَعْرَضَ

عَنْهُ فَإِنَّهُ يُحْمَلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزْرًا ﴿١٥٥﴾ خَالِدِينَ فِيهِ
وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا ﴿١٥٦﴾ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ
وَتَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٥٧﴾ يَخْفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ
لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٥٨﴾ ثُمَّ أُعْلِمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ
أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٥٩﴾ وَيَسْأَلُونَكَ
عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٦٠﴾ فَيَذَرُهَا
قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٦١﴾ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٦٢﴾
يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ
لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٦٣﴾ يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ
الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أِذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴿١٦٤﴾
يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ
بِشَيْءٍ عِندَ اللَّهِ * وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ
وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١٦٥﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ
الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١٦٦﴾

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ
لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَلَّى
اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ
يُقَضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾
وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ قَنسِي وَلَمْ نَجِدْ لَهُ
عِزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا
إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَسْأَدُمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ
وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴿١١٧﴾ إِنَّ
لَكَ الْأَنْجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا
وَلَا تَصْحَى ﴿١١٩﴾ فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَقَادُمُ
هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبُلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا
مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا
مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ أَجْنَبَهُ
رَبُّهُ فَتَبَّ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا

بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَلِمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ

اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿١٣٣﴾

﴿ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ۖ ۞ ﴾

النبأ هو خبر ذو فائدة عظيمة ، و « من » هنا تبعضها ، وطبعاً بالبعض الأهم منها و « نقص » تبعض ثان حيث القص هو تتبع الأثر وهي القصص الأخبار المتتبعة ، وطبعاً هي أهمها حيث لا يقص بمقص السوحي الأخير إلا أهمها ، فقصة القرآن هي سلاله السلالات من انباء تاريخ الرسالات ، ما تتبناها ام ما تهذمها ، وهذه السلبية والايجابية يبنى صرح الإسلام الخالد اعتباراً بأنباء ما قد سلف ، وزيادة هي « وقد آتيناك من لدنا ذكراً » ليعتبر معتبر ويتبصر متبصر .

« كذلك » العظيم العظيم من قصص موسى « نقص عليك » يا رسول الهدى « من انباء ما قد سبق » من محاربي الرسالات ومحاديها ، وليس فحسب ان القرآن يقص قصص الماضين كتاريخ من التواريخ بل « وقد آتيناك » في جمعيه الصفات والرحمات « من لدنا » اهم مما مضى واعظم منها « ذكراً » هو ام الذكر وامام الذكر مهما شمل سائر الذكر فانه مهيم على كل ذكر .

هذا ذكر لدني مهما كان كل ذكر يحمله كتابات السوحي من لدنه ، ولكنه درجات اعلاها ما يختص من بينها بـ « قد آتيناك من لدنا ذكراً » فجمعية الصفات من ناحية و « من لدنا » من اخرى و « ذكراً » تنكيراً لبالغ عظم التعريف من ثالثة ، تجعل ذكر القرآن رأس الزاوية في الذكريات اللدنية .

﴿ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ﴾

ولا فحسب « يوم القيامة » بل و« من اعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكاً . ونحشره يوم القيامة اعمى » (٢٠ : ١٣٢) .

« من اعرض عنه » في اي عرض منه ، قراءة واستماعاً وتدبراً وتفهماً وتصديقاً وتخلقاً وتطبيقاً ونشراً ، فهذه ابواب ثمان لجنة الذكر القرآن ، ومعرض القرآن مسرح يخلق على كل المحالق ، وذكر عن كل نسيان ايأ كان وايا .

فالإقبال الى القرآن أزر ، والاعراض عنه وزر يحمله من حمل أزره فاعرض عنه الى وزره ، ومهما كان لذلك الوزر مراحل ثلاث في معيشة ضنك ، ولكنها الهامة الخالدة منه والأوفى هي في الأخرى وكانها المخصصة بحملها :

﴿ خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا ﴾ (١٠١)

خلوداً في وزر الإعراض عن الذكر قدره ولا يظلمون نقيراً ، وحمل المسافر زاد له في غربته وتخفيف له عن كربته ، وحمل الوزر للمعرضين عن الذكر في ذلك السفر الشاق الطويل الطويل حمل وبيل « وساء لهم يوم القيامة حملاً » .

ولان الوزر هنا هو الذنب المخلف عن الإعراض عن الذكر ، والأعمال هي الجزاء بملكوتها الظاهرة يوم القيامة ، فالخلود في الوزر هو خلود في نفس الوزر دون جزاءه ، فانه هو جزاءه دون فصال ، و« خالدين » كما في آيات اخرى ، لا تدل بصيغتها على البقاء لغير النهاية ، فانها اعم من الابد ودونه ، والأبد اعم من اللانهاية الحقيقية كما في ابد الجنة ، وسواها كما في سواها ، فما الأبدون في النار إلا وهم دائبون فيها ما داموا ودامت

النار ، ثم لا نار ولا اهل نار قضية العدل ، وان العقوبة ليست الا قدر الخطيئة فـ « انما تجزون ما كنتم تعملون » .

وهنا الخلود في الوزر ليس إلا قدر الوزر، حيث الإعراض عن الذكر دركات ، فالخلود في الوزر ايضاً دركات « ولا يظلمون شيئاً » .

﴿ يَوْمَ يَنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴾ ١٠٢ .

و « يوم القيامة » هو « يوم ينفخ في الصور » وهي هنا النفخة الثانية بدليل « ونحشر » : « ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون » (٦٨: ٣٩) و « المجرمين » هنا تعم « من أعرض عنه » وسواء ممن أجرم مهما اختلفت دركات الإجرام ، والزُرق جمع الأزرق من الزرقة وهي اللون المعروف بين البياض والسواد .

ولان « زرقاً » وصف للمجرمين دون عيونهم فحسب ، فلا تعني - فقط - زرقة عيونهم ، بل هم يومئذ زرق ككل خوفاً من هول الموقف المطلع ، ومن زرقة عيونهم عماها : « ومن اعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكاً . ونحشره يوم القيامة اعمى » (١٢٤ : ٢٠) « ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً » (١٧ : ٩٧) وقد تكون « زرقاً » كمقدمة محضرة لـ « عمياً » ان تشخص ابصارهم لا يرتد اليهم طرفهم وافئدتهم هواء ، ثم تتحول الوانها وتظهر بياضها ويذهب سوادها ثم تعمى .

ولا ينافي حشرهم - زرقاً وعمياً وبكماً وصماً - شخوص ابصارهم وروية اعمالهم وسماع ما يسمعون من تأنيب وسواء، وما يتكلمون في التماس لتخفيف عذاب وسواء ، حيث المواقف هناك عذبة قد تقتضي العذاب عماهم كما عند حشرهم ، واخرى ابصارهم واسماعهم كما عند

حسابهم وعذابهم .

﴿ يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ١٠٣ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ١٠٤ ﴾ (١) .

التخافت هنا هو تخافض في الصوت وتسارعه لهول المطلع كما يحشرون له زرقاً فعمياً ، وكلامهم المتخافت فيه بينهم « ان لبثتم الا عشراً » عشر ساعات ام ليال ام سنين وقد يقرب « الا يوماً » الاولين .

« نحن اعلم بما يقولون » ويتقولون من باطل تقديرهم للبثهم « اذ يقول امثلهم طريقة ان لبثتم الا يوماً » وبين « عشراً - و - يوماً » ساعة وبعض يوم او عشية او ضحاها (٢) وكل هذه استقلالاً للبثهم في ارض التكليف والبرزخ بجانب حياة الخلود يوم القيامة .

وحق القول في لبثهم : « ان لبثتم إلا قليلاً لو انكم كنتم تعلمون » (٢٢ : ١١٤) ولكنها ليست هذه القلة المحددة ، بل هي النسبية بجانب الآخرة : « وقال الذين اوتوا العلم والايمان لقد لبثتم في كتاب الله الى يوم البعث وهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون » (٣٠ : ٥٦) فذلك اللبث المبحوث عنه يعم البرزخ دون خصوص الدنيا وهناك « عشراً » هي من قولة الاكثرية المجرمة ، وكما هي « ساعة » بين مفرط ومفرط ، ثم عنوان لسواهم : « يوماً او بعض يوم - عشية او ضحاها » واين ساعة من عشر ؟ واين هذه كلها ولبثهم في كتاب الله الى يوم الحشر ؟ .

(١) راجع ج ٣٠ : ١٠٣ - ١٠٦ من الفرقان نجد تفصيلاً للبحث عن ذلك اللبث .

(٢) « ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون » (٣٠ : ٥٥) « قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين . قالوا لبثنا يوم او بعض يوم فسال الصادين » (٢٣ : ١١٦) . كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا الا عشية او ضحاها » (٧٩ : ٤٦) .

هذه اقاويل اربعة عن مدة مكثهم في الأرض من ساعة الى بعض يوم عشية او ضحاها ، الى يوم والى عشر ، تقديرات هارفة خارفة دون اية حجة وبرهنة ، تجمعها القلة لمكثهم أمام الكثرة الأخيرة .

وانها الحماسة الكبرى ان يضحوا بالآخرة الطويلة الطويلة لهذه القلة القليلة ، الزهيدة التافهة الهزيلة .

وتراهم نسوا وغفلوا مدة مكثهم ؟ وليست بمغفول عنها ولا منسية ! ام ذهلوا لشدة الوقعة في الواقعة فيما ذكروا إلا قليلاً مقدراً لهم بمختلف تقديراتهم حسب مختلف احوالهم واهوالهم ، والانسان قد يذهل عن اظهر الامور عند شديد الهول ؟ وهذه واجهة !

ام قابلوا طويل الآخرة بقليل الدنيا ببرزخها فقللوها بهذه وتلك ؟ وهذه اخرى ! ولماذا الاخرى بينها - على زيفها - « ان لبثتم الا يوماً » عليها حيث اليوم ليل ونهار وقد كانت الحياة في البرزخ والاولى بين مظلمة ومشرقة « يوم لك ويوم عليك » اضافة الى قلتها نسبة الى الاخرى .

هذا إلا ان بين ساعة وعشر ليل بون ٢٤٠ / ١ فاين الواحدة من مئات ؟ الا ان ذلك ليس من البعيد هؤلاء البعاد عن الحق ، ام ان « عشراً » هي عشر ساعات ، فظنونهم كلها لا تعدو يوماً او بعض يوم ! فهم يحمدسون عما قضوا على الأرض وقد تضاءلت الحياة الدنيا ببرزخها في حساباتهم ، وقصرت ايامها في مشاعرهم ، وهكذا تنزوي تلك الأعمار التي عاشوها وتنطوي ، وتتضاءل متاع الحياة وهمومها وتنمحي ، فيبدو كل هذه على طولها وطولها فترة وجيزة يحسبونها ساعة او يوماً او بعض يوم !

وقد تجمع هذه القيلات حول اللبثين في البرزخ والاولى ، على اختلافات في تقديرات ، ان الزمن في البرزخ اسرع منه عن الاولى ، حيث الزمان يتبع السرعة ، والبرزخ بما فيه الابدان البرزخية اجرد من

الدنيا بكثير ، فسرعة الحركة فيه أكثر منها بكثير .

وان حالة اليقظة في البرزخ لأكثر تقدير ٢٤ / ٢ حالة النوم حيث رزقهم فيها عذواً وعشياً ، او النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ، يكفيهما ساعتان من الليل والنهار .

وان الحياتين بالنسبة للآخرة قليلة ، ثم هم في ذلك التقليل بالنسبة للبت الاولى كعاذرين انفسهم ان حياة التكليف ما كانت كافية للانتباه .

والله يصدقهم في اصل القلة هنا وهناك نسبياً بالآخرة ، ويكذبهم في تحديداتهم المخارفة الهارفة « قال ان لبثتم الا قليلاً لو انكم كنتم تعلمون » يوم الدنيا ، فلماذا تغافلتهم في هذه القلة عن الاستعداد لتلك الكثرة ، ولا يعذرهم في قلة مدعاة لمجال التكليف اجابة عن تطلبهم « ربنا أرجعنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل » حيث الجواب « أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير » (٣٥ : ٣٧) « يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون ان لبثتم الا قليلاً » (١٧ : ٥٢) .

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ١٠٦ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ١٠٧ .

فالقارعة التي تفرع الجبال وتنسفها ، فما تراها فاعلة بالانسان المجرم النسيان العصيان ؟! « ويسألونك عن الجبال » ما هو مصيرها في قيامتها ؟ .

وهنا في الاجابة عن ذلك السؤال يتجلى المشهد الرهيب العجيب ، فإذا الجبال « ينسفها ربي نسفاً » حيث يذرها ويشيرها فلا تبقى منها باقية إلا دائرة فانية ، لا كالمتعود من نسفها بشرياً لايجاد المسيرات ، وانما « نسفاً » ماحقاً « فيذرها قاعاً » ارضاً مستوية بعد ارتفاع « صفصفاً » ملساء دون كلاء ، خلواً من كل نشوء واعوجاج وارتقاء ، فتصبح ارضاً مستوية جرداء

ملساء « لا ترى فيها عوجاً » بانخفاض كالأودية « ولا أمتاً » بارتفاع كالروابي والتلال .

ونسف الجبال له عوامل عدة ، منها الرجفة المدمرة : « يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيباً مهيلاً » (٧٣ : ١٤) والتسيير : « وسيرت الجبال فكانت سراباً » (٧٨ : ٢٠) « ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة » (١٨ : ٤٧) وهذه وتلك « تكون الجبال كالعهن المنفوش » (١٠١ : ٥) وعلى حد تعبير الامام علي (عليه السلام) « وتذل الشُّم الشوامخ والصُّم الرواسخ فيصير صلدها سراباً رقراقاً ومعهدا قاعاً سملقاً » .

ثم العِوَج قد يكون في سطح دون عمق من مرتفعات ام منخفضات ، وقد نفتها « قاعاً صفصفاً » ام هو في حجم مضلع فكذلك الأمر ، فليكن عوجاً لا يُرى كما في حجم مدور ، فتصبح الآية من ادلة كروية الأرض ، فانها عوج لا يرى لا في حياتها الدنيا ولا في آخرها ، وقد انمحت اعوجاجاتها التي كانت ترى حيث « يذرها قاعاً صفصفاً » لا ترى فيها عوجاً ولا امتاً .

﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ ١٠٨ .

« يومئذ » بعد قيامة التدمير وفي قيامة الإحياء والتعمير التي هم فيها يحشرون « يتبعون الداعي لا عوج له » فمن هو الداعي المتبع هناك ؟ .

« الداعي » هنا هو الله في الأصل ، او من يدعو بامر الله ، ولكن قرنه في آية القمر برسول الله وهو افضل داع وأحرأه من بعد الله ، قد يحصره هنا في الله : « فتول عنهم يوم يدع الداع الى شيء نكر . خشعاً ابصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر . مهطعين الى الداع يقول الكافر

هذا يوم عسر « (٥٤ : ٨) ولكنه لا ينافي النفخ في الصور حيث يدعو بأمر الله لعود الحياة » ونفخ في الصور فاذا هم من الاجداث الى ربهم ينسلون « (٣٦ : ١٥١) » يوم ينفخ في الصور فتأتون افواجا « (٧٨ : ١٨) .

« يتبعون الداعي » مسيرين « لا عوج له » لا الداعي اليها ولا الصور ولا اتباعهم له ، مهما كانوا معوجين عن اتباعه يوم الدنيا ، ومن اتباعهم له « وخشعت الاصوات للرحمن » في نفي واثبات ، ثم الاصوات : « فلا تسمع إلا همساً » خفيفاً ، استغراقاً في المذلة ، إما همساً في كلام ، ام في الاقدام ، نقلة من اجداثهم الى محشر الحساب ، ثم الثواب او العقاب^(١) .

فهنالك اتباع أول للداعي نفخاً في الصور ، واتباع ثان في موقف الحساب والى اتباعات أخرى « ولويرى الذين ظلموا اذ يرون العذاب ان القوة لله جميعاً » (٢ : ١٦٥) « لمن الملك اليوم لله الواحد القهار » (٤٠ : ١٦) .

هكذا يخيم على المحشورين الصمت الرهيب والسكون الغامر العجيب ، فالسؤال تخافت ، والكلام والإقدام همس ، والخشوع ضاف ، والوجوه عانية ، وجلال الرحمن يغمر النفوس !

﴿ يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ۝١٠٩ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْهُ ۝١١٠ ﴾

(١) الدر المنثور ٤ : ٣٠٨ عن ابن عباس والضحاك وعكرمة وسعيد والشعبي « فلا تسمع إلا همساً » اصوات اقدامهم ، وعن سعيد بن جبير قال : سر الحديث وصوت الاقدام .

« لا تنفع الشفاعة » مما يدل على ان هناك شفاعة ، ولكن نفعها محصور في « من اذن له الرحمن ورضي له قولاً » ففاقد الشرطين لا يُشْفَع اذا شَفَّع ، بل ولا يَشْفَع اذ « ولا يشفعون إلا لمن ارتضى » (٣١ : ٣٨) .

وترى « من اذن له الرحمن .. » هو الشافع ؟ ويكفيه اذن ورضى قوله ! ام هو المشفَّع له ؟ والشافع هو المحور الاصيل في اذن الرحمن ورضى قوله ! .

قد تعنيهما الآية ، فليكن الشافع ماذوناً في شفاعته ، ومرضى القول فيها عند الرحمن ، وعلى هامشه المشفوع له ماذوناً في ان يُشْفَع له ، ومرضياً في قول له ، وقد جمعها فيه « ولا يشفعون إلا لمن ارتضى » (٣١ : ٣٨) اي من ارتضى الله دينه وهو من ساءته سيئته وحسنه حسنة .

فقول الشافع المرضي هو ما وقع موقعه الصالح ، وقول المشفوع له المرضي هو كلمة التوحيد فانه اصل القول ، ثم قوله الذي يعذره عن فعله المحتاج الى شفاعة .

إذا فليست الشفاعة يومئذ فوضى جزاف لا في الشافع ولا المشفوع له ولا المشفوع لأجله ، حيث الكل منوطة باذن الله ورضاه .

ومن رضى القول وفقه للواقع الصالح وصالح الواقع دون خطإ قاصر او مقصر ، حيث « يعلم » الله « ما بين ايديهم .. » شافعين ومشفوعاً لهم « ولا يحيطون به علماً » كذلك الأمر .

ثم « ما بين ايديهم » هو حاضريهم وما يستقبلون ، « وما خلفهم » هو غابريهم وما يستدبرون ، و « ما خلفهم » هو الذي يتبني « ما بين ايديهم » وهو العالم كل ذلك ، فلو ان شافعاً قال قولاً لا يصدقه الواقع علماً منه او جهلاً ، لم يكن قوله مرضياً ، اذ « يعلم ما بين ايديهم وما خلفهم ولا

يحيطون به علماً» .

« لا يحيطون » بذاته وصفاته وافعاله وبما يعلم « علماً » ايأ كان ، حيث الحيطه العلميه لزامها مسامات العالم ، والمعلوم ، له ماله وفيه ما فيه حتى يساويه فيساميه فيحيط به علماً ، فلا رؤيه لاي راء يبصر ام بصيره^(١) اما هيه ، إلا معرفة محدودة ممكنة بحق الممكن وكما قال افضل العارفين وخاتم النبيين (صلى الله عليه وآله وسلم) : « ما عرفناك حق معرفتك » فـ « قد يشت عن استنباط الاحاطة به طوامح العقول وتحيرت الأوهام عن ذكر ازليته »^(٢) فضلاً عن الحيطه به « إذ هو تبارك وتعالى جعل على ابصار القلوب الغطاء فلا فهم يناله بالكيف ، ولا قلب يشته بالحدود فلا تصفه إلا كما وصف نفسه : ليس كمثله شيء وهو السميع البصير

(١) نور الثقلين ٣ : ٣٩٤ في اصول الكافي بسند عن صفوان بن يحيى قال : سألتني ابو قرة المحدث ان ادخله الى ابي الحسن الرضا (عليه السلام) فاستأذنته في ذلك فاذن لي فدخل عليه فسأله عن الحلال والحرام والاحكام حتى بلغ سؤاله الى التوحيد فقال ابو قرة : انا روينا ان الله قسم الرؤيه والكلام بين نبيين فقسم الكلام لموسى ولمحمد الرؤيه ؟ فقال ابو الحسن (عليه السلام) فمن المبلغ عن الله الى الثقلين من الجن والانس « لا تدركه الابصار » ولا يحيطون به علماً « و « ليس كمثله شيء » « ليس محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ؟ قال : بلى - قال : كيف يحيى رجل الى الخلق جميعاً فيخبرهم انه جاء من عند الله وانه يدعوه الى الله بامر الله فيقول : لا تدركه الابصار ... ثم يقول : انا رأيته بعينين واحطت به علماً وهو على صورة البشر اما تستحيون ؟ ما قدرت الزنادقة ان ترميه بهذا ان يكون يأتي من عند الله بشيء ثم يأتي بخلافه من وجه آخر - الى قوله : وقد قال الله « ولا يحيطون به علماً » فاذا رآته الابصار فقد احاطت به العلم ووقعت المعرفة ، قال ابو قرة : فتكذب بالروايات ؟ فقال ابو الحسن (عليه السلام) اذا كانت الروايات مخالفة للقرآن كذبتها وما اجمع المسلمون عليه انه لا يحاط به علماً ولا تدركه الابصار وليس كمثله شيء .

(٢) المصدر في كتاب التوحيد خطبة عن علي (عليه السلام) وفيها : قد يشت ...

- الاول والآخر والظاهر والباطن - الخالق الباريء المصور - خلق الاشياء
فليس من الاشياء شيء مثله تبارك وتعالى (١).

﴿وَعَنْتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا^{١١١} وَمَنْ يَعْمَلْ
مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا^{١١٢}﴾ .

عنت له تعنو خضعت مستأسرة بعناء ، ومنه يقال للأسير العاني كما عنه
(صلى الله عليه وآله وسلم) : استوصوا بالنساء خيراً فانهن عندكم عوان «
وعناه يعنيه قصده .

والوجوه كل الوجوه بكل الوجوه عنت للحي القيوم الذي أحيأها بعد
موتها ، سواء الوجوه التي عنته وعنت له يوم الدنيا ، او التي لم تعنه ولا
عنت له ، وانما عنت وتعنت ، فهناك الكل « عنت للحي القيوم » شاءت
ام ابت « وقد خاب » يومئذ « من حمل ظُلماً » بنفسه والآخرين وبالحق .

واما الوجوه العانية له تعالى واياء ايماناً وعملاً صالحاً « من يعمل من
الصالحات » وان لم تستوعبها كلها ، وانما الصالحات الرئيسية عقائدية
وعملية « وهو مؤمن » بالله « فلا يخاف ظُلماً » منه إذ لم يظلم ، ولا من ربه
اذ لا يظلم - « ولا ظلم اليوم » - « ولا هضماً » لحق من حقوقه « وان ليس
للانسان إلا ما سعى » .

و « الوجوه » هنا ليست هي الظاهرة فحسب حيث المحشورون هم
بكل كيأنهم يعنون الحي القيوم ، يواجهونه بظواهرهم وبواطنهم كما
يواجههم الله تعالى بعلمه وقدرته فتوابه او عذابه : « وجوه يومئذ ناضرة .

(١) المصدر في التوحيد حديث طويل عن علي (عليه السلام) يقول فيه وقد سأله
رجل عما اشبه عليه من الآيات واما قوله ... ولا يحيطون به علماً - لا يحيط الخلائق
بالله عز وجل علماً اذ هو تبارك وتعالى ...

سورة طه / آية ٩٩ - ١٢٣ ١٩٩

الى ربها ناظرة . ووجوه يومئذ باسرة . تظن ان يفعل بها فاقرة «
(٧٥ : ٢٥) .

وليس « من حمل ظلماً » كل من ظلم ، فمنهم من يتوب عما ظلم ،
ومنهم من يكفر عنه صغير ظلمه اذ هو من سيئاته اذا كان تاركاً للكبائر ،
ومنهم من يشفع له حيث اذن له الرحمن ورضى له قولاً ، فليس اولئك ممن
حمل ظلماً مهما ظلم ، وانما الخائب هو الحامل ظلماً معه يوم القيامة ،
يخيب قدر ظلمه ولا يظلمون نقيراً ، ومن اصدق المصاديق هنا « من
حمل ظلماً » المجرمون المسروقة لهم آيات التحذير والتنديد .

وهنا « فلا يخاف » جزاء للشرط بديلاً عن « لا يخف » جزماً ، علة
لتقدير « هو » « فهو لا يخاف » دون سواه ، وما احسنه تقديره لامعاً لا محاً
لذلك الحصر ! . كـ « ومن عاد فينتقم الله منه » - « ومن يؤمن بربه فلا يخاف
بخساً ولا رهقاً » .

ثم « ولا هضم » بعد « ظلماً » هضم وانتقاص عن الثواب ، كما الظلم
هنا انتقاص للثواب ، فالؤمن الصالح لا يخاف ظلمه ولا هضمه ، فقد لا
يُظلم ولكنه يُهضم ، ومهما كان الهضم من الظلم ولكنها كالظرف والمجرور
اذا اجتمعا افترقا واذا افترقا اجتمعا .

﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ
يَحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ ١١٣ .

« وكذلك » اللائح الواضح وضح النهار لأبعد اغواره في البيان والتبيان
« انزلناه » القرآن - « قرآناً عربياً » في لفظه ومعناه ، في مرماء ومغزاه
بمبتدئه ومنتهاه ، فلا تجد فيه تعقيداً ، ولا لفظاً او معنى بعيداً « وصرفنا فيه
من الوعيد » لثلاث النشآت ، ما يحل حالاً وما هو آت ، دون إبقاء لاي
لاي الوان الوعيد ، من قريب وبعيد ، فالتصريف تحويل من حال الى حال

٢٠٠ الجزء السادس عشر

حتى تتحول الأحوال بهذه الأحوال « لعلهم يتقون » المحاذير ، ولا يعتدرون ، بمعاذير يتقون عقائدياً وعملياً ، ام ولاقل تقدير يتقون التكذيب بآيات الله والصد عن سبيل الله .

« او يحدث » الوعيد « لهم ذكراً » اذا لا يتقون ، ذكراً هو حجة عليهم حتى لا يقولوا « ربنا لولا ارسلت الينا رسولا فنتبع آياتك من قبل ان نذل ونخزى » (٢٠: ١٣٤) ومن إحداث الذكر واقع الوعيد المزجر المدمر هنا ولما يتقوا أو يتذكروا، وهنا يذكرون «أني لهم الذكرى وقد جاءهم رسول امين » (٤٤: ١٣) « وما اهلكنا من قرية إلا لها منذرون . ذكرى وما كنا ظالمين » (٢٦ : ٢٠٩) « حتى اذا ادركه الغرق قال آمنت أنه لا إله الا الذي آمنت به بنو اسرائيل وانا من المسلمين . الثن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين » (١٠ : ٩١) .

﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾

« فتعالى الله » عما يصفونه وبه يشركون لانه « الملك » لا سواء « الحق » الثابت الحقيق بالوحيته الوحيدة لا سواء .

« تعالى » في ذاته وصفاته وافعاله اذ « ليس كمثل شيء » - ولا يحيطون به علماً « ! فكل من سواء متدانٍ بجانبه عانٍ ، والله تعالى هو المتعالي الملك الحق .

انه ملك ومالك لكل شيء بالحق من تكوين وتشريع ومنه قضاء وحي القرآن ، فلا تملك منه شيئاً اذ لا يملك وحيه لغيره مهما كان رسول القرآن .

وترى ما هو استعجال الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بالقرآن حتى نهي عنه من قبل ان يقضى اليه وحيه ؟ .

فهل استعجل بنزول آية ولما ينزل لمواعدة بينه وبين بعض الكفار ان يجيهم عن مسائل وقد ضربوا له اجلاً فانقضى ولما ينزل الوحي بالجواب^(١) ؟ والعجلة بآية ليست عجلة بالقرآن ككل ! ثم كيف يعجل الرسول بما الله يؤجله ، حيث عجله الكفار بما قرروا له أجل الجواب ! ويكأنه يعلق قضاء وحي الله على الأجل المضروبة من قبل الكفار !

ام « كان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) اذا انزل عليه جبريل بالقرآن اتعب نفسه في حفظه حتى يشق على نفسه ، يتخوف ان يصعد جبريل ولم يحفظه فينسى ما علمه فقال الله : ولا تعجل بالقرآن ؟ ... »^(٢)

وقد ضمن الله له من قبل ألا ينساه : « سنقرئك فلا تنسى » ! وليس حفظ القرآن عجلة به بعد نزوله ! وليس من حفظه للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) قضاء وحيه ! ولا ينافي حفظه مزيد علمه ، بل هو تثبيت لما اوحى اليه ! .

إنه استعجال بتحريك لسانه به قبل قضاء وحيه تماماً او بعضاً حيث كان أليفاً بمحكم القرآن قبل تفصيله ، انيساً بمعانيه قبل الفاظه ، فكان احياناً يسبق جبريل في قراءة الوحي ولما يقرؤه ، او لما يتم ، شغفاً بالغاً الى

(١) تفسير الفخر الرازي ٢٢ : ١٢٣ قال الضحاك ان اهل مكة واسقف نجران قالوا يا محمد اخبرنا عن كذا وكذا وقد ضربنا لك اجلاً ثلاثة ايام فابطأ الوحي عليه وفشت المقالة بان اليهود قد غلبوا محمداً فانزل الله هذه الآية .

(٢) الدر المنثور ٤ : ٣٠٩ - اخرج ابن ابي حاتم عن السدي قال كان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : ... وقال : لا تحرك به لسانك لتعجل به ، اقول راجع تفسير الآية في الجزء ٢٩ من الفرقان تجد تفصيلاً لاثقاً بالبحث هناك .

منشور ولايته وسناد رسالته .

والآية متائدة في هذا التفسير الاخير بآية القيامة : « لا تحرك به لسانك لتعجل به . ان علينا جمعه وقرآنه . فاذا قرأناه فاتبع قرآنه . ثم ان علينا بيانه » (١٩) كما وتؤيد بتعقيها في نفسها :

« وقل رب زدني علماً » فلا يكفيك العلم بمحكم القرآن النازل ليلة القدر ، إذ لا يحمل التفصيل وليس إلا بالوحي ، ولا يحمل تلك العبارات الفائقة التصور في اعلی قمم الاعجاز ، وليس إلا بالوحي .

إذا فقضاء وحي القرآن هو اتمامه بعد شيء منه ، فـ « قضاء » بمعنى اتمه ، والقرآن المفصل بلفظه ومعناه ، هو إتمام للقرآن المحكم : « كتاب احكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » .

هذا إتمام لمحكمه بمفصله ، وإتمام ثانٍ هو في مفصله وكما يروى « كان رسول الله (صلی الله عليه وآله وسلم) اذا نزل عليه القرآن يادر بقراءته قبل نزول الآية والمعنى فانزل الله » ولا تعجل بالقرآن من قبل ان يفضي اليك وحيه « أي يفرغ من قرائته » وقل رب زدني علماً^(١) .

ولا يؤنب الحبيب اذا عجل بكلام حبيبه شغفاً بالغاً فيه ، اللهم إلا ان ينهى استكمالاً له وكما أمره : « وقل رب زدني علماً » .

وذلك التعقيب التلحيق العميق يبينها ان ليس الرسول محيطاً بكل شيء علماً ، لا إلهي وحتى العلم الرسالي بالفعل ، فانما يتدرج في علمه ايأ كان ، شخصياً كالمعرفة ام رسالياً كاحكامها ، ولقد كان يقول : « اللهم

(١) نور الثقلين ٣: ٣٩٦ في تفسير القمي في الآية قال كان رسول الله (صلی الله عليه وآله وسلم)

سورة طه / آية ٩٩ - ١٢٣ ٢٠٣

انفعني بما علمتني وعلمني ما ينفعني وزدني علماً والحمد لله على كل حال «
(١)

والمحور الاصيل في العلم المطلوب هنا هو علم القرآن ومن ثم السنة
وعلى ضوءهما - والعمل الصالح - علم المعرفة الإلهية وكلما يناسب ساحة
الرسالة القدسية .

وفي المروي مستفيضاً عن اهل بيت الرسالة عليهم السلام « لولا أنا
نزداد لانفدنا » (٢)

وما أحلاه ما يروى عن رسول الهدى (صلى الله عليه وآله وسلم) ان
العلم هو الإنصات له » (٣) .

(١) الدر المنثور ٤ : ٣٠٩ - اخرج الترمذي وابن ماجه عن ابي هريرة قال كان رسول
الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول
(٢) نور الثقلين ٣ : ٣٩٧ عن الكافي عن زرارة قال سمعت ابا جعفر (عليه
السلام) يقول : لولا انا نزداد لانفدنا قال قلت : نزدادون شيئاً لا يعلمه رسول الله
(صلى الله عليه وآله وسلم) ؟ قال : اما انه اذا كان ذلك عرض على رسول الله (صلى
الله عليه وآله وسلم) ثم على الائمة ثم انتهى الامر الينا ، وفيه عن ابي عبد الله (عليه
السلام) قال : ليس يخرج شيء من عند الله عز وجل حتى يبدء برسول الله (صلى الله
عليه وآله وسلم) ثم بامير المؤمنين (عليه السلام) ثم بواحد بعد واحد لكيلا يكون
آخرنا اعلم من اولنا .

وعن المجمع روت عائشة عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) انه قال : اذا اتى علي
يوم لا ازداد فيه علماً يقربني الى الله فلا بارك الله لي في طلوع شمس .

(٣) المصدر ٣٩٩ عن الخصال عن جعفر بن محمد عن ابيه (عليهما السلام) قال جاء
رجل الى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال له يا رسول الله ما العلم ؟ قال :
الانصات له قال ثم ما ؟ قال : الاستماع له ، قال : ثم ما ؟ قال : الحفظ له ، قال :
ثم ما ؟ قال : العمل ، قال : ثم ما ؟ قال : نشره .

وحين يقال لأبي عبد الله الصادق (عليه السلام) أنا نسألك أحياناً فتسرع بالجواب، وأحياناً فتطرق ثم تجهيئنا؟ قال: نعم انه ينكت في آذاننا وقلوبنا فاذا نكت نطقنا واذا امسك عنا امسكنا^(١).

وحين يُسأل أمير المؤمنين (عليه السلام) من أعلم الناس؟ يقول: من جمع علم الناس الى علمه^(٢).

ان «معرفة الله حق معرفته هو رأس العلم»^(٣) وسائر العلم وسائلها، ولا نهاية لحق المعرفة واليقين وكما يؤمر رسول الهدى (صلى الله عليه وآله وسلم) «واعبد ربك حتى ياتيك اليقين».

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَتَنِي وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾^{١١٠}

علها اضافة الى بيان واقع سابق من ضعف العزم الإنساني المتمثل في الانسان الأولى، هي الى جانب ذلك تكريم لساحة الرسالة القدسية الأخيرة، التي يحملها اعظم اولي العزم من الرسل.

(١) نور الثقلين ٣ : ٣٩٨ في بصائر الدرجات عمران بن موسى عن موسى بن جعفر عن عمرو بن سعيد المدائني عن عيسى بن حمزة الثقفي قال قلت لأبي عبد الله (عليه السلام) أنا نسألك

(٢) المصدر في الخصال عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: سئل أمير المؤمنين ..

(٣) المصدر في كتاب التوحيد باسناده الى ابن عباس قال جاء اعرابي الى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) علمني من غرائب العلم، قال: ما صنعت في رأس العلم حتى تسأل عن غرائبه؟ قال الرجل: ما رأس العلم؟ يا رسول الله؟ قال: معرفة الله حق معرفته، قال الاعرابي وما معرفة الله حق معرفته؟ قال: تعرفه بلا مثل ولا شبه ولا ند وانه واحد احد ظاهر باطن اول آخر لا كفوله ولا نظيره فذلك حق معرفته.

فانت يا محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) محافظ لعهد الله تماماً ، وعازم عليه تماماً ، ولذلك قد تسبق رسول الوحي في قراءته ، واين انت من آدم حيث عهدنا اليه من قبل فنسي العهد ولم نجد له عزمًا وثباتًا على العهد ! .

ولا نعهد عهداً الى آدم في الذكر الحكيم إلا ألا يطيع الشيطان ولا يقرب الشجرة المنهية كما في آيات عدة مثل ما هنا : « فقلنا يا آدم ان هذا عدوك ولزواجك فلا يخرجكما من الجنة فتشقى » (١١٨) .

ونسيان عهد الله لو كان عن قصور لا يسمى عصياناً ، وان كان عن تقصير كان عصياناً ، « ولم نجد له عزمًا » - « وعصى آدم ربه فغوى » هما في جملة عساكر الأدلة القاطعة على نسيانه المقصر العصيان ، « ولم نجد له عزمًا » تعني أن لم يكن له عزم على تطبيق العهد رغم تقبله وتصديقه ، فـ « لم نجد » في غير الله اعم من الوجود وعدمه حيث العلم غير مطلق ولا مطبق ، ولكنه في الله صيغة أخرى عن عدم الوجود ، ولماذا « لم نجد » بديلاً عن « لم يكن اولم يوجد له عزم » حيث الثاني يستأصل عزمه كأن الله لم يخلق له عزمًا ، اذا فهو قاصر لا يتمكن من عزم ، ولكن « لم نجد » تنفي وجود عزمه بما قصر ، لانه خلق له عزمًا مختاراً في تطبيق عهده ، ولكنه نسي عهده وترك عزمه لعهده ، فأصبح عهداً دون عزم تقصيراً منه دون قصور ، ولذلك يعلن في هذه الإذاعة القرآنية العالمية « وعصى آدم ربه فغوى » .

اجل ، وكلما كانت النفس أعزم على تطبيق عهد الله فهي أعظم عند الله ، وابتعد عن محارم الله ، حتى يتصل الى قمة العزم وهي النفوس القدسية لأولي العزم من الرسل ومن نحى منحاهم كالائمة من آل الرسول الأقدس محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) .

ونسيان آدم ، المقصّر ، كان تناسياً على ذكره ، وإلا فكيف هنا اصل النسيان وقد ذكره الله من قبل بموقفه مع الشيطان : « ان هذا عدو لك . . » ام « كيف ينسى وهو يذكره ويقول له ابليس : « ما نهاكم ربكم عن هذه الشجرة إلا ان تكونا ملكين او تكونا من الخالدين » (٧ : ٣٠) ؟ (١) .

وكضابطة عامة لا عصيان إلا بنسيان الرب وعهده تساهلاً وتناسياً وتجاهلاً عانداً ام عامداً ام عن جهالة ، ونسيان الله وعهده على أية حال عصيان مهما اختلفت دركاته .

ولقيد نبيه الله آدم حين خلقه وأسجد له ملائكته وتمنع ابليس عن السجدة ، نبه بذلك العهد وذكره :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ۖ ﴾ ١١٦ .

ولقد فضلنا القصة وحققناها حسب المستطاع في البقرة وقلنا هناك وفي مواضع اخرى ان المسجود له هنا عبودية او احتراماً هو الله ، وآدم هو المسجود له شكراً لله ، كما تقول تسجدت لولدي بياناً لدافع بسجودك شكراً لله .

﴿ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا تَخْرُجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ۖ ﴾ ١١٧ .

عداء سابق على السجدة لماذا أمر بها ، وعداء لاحق على مَر الزمن لماذا لُعن بتركها : « قال ارايتك هذا الذي كرمت علي لئن اخرتن الى يوم

(١) البحار ١١ : ١٨٧ ح ٤٣ عن جميل بن دراج عن بعض اصحابنا عن احدهما قال سأله : كيف اخذ الله آدم بالنسيان ؟ فقال : انه لم ينسَ وكيف ينسى . . .

سورة طه / آية ٩٩-١٢٣ ٢٠٧

القيامة لاحتكن ذريته إلا قليلاً (١٧ : ٦٢) « قال رب بما اغويتني
لازينن لهم في الأرض ولاغوينهم اجمعين » (١٥ : ٣٩) .

والشقاء هنا ، المتفرعة على الخروج عن الجنة الى الحياة الأرضية ، هي
التعب والعناء في هذه الحياة ، فالشقاء بالكُدِّ والعمل والشرود والضلال
والخيرة واللهفة والانتظار والألم والفقدان ، ام ايا كان ، كل هذه
تنتظرك خارج الجنة في حياة الشقوة الارضية ، وانت في حمى منها كلها في
رحاب الجنة .

ومن اصول الشقاء هناك خارج الجنة الجوع والعري والظما
والضحى :

﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ^{١١٨} وَإِنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا
تَضْحَى ^{١١٩} .

لا جوع فيها حيث الأكل حاضر فيها كما تشهي دون كدٍّ للحصول
عليه ، ولا عرى حيث ملابس الجنة تلبسك دون سعى قد يجيب ، ولا
ظماً العطش حيث الماء فيها كما تشاء وحيث تشاء ، ولا ضحى الشمس
حيث الجنة تجن عن الشمس الضاحية ، ثم وبرودة الهواء ونعامتها من
ناحية ، وعدم الحاجة الى مَظَلَّات من أخرى ، لا تُحَوِّجُكَ تَكْلُفُ التستر
عنها .

وهنا الجوع والعري يتقابلان مع الظمأ والضحوة ، وهي في مجموعها
تمثل رؤوس متاعب الإنسان وشقائه في الحصول على حاجيات الحياة ودفع
مضراتها .

هذا - ولكنها الانسان النسيان ، الغفلان عن تجاربه مع الشيطان ،
والرغبان في البقاء والسلطان ، من هذه الثغرات ينفذ اليه الشيطان ، ابتلاءً

بالعصيان وخروجاً عن جوار رحمة الرحمن :

﴿ فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبُلَىٰ ﴾ ١٢٠ .

« ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا ان تكونا ملكين او تكونا من الخالدين . وقاسمهما اني لكما لمن الناصحين . فدلاهما بغرور ... »
(٢١ : ٢٧) .

الشیطان یجذب الی آدم الأكل من الشجرة المنیة ، واصفاً لها بشجرة الخلد وملک لا یبلى ، بعد أن الرحمن یحدره عنها ، واصفاً لها بشجرة الشقاء والخروج عن جنة الراحة والبقاء ، ویا للانسان من غفلة ونسیان لعهد الله وذكراه ، کیف یمیل الی الوسواس الخناس ، ویترك عظة آله الناس ؟ .

اتراه کذب الله فی وعده مصداقاً للشیطان ، وهو من اکفر الکفر ! ام ان شغفه البالغ لخلد الحیاة فی الجنة وملک فیها لا یبلى أنساه ذکراه ، ففسى عداء الشیطان والشقاء الناتج عن اتباعه « ففسى ولم نجد له عزماً » فلقد لمس اللعین فی نفس آدم الموضع الحساس ، وهو تطلب البقاء ، فأنساه العهد والعناء المتوقعة علی الخروج من الجنة ، فأقدم علی المحذور :

﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لَهَا سَوَاتِرُهَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾ ١٢١ .

وهذه السوات هي العورات ، فقد كانت عنها مستورة ، وكان بدوها من اهداف الشیطان : « لیبدي لهما ما ووري عنها من سواتهما »
(٢٠ : ٧) « یتزع عنها لباسهما لیربهما سواتهما » (٢٧ : ٧) .

فقد كانت عوراتهما ملبوسة بلباس الجنة ولما تبدوا لهما منذ خلقا ، فلما

سورة طه / آية ٩٩-١٢٣ ٢٠٩

اكلا من الشجرة نزع عنها لباسهما فبدت لهما عوراتهما ، عورة ظاهرة كانت خفية ، نتيجة عورة باطنة في الروح هي النسيان العصيان ، وليعلم الانسان انه في قرارة نفسه عورة ظاهرة وباطنة ، فعند الإمتحان يكرم المرء او يهان ، وعند تقلب الاحوال تعرف جواهر الرجال .

وبالفعل « بدت لهما سواتهما » وهي مواضع الجنس والعفة بما أكلا ، ومواضع الخفة في الروح لماذا أكلا ، فأصبحا عارفين من عورات الروح والجسم ما أريا « وطفقا يخلصان عليهما من ورق الجنة » سترأ لعورات الجسم ، ولكنها كيف يستران عورات الروح ؟ :

« انا انزلنا عليكم لباساً يواري سواتكم وريشاً ولباس التقوى ذلك خير » (٢٦:٧) وقد بقي عليهما ان يسترأ عورات الروح حيث « وعصى آدم ربه فغوى » ! « وهي أول قدم مشت الى الخطيئة »^(١) وطبعاً بين قبيل الانسان، فان الشيطان سبقه فيها .

وقد تلمح « طفقاً يخلصان » انهما ما قدرا على ان يخلصا ، وإلا لكان حق التعبير « فخلصا » فانما حاولا ، واما واقع الخصف فلا خبر عنه ، ثم « إن لك الا تجوع فيها ولا تعرى .. » كانت مشروطة بعدم الأكل من الشجرة وقد اكلا فليعريا هنا وفي الحياة الأرضية .

﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾ !

(٣٠) نور الثقلين ٣ : ٤٠٣ في علل الشرايع باسناده الى الحسين بن ابي العلا عن ابي عبد الله (عليه السلام) عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) حديث طويل يقول فيه (صلى الله عليه وآله وسلم) لما ان وسوس الشيطان الى آدم دنا من الشجرة ونظر اليها ذهب ماء وجهه ثم قام ومشى اليها وهي أول ثم مشت الى الخطيئة ثم تناول بيده مما عليها فاكل فطار الحلي والحلل عن جسده .

وهنا اول انسان يتلى باول عصيان ، مهما حاول ناس وهم الأكثرية المطلقة من مفسرين ومحدثين ان يحولوا عصيانه الى ترك الاولى ، ولكنه محاولة غافلة فاشلة حيث تخالف نصوص الكتاب والسنة وكما فصلناها على ضوء آية البقرة .

ومنهم من يردّد القول ان ذلك كان قبل تشريع الشرعة ، وانه كان نبياً ارشادياً ، وتراه ماذا يقصد من الشرعة الإلهية ، أهى الشرعة منذ الرسالة الأرضية ؟ ولا ينافيها حكم واحد تكليفي او يزيد قبل هذه الشرعة ! ام نعم اي حكم آلهي افقد حكم الله قبل الشرعة الارضية احكاماً عدة ، منها ما أمر الملائكة بالسجود لآدم فسجدوا إلا ابليس ، وقد لعن ابليس حين ابى ، فهلا هو عاصى اذ لم تكن هنالك شرعة ؟ وهو شر عصيان ! ام لم يكن الملائكة - اذاً - طائعين ؟ وهى خير طاعة ! فكذلك في عصيان آدم وقد لحق عصيان الشيطان .

فحتى لو كان النهي ارشادياً - ولم يكن - فهو ايضاً من الشرعة ، وعصيان النهي الارشادي بهذه الصورة العجيبة ، هو ايضاً في الحق عصيان ، ثم طبيعة الحال في الأوامر والنواهي الإلهية انها مولوية ككل الا بقرينة قاطعة ، ام هي كلها ارشادية حيث ترشد الى مصالح تحملها فردية ام جماعية ، فمجرد ان تسمى نبياً ارشادياً - ودون اي برهان - لا يخرج تخلفه عن العصيان ، وكما الله صرح في هذه الاذاعة القرآنية « وعصى آدم ربه فغوى » .

فلو كان تركاً للأولى فكان الاولى بل المحتوم في القرآن البيان « وترك الاولى » دون « وعصى » لا سيما مع تصريحات أخرى تؤيد انه حقاً « عصى » : فالنهي المؤكّد عن الاكل منها ، ثم فتكونا من الظالمين ، وانه زل ، وشقى ، وعصى ، وأهبط من الجنة ، وتاب فيها وبعدها ، هذه عساكر

سبعة تدلنا على انه حتماً « عصى فغوى » .

و « عصى » بنفسها تكفي دلالة على اقتراف الحرام ولم تستعمل في القرآن كله إلا في نفس المعنى ، كما الظلم والزلة والشقاء والغواية ، ثم هذه التوبة العريضة ليست الا عن ارتكاب محرم .

وترك الاولى تخلفاً عن نهي ارشادي كما يقولون ، لا يستحق هذه التعابير القاسية القاسية على العدالة فضلاً عن العصمة ، ولا يستوجب تلك التوبة الطويلة العريضة !

والعصمة الضرورية لساحة الرسالة هي منذ الرسالة حتى يقضي الرسول نحيه ، دون ما قبلها الا لمن دلت لهم الدلالات القاطعة كالرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وعترته الطاهرة (عليهم السلام) ومن نحي منحاهم من اولي العزم ام سواهم .

وليت شعري ماذا يدفع هؤلاء الاعاظم الى تأويل نصوص الكتاب والسنة في عصيان آدم (عليه السلام) ؟

أستعظماً لشأن آدم (عليه السلام) والقرآن اعظم شأناً أن يؤول الى خلاف نصوصه ، وما تشهيره فيه بذنبه إلا « ان مخالفة الحبيب على الحبيب شديدة »^(١) وليعلم ذريته انهم سيبتلون بالشيطان كما ابتلي ابوهم آدم فيتخذوه عدواً .

(١) تفسير روح المعاني للالوسي ١٦ : ٢٧٥ - اخرج البيهقي في شعب الايمان عن ابي عبد الله المغربي قال : تفكر ابراهيم (عليه السلام) في شأن آدم (عليه السلام) فقال يا رب خلقتك بيدك ونفخت فيه من روحي واسجدت له ملائكتك ثم بذنب واحد ملأت افواه الناس من ذكر معصيته؟ فآوحى الله اليه يا ابراهيم اما علمت ان مخالفة الحبيب على الحبيب شديدة ؟!

ولعمري الهي الحق ان ذلك التأويل العليل غريب في نوعه دون اي تعويل إلا على أن الانبياء معصومون ! ولم يكن هذا العصيان إلا قبل نبوته^(١) لمكان « ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى » والقرآن مصرح بذلك العصيان ، ولا يوجد في عشرات من الاحاديث الناضرة اليه المفسرة له إلا نفس الذنب والخطيئة والعصيان ، دون ترك الاولى ولا مرة يتيمة .

وغريب من صاحب بحار الانوار انه يعنون باباً من ابوابه بـ « ارتكاب ترك الاولى » سرداً لآيات عصيان آدم ورواياته ، ولا ينبشك مثل خبر بغربة القرآن الغريبة حيث تؤول آياته البيّنات دون اي برهان ، حتى واذا صدقت بمظافر الاحاديث التي هم يؤصلونها ، ويفرعون القرآن عليها^(٢) !

(١) البحار ١١ : ١٦٤ ن عن علي بن محمد بن الجهم قال : حضرت مجلس المأمون وعنده الرضا علي بن موسى (عليه السلام) فقال له المأمون يا ابن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) اليس من قولك ان الأنبياء معصومون ؟ قال : بلى قال فما معنى قول الله عز وجل : وعصى آدم ربه فغوى ؟ فقال : ان الله تبارك وتعالى قال لآدم (عليه السلام) اسكن انت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة » وكان ذلك من آدم قبل النبوة ولم يكن ذلك بذنب كبير استحق به دخول النار ، « انما كان من الصغائر الموهوبة التي تجوز على الأنبياء قبل نزول الوحي عليهم فلما اجتباه الله تعالى وجعله نبياً كان معصوما لا يذنب صغيرة ولا كبيرة قال الله عز وجل : وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى وقال الله عز وجل : ان الله اصطفى آدم ونوحاً وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين » .

(٢) البحار ج ١١ وهذا الباب يشمل (٤٨) صفحة من ١٥٥ - ٢٠٣ - وفيها عشرات من الاحاديث الدالة على انه حقاً كان عصياناً وفيها يلي عشرة منها تقدم واحد تحت الرقم (١) : ص ١٦٣ ح ٦ « فس ابى عن ابن ابى عمير عن ابن مسكان عن ابى عبد الله (عليه السلام) قال : ان موسى سأل ربه ان يجمع بينه وبين آدم عليهما السلام) فجمع فقال له موسى : يا ابيه ! لم يخلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه واسجد لك ملائكته =

اجل انه عصي فغوى ، ولكنها معصية صغيرة حيث نسي واغتر بما

= وامرك الا تأكل من الشجرة فلم عصيته ؟ قال : يا موسى بكم وجدت خطيئتي قبل خلقي في التوراة ، قال : بثلاثين سنة ، قال : فهو ذلك ، قال الصادق (عليه السلام) فحج آدم موسى .

اقول : وجد ان خطيئة في علم الله لا يبررها حيث العلم ليس علة للعصيان ، وهل كان آدم يعلم ان الله يعلم بخطيئته في المستقبل ؟ ام سُرَّه على خطيئته اذا فهو خطيئة من الله وسبحان الله ، اذا فكيف حج آدم موسى ، وعلى فرض الغرض عن ذلك فهما معترفان انه كان خطيئة لا تركا للأولى ، والا لكان آدم يحجه بذلك دون العلم السابق .

ح ٧ « فس روى عن ابي عبد الله (عليه السلام) قال : لما اخرج آدم من الجنة نزل عليه جبرئيل (عليه السلام) فقال يا آدم اليس الله خلقك بيده ونفخ فيك من روحه واسجد لك ملائكته وزوجك حواء امته واسكنك الجنة واباحها لك وهناك مشافهة ان لا تأكل من هذه الشجرة فاكلت منها وعصيت الله ؟ فقال آدم يا جبرئيل ان ابليس حلف لي بالله انه لي ناصح فما ظننت ان أحداً من خلق الله يحلف بالله كاذباً .

ح ١٠ عن ابي جعفر الباقر (عليه السلام) قال : لولا ان آدم اذنب ما اذنب مؤمن ابداً ولولا ان الله تاب على آدم ما تاب على مذنّب ابداً .

ح ١٥ - عن ابي عبد الله (عليه السلام) قال : ان الله تبارك وتعالى لما اراد ان يتوب على آدم ارسل اليه جبرئيل فقال له : السلام عليك يا آدم الصابر على بليته التائب من خطيئته

ح ١٨ - عن زر بن حبیش قال سألت ابن مسعود عن ايام البيض ما سببها ؟ وكيف سمعت ؟ قال : سمعت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول : ان آدم لما عصي ربه عز وجل ناداه مناد من لدن العرش يا آدم اخرج من جواربي فانه لا يجاورني احد عصائي فبكى وبكت الملائكة فبعث الله عز وجل اليه جبرئيل فاهبطه الى الأرض مسوداً فلما رآته الملائكة ضُجَّت وبكَّت وانتحبت وقالت يا رب خلقنا خلقتنا ونفخت فيه من روحك واسجدت له ملائكتك بذنب واحد حولت بياضه سواداً . . . ثم واصل في بيان ما كلفه آدم ايام البيض الثلاثة حتى صار كله بياضاً .

= ح ٢٥ - عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : ان آدم بقي على الصفا اربعين صباحاً ساجداً يبكي على الجنة وعلى خروجه من جوار الله عز وجل فنزل عليه جبرئيل فقال يا آدم ، ما لك تبكي ؟ قال : يا جبرئيل مالي لا ابكي وقد اخرجني الله من جواره واهبطني الى الدنيا ؟ قال : يا آدم تب اليه

ح ٢٩ - عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : ان آدم لما طاف بالبيت فأنتهى الى المنتزم فقال جبرئيل اقر لربك بذنوبك في هذا المكان ، فوقف آدم فقال : يا رب ان لكل عامل اجراً وقد عملت فيما اجري فاوحى الله تعالى اليه يا آدم من جاء من ذريتك الى هذا المكان فاقر فيه بذنوبه غفرت له .

ح ٣٥ من أبي جعفر (عليه السلام) قال : الكلمات التي تلقى بين آدم ربه فتاب عليه قال : اللهم لا اله الا انت سبحانك وبحمدك اني عملت سوء وظلمت نفسي فاغفر لي انك انت التواب الرحيم لا اله الا انت سبحانك وبحمدك عملت سوء وظلمت نفسي فاغفر لي انك انت خير الغافرين .

ح ٣٦ - من عطاء عن أبي جعفر عن أبيه عن آبائه عن علي (عليهم السلام) عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال انما كان لبث آدم وحواء في الجنة حتى خرج منها سبع ساعات من ايام الدنيا حتى اكلا من الشجرة فاهبطهما الى الأرض من يومها ذلك قال : فحاج آدم ربه فقال يا رب أرأيتك قبل ان تخلقني كنت قدرت علي هذا الذنب وكل ما صرت وانا صائر اليه او هذا شيء فعلته انا من قبل لم - ان - تقدره علي غلبت علي شقري فكان ذلك مني وفعلي لا منك ولا من فعلك ؟ قال له يا آدم انا خلقتك وعلمتك اني اسكنك وزوجتك الجنة وبنعمتي وما جعلت فيك من قوتي قويت بجوارحك علي معصيتي ولم تغب عن عيني ، لم يخل علمي من فعلك ولا مما انت فاعله وقال آدم يا رب الحجة لك علي . . . قال الله يا آدم انا الله الكريم خلقت الخير قبل الشر وخلقته رحمة قبل غضبي وقدمت بكرامتي قبل هواني وقدمت باحتجاجي قبل عذابي ، يا آدم الم انك عن الشجرة واخبرك ان الشيطان عدو لك ولزوجتك واحذرهما قبل ان تصيرا الى الجنة واعلمكما انكما ان اكلتما من الشجرة كتتما ظالمين لانفسكما عاصيين لي ، يا آدم لا يجاورني في جنتي ظالم عاص لي ، قال فقال : يا رب الحجة لك علينا . ظلمنا انفسنا وعصينا ولا تغفر لنا وترحمنا نكن الخاسرين .

قاسمه ابليس^(١) وكان ذلك قبل رسالته^(٢) فانه :

﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ۝ ١٢٢ ۝

الإجتباء من الجباية : الجمع ، والافتعال جمع متكلف فيه ، واذا لا تكلف في افعال الله تعالى ، فليكن اصطفاؤه له بعد صفاء بتوبته وهداه ، فللمصمة مرحلتان ، اخلاص خلقي ، ثم اخلاص من الله ، فلما يجيب الانسان نفسه لربه كما يستطيع ، فقد يجتبيه ربه لنفسه رسولاً منه الى خلقه ، و« ربه » هنا دون « الله » ام « رب العالمين » تلمح لهذه الربوبية الخاصة في ذلك الاجتباء .

(١) مصباح الشريعة قال الصادق (عليه السلام) : والصادق حقاً هو الذي يصدق كل كاذب بحقيقة صدق ما لديه وهو المعنى الذي لا يسع معه سواء أو ضده مثل آدم (عليه السلام) صدق ابليس في كذبه حين اقسم له كاذباً لعدم ما به الكذب في آدم (عليه السلام) قال الله عز وجل : ولم نجد له عزماً ، ولان ابليس كان اول من ابتدء بالكذب وهو غير معهود وأظهره وهو غير مشروع ولا يعرف عند اهل السماوات والأرض ظاهراً وباطناً فحشر هو بكذبه على معنى لم ينتفع به من صدق آدم (عليه السلام) على بقاء الابد وافاد آدم بتصديق كذبه شهادة الله عز وجل بنفي عزمه عما يضاد عهده في الحقيقة على معنى لم ينتقض من اصفائه بكذبه شيئاً .

(٢) نور الثقلين في عيون الاخبار باسناده الى ابي الصلت الهروي قال : لما جمع المأمون لعلي بن موسى الرضا (عليه السلام) اهل المقالات من اهل الاسلام والديانات من اليهود والنصارى والمجوس والصابئين وسائر المقالات فلم يقم احد الا وقد الزمه حجته كانه القم حجراً قام اليه علي بن جهم فقال له يا بن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) اتقول بعصمة الانبياء فقال نعم قال فما تعمل في قول الله عز وجل : وعصى آدم ربه فغوى ؟ فقال : ان الله عز وجل خلق آدم حجة في ارضه وخليفته في بلاده لم يخلقه للجنة ، وكانت المعصية من آدم في الجنة لا في الارض لتتم مقادير الله عز وجل فلما اهبط الى الارض وجعل حجة وخليفة عصم بقوله عز وجل : ان الله اصطفى آدم ونوحاً وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين .

و « ثم » هنا تجعل اجتناءه الرسالي متأخراً عن توبته تعالى عليه وهداه ، وهذه طبيعة الحال في الاجتناء ، كما ان « فتاب عليه » تدل على توبته الى الله فتاب الله عليه ، وهذه التوبة محفوفة بتوبتين من الله الى التائب . من قبل حتى يتوب الى الله ، ومن بعد توبة من الله عليه تقبلاً منه ، حتى يتوب عليه : « ثم تاب عليهم ليتوبوا » (٩ : ١١٩) .

كما أن « وهدى » هي هدى بعد توبة الله عليه ثانية ، وليس الاجتناء إلا بعد هذه الهدى ، فهو المرحلة الخامسة بعد تخطيه هذه الأربع ، توبات ثلاث وهدى ، والاجتناء هدى رسالية بعد الهدى الخاصة المبينة صلاحية الرسول كشخص ، وهي المعنية بالهدى التالية :

﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَلَمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ ١٢٣

هنا « قال اهبطوا منها جميعاً » وفي سواها « قلنا اهبطوا منها جميعاً » (٢ : ٣٨) « اهبطوا بعضكم لبعض عدو » (٢ : ٣٦ و ٧ : ٢٤) فهل المخاطب مثنى فكيف الجمع في ذلك الجمع ؟ ام هو جمع فلماذا المثنى في هذه الآية ؟ .

« اهبطوا » في هذه الثلاث الاخيرة تجمع آدم وزوجه والشیطان ، و « اهبطا » هنا بقرينة الجمع في « يأتينكم » والعداء في « بعضكم لبعض عدو » تعني نفس الجمع ، والثنية اعتباراً بالفريقين المتناحرين على طول خط الحياة ، فالعداء الاصيل هو بين الشيطان والانسان ككل ، ويتفرع عليه عداء ثان بين قبيل الانسان « قل لعبادي يقولوا التي هي احسن ان الشيطان ينزع بينهم » (١٧ : ٥٣)

وهنا احتمال ثان ان الثنية تعني قبيلي الرجال والنساء المتسلين من الاولين ، ومباعدة العداء تعم عداء كل لآخر ، وعداء كل مع قبيلة ،

ثم الشيطان رأس الزاوية في كل عداء .

وذلك العداء بين قبيل الانسان ، واثره عليه من قبيل الشيطان ، هما
لا يزولان ام يخفان إلا بهدى الله الملك المنان :

« فإما يأتينكم مني هدى » ونون التأكيد تنسف التردد في إتيان هدى
الى التأكد منها ، و « هدى » هذه ، الآتية بعد الهبوط ، ليست هي الفطرية
والعقلية والحسية وقد اوتيتها كل مكلف منذ خلقه ، بل هي الهدى الرسالية
بالوحي ، غير المستطاعة لهم ، سواء اكانت هدى العقل صداً عن
اخطائه اما زاد ، وعلها هي مادة الرسالة الاولى التي حملها آدم (عليه
السلام) حيث الشرعة الإلهية بفروعها الأحكامية الشاملة انما ابتدئت من
نوح : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي اوحينا اليك وما
وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ... » (٤٢ : ٤٣) فقد « كان الناس امة
واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ... » (٢ : ٢١٣) والنيبون هنا
هم حملة الشرائع منذ نوح الى محمد (عليهم السلام) ، وآدم كان رسولاً
مهدياً يهدي الدلالات العقلية الناصجة ولم يكن نبياً ، حيث النبوة هي
منزلة رفيعة في الرسالة ، وآدم لم يحظو إلا مرتبة دانية بدائية من الرسالة .

« فمن اتبع هداى » في آية شرعة آتية « فلا يضل » اتباعاً للشيطان ،
وعداء بعضهم لبعض ، وقصوراً للعقل عن كامل المصلحة الحيوية ،
وبالنتيجة « ولا يشقى » بالرغم من ان الحياة الدنيا هي حياة الشقاء ،
وبإحدى « لا يشقى » في البزرخ والأخرى ، فالشقاء في الحياة لمتبع الهدى
منفية ، في عيشة راضية مرضية ، وقد يروى عن رسول الهدى (صلى الله
عليه وآله وسلم) في تفسير آية الهدى « من اتبع كتاب الله هداه الله من
الضلالة في الدنيا ووقاه سوء الحساب يوم القيامة ... » ^(١) وهذا تفسير

(١) الدر المنثور ٤ : ٣١١ - اخرج ابن أبي شيبة والطبراني وابو نعيم في الحلية وابن =

تطبيقي للهدى بافضل مصاديقها .

وترى كيف يهتد آدم إذا عصى بأنه يشقى ، وإذا أطاع فلا يشقى ، وهنا يعده مرة أخرى « من اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى » في هذه الحياة الارضية الشقاء ؟

علّه لان الشقاء المهتد بها تعم النشآت الثلاث روحية وبدنية ، وهي تُجبر باتباع الهدى ، إلا بدنية في الاولى ، لا تحسب بشيء بجانب الريححة الروحية برضوان من الله .

صحيح ان آدم اهبط من الجنة بما عصى ، ولكنه زُود في الحياة الارضية بزيادة التقوى التي تجعل له منها جنة المأوى ، اضافة الى حياته الحسنة في الدنيا ، والجنة التي يخلفها الانسان بما سعى ، خير من جنة دخلها دون ان يسعى .

مركز تحقيقات كامپيوتر علوم اسلامی ومن أعرض

عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ
أَعْمَى ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ
بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ
الْيَوْمَ تُنْسَى ﴿١٢٦﴾ وَكَذَلِكَ نُجَزِّي مَنْ أَمَرَفَ وَلَمْ

= مردويه عن ابن عباس قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) . . . وذلك ان الله يقول : فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى .

يُؤْمِنُ بِعَآيَاتِ رَبِّهِ^٤ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى^{١٢٧}
أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ
فِي مَسْكِنِهِمْ^٥ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى^{١٢٨}
وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ
مُّسَمًّى^{١٢٩} فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ
قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ
فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى^{١٣٠} وَلَا تَمُدَّنَّ
عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَاهُمْ^٦ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ^٧ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى^{١٣١}
وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلُكَ رِزْقًا
نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَعْبَةُ لِلتَّقْوَى^{١٣٢} وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ
مِّنْ رَبِّهِ^٨ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ^٩ الْأُولَى^{١٣٣}
وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ^{١٠} بِعَذَابٍ مِّنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا
أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ^{١١} مِنْ قَبْلِ أَنْ نُنْزَلَ

وَنَحْزِي ۝ قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ فَتَرَبُّوْا ۖ فَسْتَعْلَمُوْنَ مَنْ

أَتَّخَبَ الصِّرَاطَ السَّوِيَّ وَمَنِ اهْتَدَى ۝

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ اَعْمَى ﴾ ١٢٤ .

« ذكرى » هنا هو « هداي » هناك ، وكما الذكر درجات كذلك الاعراض عن الذكر درجات تجمعها « فان له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة اعمى » و« ذكرى » بين آفاقي وأنفسي ، ومن افضل الاول القرآن ورسول القرآن ويتلوه من يتلوه (١) والثاني فطري وعقلي ، وكل ذلك من مصاديق « ذكرى » على اختلاف درجاتها .

وكيف « من اعرض عن ذكرى » وجاء « من اتبع هداي » والصيغة الصالحة « من لم يتبع هداي » ؟ عليه لان هناك من لا يتبع هداي ولا يعرض عنها ، كالمستضعفين الذين لا يجدون حيلة ولا يهتدون سبيلا ، في قصور مطلق ام طرف من التقصير لا يؤخذ بعين الاعتبار .

وكذلك العصاة الذين هم مصيرهم الى الجنة ، اذ لم يعصوا الله اعراضاً عن ذكره وهداه ، وانما غلبت عليهم شهوتهم وشقوتهم وأركسوا فيها دون اعراض ، فالصيغة الصالحة - اذاً - كما هي : « من اعرض عن ذكرى . . » والآيتان تتحدثان عن كتلة الايمان الصائب والكفر الثاقب ، واما العوان بينها فلا ذكر عنهم في آية الذكر والهدى .

(١) كفاية الخصاص ٤٩٦ - ابو صالح عن ابن عباس في الآية قال تعني الذي ترك ولاية علي (عليه السلام) اعماه الله وأصمه ، اقول . وفيه روايات مستفيضة من طرق اصحابنا عن ائمتنا (عليهم السلام) .

والمعيشة فعيلة من العيش وهو بالنسبة للمعرضين عن ذكر الله عيش الحياة الحيوانية التي يُظن انهم منها في راحة دائبة ، واما الروحية فهي خاوية عنهم وهم خاوون عنها ، ولان الروح يتطلب - فطرياً - اللاحدود من الكمال ، وهم إنأقلوا الى الحياة الدنيا واطمأنوا بها ، فلا يجدون بغيتهم فيها ، وهم في نفس الوقت في تزعزع وتلكع دائب اذ لا ينالون منها غاية ما يحبون فيها .

فالمعيشة الضنك المخلفة من الاعراض عن ذكر الله هي الضلال المبين والشقاء الاشقى « ونحشره يوم القيامة اعمى » هي ابرز مصاديق المعيشة الضنك ، ثم البرزخ ثم الدنيا^(١) .

والقلب الهاوي المضطرب المرتكن الى الدنيا ولذاتها لا يعيش صاحبه الا معيشة ضنكاً مهما كان في سعة ومتاع ، حيث المقطوع الصلة عن الله والاطمئنان الى حماه هو في ضيق وذنك الحيرة ، حرصاً على حاضره ، وحزناً على غابره ، وطمعاً في مستقبله بكل محاطره ، فهو دائباً يعيش ضنك الجري وراء بوارق المطامع والحسرات على ما لا يناله ، وقد يروى عن رسول الهدى قوله « عقوبة المعصية ثلاثة ضيق المعيشة والعسر في الشدة وأن لا يتوصل الى قوته الا بمعصية الله تعالى »^(٢) .

وهذه هي الدنيا التي لا جزاء فيها ، فكيف بالآخرة ؟ « ونحشره يوم

(١) الدر المنثور ٤ : ٣١١ عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في الآية قال : عذاب القبر .

(٢) التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٢ : ١٣١ روي عن علي (عليه السلام) عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) انه قال :

القيامة اعمى « كما كان يوم الدنيا اعمى واين عمى من عمى ؟ »

وتراها عمى عن البصر فلا يبصرون هناك شيئاً ؟ فكيف يقال لهم
« اقرء كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً » (١٧ : ١٤) « اذ
المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ربنا ابصرنا وسمعنا » (٣٢ : ١٢) .
ام عمى عن البصيرة ؟ ولم تكن لهم بصيرة في الاولى حتى يعموا عنها في
الاخري !

الأصل في العمى هي التي عن البصيرة : « ومن كان في هذه اعمى
فهو في الآخرة اعمى واضل سبيلاً » (١٧ : ٧٢) فهي - اذاً - عمى الضلال
عن السبيل ، مهما كان بصيراً بالبصر الحيواني وأرقى « فانها لا تعمى
الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » (٢٢ : ٤٦) و « اولئك
الذين لعنهم الله فاصمهم واعمى ابصارهم » (٤٧ : ٢٣) « صم بكم عمي
فهم لا يرجعون » (٢ : ١٨) .

ام انما تجمع لهم عمى البصر الى عمى البصيرة حين يحشرون ، ثم
يرجعون الى ابصارهم ليروا بها ما يوحشهم عذاباً فوق العذاب ، ومن ذلك
مسرح الأعمال التي يرونها ، ومختلف ألوان العذاب ومظاهر التجديف
والتخويف التي يرونها ، دون ان يروا او يتظفروا خيراً ينالونها « فبصرك
اليوم حديد » تحد البصر الى ما يزعجك ، ولكنه اعمى من النظر الى ما
يبهجك (١) .

﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيْ اَعْمٰى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيْرًا ۚ ۝١٢٥ ﴾

(١) في الكافي باسناده عن ابي بصير قال سمعت ابا عبد الله (عليه السلام) يقول :
من مات وهو صحيح موثر لم يحج فهو ممن قال الله عز وجل : ونحشره يوم القيامة
اعمى - قال : قلت سبحانه الله اعمى ؟ قال : نعم اعماه الله عن طريق الحق .

سورة طه / آية ١٢٤ - ١٣٥ ٢٢٣

كنت بصيراً بصر البصر ، وبصيراً بصر البصيرة الحذق والسياسة الحكيمة، وعَلَّ « كنت بصيراً » هي باعتبار الاكثرية المطلقة ، ام ان الاعمى لا يعرض عن ذكر الله ، او انه حكاية حال البصير منهم حيث الاعمى لا يسأل هكذا ، والاعمى المؤمن البصير يحشر بصيراً لبصارتة الإيمانية ، والمعرض عن ذكر الله البصير يحشر اعمى فسناداً الى الضابطة العادلة :

« كما تعيشون تبعثون. » يقول « لم حشرتني اعمى .. » ؟ والجواب .
الحاسم :

﴿ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ۝١٢٦﴾ .

« كذلك » الذي عشت قد حشرت ، إذ كنت اعمى عن إِبصار الحق وسماعه والتفكير فيه على التماعه حيث « أتتك آياتنا » مبصرة ومسموعة ومعقولة « فنسيتها » انها آياتي ، واعرضت عنها وقد كانت ذكرى ، وهكذا تحشر اعمى كما كنت اعمى « وكذلك اليوم تنسى » حرماناً عن البصيرة مدى حياتك في الاخرى ، وعن البصر حيث ضيعته فيما لا يعنى ، ابطلاً له عما يعنى !

وذلك ظهور الحالات الدنيوية في الملكوت ، ان تظهر عمى البصيرة على البصر ، فالهول الشامل حين الحشر من ناحية ، والعمى الحائلة عن إِبصار المسرح المفجع من اخرى ، انه عذاب فوق العذاب ، مهما يرجع بصيراً بعد ربح ام في فترات لكي يرى العذاب ، عذاباً من نوع آخر فوق العذاب ، فعماء حشراً عذاب ، وإبصاره بعده عذاب جزاء بما كانوا يعملون ولا يظلمون نقيراً .

﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ۝١٢٧﴾ .

« وكذلك » البعيد المدى الشديد الصدى « نجزي من أسرف » وتولي

« ولم يؤمن بآيات ربه » نجزي معيشة ضنكاً في الدنيا « ولعذاب الآخرة أشد وأبقى » لو كانوا يعلمون، وهنا تنتهي الجولة بطرفيها الصالح والظالم ، وبالتالي جولة للطالحين هي اقرب من الاخرى ، فانها واقع تشهده العيون ان كانت الاخرى غيباً عن العيون :

﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى ﴾ ١٢٨ .

« هدى له » هي الهدى الصالحة لمن يهتدي بها حجة بالغة عليه « أفلم يهد لهم » أولاء المعرضين عن ذكرى « كم اهلكنا قبلهم من القرون » الخالية البالية بما أسرفوا ولم يؤمنوا ، وهم اولاء « يمشون في مساكنهم » ويرون بأبصارهم آثارهم الخاوية « إن في ذلك » الإهلاك في قرون مضت « لآيات » بينات « لأولي النهي » جمع نهية وهي العقل الناهي عن هوى النفس ، واما المعقول بعقل النفس فهو معرض عن آيات ربه وذكره .

فحين تجول القلوب والعين في مصارع القرون ، وتطالع العين ويطلع الضمير على آثارهم ومساكنهم عن كثب ، ويتصور الانسان النسيان شخصوهم الذائبة واشباحهم الهاربة ، حين يتأمل ذلك الحشد من الاشباح والصور ثم لا يرى منهم اثراً إلا بيوتاً خاوية ومساكن خالية ، عندئذ يستقيظ للهوة التي تغر فهاها لتبتلع الحاضر كما ابتلعت الغابر و « ان في ذلك لآيات لأولي النهي » .

﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ ١٢٩ .

والكلمة السابقة هي قوله في الاعراف « ولكم في الأرض مستقر ومتاع الى حين » (٢٤) ونظائرها الدالة على ان اليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل ، وما إهلاك قرون خلت او تأتي إلا نموذجاً منبهاً من العذاب ، ولولا هذه الكلمة « لكان » اهلاك المعرضين عن ذكر الله

« لزماً » لهم دون ابقاء : « ولولا كلمة سبقت من ربك الى اجل مسمى لقضي بينهم » (٤٢ : ١٤) .

وترى ما هو موقف « واجل مسمى » مرفوعاً في آيتنا ؟ اجل المحتملات الثلاثة بكلام الله كون « اجل » اسماً لـ « كان » التامة ، وقد كانت ناقصة للمعطوف عليه ، فالمعنى « لكان لزماً وكان اجل مسمى » خلاف ما أجله الله متاعاً الى حين .

والاجل - في كلمة سبقت - هو اجل الموت المقدر لكل احد معلقاً ام مسمى ، ولولا كلمة سبقت لكان اهلاكهم لزماً ولكان اجل مسمى خلاف الباقيين الذين لهم أجلا معلق ومسمى .

﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾ ١٣٠ .

« فاصبر » - « وما صبرك إلا بالله » (١٦ : ١٣٧) والله « فاصبر على يقولون » ويتقولون عليك وعلى رسالتك العظمى « ولا تذهب نفسك عليهم حسرات » ولكي ينشرح صدرك عما أضاقوه فانجبه الى ربك كما انت وزيادة « وسبح بحمد ربك » الذي رباك وليريبك اكثر مما انت ، « قبل طلوع الشمس » في هدأة الصباح وهو يتنفس متفتحاً بالحياة ، و « قبل غروبها » في هدأة ثانية عن زحمة النهار وسبحه الطويل ، والكون يغمض اجفانه ، والشمس تلبس اكفائها ، كذلك « ومن آناء الليل فسبح » قبل منتصفه فرضاً وبعده - « نافلة لك عسى ان يبعثك ربك مقاماً محموداً » - كذلك « واطراف النهار » بكرة وظهرية وعشية « لعلك ترضى » بهذه المواصلة في التسبيح بالحمد ، ازاحة عما يضيق بك ، وإراحة لخاطرک الخطير ، وهذه الرضا ثمرة حاضرة للتسبيح تطمئن القلب في حمى الرحمن .

هذه وفي مكة ثانية « فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل

٢٢٦ الجزء السادس عشر

طلوع الشمس وقبل الغروب . ومن الليل فسيحه وأدبار السجود »
(٥٠ : ٤٠) .

وفي ثالثة « واقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل ان الحسنات يذهبن
السيئات ذلك ذكرى للذاكرين » (١١ : ١١٤) .

اترى ما هي الملازمة بين هذه الثلاث وفي الاولى « اطراف النهار »
واقلمها ثلاثة ، والثالثة « طرفي النهار » فاين هنا الظهيرة وهي من الصلاة
الوسطى ، وهناك تذكر الفجر والعصر مرتين ثانيتهما في « اطراف النهار »
والظهيرة هي الطرف الأوسط تذكر فيها اشارة ، ثم الثانية كما الثالثة تلغي
الظهيرة ؟

الاخيرتان تتجاوبان في الفجر والعصر وفي فريضة الليل كلاً او بعضاً ،
وكان ذلك كان قبل فرض الظهيرة ، والاولى تلمح لها انها من الفرائض
اليومية ثم فرضت صراحاً في العهد المدني بتمام فريضة الليل وكأنها العشاء ،
فاطراف النهار اقلها ثلاثة اوسطها الظهيرة^(١) ، أم انها تجمع بين
الفرائض والنوافل اليومية ، أم تعني الأعم من الصلاة كما الثانية ، « وأدبار
السجود » قد تلمح ان التسبيح بالحمد فيها غير الصلاة .

وخصوص الخطاب فيها للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) قد
يرجع الاخير ، لا سيما وان الصلاة لا يعبر عنها في الفصحى بغير صيغتها
إلا ان يعنى اعم منها ، فالأوسط هو الأوسط بين الاحتمالات الثلاث
واصدق مصاديق التسبيح بالحمد هو الصلاة .

ثم قد يتأكد أن طرفي النهار وقبل طلوع الشمس وقبل غروبها ، هما

(١) راجع تفسير الثانية في ج ٢٩ : ٢٩٧ - ٣٠٠ للحصول على بيان يشابه ما هنا
باختلاف يسير .

الفجر والعصر وكما يروى عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)^(١) ومن اطراف النهار التطوع بالنهار^(٢) .

﴿ وَلَا تَمُدَّنْ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾^(١٣١) .

« عيناك » الظاهرتين ، او الظاهرة والباطنة استعظاماً لـ « ما متعنا به ازواجاً منهم » من اموال وبنين وسائر الحيويات الحيوانية الدانية في هذه الدنيا ، و « ازواجاً » هي القرناء فروعاً وأصلاء ، مهما شملت ازواج الزواج ، فانها لا تختصها حيث المتع لا تحصر فيهم مهما كانت متعة الجنس من أعلاها ، ولكنها نعم عامة الذكران والاناث .

و « زهرة الحياة الدنيا » هي الطالعة فيها كما تطلع زهرات النباتات ، ولكنها سريعة الذبول والافول ، وكذلك زهرات الدنيا بأسرها الا ما يتذرع بها الى الاخرى .

وهذه الزهر والمتع ليست هؤلاء الانكاد الا « لنفتنهم فيه » فيها متعناهم

(١) الدر المنثور ٤ : ٣١٢ - اخرج الطبراني وابن مردويه وابن عساكر عن جرير عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في الآية قال : قبل طلوع الشمس صلاة الصبح وقبل غروبها صلاة العصر وفيه عن عمارة بن رومية سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول : لن يلج النار احد صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها .

(٢) نور الثقلين ٣ : ٤٠٧ في الكافي عن زرارة عن ابي جعفر (عليه السلام) قال قلت له : واطراف النهار لعلك ترضى قال : يعني تطوع بالنهار وفيه في تهذيب الاحكام عن زرارة عن ابي عبد الله (عليه السلام) حديث طويل وفيه بعد ان ذكر (عليه السلام) ما جرت به السنة في الصلاة فقال ابو الخطاب : افرايت ان قوي فزاد ؟ قال : فجلس وكان متكئاً فقال : ان قويت فصلها كما كانت تصلى وكما ليست في ساعة من النهار فليست في ساعة من الليل ان الله عز وجل يقول « ومن آتاه الليل فصبح » .

به فليست لها بقاء ، وحتى اذا بقيت طيلة الحياة فـ « رزق ربك خير وابقى » اذ تخطى الاولى الى البرزخ والاخرى ثم Lafناء .

وليس ذلك محريماً لزينة الله « قل من حرم زينة الله . . » ؟ بل هو دعوة الى التمسك والاعتزاز بالقيم الاصلية الباقية ، فلا تنهاوى النفوس امام المتعة والزهرة والثراء ، وقد يروى عن رسول الهدى (صلى الله عليه وآله وسلم) : قوله : « ان اخوف ما اخاف عليكم ما يفتح الله لكم من زهرة الدنيا ، قالوا : وما زهرة الدنيا يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : بركات الأرض »^(١) وقد تُعزِّيه الآية عن فقره وغناهم^(٢) .

﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴾ ١٣٢ .

ومهما كان الأمر بالصلاة يعم كافة المسلمين وعامة المكلفين ولكن « اهلك » هم اخرى بذلك « واصطبر عليها » : الصلاة ان تقيمها وتأمُر اهلك بها ، وان تقرب بها وتقرب الى الله زلفى ، فهناك اصطبار على إقام الصلاة لتكون كلها صلاة ومعراجاً الى الافق الاعلى ، واصطباراً آخر على الأمر بها مهما كان فيه إمر .

وما اخرى علياً وفاطمة اهلاً للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ،

(١) الدر المنثور ٤ : ٣١٣ - اخرج ابن ابي حاتم عن ابي سعيد ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال :

(٢) المصدر اخرج جماعة عن ابي رافع قال اضاف النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ضيفاً ولم يكن عنده ما يصلحه فارسلني الى رجل من اليهود ان بعنا او اسلفنا دقيقاً الى هلال رجب فقال لا الا برهن فاتيت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فاخبرته فقال : اما والله اني لامين في السماء وامين في الأرض ولو اسلفني اوباعني لأديه إليه اذهب بدرعي الحديد فلم اخرج من عنده حتى نزلت هذه الآية ...

لذلك تراه (صلى الله عليه وآله وسلم) لما نزلت كان يجيء الى باب علي صلاة الغداة ثمانية اشهر يقول : الصلاة رحمكم الله انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيراً^(١) فقد « امر الله نبيه ان يخص اهل بيته واهله دون الناس ليعلم الناس ان لأهله عند الله منزلة ليست لغيرهم من عامة الناس ثم امرهم خاصة »^(٢) .

ولا تحسبن انا نسألك في الصلاة-امراً وتطبيقاً-رزقاً وحظوة روحية لنا ، كلا « لا نسألك رزقاً » بل « نحن نرزقك » بصلاتك وسواها من ارزاق روحية أما هي ، والحياة « العاقبة » التي تعقب هذه الدنيا « للتقوى » وهي حياة الرجعة والبرزخ والقيامة فانها من ايام الله ، وهذه السفرة المثلثة لا زاد

(١) المصدر اخرج ابن مردويه وابن عساكر وابن النجار عن ابي سعيد الخدري قال لما نزلت

(٢) نور الثقلين ٣ : ٤٠٨ في عوالي اللئالي وروي عن الباقر (عليه السلام) في قوله تعالى : وأمر اهلك بالصلاة واصطبر عليها قال : . . . وفيه في عيون الاخبار في باب ذكر مجلس الرضا (عليه السلام) مع المأمون في الفرق بين العترة والامة قالت العلماء هل فسر الله تعالى الاصطفاء في الكتاب فقال الرضا (عليه السلام) فسر الاصطفاء في الظاهر سوى الباطن في اثني عشر موضعاً . . . واما الثاني عشر فقوله عز وجل « وأمر اهلك بالصلاة واصطبر عليها فخصنا الله تعالى بهذه الخصوصية إذ امرنا مع الامة باقامة الصلاة ثم خصنا من دون الامة فكان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يجيء إلى بساب علي وفساطمة (عليهما السلام) بعد نزول هذه الآية تسعة اشهر كل يوم عند حضور كل صلاة خمس مرات فيقول الصلاة رحمكم الله ، وما اكرم الله احداً من ذراري الانبياء (عليهم السلام) بمثل هذه الكرامة التي اكرمنا بها وخصنا من دون جميع اهل بيته فقال المأمون والعلماء : جزاكم الله اهل بيت نبيكم عن الامة خيراً فما نجد الشرح والبيان فيما اشبه علينا الا عندكم » اقول : تجد مجموعة هائلة من المسانيد حول القضية في تفسير آية التطهير فراجع .

لها افضل من التقوى : « وتزودوا فان خير الزاد التقوى » .

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ
الْأُولَى ﴾ ١٣٣ .

فلانهم تعودوا في ماضي الرسالات بالآيات البصرية، وآية هذه الرسالة
الاخيرة بصيرة هي القرآن ، لذلك ما كانوا يعتبرونه آية رسالية « وقالوا لولا
يأتينا بآية من ربه » والقرآن افضل آية من ربه ، ألم تأتاهم هذه المفضلة
الخالدة الناصعة « اولم تأتاهم بينة ما في الصحف الاولى » آيات بصرية
تصدقها ، وهم كانوا ناكريها ؟ فهم لا يؤمنون بآيات الرسالات ، سواء
اكانت بينة ما في الصحف الاولى ، ام بينة الصحيفة الاخرى .

ومن « بينة ما في الصحف الاولى » البشارات التي تضمنتها بحق هذه
الصحيفة الاخرى ورسولها^(١) : « ان هذا لفي الصحف الاولى . صحف
ابراهيم وموسى » (٨٧ : ١٩) ومنها ما في كتاب اشعيا « كي يلعجبي
شافاه وبلا شون اجرت يلبير ال هاعيام هذه » (٢٨ : ١١) لانه بلهجة
لكناء بشفاه اعجمية ولسان غير لسانهم يكلم هذا الشعب « فان كل لغة
تعتبر غيرها اعجمية ومنها العبرانية ، فالعربية بجنبها اعجمية لكناء ، غير
مفهومة للإنسان العبراني .

ومنها القرآن نفسه فانه آية بينة غير مدخولة من الصحف الاولى وكما
يروى عن الامام علي (ع) : « فجاءهم بنسخة ما في الصحف الاولى
وتصديق الذي بين يديه وتفصيل الحلال من ريب الحرام »^(٢) .

﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا

(١) وقد افردنا لسرد ما كتابنا « رسول الإسلام في الكتب السماوية » .

(٢) نور الثقلين : ٥ : ٥٥٨ ح ٢٢٨ مسعدة بن صدقة عن أبي عبد الله (عليه
السلام) ...

رَسُولًا فَتَتَّبِعْ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزِي ﴿١٣٤﴾ .

« قبله » تعني قبل الرسول قضية الذكورة، وقبل القرآن البينة لمحة من « آياتك » ولأن محمداً هو القرآن البينة والقرآن بينة محمد فالمعنيان معنيان ، فلو كان المرجع فقط البينة فلتكن « من قبلها » ام فقط هو الرسول فكيف « تتبع آياتك » من دون القرآن ؟ .

وهذه الآية من براهين عدم الإهلاك واستحالته في عدل الله قبل اتمام الحجة بشرعة آلهية ، ولكنها لا تنفي عذاباً في الاخرى بتخلف عن حجة العقل والفطرة ، إلا أن تنفيه ايضاً « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً » (١٧ : ١٥) والتفصيل في تحصيل بالغ راجع الى تفسير هذه الآية .

إذا فبعد تمام الحجة وبالغ المحجة والتخلف فالعذاب لا محالة واقع بعد الموت ، وقد يحل قبله إذا فاحش الظلم والطغيان ذكرى للظالمين ، وحفاظاً على العالمين، فسحاً لهم بما يعملون لما يأملون ، وكسحاً للظلم المدمر لمسرح التكليف : « رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » (٤ : ١٦٥) .

﴿ قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى ﴾ (١٣٥) .

« كل » منا « متربص » عاقبة امره حيث الانسان أياً كان يعيش الامل نتيجة العمل « فتربصوا » انتم المعرضون عن ذكر الله عاقبة امركم وامرنا « فستعلمون » غداً « من أصحاب الصراط السوي » وهم الدعاة الى الله (١) « ومن اهتدى » بهم الى الله ، اهم انتم المعرضون ام نحن المؤمنون ؟ ! .

(١) نور الثقلين ٣ : ٤١١ تفسير القمي عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : والله نحن السبيل الذي امركم الله باتباعه ونحن والله الصراط المستقيم ونحن والله الذين امر الله بطاعتهم فمن شاء فليأخذ هنا ومن شاء فليأخذ هناك لا تجدون والله عنا محبصاً .



مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی





مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾
مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ
يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَا هِيَ قُلُوبُهُمْ وَأَسْرَأَ النَّجْوَى الَّذِينَ
ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَاءَ أَنْتُمْ
تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ
وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أُحْلَامُ بَلْ
أَفْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾
مَاءً أَمِنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾

وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِيْٓ اِلَيْهِمْ فَتَلَوْا اٰهْلَ
 الذِّكْرِ اِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُوْنَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا
 لَا يَأْكُلُوْنَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوْا خٰلِدِيْنَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ
 الْوَعْدَ فَاَنْجَبْنَاهُمْ وَمَنْ نَّشَاءُ وَاهْلَكْنَا الْمُسْرِفِيْنَ ﴿٩﴾
 لَقَدْ اَنْزَلْنَا اِلَيْكَ كِتٰبًا فِيْهِ ذِكْرُكُمْ اَفَلَا تَعْقِلُوْنَ ﴿١٠﴾
 وَكَرَّ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظٰلِمَةً وَاَنْشَاْنَا بَعْدَهَا
 قَوْمًا اٰخَرِيْنَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا اٰحْسَاْ بِاَسْنَانَا اِذَا هُمْ مِنْهَا
 يَرْكُضُوْنَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوْا وَاَرْجِعُوْا اِلَيَّ مَا اَنْزَفْتُمْ فِيْهِ
 وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَسْأَلُوْنَ ﴿١٣﴾ قَالُوْا يٰوَيْلَنَا اِنَّا كُنَّا
 ظٰلِمِيْنَ ﴿١٤﴾ فَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتّٰى جَعَلْنَاهُمْ
 حَصِيْدًا خٰمِدِيْنَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَاَلْاَرْضَ
 وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِيْنَ ﴿١٦﴾ لَوْ اَرَدْنَا اَنْ نَّخِذَ لَهُمْ لَا تَخَذٰتُهُ
 مِنْ لَّدُنَّا اِنْ كُنَّا فٰعِلِيْنَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلٰى
 الْبٰطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَاِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا

تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ
عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾
يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ اتَّخَذُوا إِلَهًا
مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَا إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ
لَفَسَدَتَا فَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾
لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ
دُونِهِ إِلَهًا قُلْ مَا تَأْتُوا بِرَهْنَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِّنْ
مَّعِيَ وَذِكْرٌ مِّن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ
فَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ
إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُوا

اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾
لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ
أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَسْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنَ
خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ * وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّنْ

دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٣﴾

سورة الانبياء تحمل صورة وضاعة عن ثورة الانبياء وسيرتهم طول التاريخ الرسالي وما لا قوة في سبيل الدعوة من اذيات وعرقلات وحرمانات ، سرداً لاكثر من النصف المذكورين في الذكر الحكيم باسمائهم ورسولنا العظيم بسماته وبصماته، فهم - اذاً - ثمانية عشر كادريس ونوح وابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب وموسى وعيسى ومن بينهم كلوط وهارون وداود وسليمان وايوب وذو الكفل وذو النون وزكريا ويحيى ، وفي ذلك المسرح الفصيح الفسيح تلميحات وتصريحات ان لخاتم المرسلين ما لهم اجمعين وزيادة حتى في صعوبات الدعوة، ولم يبق من المذكورة اسمائهم في القرآن في السورة إلا ثمانية منهم^(١) فحق لمن قرءها حباً لها بشروطها ان يرافقهم في جنات النعيم^(٢) ويسلم عليه كل نبي ذكر اسمه في القرآن^(٣).

فقد حملت هذه السورة ذكريات عن اولي العزم الذين دارت عليهم الرحى، وعمّن ساندوهم في دعواتهم الرسالية ، فحق لها واحرى ان تسمى سورة الانبياء .

وميادين البحث فيها هي الاصول الثلاثة : التوحيد والرسالة والمعاد

(١) كآدم وشعيب وهود وصالح ويوسف والياس .

(٢) نور الثقلين ٣ : ٤١٢ ثواب الاعمال باسناده الى ابي عبد الله (عليه السلام) قال : من قرء سورة الانبياء حباً لها كان كمن رافق النبيين اجمعين في جنات النعيم وكان مهيباً في أعين الناس حياة الدنيا .

(٣) وفي المجمع ابي بن كعب عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : من قرء سورة الانبياء حسبه الله حساباً يسيراً وصافحه وسلم عليه كل نبي ذكر اسمه في القرآن .

بمختلف صنوف البراهين كما هي دأب القرآن في دعوته العالمية المحلقة على كافة المكلفين بدرجاتهم المعرفية .

ومن اهم ما جاء فيها في التوحيد « لو كان فيها الهة الا الله لفسدنا »
كأعمق برهان فلسفي عريق ، وما جاء في الوسط الرسالي من وحدة الرسالة والامم طول التاريخ الرسالي : « ان هذه امتكم امة واحدة وانا ربكم فاعبدون » (٩٢) وبالمآل وحدة الدولة الاسلامية « ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ان الارض يرثها عبادي الصالحون » (١٠٥) واشارة الى الرجعة زمن قائد هذه الدولة : « وحرام على قرية اهلكنا أنهم لا يرجعون حتى اذا فتحت ياجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون » (٩٦) ومن بين ذلك استعراض لفتق الكون بعد رتقه ، الى جانب فتق الشرعة الإلهية بعد رتقها ! .

﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ .

مطلع قوية الضربات حيث تمزق القلوب هزاً، وتعض اصحابها عضاً ،
إلفاناً لهم الى قريب الخطر ، موقف جاد من الحساب ينتظرهم « وهم في غفلة معرضون » .

« اقترب » حيث الناس منذ نزول القرآن هم اقرب الى يوم الحساب منهم الى بدء الخلق ، فقد مضى اكبر شطري الزمان ، ولان كل آت قريب ، و « ان الدنيا قد ولت حذاء ولم يبق منها الا صباية كصبابة الاناء » .

فمن الناس من هم في أول الزمان ، ومنهم من هم في وسطه ، ولكن الناس منذ الرسالة الاخيرة هم في آخر الزمان ، ولذلك فنبينا نبي آخر الزمان ، واقترب الحساب مما ينبه الانسان عن غفلته ، ويوقظه عن غفوته « وهم في غفلة معرضون » .

وعلى الوجهين الآخرين لاقترب الحساب فالناس هم كل الناس منذ خلقوا الى يوم الحساب وكذلك على الوجه الأول في وجهه^(١) .

و « حسابهم » قد يعم البرزخ الى جانب القيامة فانه بداية الحساب وهي نهايته ، فلان الدنيا مولية حذاء وكل آت قريب ، فالحساب - اذاً - يعم البداية والنهاية « وهم في غفلة معرضون » ، فالناس - اذاً - بين اقترابين لحسابهم ، اقتراب دائب هو لكل الناس ، واقتراب جاد هو لمن يعيش آخر الزمان وهو منذ ابتعث نبي آخر الزمان ، « وهم في غفلة معرضون » ككل إلا من يستثنى .

وترى الغفلة وهي عدم الانتباه ، كيف تجامع الإعراض ولزامه الانتباه ؟ علما لانها غفلة عامدة مقصرة لا قاصرة ، والغفلة المقصرة تنهي صاحبها الى الاعراض بل هي بنفسها إعراض .

فقد يغفل الانسان ولا يعرض لانها غفلة وقتية يسيرة قصيرة قد ينتبه عنها ، ولكنه اذا عاش الغفلة وتورط فيها وغرق كما تلمح له الظرف « وهم في غفلة » غارقون فيها - فهم - اذاً - « معرضون » اذ لا منفذ لهم الى الانتباه حيث هم غارقون ، ومن اعراضهم عن الله وعن يوم الله وعما يتوجب عليهم امام الله فاعراضاً عن حسابهم :

﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾^٢ .

« وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين »

(٥: ٢٦) .

(١) اذا اخذا مبدء الزمان زمن الانسان الاول قبل هذا النسل وسائر الانسال الانسانية ، فقد يصيح هذا النسل عن بكرته في آخر الزمان على احتمال مضي الشطر الاكبر من الزمان قبله .

و « ذكر من الرحمن » هو كل ما يذكرهم ربهم من رجالات السماء وكتاباتهما ، و « يحدث » تخلق على الكل دون ابقاء ، فكلام الله وهو من فعل الله ، يحدث ايأ كان وايمان ، سواء اكان ذكر القرآن ورسول القرآن ام اي ذكر في اي زمان ومكان ، وما خرافة قدم كلام الله لفظياً ام نفسياً الا هرطقة هراء وسقاية بالعراء والله منها براء ، اللهم إلا علم الله فانه عين ذاته كقدرته وحياته ، ولكنه ليس ذكراً لسواه ، وانما يحدث ذكراً لسواه لعلهم يذكرون .

ف « التوراة والانجيل والزبور والفرقان وكل كتاب انزل كان كلام الله انزله للعالمين نوراً وهدى وهي كلها محدثة وهي غير الله حيث يقول « او يحدث لهم ذكراً » وقال « ما يأتيهم من ذكر من ربهم حدث الا استمعوه وهم يلعبون » والله احدث الكتب كلها ... » (١) .

ثم « من ذكر من ربهم » كما تعني ذكريات أي الذكر الحكيم ، النازلة المحدثه تلو بعض ولصق بعض نجومياً متقاطرة متتالية ، والناس هنا هم ناس الدور القرآني ، كذلك تعني ذكريات كافة كتابات السماء ، والناس هم - اذاً - ناس الادوار الرسالية كلها دون ابقاء .

(١) نور الثقلين ٣ : ٤١٢ في كتاب الاحتجاج للطبرسي وروى عن صفوان بن يحيى قال قال ابو الحسن الرضا (عليه السلام) لأبي قره صاحب شبرمة : التوراة ... فقال ابو قره : فهل يفتي ؟ فقال ابو الحسن (عليه السلام) اجمع المسلمون على ان ما سوى الله فعل الله والتوراة والانجيل والزبور والفرقان فعل الله الم تسمع الناس يقولون : رب القرآن ، وان القرآن يقول يوم القيامة : يا رب هذا فلان وهو اعرف به منه قد اظلمات نهاره أسهرت ليله فشفتني فيه ، وكذلك التوراة والانجيل والزبور كلها محدثة مربية احدثها من ليس كمثله شيء هدى لقوم يعقلون ، فمن زعم انهم لم يزلن فقد اظهر ان الله ليس بأول قديم ولا واحد وان الكلام لم يزل معه وليس له بدو وليس بآله .

و « ذكر من بهم » هو الذكر الذي يرثيهم ، كما « ذكر من الرحمن » هو الذي يذكرهم الرحمن ، وليس المحدث وصفاً لذكر خاص ، حتى يفهم منه ان هناك ذكر غير محدث هو القرآن ، وقد استمعوه وهم يلعبون اكثر من كل ذكر سبق ، و « او يحدث لهم ذكراً » تختص كل ذكر بالمحدث دونما استثناء .

« إلا استمعوه » نبياً وكتاباً « وهم يلعبون » يتخذونه لعبة كما يلعبون بسائر اللعب فهم عنه معرضون ، فما استماعهم لذكر ربهم إلا اعراضاً ولعباً دون تفهم ، وانما هو خوض وتقمح : « فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون » (٤٣ : ٨٣) اذ ف « قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون » (٦ : ٩١) .

وانما صورة بثينة تعيسة لنفوس فارغة عن الهدى ، مليئة بالهوى ، لا تعرف جداً في حق الحياة فتلهو في اخطر المواقف استهتاراً بالقدسيات ، فتغدوا حياتهم عاطلة باطلة ، هينة رخيصة قالحة ! :

﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۚ فَاتَّبِعْ أَمْرَهُ لَئَلَآ لَا يَمَسَّكَ فِتْنَةٌ وَلَا أُولَآءُ الْمُنَافِقِينَ ۚ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ سُوءُ الْمَقَاتِلِ ۚ أُولَآءُ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ سَبِيلَهُمْ لِيَحْلِلُوا ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَنسَاءَهُمْ وَآسَرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنتُمْ تَبْصُرُونَ ۚ ﴾ ٣ .

استمعوه « لاهية قلوبهم » وهم يلعبون « لاهية قلوبهم » فليس استماع الوحي ينفع والقلب لاه ، حيث البصر والسمع هما من وسائل بصيرة القلب وسماعه .

« و » هؤلاء المنافكيد « اسروا النجوى » ف « الذين ظلموا » بدل وصفي عنهم ، والنجوى هي الاسرار في القول بحيث لا يفهمه غير المتناجين فكيف اسروها ؟ إنها في اسرارها سر في سر ، سر في مادة النجوى ، وسر في أصلها كيلا يعلمها المتناجي عليهم ، ولكن الله فضحهم فيها بما أذاعها في هذه الاذاعة القرآنية .

سورة الأنبياء / آية ١ - ٢٩ ٢٤٣

وانما اسروها تخوفاً من نقصها او نقضها فيفسلوا ، فقد كانت شورى بينهم في ترداد القيلات ، لتصبح طبخة ناضجة ناتجة عنها فيبرزوها وقد برزت قبل ابرازها :

« هل هذا » الذي نراه ونعيشه رداً من العجز « إلا بشر » دون ميزة عن سائر البشر بل هو « مثلكم » في البشرية فلماذا يتفضل عليكم ، اتفضلونه على انفسكم دون سرجح « افتأتون السحر وانتم تبصرون » سحره ؟ دعاية خاوية وحجة داحضة ، فلو كانوا يبصرون لكانوا مؤمنين ، حيث الآيات الالهية مبصرة بصرأ وبصيرة : « فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين . وجحدوا بها واستيقنتها انفسهم ظلماً وعلواً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين » (٢٧ : ١٤) .

﴿ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ .

« قال » الرسول جواباً عن نجواهم سرأ « ربي » الذي رباني هكذا فلا أساوى او أسامى بمن سواي على أية حال « يعلم القول » اياً كان وكيفما كان « في السماء والأرض » - « وان تجهر بالقول فانه يعلم السر واخفى » (٢٠ : ٧) « وهو » لا سواء « السميع » كل قول « العليم » كل حال . فالاقول كلها والاحوال كلها حاضرة لديه ، وهو يعلم ألا قول كقوله في القرآن دليلاً حاضراً - في كل عصر ومصر ما طلعت الشمس وغربت - على انه قول الله لا سواء ، فهل بالامكان لبشر ساحر ، ام وملك ماهر باهر ان يأتي بفعل الله دون اذن ورسالة من الله ، اذاً فهو إله من دون الله فكيف ينسب فعله الى الله ؟!

اذاً ف « قال ربي يعلم . . » في هذا الوجه كقوله في الفرقان : « قل انزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض » (٢٥ : ٦) توجيهاً لهم الى الأسرار التي يحملها الذكر الحكيم ولا يعلمها الا الله ، اذاً فهو دون ريب

كتاب الله !

وقد كفت هذه الملحمة الغيبية الكاشفة عن اسرار نجواهم ، حجة عليهم ، دون حاجة الى اجابة عن شبهتهم هذه ، فهل ان علم الغيب هكذا سحر ؟ فأين الآية المعجزة ! .

فلقد احتاروا بشأن هذا القرآن متلكئين متلبكين لا يدرون من اي الى اين ، دون ثبات على رأي ولا على صفة له خاصة ، فهم يتمحلون في محاولة دائبة ان يعللوا اثره المزلزل لنفوسهم ، المزمجر لكيانهم ، في تنقلات وتطفلات :

﴿ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلْ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أَرْسَلْنَا الْآلُونَ ﴾ .

لا فحسب انه ساحر « بل » واذن منه اذ « قالوا اضغاث احلام » تخاليط من رؤي غير منتظمة ، فلا واقع له إلا احلام وتخيلات ، ولا نظم له الا اضغاث مختلطات من هتاف وهتاف دون اي رباط بينها ، فهو - اذن - باطل في بعديه ، بعيد عن الحق ببعديه .

لا فحسب « بل افتراه » على الله عامداً دون التباس عليه كاضغاث احلام ، متروياً في فريته ، محاولاً لتحويله محول كلام الله .

ولا فحسب « بل هو شاعر » حيث استفاد من موسيقا التعبير منفذاً الى قلوب البسطاء الهائمين الى الشعر ، فالى هنا هو لا يليق بمنصب الرسالة لقاعدة المماثلة في البشرية أولاً ، ثم الاعمدة الاربعة : السحر - اضغاث احلام - افتراء - شعر ، واذا لم يكن كما نقول بل هو رسول كسائر الرسل :

« فليأتنا بآية كما ارسل الاولون » فالآية الإلهية من لزامات الرسالة وقد زود بها الرسل الاولون ، وليست عنده إلا الكلام ، فان كان آية وليس ، فهو

- إذا - بدع من الرسل ، وان لم يكن آية كما ليس فليس إذا من الرسل .

فهؤلاء لم يتطلبوا منه آية ، وإنما « آية كما أرسل الأولون » حيث تعودوا عبر الرسائل الأولى آيات بصرية « وإذا جماعتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتي مثل ما أوتي رسل الله الله اعلم حيث يجعل رسالته .. » (٦ : ١٢٤) « أولم يكفهم أننا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ... » (٢٩ : ٥١) آية عقلية علمية عبر القرون ، بديلة عن آيات بصرية عابرة غابرة دفيئة مع أصحابها ؟!

ومن الإجابات الناقضة لهذه المتطلبات الزور والغرور ، تدليلاً على مدى حقهم في عمقهم :

﴿ مَا آمَنْتَ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

فحتى لو اتبع الحق أهوائهم وأرسلت بآية كما أرسل الأولون ما كانوا ليؤمنوا بك ، إذ « ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها » بتكذيبها آيات الله وصدها عن سبيل الله وبمجرأهم آيات الله تشرى « أفهم يؤمنون » وهم عارفون تلك الآيات العابرة الغابرة .

فلقد تحولت تلكم الآيات في تلك الرسائل الى آية أقوى وأبقى قضية خلودها ، ولأنها تأخذ بأزمة العقول والقلوب في كل الحقول فهي - إذا - أخرى بالتصديق والايان وهم لا يؤمنون ، فهل إذا اوتوا بآية كما أرسل الأولون « أفهم يؤمنون » ؟ .

ولأن سنة الله جارية على إهلاك من يكذبون بعد ما طبقت اقتراحاتهم ، « وما كان الله ليعذبهم وانت فيهم ... » إذا فهو السبب الأخير في عدم استجابتهم .

وأما قاعدة الشبهة المكرورة على السنة الناكرين « هل هذا الا بشر » ؟

فهي منسوفة بمرور هذه الرسائل كلها في بشر وبشر :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾^٧ .

لقد سبقت نظيرتها في النحل وفصلنا فيها ما استطعنا فلا نعيد ، وهذه تحسم حسماً ساحقاً ركيزة المشكلة الشائكة لهم ، بأنه ليس بدعاً من الرسل لا في كونه : بشراً « وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم » ولا في كيانه الرسالي آية رسالية ، إلا انها اقوى وابقى ، فكما ان الرسائل واحدة في جذورها ، كذلك آيات الرسائل التي تثبتها ، ولكنها درجات كما هم درجات و « الله اعلم حيث يجعل رسالته » فاسألوا اهل الذكر « بهذه السنة الرسالية ، وهم الذين عاشوا الرسل وآيات الرسائل ، فاسألوهم » ان كنتم لا تعلمون « انهم كلهم بشر امثالكم » ولكن الله يمين على من يشاء من عباده « (١٤ : ١١) .

ف « رجالاً نوحى إليهم » حجتان تستأصلان جذور الشبهة ، ثانيتهما ان الوحي ليس لزام البشرية من حيث هي ، بل هو فضل من الله ورحمة خاصة لخصوص عباده ليهدوهم السبيل .

وهذه كرامة آتية ان يرسل الله الى البشر بشراً ، فكيف تتخذ البشرية ذريعة لتكذيبها ، بدل أن يتذرع بها الى تهذيبها ؟ .

اجل « رجالاً نوحى إليهم » فهم كسائر البشر في كل حاجيات البشرية ، إلا أنه « يوحى إليهم » فهم بعيدون بسناد الوحي عن أخطاء البشرية :

﴿ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴾^٨ .

ذلك ! رغم قولهم « ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الاسواق »

سورة الأنبياء / آية ١ - ٢٩ ٢٤٧

(٢٥ : ٧) وليس هذا الرسول بدعاً في بشريته ولزاماتها المادية ، « وما جعلناهم » هؤلاء الرجال الرسل « جسداً » لا روح له فـ « لا يأكلون الطعام » ثم « وما كانوا خالدين » لا يموتون ، أو لا تموت رسالاتهم وتنسخ شرائعهم « وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفان مت فهم الخالدون . كل نفس ذائقة الموت . . . » (٣٥) فهم بشر كسائر البشر يأكلون مما يأكلون ويموتون كما هم يموتون ، وانما يمتازون عنهم ويفضلون عليهم بما يوحي اليهم .

فلقد كانت الرسل الى البشر بشراً قضية الحكمة البالغة الإلهية لتكون حياتهم الواقعية الملموسة نبراساً لسائر البشر ، تحقيقاً لشرعتهم في انفسهم لتحقيق في انفس الآخرين ، فالكلمة الحية الواقعية هي المؤثرة في قلوب الناس ، حيث تترجمها حياة صاحبها ، وشيعة دائبة بينهم وبين المرسل اليهم .

فأي داعية لا يحس مشاعر المدعوين ولا يحسون مشاعره ، انه يبقى دون تجاوب في دعوته ، مهما تسمّعوا الى اقواله ، حيث الافعال ادعى لهم واولى بالاتباع من الاقوال وكما يقال « مروا الناس بالمعروف وانهوهم عن المنكر بغير الستكم » .

فالقولة التي لا تصدقها فعلة ، قاصرة ام مقصرة ، إنها تبقى على ابواب الأذان ومشارف القلوب دون مزاج معها الا شذراً وسطراً في قلة قليلة ، وهذه تناحر الدعوة العالمية .

وهكذا يجب ان يكون كل قائد ، ان يتكون من نفس الوسط الذي يقوده ، عائشاً معاشهم ، ذائقاً مذايقهم، وضائقاً بمضايقتهم ، وليقودهم عارفاً متطلباتهم وحالاتهم .

لذلك كله ، وتكريماً لقبيل الانسان يعث الله رسلهم من انفسهم

فيجري عليهم كل ما يجري على انفسهم من ولادة وحياة وموت ، ومن عواطف ونزعات وانفعالات ، ومن آلام وآمال ومن كل ما هو آت من الطبيعة البشرية ، اللهم إلا أخطاء هي لزام عدم العصمة حيث يعصمها علمية واخلاقية وعملية ودعائية لتتم حجة الله على الناس ، ولا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل .

هكذا ارسلنا رسلاً ترى ، حاملين الحجج البالغة الالهية ، واعديهم إنجاحاً في الدنيا والآخرة :

﴿ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴾ .

صدق الوعد هو وفقه للواقع حالياً واستقبالياً ، فمن الحال : « ولقد صدقكم الله وعده اذ تحسونهم باذنه ... » (٣ : ١٥٢) ومن الاستقبال : « وقالوا الحمد لله الذي صدقناه وعده ... » (٣٩ : ٧٤) .

وقد يجمعها ككل « انا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد » (٤٠ : ٥١) .

وقد تعني هنا « ثم » المراجعة لصدق الوعد - فيما عنت - الصدق اللائح في عواقب الرسالات هنا ، ومن ثم في البرزخ والآخرى .

وهنا « فأنجياهم ومن نشاء » بيان لصدق الوعد في خاتمة الاولى ، ثم الاخرى هي احق بالصدق واخرى : « فهل ينتظرون الا مثل ايام الذين خلوا من قبلهم قل فانتظروا اني معكم من المنتظرين . ثم تنجي رسلنا والذين آمنوا كذلك حقاً علينا ننج المؤمنين » (١٠ : ١٠٣) .

وهنا العوان بين المؤمنين الناجين والمسرفين الهالكين ، هم غير مذكورين ، وقد تعنيهم « من نشاء » مع المؤمنين ، متعة الحياة الدنيا ، ثم لا نجا لهم كالمؤمنين في الاخرى .

ام ان « من نشاء » هم المؤمنون ، و « المسرفين » يعم غير المؤمنين ككل ، المختلفين في دركات الهلاك كاختلاف اسرافهم ، ومن اسفلها العذاب المستأصل لهم يوم الدنيا ، ومن سواهم من المسرفين هالكون في دركات اخرى هنا ، غب ما تصلهم دركات الاخرى بالاوفى .

﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ١٠ .

« اليكم » في وجه خاص تعني العرب فانهم المحطة الاولى لنزول القرآن ، فـ « ذكركم » كما تعني هنا تذكرهم عن غفلتهم ، كذلك تعني ذكرهم بين الامم حيث نزل القرآن منذ البدء فيهم وبلغتهم ، فالقرآن اينما خلق يذكركم لمن به تعلق وتخلق ، فلم يكن قبله لهم ذكر وشرف به يذكرون ، إلا عارات وغارات وسرقات وقتلات ودعارات وافتخارات بنكبات ! .

فما تملك العرب طول تاريخهم من زاد يقدمونه للبشرية والعالمين اجمعين سوى ذلك الزاد العظيم المكين ، فلو تقدموا بعروبيتهم فحسب ، لا تتقدم عند احد بل وتتهدم ، فما قيمة العروبة دون القرآن ، فلا كلمة لها ولا مدلول في تاريخ الانسان إلا بما يحملون القرآن ، الذي يتبناه حضارة الانسان كإنسان ! .

فالعروبة فيما سوى القرآن لا تحسب بشيء في تاريخ الحضارات بل هي في دار البوار ، وغير العروبة قد تحسب بشيء فيما سوى القرآن في حضارات زمنية ، مهما كانت خلواً من الروحية ، ثم ومن يحمل القرآن عربياً كان ام اعجمياً يملك الحضارتين ، دون تقدم لقبيل على آخر إلا قدر ما يتقدم في حمل القرآن ، وقد سبق العرب طول التاريخ الاسلامي سباقون كثير من غير العرب ومنذ بزوغ الوحي حتى الآن ، ولا شرف هنا وهناك الا على ضوء شرف القرآن تفهماً وتعلماً وتخلقاً وتطبيقاً ونشراً .

ومن ثم « اليكم » في وجه عام وكما هو طبيعة الحال في الدعوة القرآنية العالمية ، فيه « تعني ذكركم » التذكر بالقرآن على طول خط الزمان والمكان « وانه لذكر لك ولقومك » (٤٣ : ٤٤) وقوم الرسول كرسول هم العالمون اجمعون : « فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » (٥٠ : ٤٥) « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » (١٥ : ٩) .

ثم القرآن هو ذكر الشرف والمنزلة لمن به تذكر ، وببصائر تبصر واعتبر وتشرف .

فلو نزلت عليهم آية كما ارسل الاولون بديل هذا القرآن ، لم يكن فيها ذكر شرفاً وذكرى ، بل كان لهم في تكذيبها الهلاك كما اهلك الاولون :

﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَاءً نَآ بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾ ١١ .

القصم هو كسر الشيء الصلب ، والمترفون الجبارون في هذه القرى كانوا اصلب شيء عيداناً وأمتعة أركاناً علومهم ردي

وهكذا يتهدد المسرفين الظالمين قصاً وهي أشد حركات القطع ، و « من قرية » هي بعض القرى الظالم اهلها المترفون : « واذا اردنا ان نهلك قرية امرنا مترفياً ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً » (١٧ : ١٦) .

ثم « قرية » هي الديار والديار، وهم الأصل في الدمار والقصم يشملهما، كما الإنشاء هي انشاءهما ابتداء بالديار ثم الديار ، وبالتالي نشهد مشهد حراكهم في القرى المقصومة ببأس الله وهم كالفيران في المصائد :

﴿ فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسَانَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴾ ١٢ .

« يركضون » وأنى لهم ركضة بغير ركزة ؟ « يركضون » « سراعاً » كأنهم الى

نصب يوفضون» وقد تبين لهم بأس الله بما أحسّوه ، ولكن ركضة الياس
اركض واركز من ركضتهم فاني يركضون ؟.

﴿ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ
تَسْأَلُونَ ﴾ ١٣ .

وهذه مهزأة لهم ومهزلة في تهكم مريب ، سلباً لركضهم حيث لا
ينفعهم ، وإيجاباً لرجعهم الى ما اترفوا فيه حيث يسألون تساءل التبكيت من
قبل الله ، ام سؤال الحاجة من قبل المستضعفين حيث كانوا يتهاجمون
عليكم بالسؤال فتستكبرون عليهم وتختالون ، ام ليشاثلوكم عما جنيتم
عليهم ، ومثلث السؤال تأنيب لهم وتعذيب ، وتعجيز لهم بموقفهم
الكئيب .

ولكن اين المجال لجواب وسؤال حين لا مهرب من بأس الله
ولات حين مناص ؟ فيلجئون - إذا - الى الاعتراف بما ظلموا :

﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ١٤ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ
حَصِيداً خَامِئِينَ ﴾ ١٥ .

« قالوا » ولكن الاوان فأت ، والبأس ماقت ، والأمان منه ساقط ،
حيث الرب عليهم ساخط « فما زالت تلك » المظلومة التي بها يعترفون
« دعواهم » في تلك الزمجرة المدمرة ما لهم حراك ونفس « حتى جعلناهم
حصيداً » حصاداً فيه كل كساد « خامدين » عن نيرانهم التي أججوها
مضطرمة على المستضعفين .

ويا له من حصيد انساني ليس له رصيد إلا بحق وخود لهم دون ابقاء
إلا خامد الحصيد ومن وراءهم عذاب شديد ! « وايم الله ان هذه عظة

لكم وتخويف إن اتعظتم وخفتم»^(١) .

وما الطفله تشبيهاً ان شبه همود اجسامهم بعد حراكها بخمود النار بعد اشتعالها ، او النبات الحصيد المحرق بالنار ، الخامد بعد الاشتعال ، وهو ابلغ في وصفهم بالهلاك والبوار وانحاء المعالم والآثار لاجتماع وصفي الحصيد والاحراق ، و «خامدين» وصف لهم دون الحصيد ، فهم - اذا - حصيد وهم خامدون ! .

فكما تُختل الزروع بالمنجل ، ثم تحرق بعد اليوسة ، « فجعلناهم حصيداً خامدين » .

وصحيح ان « كم قصمنا » - « فلما احسوا » تعطفان الى ما مضى ، إلا ان لهما مصاديق مستقبله من اصدقها زمن الدولة الاسلامية العالمية بقيادة الإمام القائم المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف^(٢) .

(١) نور الثقلين ٣ : ٤١٤ في روضة الكافي كلام لعلي بن الحسين (عليهما السلام) في الوعظ والزهد في الدنيا يقول فيه : ولقد اسمعكم الله في كتابه ما قد فعل بالقوم الظالمين من اهل القرى قبلكم حيث قال : وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة ، وانما عني بالقرية اهلها حيث يقول : وانشأنا من بعدها قوماً آخرين فقال عز وجل : فلما احسوا باسنا اذا هم منها يركضون يعني يهربون - قال : لا تركضوا وارجعوا الى ما اترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون - فلما اتاهم العذاب قالوا يا ويلنا انا كنا ظالمين فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين « وايم الله ...

(٢) نور الثقلين ٣ : ٤١٤ الكافي علي بن ابراهيم عن ابيه عن ابن فضال عن ثعلبة بن ميمون عن بدر بن الخليل الأسدي قال سمعت ابا جعفر (عليه السلام) يقول في قول الله عز وجل : فلما احسوا باسنا - الى - «تسألون» قال : اذا قام القائم وبعث الى بني امية بالشام هربوا الى الروم فيقول لهم الروم لا ندخلكم حتى تنتصروا فيعلقون في اعناقهم الصليبان فيدخلونهم فاذا نزل بحضرتهم اصحاب القائم طلبوا الامان والصلح فيقول اصحاب القائم : لا نفعل حتى تدفعوا الينا من قبلكم منا فيدفعونهم اليهم فذلك =

وذلك من قبيل الجري والتطبيق على المشابه وبأحرى الأشبه .

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ١٦ ﴾ .

ان اللعب هو من الباطل للحكيم العليم ، اللهم للجاهل الغافل كالطفولة وسائر المجاهيل ، فانه ما لا حكمة ولا غاية صالحة فيه : « وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار . ام نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض ام نجعل المتقين كالفجار » (٣٨ : ٢٨) .

فلو انه لم يبعث رسلاً مبشرين ومنذرين لكان الخلق لعباً وباطلاً ، ولو انه لم يستأصل الظالمين المستأصلين صالح الحياة الدنيوية لكان الشرع باطلاً ، حيث هم يُظلمون الجوبما يظلمون ، فلا يفسحون مجالاً للذين يهتدون او يهدون ، نقضاً مستأصلاً لدعوة الداعية ، وإبطالاً لفاعلية حجج الله البالغة .

فتطبيق توحيد الله بشرعة الله في واقع الرسالة الفعالة ، والجزاء العدل يوم الاخرى وشذراً منها هنا-يبقي مجال الدعوة في الأولى ، كل ذلك من مخلفات « ما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين » .

فالجدُّ الجادُّ أصيل في خلق الكون وفي تدبير الكون وفي سنّ القوانين كونية وشرعية ، وفي الحساب الدقيق الذي يؤخذون به هنا احياناً وبعد الموت تماماً ، دون اية مسامحة ولا لعب باطل .

= قوله : لا تركضوا وارجعوا الى ما اترفتن فيه وما كنتم لعلكم تسألون ، قال : يسألهم الكنوز وهو اعلم بها ، قال فيقولون : يا ويلنا انا كنا ظالمين فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً نخامدين » بالسيف وهو سعيد بن عبد الملك الاموي صاحب نهر سعيد بالرحبة .

﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَوًا لَا نَتَّخِذَنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾^{١٧} .

فالقصد من اللعب - وهو امر منتظم لفائدة خيالية لا واقع لها - القصد منه هو اللهو وهو الإلتهاء عما يحق وله واقع صالح ، وهو الاستيناس عما يزعم ، وذلك حرام في الشريعة الإلهية ككل^(١) .

فـ « لو » على فرض المحال « اردنا ان نتخذ لهواً » لعباً وباطلاً ، لم نحتاج ان نتخذه في الخلق ، حيث الخلق محتاجون اليها ، ولسنا بحاجة الى الخلق في هو وسواه ، فـ « لو اردنا ان نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا » في نفس الذات ، لا من لدن خلقنا ، اكتفاء بالاقول باطلاً « ان كنا فاعلين » لهواً وباطلاً .

فالقائد اللاهي ان امكنه اتخاذه من لدنه ، لا يتخذه من شعبه مخافة العار والدمار ، بل يتخذه من لدنه ، فضلاً عن الله الحكيم الغني العليم ، غير المحتاج ان يلعب او يتخذ لهواً من لدنه فضلاً عن خلقه ، « ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار » فانهم ينكرونهم يوم الجزاء يبطلون الشريعة الإلهية ابطلاً لخلق الكون اجمع ، وان الله اتخذ لهواً من خلقه .

فلسنا نعمل باطلاً من لعب ولهواً كان وايان :

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾^{١٨} .

« قل ان ربي يقذف بالحق علام الغيوب » (٣٤ : ٤٨) قذفاً مطلقاً

(١) نور الثقلين ٣ : ٤١٥ في الكافي بسند عن عبد الاعلى قال سألت ابا عبد الله (عليه السلام) عن الغنا وقلت : انهم يزعمون ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) رخص في ان يقال : جئناكم جئناكم جئناكم جئناكم فقال : كذبوا ان الله عز وجل يقول : وما خلقنا السماء والأرض

ومنه « على الباطل » فالمحور للكذب الرباني قذف بالحق تكويناً وتشريعاً
وجزأً بالعدل وفاقاً ، فاذا عارضه باطل قذف به على الباطل ، دماغاً له
« فاذا هو زاهق » ودجماً لمنظومة الحق « ولكم » الناكرين ليوم الدين « الويل »
كل الويل « مما تصفون » الله خلاف وصفه ، ام شرعة الله خلاف
وصفها .

ولان حقيقة القذف هي لاشياء الثقيلة التي يرجم بها على الخفيفة ،
والحق ثقيل في ميزان الله والواقع ، فقذفه على الباطل يرض ماصكته ويدمغ
ما مسه ، إصابة دماغ الباطل فإهلاكاً عن بكرته ، حيث الدماغ هو أهلك
مقتل .

فالحق - إذا - قذيفة في يد القدرة الإلهية - على طول الخط - يقذف بها
على الباطل فيشق دماغه ، وهكذا مجيء الحق وزهوق الباطل ، هنا حجة
بالغة في صراع ، وفي الأخرى تماماً دون إبقاء فليس من باطل يقوم بازاء
حق إلا غلب الحق الباطل ^(١) « وما من أحد الا وقد يرد عليه الحق حتى
يصدع قلبه قبله ام تركه » ^(٢) ، فان لله الحجة البالغة .

ذلك ! طالما يبدو الباطل احياناً منتفشاً فاشياً فاحشاً كأنه غالب ،
ويبدو فيها الحق منزوياً خاوياً كأنه مغلوب ، ولكنها ما هي إلا اياماً قلائل
إملاء لأهله . واملاً ، ليزدادوا إثماً ولهم العذاب اليم .

فاذا وصل الباطل حيناً الى قمة الزهو والإضلال فهناك دمع بالحق

(١) نور الثقلين ٣ : ٤١٦ في محاسن البرقي بسند عن ابي عبد الله (عليه السلام) :
..... وذلك قول الله : بل نقذف

(٢) المصدر عنه (عليه السلام) يا ايوب ما من احد وذلك ان الله يقول في
كتابه : « بل نقذف » .

دون إمهال فـ « كم قصمنا من قرية كانت ظالمة .. » وإلى ان تؤسس الدولة الإسلامية الكبرى بقيام القائم بالعدل المهدي من آل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وخسر هنالك المبطلون : « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد » « ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ان الأرض يرثها عبادي الصالحون » (٢١ : ١٠٥) .

﴿ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾ ١٩ .

وإذا كان له مَنْ فيهما فإحدى له ما فيهما ، و « له » تعني انحصار الملك والملك الحقيق الدائمين فيه ، وانحصارهما عن سواه .

« ومن عنده » هم المقربون إليه معزياً وعبادياً دون قرب زماني ولا مكاني « لا يستكبرون عن عبادته » بل يُستحضرُون فيها « ولا يستحسرون » عياً وكلاً .

« ان الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون » وهذه العندية لا تختص بالملائكة ، فأحرى منهم فيها الرسل الكرام ولا سيما أولوا العزم منهم ، وامامهم العظيم اقرب المقربين عند الله وأسبق السابقين وأول العابدين محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ثم المحمديون من عترته الطاهرين سلام الله عليهم اجمعين .

وتلك السلطة المطلقة المستغرقة لكل كائن ، تُحِيلُ أي تفلت عن ارادته ، وأي تفلت عن مشيئة في أية نشأة من النشآت ، « فله الآخرة والاولى » (٥٣ : ٢٥) .

ولماذا المقربون هنا يختصون بالذكر ؟ لأنهم نبراس العبودية والخنوع لمن سواهم ، حيث ينبرون الدرب عليهم ، فهم الأدلاء الى الله ، المكرمون عند الله .

ثم وطبيعة الحال فيمن عند سائر الملوك ان يسمح له في بعض التخلقات خوفاً منهم او إكراماً لهم حيث التقرب فيهم تقارباً وتجارة بين الملوك واياهم .

ولكن « من عنده » يزدادون له طوعاً كلما تقربوا ، وتزداد مسؤولياتهم عنده ، دون تسامح عنهم في صغيرة او كبيرة ، حيث الحاجة هنا هي من ناحية واحدة ، وليست مزدوجة تجارية .

فكل عبد من العبيد يستحسر لوقت ما عن الخدمة ، منقطعاً بالاعياء ، وعباد الله الذين هم عنده انما يستحسرون عن ترك العبادة ، ولا يستحسرون على أية حال عن عبوديته تعالى ، حيث الشغف البالغ والهيمنان الخالق حصراهم طول الحياة في العبودية دون تكلف فيها ولا تخلف عنها :

﴿ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾^(١)

فهم مستيقظون لتسبيحه وان كانوا نوماً فضلاً عن يقظتهم ، ف « لا يفترون » فتوراً وإن لفترة قصيرة ما داموا هم احياء ، ثم في البرزخ والاخرى تقوى تسبيحاتهم وتزداد حيث الموانع زائلة والدوافع كاملة فهم « مسبحون لا ينامون ولا يغشاهم نوم العيون ولا سهو العقول ولا فترة الابدان ولا غفلة النسيان »^(١) .

(١) نهج البلاغة السيد الشريف الرضي عن الإمام علي (عليه السلام) وفي نور الثقلين ٣ : ٤١٧ عن كتاب اكمال الدين وتمام النعمة عن ابي عبد الله (عليه السلام) انه سئل عن الملائكة أبنامون ؟ فقال : ما من حي الا وهو ينام خلا الله وحده والملائكة ينامون فقلت : يقول الله عز وجل : يسبحون الليل والنهار لا يفترون ؟ قال : انفسهم تسبح .

وترى كيف « لا يفترون » عن تسبيحهم ولهم اقوال واعمال دون ذلك ، فانهم رسل « جاعل الملائكة رسلاً » برسالات تكوينية وتشريعية عدة ؟ .

علّه لان لهم مقام جمع الجمع كما لسائر الرسل بما جمع الله لهم الشّتات ، وان رسالاتهم كلها تسبيحات لله قالاً وحالاً وافعالاً ، فليس « يسبحون » تختص بالقول فقط ، بل هو ادنى درجاته ، حاكياً عن حالهم وفعالهم ، فالمسبح بهما دون قال مسبح لله ، والمسبح بالقال دونها غير مسبح لله ، والجمع بين الثلاث اجمل واكمل ، أن يخلق تسبيح الله كل كيان الكائن فيصبح ب كله تسبيحاً لله .

وليس فقط « يسبحون » الله تنزيهاً في لفظة قول وحال وعمل ، بل ويسبحونه عن ان تليق تسبيحاتهم لساحة قدسه معرفة وعبودية وكما يروى عن افضلهم واعلاهم الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) : « ما عرفناك حق معرفتك وما عبدناك حق عبادتك » معترفين بالتقصير القاصر عن بلوغ تسبيحه ! .

اتخذوا آلهة هم يخلقون ويدبرون امورهم فيعبدون ؟ :

﴿ أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴾ ٢١ .

الإنشاء هو الإحياء بعد الموت ، كما هو إحياء بدائي لا عن موت ، و « من الأرض » كما تتعلق بـ « ينشرون » احياء منها كما خلقوا منها ، كذلك تتعلق بمقدّر ككائن : آلهة كائنة من الأرض ، هم انفسهم منها ومنها يُنشرون الأموات ، وتعلق ثالث بـ « اتخذوا » و « آلهة » في هذا التعلق هي الاصنام والأوثان ، فمن ذا الذي يُنشرهم انفسهم ، وحين لا يقدرّون على نشر انفسهم فكيف يُنشرون سواهم .

فكما الله إله الانشاء ، كذلك إله للإنشاء وبأحرى ، فلتقطع آمال
المشركين الذين يحسبون لهم آلهة من الأرض هم ينشرون ، فيسأخونهم فيما
يعلمون ، ف « انا الله وانا اليه راجعون » .

ولئن سئلنا : كيف يُنكر عليهم إنشأهم هم ناكروه قائلين « من يحيي
العظام وهي رميم » مستبعدين ان يحييها الله وهو الخالق لها ، فكيف
يعتقدونه في اصنام ما هي الا جردات بلا ارواح ؟ .

والجواب : عليها حجة إلزامية عليهم بما التزموا من عبادتهم لهذه
الاوثنان ، ولزامها الثواب عليها فعلاً والعقاب تركاً ، وليس شيء منها في
هذه الحياة الدنيا ، فلتكن حياة اخرى فيها الجزاء ، فهل ان آلهة من
الأرض هم يُنشرونهم فيجزون بما ينشرون ؟ .

وكيف « هم ينشرون » وهم يعجزون عن إنشأ انفسهم فأنى
تؤفكون ؟ .

ام كيف « هم ينشرون » والله يخلقهم ومن يعبدون ، اليس الذي بدء
الخلق بأحرى ان يعيده : « كما بدأكم تعودون » ؟ !

ومن الدليل - القاطع القاصع القامع ، المستمد من جوهره الكون
وواقعه - على وحدة الالهية في كافة الحقول إنشاء وإنشأ :

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا
يَصِفُونَ ﴾ ٢٢ .

آية منقطعة النظر في برهنتها الكاملة الشاملة ، الماحقة كل فروضات
تعدد الآلهة ، نقدّم تفسيراً لفردات لها ، ثم نخوض في البحث عن
مدلولها .

فـ « لو » تحيل مدخولها وبأحرى في المسائل العقلية ، إحالة جوهرية

لا تقبل تحولاً الى غير المحال على أية حال .

و « كان » تامة تعني اصل الكينونة ، ضاربة الى اعماق الماضي ، أزلية لا أولية ، فاذا لم تكن فيهما آلهة إلا الله منذ الأزل ، فباحرى بعده حتى الأبد ، إذا فهي حجة لسرمدية الإله الواحد دون شريك ، ثم « إلا » هنا تعني الغير لا الإستثناء ، حيث يعني - إذاً - « لو كان فيهما آلهة ليس معهم الله لفسدتا » والنتيجة « لو كان معهم الله لم تفسدا » !

فانما هي بمعنى « الغير » فتعني « لو كان فيها آلهة غير الله . . » .

ومن ثم « فيهما » هنا لا تعني مكاناً من السماوات والأرض والآلهة إلا الله ، فان الله هو الذي مكن المكان فليس له مكان، وكان اذ لا كان ، فلا تعني « فيهما » إلا ما عنته « هو الذي في السماء إله وفي الأرض إله » ان يكون الكون ظرفاً لفاعلية الالهية دون ذاتها .

وهنا حوار حول هذه الحجة الباهرة نظرحها بكل دقة وامعان ، لكي نحصل على حق المعنى منها دون تزعم وتلكع .

١ - المشركون لم يكونوا يدعون ان هناك آلهة غير الله كما الله ، يخلقون كما يخلق ويميتون كما يميت ، فما هي المغزى من ذلك التنديد الشديد وعرض الاستحالة في فرض مرفوض عند المشركين ؟ .

هذه الآية تحلّق - حجة بارعة - على غير الموحدين ايأ كانوا ، من مشركين وثنية وثالوثية يُعدّدون ذات الإله بكل شؤون الألوهية .

٢ - فرض « آلهة الا الله » انما يفرض « لفسدتا » من فساد السماوات والأرض، اذا كانا مختلفي العلم والحكمة ، واما الآلهة المتوافقة في الحكمة والتدبير فلا اختلاف في ربوبياتهم ، فوحدة النظام في واقع الكون لا تدل إلا على وحدة التنظيم ، وهي اعم من وحدة الناظم ، ام تعدده بوحدة

التنظيم ، فـ « لو كان فيها آلهة الا الله » لم تفسدا الا على فرض الاختلاف بينهم في التنظيم ! .

ولا يردده ان الحكمة هي الموافقة للقوانين العقلية المأخوذة من واقع الكون ، التابعة له ، لكن الرب المدبر فعله هو نفس نظام الواقع ، المتبوع للقوانين العقلية والعلمية ، فكيف يكون فعله تابعا لتلك القوانين ؟ .

حيث يردده ، ان صالح الحكمة الالهية هو الذي يصلح واقع الكون ، وصالح الكون آية لتلك الحكمة ، وليس من المفروض ان تكون هذه الحكمة الصالحة من آله واحد ، فقد تكون من آلهة متوافقة في صالح الحكمة ، وكما ان المدبر الواحد فعله نفس النظام ، كذلك غير الواحد ! .

فاحتمال تعدد الالهة لا يجتثه واقع النظام في الكون عقلياً وعلمياً ، اذ يحتمل ان يكون من منظمين كثير ، متوافقين في حكمة التنظيم ، كما يحتمل انه من منظم واحد .

والجواب الصالح عن هذه المشكلة الشائكة أن « لفسدنا » لا تعني فقط فساد السماوات والأرض بفساد التدبير نتيجة الاختلاف والتناحر ، بل وكذلك « لفسدنا » الالهة إلا الله ، وهي فساد الألوهية فيهم كلهم ، ام فساد تعددهم ! .

فلا يخلو تعدد الألوهية عن فساد في زاوية الكون ، او المكون ، ام تعدد المكون والمدبر ، اذاً فهو ثالوث الفساد تحليقاً على كافة فروض التعدد ، في اصل الذات ام في ربوبيات ، ام في الخلق والامر ، ام وضعت من هذا وضعت من ذلك ، فان وحدة النظام بهذه البراعة والبراعة تشي بوحدة المنظم ذاتياً وصفاتياً وفعالياً .

فلو تعددت الذوات لتعددت الارادات فتعددت النواميس وتناحرت و « فسدنا » ! .

ولو اتحدت الارادات رغم تعدد الذوات ، فلا تخلو هذه الذوات من كونها مشتركة في كافة الذاتيات والصفات أفقيتها اذا وحدة الارادات !
فاين التعدد إذا اذ لا مايز بين هذه الذوات ، فاذا « لفسدتا » عن تعددها ، فلا الوهية في هذا البين صالحة لأصل التكوين فضلاً عن نظامه ! .

ولو اتحدت فيما قضيته وحدة الإرادات ، واختلفت فيما لا رباط له بها ، اختلافاً ذاتياً ام صفاتياً ، فلتساءل، هل ان هذه الذاتية او الصفاتية الممايزة بينها هي كمال مطلق ، ام محدد ، ام هي نقص ؟ فليكن كل فاقداً لبعض ما يجده الآخر اياً كان ، وهذا تخلف عن اللاحدودية في الكمال التي هي لزوم الألوهية ، فالكل - اذا - محدود مركب مما به الاشتراك وما به الامتياز ، والكل يفقد ما يجده الآخر من كمال ، او يجد ما ليس في الآخر من نقص ، اذا فكل منهم محدود ناقص ف « لفسدتا » فساداً في ذات الألوهية وصفاتها ! ففساداً في الكون وكساداً عن بكرته حيث الناقص في الوهية مألوه وليس خالقاً ، اذا فلا خلق ، وواقع الخلق المنتظم دليل ان لا اله الا الله ، ففرض آلهة الا الله يفرض فساد الكون في اصله او نظامه ، وفساد كل الآلهة او فساد التعدد ، فينقلب فرض التعدد الى حتمية الوحدة ام الفساد في الكون في بعديه وفي الآلهة .

وتأنيث ضمير التثنية إنما هو باعتبار شموله للسموات والأرض كما يشمل الآلهة إلا الله .

ذلك وكما نجد على ضوء هذه الآية روايات محكمة حكيمة فيها سرد شامل لمحتملات تعدد الآلهة والقضاء الصارم الحاسم عليها :

فعن ابي عبد الله الصادق (عليه السلام) في حوار مع الزنديق قوله :
لا يخلو قولك انها اثنان من ان يكونا قديمين قوين او يكونا ضعيفين ،

سورة الانبياء / آية ١ - ٢٩ ٢٦٣

أو يكون أحدهما قوياً والآخر ضعيفاً ، فإن كانا قوين فلم لا يدفع كل واحد منهما صاحبه وينفرد بالتدبير ؟ -

وان زعمت ان احدهما قوي والآخر ضعيف ثبت انه واحد كما نقول للعجز الظاهر في الثاني ، وان قلت إنها اثنان لم يخلو من ان يكونا متفقين من كل جهة او مفترقين من كل جهة ، فلما رأينا الخلق منتظماً والفلك جارياً واختلاف الليل والنهار والشمس والقمر دل صحة الأمر والتدبير وائتلاف الأمر على ان المدبر واحد -

ثم يلزمك ان ادعيت اثنين فلا بد من فرجة بينهما حتى يكونا اثنين فصارت الفرجة ثالثاً بينهما قديماً معهما فليزملك ثلاثة لزمك ما قلنا في الاثنين حتى يكون بينهما فرجتان فيكون خمسة ثم ينتهي في العدد الى ما لا نهاية في الكثرة ... (١)

وفي رواية اخرى « واذا بطل هذا ولم يكن بينهما اختلاف بطل الاثنين وكان واحداً ... » (٢)

فلان فساد الألوهية يقتضي نفي الإله ، وصالح الكون المنسق المنتظم بتنسيق واحد دليل صالح الألوهية ، إذا فليس فيهما آلهة الا الله الواحد القهار .

« فسبحان الله رب العرش عما يصفون » فالله الذي هو صاحب عرش الخلق والتدبير واحد لا شريك له ، كما تدل عليه وحدة النظام من ناحية ،

(١) بحار الأنوار ١٠ : ١٩٤ - ١٩٥ عن التوحيد باسناده الى هشام بن الحكم في حديث الزناديق الذي اقابا عبد الله (عله السلام) وكان من قوله (عليه السلام) :

(٢) نور الثقلين ٣ : ٤١٨ عن تفسير القمي واما الرد على الثبوتية ...

وفساد التعدد من ناحية الذات والصفات من اخرى .

ومما يصفون « ربَّ العرش » بجانب ان له شركاء ، انه جالس على عرشه كسائر الجلوس على العروش ، ولكن الألوهية نفسها ثم الربوبية للعرش، هما يزيغان هذه القولة الزائفة ، فهو الذي يربي العرش ويحمله دون ان يحمله العرش !

ومن ذلك سؤاله عما يفعل كأنه يخطئ او يجهل او يغفل ولكنه :

﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ ٢٣ .

طالما اصحاب العروش من الخلق يُسألون عما يفعلون لنقص في التقدير والتدبير بقصور او تقصير ، حيث تملكهم العروش ويملكهم سوء التدبير ، ولكن رب العرش وهو رب كل شيء ، انه عليم حكيم قدير ، لا يفعل ما يفعله إلا عن حكمة وتدبير ، رحمة ناصعة بارعة على كل صغير وكبير ، فلماذا يسأل إذا ؟ سبحان العلي الكبير !

اجل ، ان رب العرش « لا يسأل عما يفعل » - « لانه لا يفعل إلا ما كان حكمة وصواباً وهو المتكبر الجبار والواحد القهار فمن وجد في نفسه حرجاً في شيء مما قضى كفر ومن أنكر شيئاً من افعاله جحد » (١) .

(١) نور الثقلين ٣ : ٤١٩ في كتاب التوحيد باسناده الى عمرو بن شمر عن جابر بن يزيد الجعفي قال قلت لأبي جعفر محمد بن علي الباقر (عليهما السلام) يا بن رسول الله انا نرى الاطفال منهم من يولد ميتاً ومنهم من يسقط غير تام ومنهم من يولد اعمى واخرس واصم ومنهم من يموت من ساعته اذا سقط الى الارض ومنهم من يبقى الى الاحتلام ومنهم من يعمر حتى يصير شيخاً فكيف ذلك وما وجهه ؟ فقال (عليه السلام) : ان الله تبارك وتعالى اولى بما يدبره من امر خلقه منهم وهو الخالق والمالك لهم فمن منعه التعمير فانما منعه ما ليس له ومن عمره فانما اعطاه ما ليس له فهو =

ففيما يُسأل لأي علة صارت الإمامة في ولد الحسين دون الحسن (عليهم السلام) فالجواب : لأن الله تعالى جعلها في ولد الحسين ولم يجعلها في ولد الحسن والله لا يسأل عما يفعل^(١) وكما « جعل الله النبوة في صلب هارون دون صلب موسى ولم يكن لأحد أن يقول لم فعل الله ذلك فإن الإمامة خلافة الله عز وجل ليس لأحد أن يقول : لم جعلها في صلب الحسين دون صلب الحسن ، لأن الله هو الحكيم في أفعاله » لا يسأل عما يفعل وهم يسألون^(٢) .

فمن الهراء هذه وتلك ، وفي العراء قيلة من قال : قطع الله النبوة عن صلب يوسف لانه لم يحترم أبويه ولم ينزل من العرش حتى خروا له سجداً ، تقدماً لآخوته الحساد الفساق عليه وهونبي مرسل من المخلصين !

وعلى أية حال فسؤال المسؤولية التجهيل والتخجيل منفي عن ساحته ، طالما سؤال التعلم والتبجيل مرضي عند سماحته وقد أمر أول العابدين « وقل رب زدني علماً » ويؤمر كل عبد من عباد الله « ادعوني استجب لكم ... » .

ليس هناك ضابطة عادلة حاكمة على الله تنضبط بها أفعال الله تعالى ،

= المتفضل بما أعطى وعادل فيما منع ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون قال جابر فقلت له يا بن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وكيف لا يسأل عما يفعل؟ قال : لانه ...

(١) المصدر في عيون الاخبار باسناده الى محمد بن ابي يعقوب البلخي قال سألت ابا الحسن الرضا (عليه السلام) فقلت : لأي علة ...

(٢) المصدر في كتاب الخصال عن المفضل بن عمر عن الصادق (عليه السلام) حديث طويل وفيه فقلت يا بن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كيف صارت الإمامة في ولد الحسين دون ولد الحسن وهما جميعاً ولدا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وسبطاه وسيدا شباب اهل الجنة؟ فقال (عليه السلام) ان موسى وهارون كانا نبيين مرسلين اخوين فجعل الله النبوة في صلب هارون ...

فيخضع لها في افعاله حتى يُسأل ، فانه الضابط لكل ضابطة عادلة وفاضلة ، وكل افعاله صادرة عن حكمة وفضيلة متعالية .

فطلما النبيون وهم معصومون يُسألون هل طبقوا واجباتهم الرسالية وماذا أجيبوا: « يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا اجبتم » (٥: ١٠٩) « فلنسألن الذين أرسل اليهم ولنسألن المرسلين » (٧ : ٦) فليس الله يُسأل عما يفعل وهم يسألون سؤال عدل ، فـ « إذا كان يوم القيامة وجمع الله الخلائق سألهم عما عهد اليهم ولم يسألهم عما قضى عليهم » (١) .

وترى « هم يسألون » هم الذين يُعبدون من دون الله ؟ ومنهم الاصنام والأوثان، لا حول لها ولا حيلة فيما يفعل بها ! طالما المسؤولية الكبرى على طواغيتهم .

بل هم المكلفون اجمعون، المرسل اليهم والمرسلون ، طالما السؤال يختلف حسب اختلافهم عصمة او قصوراً او تقصيراً ، وهذا هو الصحيح ، فان « لا يسأل عما يفعل » هي من اختصاصات الربوبية ، فكل من يؤهل للسؤال سواء يُسأل دون إبقاء ، هل كان فعله موافقاً للحكمة والمصلحة الواقعية ؟ .

ولكن الله - وهو خالق الحكمة والمصلحة - هو فعله حكمة ومصلحة ، نبراساً ومقياساً لكل فعل من كل فاعل ، فلا يُسأل - إذاً - هل إن فعله يوافق الحكمه والمصلحة ، فانه هو الفاعل فيها والحاكم بها وليس

(١) نور الثقلين ٣ : ٤٢٠ في ارشاد المفيد قال رحمه الله وقد ذكر ابا عبد الله جعفر بن محمد (عليهما السلام) وما حفظ عنه (عليه السلام) من موجز القول في العدل قوله لزرارة بن اعين : يا زرارة اعطيك جملة في القضاء والقدر ، قال له زرارة نعم جعلت فداك قال : اذا كان يوم القيامة

سورة الأنبياء / آية ١ - ٢٩ ٢٦٧
محكوماً بها كأنها من فعل غيره إلهاً أو مألوها .

فالحق الصالح في فعله ليس لموافقته الواقع ، حيث الواقع الصالح هو
من فعله ، بل الحق في أي واقع انما يقاس بفعله أو قوله ، دون ان يقاسا
بواقع هو من فعله ! .

فمن هذا الذي يسأله عما يفعل ، ءإله معه ام فوقه ؟ وهو الله الواحد
القهار ! ام مألوه مسؤول عن فعله ؟ ولماذا يسأل ، اللهم الا تعلماً وتفهماً ،
لا تعتأً وتجهيلاً ! .

وفي « لا يسأل » إنشاءً حاسماً بصيغة الإخبار استئصال لكل سؤال
عن جناب قدسه على أية حال ، فهم بين ساكت مستسلم ، وسائل فاشل
قاحل .

كما « وهم يسألون » تحلّق المسؤولية على كل من يصح عنه سؤال مهما
كان من اقرب المقربين واسبق السابقين .

ثم السؤال « عما يفعل » قد يكون سؤالاً عن سببه ؟ وهو خالق
الاسباب ومسببها ، فـ « انما امره اذا اراد شيئاً ان يقول له كن فيكون » .

او سؤالاً عن غايته ؟ وهو مغني الغايات ! ولا غاية له من فعله ترجع
الى صالحه ذاتياً ام صفاتياً ! بل ان فعله غاية لكل صالح من افعال
العباد ! وغايته هي الرحمة على العباد ! .

او سؤالاً عن حكمته ومصلحته ؟ وهو خالقهما ومقررهما بفعله وقوله ! .

او سؤالاً عن « كيف فعل » اكتناهاً لواقع فعله واراदته ؟ وهو سؤال
ساقط لاي سائل اذ لا يحيطون به علماً وهو بكل شيء محيط ! .

وعلى أية حال فكل سؤال « عما يفعل » غير مسموح « فويل لمن قال

كيف وكيف^(١) ، اللهم الا سؤال التفهم فيها يصح ، وسؤال الحاجة كما

(١) الدر المنثور ٤ : ٣١٦ - اخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ان في بعض ما انزل الله في الكتب : اني انا الله لا اله الا انا قدرت الخير والشر فطوى لمن قدرت على يده الخير ويسرته له وويل لمن قدرت على يده الشر ويسرته له اني انا الله لا اله الا انا لا أسأل عما افعل وهم يسألون فويل لمن قال كيف وكيف .

اقول التقدير لا يعني التسيير، بل هو تقدير لكل حسب ما يناسب عقيدته وطويته وفعلته بمشيئة . وفيه - اخرج ابن ابي حاتم والبيهقي في الاسماء والصفات عن ميمون بن مهران قال لما بعث الله موسى وكلمه وانزل عليه التوراة قال : اللهم انك رب عظيم لو شئت ان تسطاع لأطعت ولو شئت ان لا تعصى ما عصيت وانت تحب ان تسطاع وانت في ذلك تعصى فكيف هذا يا رب ؟ فاوحى الله اليه اني لا أسأل عما افعل وهم يسألون .

وفيه اخرج ابن ابي حاتم والبيهقي عن نوف البكالي قال قال عزيز فيما يناجي ربه يا رب تخلق خلقاً تفضل من تشاء وتهدي من تشاء فقال له يا عزيز اعرض هذا فاعاد فقيل له لتعرضن عن هذا والا محوتك من النبوة اني لا أسأل عما افعل وهم يسألون وفي لفظ آخر : ان عزيزاً سأل ربه عن القدر فقال بيالتي عن علمي عقوبتك ان لا اسميك في الانبياء

اقول وكما نراه غير مذكور في القرآن الا « كالذي مر على قرية . . . »

وفي آخر يذكر القصة عن موسى وفي آخرها « فانتهى فلما بعث الله عزيزاً وانزل عليه التوراة بعدما كان رفعها عن بني اسرائيل حتى قال من قال انه ابن الله قال : اللهم انك رب عظيم . . . فاوحى الله اليه اني لا أسأل عما افعل وهم يسألون فابت نفسه حتى سأل ايضاً فاوحى الله اليه : اني لا أسأل . . . فابت نفسه حتى سأل ايضاً فقال : استطع ان تصرصة من الشمس قال لا قال استطع ان تحي بمكيال من ريح ، قال لا قال استطع ان تحي بميثقال من نور قال لا قال استطع ان تحي ببقراط من نور قال لا قال فهكذا ان لا تقدر على الذي سألت اني لا أسأل عما افعل ، وهم يسألون اما اني لا اجعل عقوبتك الا ان احو اسمك من الانبياء فلا تذكر فيهم فمحي اسمه من الانبياء فليس يذكر فيهم وهو نبي فلما بعث الله عيسى ورأى منزلته من ربه وعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل . . . قال اللهم انك رب عظيم . . . فاوحى الله اليه =

يصح فانه ممنوح ، وهذا الاخير سؤال ان يفعل لا عما يفعل ، والاول سؤال عما يفعل لصالح التفهم الذي يصح .

و « عما يفعل » يعم كل اقواله وافعاله تكوينية وتشريعية ، فلوانه لم يبعث رسلاً واهلكهم بظلمهم لكانت لهم عليه سؤال وحجة : « رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » (٤ : ١٦٥) « ولو انا اهلكناهم بعدذاب من قبله لقالوا ربنا لولا ارسلت الينا رسولاً فتتبع آياتك من قبل ان نذل ونخزى » (٢٠ : ١٣٤) « وما كنا معذيين حتى نبعث رسولاً » (١٧ : ١٥) .

فقد قطع بعدله وحكمته وفضله كل سؤال عنه عن كل سائل ، فليس « لايسأل عما يفعل » استبداداً واستكباراً أعشى ، هو في العين قذى وفي الحلق شجى .

وما أسئلة الملائكة « أتجعل فيها من يفسد فيها » والنبين كنوح « ان ابني من اهلي وان وعدك الحق » إلا استهياماً دونها استفهام وإلا لكان فسوقاً منهم او كفراً ، اجلهم الله من ذلك اجلاً كريماً .

اجل ! وان ارادة الله طليقة لا يحدها تحدّد أم تهدّد ارادة اخرى ، لانها مطلقة من قدرة قاهرة حكيمة ، فهو الذي يضع الحدود بتلك الارادة الطليقة فكيف تحدّد اذاً او تحدّد ، اللهم إلا تحديداً من عنده كما يناسب ساحة الربوبية .

« اني لا اسأل عما افعل وهم يسألون وانت عبيد ورسولي وكلمتي القيتك الى مريم وروح مني خلقتك من تراب ثم قلت لك كن فكننت لئن لم تنته لافعلن بك كما فعلت بصاحبك بين يديك اني لا اسأل .. فجمع عيسى من تبعه وقال : القدر سرّ الله فلا تكلفوه !

لا نقول ما يتقوله شذر من الناس النسناس ، انه طليق الارادة حتى في الظلم ، فينكرون وجوب العدل عليه بما كتبه على نفسه ، ام واقعه في فعله .

انما نقول انها طليقة عن دوافع ونوازع خارجية فانها كلها من فعله ، ولكنه لا يفعل إلا الصالح لساحة الربوبية باختيار ، دون منعة عليه باضطرار ، سبحانه العلي الحكيم الجبار ! .

﴿ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾^(١) .

فواقع الكون ببرهانه الساطع على وحدة الإله ، خلو عن آلهة إلا الله « ام اتخذوا من دونه آلهة ... » اتخذوا جارفاً ، اختلاقاً لما لا يكون ولن يكون .

فالبرهان على اصل وجود الإله وعلى وحدته قاطع قاصع ، ولا ينازعه اي برهان ينقصه او ينقصه ، فـ « قل » للذين يتخذون من دونه آلهة « هاتوا برهانكم » .

وقد قيل للإمام الرضا (عليه السلام) أتقول ان الله واحد ؟ قال : قولك انه اثنان دليل على انه واحد ، لأنك لا تدع الثاني إلا بعد اثباتك الواحد ، والواحد متفق عليه والثاني مختلف فيه^(١) .

وما أحلاه برهاناً على من ليس له على الثاني برهان ، اضافة الى سائر البرهان عقلياً وكونياً وفطرياً على التوحيد ، كما و « هذا » الحق الحقيق بالاتباع « ذكر من معي » من المؤمنين بالله الموحدين « وذكر من قبلي » رسلاً

(١) التوحيد للصدوق عن الامام الرضا (عليه السلام) انه سئل : اتقول : ...

ومؤمنين ، فلم يأت رسول ثابت الرسالة يقول غير ما نقول ، اجماعاً نقلياً
رسالياً هو من اعمق الادلة العقلية على التوحيد ، فان كان في الكون إله
آخر ام آلهة اخرى فمن هو رسولهم ، وما هي آثارهم الربوبية بجانب هذه
الربوبية الشاغخة الشاملة المحلقة على الكون كله ؟!

و « ذكر » في « من معي - و - من قبلي » يعم كتاب الذكر ، ونفسه في
انفسهم الناتج عن ادلة انفسية وآفاقية ، والذكر الاول من الثانية ، وبصيغة
اخرى تعميها « يعني بذكر من معي ما هو كائن وبذكر من قبلي ما قد
كان » (١) .

وقد يعني « هذا » : القرآن ، فانه يحمل ذكراً له من معي ، وهم
المسلمون اجمع « ومن قبلي » حيث يذكر ذكرى سائر كتب السماء دون إبقاء
وكل محتمل والجمع اكمل واجمل .

إذا ف « قل هاتوا برهانكم » طلبُ لبرهان على ما يدعون بعد البرهان
على توحيد الله ، ولانهم ليس لهم برهان يتقضيه اصبغ توحيد الله مزوداً
بعدم برهان على التعدد بعد البرهان على التوحيد ونفي العدد !

وهو الاصل في حوار الامام الرضا (عليه السلام) : « قولك انه اثنان
دليل على انه واحد لانك لا تدعو الثاني إلا بعد اثباتك الواحد والواحد
متفق عليه والثاني مختلف فيه » !

« بل اكثرهم لا يعلمون الحق » : دليلاً ومدلولاً ، فلا يميزون برهاننا عن
ادعاء ولا ادعاء عن برهان ، وهو جهل الجهالة المقصورة ، لا قاصرة غير
مسؤولة ، وهناك قلة مضللة يعلمون الحق وهم منكرون « وجحدوا بها
واستيقنتها انفسهم ظلماً وعلواً » وهم حملة مشاعل الضلالة والمتاهة .

(١) المجمع في الآية قال ابو عبد الله (عليه السلام) :

فالاكثرية من المشركين « لا يعلمون الحق فهم معرضون » جهلاً
فاتكاً ، والأقلية المسيرة لهم « يعلمون الحق فهم معرضون » ، واين اعراض
من اعراض ؟!

وليس عدم العلم بالحق يدفع جاهله الى الاعراض عنه إلا اذا تعرق
فاصبح كأنه علم يبطلان الحق ، حيث « يؤخذ من هذا ضعف ومن هذا
ضعف فيمزجان فيجيان معاً فهناك استحوذ الشيطان على اوليائه ونجى
الذين سبقت لهم من الله الحسنى »^(١) ثم ومن ذكر من قبلي :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا
فَاعْبُدُونِ ﴾^{٢٥} .

« وسئل من ارسلنا من قبلك من رسلنا اجعلنا من دون الرحمن آلهة
يعبدون » (٤٣ : ٤٥) فالرسالة الإلهية الموحدة تخلق على تاريخ الرسالات
كلها دوغماً استثناء ، أفلا يكفي ذلك الوحي المتواتر المتواصل من عند
الرحمن أنه لا إله إلا هو تصديقاً لوجهه ، أم لا يكفي عدم ارسال رسول
من قبل من يتخذونهم آلهة من دون الله ان ليسوا هم بآلهة إلا في خضم
الخيال والإدعاءات الجوفاء الخواء ؟ .

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴾^{٢٦} .

وهذه القولة الجاهلة نجدها بين فريق من اهل الكتاب هوداً ونصارى
« وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم

(١) خطبة لعلي (عليه السلام) بدايته : « انما بدء وقوع الفتن اهواء تتبع واحكام
تبتدع يخالف فيها كتاب الله ويتولى عليها رجال رجالاً فلو ان الحق خلص لم يكن
للباطل حجة ولو ان الباطل خلص لم يكن اختلاف ولكن يؤخذ من هذا ضعف ...
(اصول الكافي - وفي النهج باختلاف لفظي يسير) .

سورة الأنبياء / آية ١ - ٢٩ ٢٧٣

بافواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله انى يؤفكون «
(٩ : ٣٠) .

كما ونجدها بين اقوام من المشركين ، بل وقد انتقلت هذه المزعة
منهم الى جماعة من الكتائب كما اشارات له « يضاهئون » ، والجواب هنا
كلمة واحدة إضراباً عما يقولون « بل عباد مكرمون » وهي تحصر مزعة
اتخاذ الولد بالعباد المكرمين ، دون سواهم مثل الجنة وسواهم : « وجعلوا
بينه وبين الجنة نسباً ولقد عَلِمَت الجنة انهم لمحضرون » (٣٧ : ١٥٨)
وكذلك مثل سائر ابناء الله عند المشركين في ثالوثهم المرتسم عندهم
برسومات عدة .

فـ « عباد مكرمون » وهم المخلصون المخلصون من عباد الله الصالحين ،
ملائكة أو نبيين أو أئمة معصومين «^(١) .

(١) نور الثقلين ٣ : ٤٢١ في تفسير القمي في الآية قال : هو ما قالت النصارى ان
المسيح ابن الله وما قالت اليهود عزيز ابن الله وقالوا في الأئمة ما قالوا فقال الله عز
وجل : سبحانه - انفة له - بل عباد مكرمون « يعني هؤلاء الذين زعموا انهم ولد
الله

وفيه في الاحتجاج عن امير المؤمنين (عليه السلام) حديث طويل وفيه : والزمهم الحجة
بان خاطبهم خطاباً يدل على انفراده وتوحيده وبأن لهم اولياء تجري افعالهم واحكامهم
مجري فعله فهم العباد المكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بامره يعملون ، قال السائل من
هؤلاء الحجج ؟ قال : هم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ومن حل محله
اصفياء الله الذين قالوا : فايئنا تولوا فثم وجه الله « الذين قرنهم الله بنفسه وبرسوله
وفرض على العباد من طاعتهم مثل الذي فرض عليهم منا نفسه .

وفيه في الخرائج والجرائح في اعلام امير المؤمنين في روايات الخاصة : اختصم رجل
وامرأة اليه فعلا صوت الرجل على المرأة فقال له علي (عليه السلام) اخساً - وكان
خارجياً - فاذا رأسه رأس الكلب فقال له رجل يا امير المؤمنين صحت بهذا الخارجي =

« الدعاة الى الله والمظهرين لامر الله ونهيه وعباده المكرمين الذين لا يسبقونه بالقول وهم بامره يعملون »^(١) .

وقد يروى عن اكرم عباد الله المكرمين بعد أول العابدين « ان الله اختص لنفسه بعد نبيه (صلى الله عليه وآله وسلم) من بريته خاصة علاهم بتعليته ، وسما بهم الى رتبته ، وجعلهم الدعاة بالحق اليه ، والادلاء بالرشاد عليه ، لقرن قرن وزمن زمن ، انشأهم في القدم قبل كل مَذْرُوءٍ ومَبْرُوءٍ انواراً انطقها بتمجيده بتحميده ، واهمها شكره وتمجيده ، وجعلها الحجج على كل معترف له بملكة الربوبية وسلطان العبودية ، واستنطق بها الخرسات بانواع اللغات بخوعاً له بانه فاطر الأرضين والسموات ، واشهدهم خلقه ، وولاهم ما شاء من أمره ، جعلهم تراجمة مشيته ، وألسن إرادته ، عبيداً : « لا يسبقونه بالقول وهم بامره يعملون يعلم ما بين ايديهم وما خلفهم ولا يشفعون الا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون »^(٢) .

مركز تحقيق كتاب التفسير

= فصار رأسه رأس الكلب فما بمنعك من معاوية ؟ فقال ويحك لو اشاء ان آتي بمعاوية الى ههنا على سريره لدعوت الله حتى فعل ، ولكن الله خزان لا على ذهب ولا فضة ولا انكار على اسرار هذا تدبير الله اما تقرأ « بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بامره يعملون وفيه روى الاصبغ بن نباتة قال كنا غشي خلف علي (عليه السلام) ومعنا رجل من قريش فقال يا امير المؤمنين قد قتلت الرجال وايتعت الاطفال وفعلت وفعلت فالتفت (عليه السلام) اليه وقال : اخساً فاذا هو كلب اسود فجعل يلوذ به ويصبص فراآه (عليه السلام) فرحمه فحرك شفتيه فاذا هو رجل كما كان فقال رجل من القوم يا امير المؤمنين انت تقدر على مثل هذا ويناويك معاوية ؟ فقال : نحن عباد مكرمون لا نسبقه بالقول ونحن بامره عاملون .

(١) من زيارة الجامعة الكبيرة .

(٢) نور الثقلين ٣ : ٤٢٢ في مصباح شيخ الطائفة في خطبة مروية عن امير المؤمنين

(عليه السلام) قال : ...

اجل « سبحانه » ان يتخذ هؤلاء ولداً « بل » هم « عباد مكرمون » بما اكرمهم الله بالعبودية بعدما اكرموا انفسهم بها ، فلا كرامة للعبد مهما بلغ الذروة ، إلا كرامة العبودية ، فلا يزال العبد يكرم ربه بعبوديته ، كرامة لنفسه ان يعبد قَدْرَ مقدرته ، ثم المعبود يكرمه بكرامة على كرامته ان يخلصه لنفسه ، بعدما اخلص هو نفسه لربه ، واين اخلاص من اخلاص ، اخلاص من العبد واخلاص من المعبود .

فليس من اكرام الله لهم ان يتخذهم له ولداً سبحانه ، فان الولادة التشريفية مستحيلة كما الحقيقية ، حيث التشريف مجاز وهو لا يجوز في الامور المستحيلة ، وانما هو جواز عن الحقيقة الكائنة او الممكنة .

فقد يصح لعالم رباني ان يتخذ تلميذاً له صالحاً ولده تشريفاً له وذلك مسموح ، دون معنى البنية الحقيقية او التبني ، ولكنه لا يصح او يمكن بحق الله ، قضية الإمكانية في حقيقته هناك واستحالته هنا .

وحتى لو امكن ذلك الاتحاد لم يكن فيه تشريف ، اذ لا شرف للعبد اشرف من شرف العبودية ولا يسامها اي شرف ، وكما التشريف بالربوبية له مستحيل كذلك البنية .

ومن مواصفات هؤلاء العباد المكرمين التسليم السليم لرب العالمين :

﴿ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهٖ يَعْمَلُونَ ﴾ ٢٧ .

ليس هنالك اي سبق لهم على ربهم فيما امره اليه ، ارادة ام قولة ام فعلة « لا يعصون الله ما امرهم ويفعلون ما يؤمرون » (٦٦ : ٦) .

وعلى « القول » هنا يعم الاوليين كما تدل عليه « ان نقول له كن فيكون » ثم الثالثة تخصها « وهم بامرهم يعملون » وهذه عصمة كاملة شاملة كل كيانهم دون ابقاء .

وفي تقديم « بامره » على « يعملون » حصر وتحتيم لاختصاص اعمالهم بامر الله ، فلا يعملون عن امر انفسهم ولا سواهم ، إلا الله .

وليس ذلك الأمر تكوينياً يسيّرهم دون اختيار منهم ، حيث « لا يسبقونه - و - يعملون » ينسبان السلب والايجاب اليهم ، والعمل المسير لا طاعة ولا معصية !

ثم امره يعم الفعل والترك ، فـ « يفعلون » تعم فعل الفعل وفعل الترك ، تدليلاً على ان ترك الحرام ممدوح فيما لك فيه الاختيار كفعل الواجب ، فكما الفعل الممدوح هو المختار كذلك تركه .

فهم بكل اراداتهم واقوالهم وافعالهم يحملون امر الله ومشيتته ، حيث هم اداة مشيئته وولاة امره دونما حاجة منه اليهم .

وتراهم - اذاً - كيف سبقوه سبحانه في القول « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك » وقد جمعوا فيه الى سبق القول وسؤال الفعل و « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » ؟

علّه يستثنى من ذلك الإطلاق تفلتاً عما هم عليه ، ام انما قالوا ما قالوه وسألوا ما سألوه بأمره تعالى لكي يكونوا على ضوء جوابه « اني اعلم ما لا تعلمون » عارفين مدى جهلهم فيزدادوا منه تعلماً ولديه تسليماً !

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾ (٢٨) .

فمن « ما بين ايديهم » مستقبلهم وحاضرهم ، ومن « ما خلفهم » غابريهم ، ام كل مستقبل وحاضر وغابر مما يعلمون وما لا يعلمون ، فهو يحيط بهم وبمن سواهم علماً « ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء » !

ثم « ولا يشفعون إلا لمن ارتضى » الله من المشفع لهم ، وقد كان

فريق من المشركين يعبدونهم قائلين : « هؤلاء شفعاؤنا عند الله » « ما نعبدهم إلا ليقربونا الى الله زلفى » .

فتزييفاً لهذه المزعمة الخاطئة يحصر شفاعتهم لمن ارتضى الله دينه ، دون المشركين بالله ، المتخذين عباد الله المكرمين ابشاء سبحانه ، فغير الموحد لا تناله شفاعتهم لو شفَعُوا لهم ولن يشفعوا فـ « من ذا الذي يشفع عنده إلا بأذنه » و « ما من شفيع إلا من بعد إذنه » .

فالموحد مرضي عند الله كاصل وضابطة في قبول الشفاعة على شروطها المسرودة في الذكر الحكيم ، دون الملحد والمشرِك والمنافق والمكذب بآيات ربه فـ « ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » (٤ : ٤٨) .

والشفاعة هي آخر المطاف لمرتكي الخطيئة ، ومرتكي الضلالة إن ظلوا على توحيد الله ، دون ان يضلوا عنه ، فليست اذاً الا لمرتكي الكبيرة التي بقيت حتى القيامة غير مكفَّرة بتوبة في الاولى ، ام يعذاب في البرزخ ام في جحيم القيامة ، فمنهم مَنْ هم يخرجون من النار قبل توفية العذاب ، بالشفاعة ، وقد تلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) هذه الآية فقال : إن شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي ^(١) .

(١) الدر المنثور ٤ : ٣١٧ - اخرج الحاكم وصححه والبيهقي في البعث عن جابر ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) تلا قول الله : ولا يشفعون ... فقال : وفي نور التخليل ٣ : ٤٢٣ في عيون الاخبار باسناده الى الحسين بن خالد عن علي بن موسى الرضا (عليه السلام) عن ابيه عن آبائه عن امير المؤمنين (عليهم السلام) قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من لم يؤمن بحوضي فلا اورده الله حوضي ومن لم يؤمن بشفاعتي فلا انا له الله شفاعتي ثم قال (صلى الله عليه وآله وسلم) انما شفاعتي لأهل الكبائر من امتي فاما المحسنون فما عليهم من سبيل قال الحسين بن خالد

وترى الموحّد مشفّع له مهما تعمد في المعصية ولم يحنّ قلبه الى التوبة ولم تحسّنه حسنته ولا ساءته سيئته ؟ وذلك نكران ليوم القيامة ، وللشرعة الإلهية ! .

كلّا فهكذا موحّد غير مرضي دينه وعليه سخط الله ، اتري من غضب الله عليه لنكرانه يوم القيامة ، او تشكّكه فيها ، سوف يرضى الله عنه فتشمّله الشفاعة ؟ ! .

فالشافعون - إذاً - لا يشفعون إلا لمن ارتضى « الله دينه » ، والدين الاقرار بالجزاء على الحسنات والسيّات ، فمن ارتضى الله دينه ندم على ما ارتكبه من الذنوب لمعرفته بعاقبته في القيامة « (١) » ، وان لم يقم بشروطات

= فقلت للرضا (عليه السلام) يا ابن رسول الله فما معنى قول الله عز وجل : ولا يشفعون الا لمن ارتضى « ؟ قال : لا يشفعون الا لمن ارتضى الله دينه .
وفيه عن الخصال عن الاعمش عن جعفر بن محمد (عليهما السلام) قال : واصحاب الحدود فساق لا مؤمنون ولا كافرون لا يخلّدون في النار ويخرجون منها يوماً والشفاعة جائزة لهم وللمستضعفين اذا ارتضى الله دينهم .

(١) نور الثقلين ٣ : ٤٢٣ في كتاب التوحيد باسناد متصل عن محمد بن ابي عمير عن موسى بن جعفر (عليهما السلام) حديث طويل وفيه قلت له : يا ابن رسول الله ! فالشفاعة لمن تجب من المذنبين ، فقال : حدثني ابي عن ابيه عن علي (عليهم السلام) قال : سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول : انما شفاعةي لاهل الكبائر من امتي فاما المحسنون منهم فما عليهم من سبيل ، قال ابن ابي عمير فقلت له يا ابن رسول الله كيف تكون الشفاعة لاهل الكبائر والله تعالى يقول : ولا يشفعون الا لمن ارتضى « ومن يرتكب الكبيرة لا يكون مرتضى ؟ فقال (عليه السلام) : يا ابا محمد ، ما من مؤمن يرتكب ذنباً الا ساء ذلك وندم عليه وقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كفى بالندم توبة وقال (صلى الله عليه وآله وسلم) من سرته حسنته وساءته سيئة فهو مؤمن فمن لم يندم على ذنب يرتكبه فليس بمؤمن ولم تجب له الشفاعة وكان ظالماً والله تعالى ذكره يقول « ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع » فقلت له : يا ابن =

التوبة ، ام سوفها حتى قضى نجه .

﴿ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ ٢٩ .

« ومن يقل منهم » على فرض المحال حيث المعنى من « هم » العباد المكرمون ، ام كواقع اذا عني من « هم » كل من اتخذ الله ولداً او اتخذ نفسه ولده ، ام ادعى الألوهية ، كما الشيطان وكل فراعنة التاريخ .

« إني آله من دونه » رفضاً لألوهية الله ، ام إشراكاً لنفسه بالله « فذلك » البعيد البعيد « نجزيه جهنم » وكضابطة عامة « كذلك نجزي الظالمين » بحق الربوبية .

وأما من لم يقل منهم « إني آله من دونه » مهما اتخذ إلهاً من دونه وهو رافضه ، فذلك يبقى على كرامته : « واذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي آلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي ان اقول ما ليس لي بحق ان كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا اعلم ما في نفسك انك انت علام الغيوب . ما قلت لهم إلا ما امرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم . . . » (١١٧ : ٥) « انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم انتم لها واردون . لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها

= رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وكيف لا يكون مؤمناً من لم يندم على ذنب يرتكبه ؟ فقال : يا ابا محمد ما من احد يرتكب كبيرة من المعاصي وهو يعلم انه سيعاقب عليها إلا ندم على ما ارتكب ومتى ندم كان تائباً مستحقاً للشفاعة ومتى لم يندم عليها كان مصرأ والمصر لا يغفر له لانه غير مؤمن بعقوبة ما ارتكب ولو كان مؤمناً بالعقوبة لندم وقد قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الاصرار ، واما قول الله عز وجل « ولا يشفعون الا لمن ارتضى » فانهم لا يشفعون الا لمن ارتضى الله دينه

خالدون .. ان الذين سبقتم لهم منا الحسنى اولئك عنها مبعدون «
(٢١ : ١٠١) .

أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا
رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ
أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ
بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٢١﴾
وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا
مُعْرِضُونَ ﴿٢٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ الْبَيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ
وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٢٣﴾ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ
قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَلَا يَمِيتُ فَهُمْ أَنْ يَخْلُدُوا ﴿٢٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ
ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۖ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا
تَرْجَعُونَ ﴿٢٥﴾ وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ
إِلَّا هُزُوءًا أَلَدًا الَّذِي يَذْكُرُ الْهَتَكَةَ وَهُمْ يَدَّكِرُ الرَّحْمَنِ
هُم كَافِرُونَ ﴿٢٦﴾ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ

ءَابَتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ
 إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ
 لَا يَكْفُونُ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ
 وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا
 يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ
 بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَخَافَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ
 يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَنْ يَكْلُو كُمُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ
 بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ
 تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا
 يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ
 عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ
 أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ
 وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَكِنْ مَسَّتْهُمْ
 نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يُوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٦﴾

وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ
شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ نَجْدٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى
بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا
وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٣٠) .

.. الم ير الذين كفروا آياتنا في الأفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم انه
الحق « أولم ير الذين ... » عطفاً على ما أراهم الله تعالى ولم يروا ولم
يتبصروا .

« الذين كفروا » او منهم هنا هم المشركون المقسّمون الخلق والتدبير
بين الله والآلهة ، لا الماديين او الكتابيين مهما شملهم « الذين كفروا »
هامشياً حيث الحوار كان مع المشركين دون سواهم .

والرؤية المستاءل عنها هي العلمية رايأ كأنها رؤية بصر ، وهي
الاكثرية الساحقة من اطلاقات الرؤية ، ولا سيما المقرونة بما هنا « ان
السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما » فاين كانوا هم ومن قبلهم حتى
ينظروا الى فتقهما بعد رتقهما ومنها خلقها ؟ « وما اشهدتم خلق السماوات
والأرض ولا خلق انفسهم وما كنت متخذ المضلين عضداً » (١٨ : ٥١) .

وذلك الرتق والفتق في بناية الكون ، وهما متواصلان بمختلف الصور
على طول الخط ، انه نقض صارم على خرافة التفرقة بين الخلق والتدبير ،
فانها مجموعان لصق بعض في كل رتق وفتق، فهما - اذاً - فعل واحد من
فاعل واحد ، وحتى اذا كانا منفصلين فتناسق الخلق والتدبير في كل رتق

سورة الأنبياء / آية ٣٠ - ٤٧ ٢٨٣

وفتق دليل وحدة الناسق ، المدبر الخالق ، وكما وحدة الخلق دليل وحدة الخالق .

ثم الرؤية العلمية ، عقلية او تجريبية ، بالنسبة للفتق بعد الرتق ، منها ما هي حاصلة عبر القرون البشرية لكل راءٍ مراعى صالح الرؤية ، فـ « اولم يروا » هنا استفهام إنكار ، انهم رأوا ثم حكموا بخلاف ما رأوا ، سواء الماديين منهم استدلالاً بالتحويلات المتواترة عبر الكائنات على المكون ، او المشركين استدلالاً بوحدة الخلق والتدبير على وحدة الخالق والمدبر ، او الكتابيين ، حيث تضاف الى رؤيتهم العلمية الرؤية الكتابية القائلة بفتق بعد رتق ، فليوحدوا الفائق الراقق ، وليؤمنوا بالشرعة القرآنية الفاتحة لما رتق قبلها ، الفاتحة لما انغلق .

ومن ثم رؤية اخرى يدفعون اليها على مر الزمن ، فالاستفهام - اذاً - استنكار لمن لا يتدبرون حتى يروا فتقاً بعد رتق اكثر مما رأوا ، حيث هما بعد بدايتهما مستمران مع الزمن في كافة اجزاء الكون .

إذا فـ « اولم يروا » غابر بخلق على المستقبل والحاضر ، حيث الرؤية الحاضرة والمحضرة تعم عامة المكلفين دون ابقاء واستثناء .

فكما اختصاصها بالماضين تضيق ل نطاق الدعوة القرآنية ، كذلك - وباحرى - اختصاصها بالآيتين من العلماء الغربيين ، اختلاقاً من بعض المفسرين المتفرنجين المتأرجفين ، انهم هم المفترضون فرضية انفصال الأرض من الشمس ، تاويلاً عليلاً لـ « اولم ير » الى « اولاً يرون » و « الذين كفروا » بهؤلاء فقط ، و « السماوات » بالشمس « والأرض » هي الأرض ، فـ « كانتا رتقاً » انهما كانا جرمًا واحدًا ، ثم « ففتقناهما » بفصل

الأرض عن الشمس « !!! (١) .

تخريجات فيها تخريجات وتهريجات كأنها خدمة غالية للقرآن ، وفقاً بينه وبين هذه الافتراضة غير القانونية ولا الثابتة ، المقبورة - أخيراً قانونياً علمياً - مع الأبد .

ولقد فصلنا في فصلت على ضوء الآية « قل ، انكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين . . . » فصلنا هناك مدى خرافة هذه القيلة الغائلة الغيلة ، وانها تفسير للقرآن عن ساحته وسماحته وليس تفسيراً له ، فانه المحور في كل صغيرة وكبيرة عبر القرون ، وليس حائراً حول الافتراضات التي لا سند لها علمياً فضلاً عن الواقعية المسنودة الى قوانين تجريبية .

فكيف يعبر عن مستقبل خاص بماضٍ عام ؟ وعن الشمس وهي قطرة صغيرة من خضمِّ يَمِّ السماء الدنيا بالسماءات ؟ وعن انفصال الأرض عن الشمس بفتقهما عن رتقهما وهو يعم المعاكسة أولاً ويخص الانشقاق لا الاشتقاق ثانياً ؟ .

مركز بحوث كاسمير علوم إسلامي

(١) تفسير الجواهر للشيخ الطنطاوي ١٠ : ١٩٧ تحت عنوان : القرآن إذ اخبر بامور لم تعلم الا في القرن التاسع عشر يقول : ثبت عن اهل اوروبا في هذه العصور اذ هم الذين قرروا هذا العلم وقالوا ان الشمس كانت كرة اشبه بالنار دائرة ملايين من السنين ، والأرض والسيارات وتوابعها كانت معها ، ثم ان أرضنا انفصلت كما انفصل غيرها من السيارات انفصلن جميعاً من خط الاستواء الشمسي اثناء سرعة سير الشمس وجريها حول نفسها فتباعدت أرضنا والأرضون الأخرى وهي السيارات فان شمسنا والسيارات الأخرى كلها سيارات وكلها أرضون وهكذا كل الشموس التي نراها كأنها كواكب ثابتة على هذه الحال لها سيارات وقد اشتقت منها وقد قدروا على سبيل الظن ان الأرضين في العوالم كلها لا تنقص عن ثلثمائة مليون أرض مسكونة . . . فثبت ان أرضنا مشتقة من الشمس والشمس ايضاً من شمس اكبر . . منها اقول وفي كل ذلك استولة ولا جواب له عنها ! .

كلا ! وآيات « فصلت » توخر خلق الشمس عن الأرض بمرحلتين اثنتين حيث « خلق الأرض في يومين . . ثم استوى الى السماء وهي دخان فسواهن سبع سماوات في يومين . . وزينا السماء الدنيا بمصابيح . . والشمس هي من مصابيح السماء الدنيا ، فكيف تسبق أرضنا السابق عليها وعلى تسبيع السماء ؟ ! .

فاليكم تفسيراً لآية الفتق جديراً بها حسب المستطاع دونما تحميل عليها ما ليس منها ولا اليها ، ودون ان نحاول حمل النص او الظاهر القرآني على افتراضات خاوية او غير مستيقنة تُقبل اليوم وتُرفض غداً ، فانه إمام العلم وأمامه ، خالداً عبر كافة التقدمات العلمية وكشوفها المتعالية ، فليطلق سراحه اينما انطلق دون أسير له بنظريات أسيرة محصورة محسورة ! .

هنا « السماوات » هي السبع الطباق ، أولاها هي السماء الدنيا حيث هي الاقرب اليها ، والشمس بمنظومتها جزء ضئيل من أوليات هذه الاولى .
و « الأرض » عليها فقط هذه الأرض ، فالأرضون الست الاخرى معنية في نطاق السماوات ان كانت مقسمة بينها ام هي في الاولى ، ام هي جنس الأرض الشامل للأرضين السبع .

وعلى أية حال فه السماوات والأرض « هنا وفي غيره هما عبارة اخرى عن الكون كله .

« كانتا رتقاً » والرتق لغوياً هو الضم والالتحام خلقياً ام خالقياً ، والمعني هنا هو الثاني ، وانما افردت « رتقاً » مصدراً وهو يثنى ويجمع كما الفاعل والمفعول ؟ علّه للعناية الى حالة الوحدة حيث لم تكونا حين الرتق الاول لا سماء ولا أرضاً فضلاً عن سماوات وأرضين ، وانما كانتا المادة الفردة الاولى المعبر عنها بالماء : « هو الذي خلق السماوات والأرض في

سنة ايام وكان عرشه على الماء « (١١ : ٧) وطبعاً قبل خلق الارض والسماء .

فقد كانتا حينذاك رتقاً في المادة الأم ، ففتقت الأم في تفجيرة هائلة فانقسمت الى دخان السماء وزبد الأرض ، كما تفصله آياته في فصلت ، بعد إجماله في هود : « هو الذي خلق السماوات والأرض في ستة ايام وكان عرشه على الماء » .

ف « رتقاً » هنا دلالة أولى على هذه الوحدة السابقة ، فلو كان المعنى منه التصاقهما ، ام فقط فتق كل عن رتقة ، لكانت الصيغة السائغة له « رتقين » ولكن « رتقاً » تعم الرتقات الثلاث ابتداءً من هذه الرتقة البدائية وانتهاءً الى فتق السماء بالماء وفتق الأرض بالنبات .

ففي آية هود « كان عرشه على الماء » يتبين باجمال انها كانا في الأصل ماء وهو عبارة اخرى - واحرى من غيرها - عن المادة الأم .

وفي فصلت يفصل ذلك ورتق ثان : « ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً او كرهاً قالتا اتينا طائعين . فقضاهن سبع سماوات في يومين واوحى في كل سماء امرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم » (٤١ : ١٣) .

فدخان السماء هو اصل ثان لعالم السماء ، وقد فتق عن الماء ، ثم فتق الى سبعها بمصابيحها ، وكما زبد الأرض للارضين السبع : « الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن » (١٢ : ٦٥) (١) .

(١) الدر المنثور ٤ : ٣١٧ - اخرج ابن ابي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن ابي حاتم وابو الشيخ في العظمة عن مجاهد في الآية قال : فتق من الأرض ست ارضين معها فتلك سبع ارضين بعضهن تحت بعض ومن السماء سبع سماوات منها معها فتلك سبع سماوات بعضهن فوق بعض ولم تكن الأرض والسماء محبا ستين ومثله عن ابي صالح .

ومن ثم فتفت الأرض بالإنبات بما فتقت السماء بانزال الماء، فتقاً ثالثاً بعد رتق ثالث كما هنا « وجعلنا من الماء كل شيء حي افلا يؤمنون » - « ان صبينا الماء صباً . ثم شققنا الأرض شقاً . فأنبتنا فيها حياً » (٨٠ : ٢٧) « والسماء ذات الرجع . والأرض ذات الصدع » (٨٦ : ١٣) .

وفي رواياتنا تصریحات وإشارات الى هذه الفتقات بعد الرتقات كما وتستنكر الفتق المختلق من اصحاب فرضية الانفصال : « فلعلك تزعم انها كانتا رتقاً متلازمتين متلاصقتين ففتقت احدهما عن الأخرى . . . ؟ » (١) .
ثم تثبت سائر الفتقات ولا سيما الاستفادة من ذيل الآية « وجعلنا من الماء كل شيء حي » وهي الفتقة الثالثة .

ومن جماع الدلالة على كلها ام جلها مقتطفات من خطب الامام امير

(١) المصدر في روضة الكافي في سؤال الشامي ابا جعفر الباقر (عليه السلام) عن هذه الآية قال (عليه السلام) : فلعلك . . . فقال نعم فقال ابو جعفر (عليه السلام) استغفر ربك فان قول الله عز وجل « كانتا رتقاً » بقول : كانت السماء رتقاً لا تنزل المطر وكانت الأرض رتقاً لا تنبت الحب فلما خلق الله تبارك وتعالى الخلق وبث فيها من كل دابة فتق السماء بالمطر والأرض بنبات الحب . . . » .

اقول : هذا تفسير باظهر مصاديق الفتق بعد الرتق كما بيينه ذيل الآية ، دون حصر فيه ، وقد قدم الامام (عليه السلام) خلق السماء والأرض من الماء وفي نفس الحديث بقوله : وخلق الشيء الذي جميع الاشياء منه وهو الماء الذي خلق الاشياء منه فجعل نسب كل شيء الى الماء ولم يجعل للماء نسباً يضاف اليه وخلق الريح من الماء ثم سلط الريح على الماء فشقت الريح متن الماء حتى ثار من الماء زبد على قدر ما شاء ان يشور فخلق من ذلك الزبد ارضاً بيضاء نقية . . . ثم خلق الله النار من الماء فشقت النار متن الماء حتى ثار من الماء دخان على قدر ما شاء ان يشور فخلق من ذلك الدخان سماء صافية نقية . . . وذلك قوله : « والسماء بناها رفع سمكها فسواها وغطش ليلها واخرج ضحاها . . . قال له الشامي يا ابا جعفر قول الله عز وجل : اولم ير السنين كفروا . . . ؟ قال : فلعلك . . . »

المؤمنين علي (عليه السلام) : « وناداهما بعد اذ هي دخان فالتحمت عرى اشراجها وفتق بعد الارتقاق صوامت ابوابها » - « وكان من اقتدار جبروته وبديع لطائف صنعه ان جعل من البحر الزاخر المتراكم المتقاصف يساً جامداً ثم فطر منه اطباقاً ففتقها سبع سماوات بعد ارتقاقها » .

كما « وكانتا مرتوقيتين ليس بينهما ابواب ولم يكن للارض ابواب وهو النبت ولم تمطر السماء عليها فتنبت ففتق السماء بالمطر وفتق الأرض بالنبات »^(١) .

وليس الحصر في بعضها بالفتقة الاخيرة إلا نسبياً لاستنكار الفتقة المختلفة ، باثبات ما يصدقها ذيل الآية « وجعلنا من الماء كل شيء حي » .

إذاً « كانتا رتقاً » تحلق على كل فتق بعد رتق السماء والسماوات

(١) نور الثقلين ٣ : ٢٥٥ في تفسير القمي في سؤال الابرش ابا عبد الله (عليه السلام) عن هذه الآية « فما كان رتقها وما كان فتقها ؟ فقال (عليه السلام) يا ابرش هو كما وصف نفسه كان عرشه على الماء . . فلما اراد الله ان يخلق الأرض امر الرياح فضربت الماء حتى صار موجاً ثم ازيد فصار زبداً واحداً . . . فلما اراد ان يخلق السماء امر الرياح فضربت البحور حتى ازبدتها فخرج من ذلك الموج والزبد من وسطه دخان ساطع من غير نار فخلق منه السماء وجعل فيها البروج والنجوم ومنازل الشمس والقمر واجراها في الفلك وكانت السماء خضراء على لون الماء الاخضر وكانت الأرض غبراء على لون الماء العذب وكانتا مرتوقيتين ليس بينهما ابواب ولم يكن للارض ابواب وهو النبت ولم تمطر السماء عليها فتنبت ففتق السماء بالمطر وفتق الأرض بالنبات وذلك قوله « اولم ير الذين كفروا ان السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما » فقال الابرش : والله ما حدثني بمثل هذا الحديث احد قط اعده علي فاعاد عليه وكان الابرش ملحداً فقال : وانا اشهد انك ابن نبي ثلاث مرات .

سورة الأنبياء / آية ٣٠ - ٤٧ ٢٨٩
والأرض والارضين ، اجماعاً دلاليّاً بين الآيات والروايات ولا ينبشك مثل
خبير .

وما تدبير الخلق تكوينياً وتشريعياً إلا فتق الرق ، وهو مزيج مع كل
خلق ، إذاً فالخالق هو المدبر والمدبر هو الخالق دون اي فرق ولا فراق بين
خلق وتدبير سبحانه العليّ القدير ! .

﴿ فَفَتَقْنَاهَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

فمن ذلك الفتق فتق الماء عن رق ، إذ فتق عن أصله في السماء ، ثم فتق
السماء عنه إلى الأرض ، ثم فتقت الأرض به باخراج نباتاتها^(١) نباتية وحيوانية
وإنسانية أما هيه من حيٍّ ، كما فتقت سائر الكرات الحية بذلك الماء حيث لا
يختص - ولم يكن يختص - بهذه الأرض .

ف « كل شيء حي » تعم كل حي في السماوات والأرض ، فكما ان كل
شيء حي او ميت فتق من المادة الأولية الأم^(٢) : « خلق السماوات
والأرض في ستة ايام وكان عرشه على الماء » كذلك جعل من افضل
ولائدها : الماء - كل شيء حي ، حياة ثانية بعد الاولى التي هي اصل
الكون ، ف « كل شيء حي » يخرج عن هذا المسرح الثاني كل شيء ميت

(١) ومن الدليل على شمول « حي » للنبات : انزل من السماء ماء فاحى به الأرض
بعد موتها - واضرابها .

(٢) الدر المنثور ٤ : ٣١٧ - اخرج احمد وابن المنذر وابن ابي حاتم وابن مردويه
والحاكم وصححه والبيهقي في الاسماء والصفات عن ابي هريرة قال قلت يا رسول الله
(صلى الله عليه وآله وسلم) اني اذا رأيتك طابت نفسي وقرت عيني فانبثني عن كل
شيء ، قال : كل شيء خلق من الماء .

اقول : الماء هنا غير الماء المشروب ، بل هو المادة الأم كما في آية هود « وكان عرشه على
الماء » .

٢٩٠ الجزء السابع عشر

وهو كل جماد ، فالماء الثاني - اذا - هو مادة كل حياة في « كل شيء حي » دون إبقاء ، سواء كانت حياة انسانية ام ملائكية ام جنية^(١) اما هي ، وما دونها من حياة نباتية وحيوانية .

« وقد يعم « الماء » اضافة الى اصله السائر في كل حي كضابطة كونية لأية حياة ، قد يعم كل ماء متولد من ذلك الماء بخليط ام دون خليط ، كما النطفة الجرثومية المخلوق منها كل دابة : « والله خلق كل دابة من ماء فممنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على اربع يخلق الله ما يشاء ان الله على كل شيء قدير » (٢٤ : ٤٥)

فحين يخرج غير الدواب من الأحياء عن « خلق كل دابة من ماء » فليس يخرج عن « جعلنا من الماء كل شيء حي » مثل الملائكة والطير وحيوان البحر ، بما يوجد في الأخيرين من ماء النطفة احياناً ، فمهما كانت الملائكة مخلوقة من ماء ولكنه ليس ماء النطفة اذ لا تزوج بينهم^(٢) .

ثم « الماء » النطفة يعم المني الدافق وسواه كما في الانسان وسواه .

(١) ولا ينافي خلق الجن من نار جعله من ماء ف « والجان خلقناه من قبل من نار السموم » هو اصلهم الأولى كما خلق آدم من تراب ، فنسل الجان من ماء النطفة ومن اصل الماء ، كما ان اصله النار فيه الماء .

(٢) ولا ينافيه خلق الملائكة من النور كما في بعض الاحاديث ، حيث النور كما النار من اصل الماء ، ام خليطه ، ام ان الجعل هو جعل بقاء الحياة الملائكية والجنية بالماء وان لم تكن اصولهم من هذا الماء ، فلذلك لم يقل « خلقنا » والجعل يعم الخلق بداية ، وبقائه واستمراره ، فطائفة من الاحياء مثل الانسان مجعولة من الماء خلقاً وبقاء ، وثانية بقاء كالملائكة - والله اعلم بما قال .

سورة الأنبياء / آية ٣٠ - ٤٧ ٢٩١

ولأن الماء هو اصل الحياة فـ « طعم الماء طعم الحياة »^(١) وقد يكون بنفس السند شفاءً من بعض الأدواء^(٢) .

ولماذا هنا « جعلنا » دون خلقنا ؟ علّه حيث المقصود اعم من الخلق بداية ، ومن استمرارية المخلوق منه حيوية ، فكما خلق كل حي من ماءٍ كذلك تستمر حياته بماءٍ ، دون إبقاء .

فهناك فتق اول للمخلق عن رتق الماء الأول وهو المادة الاولى ، وفتق ثان هو خلق هذا الماء المشروب مما خلق منه ، وفتق ثالث هو خلق النطف الجرثومية عن الماء الثاني ، اذاً قدور الماء في اصل الخلق وفرعه دور فعال

(١) نور الثقلين ٣ : ٢٧ عن المجمع وروى العياشي بإسناده الى الحسين بن علوان قال : سئل ابو عبد الله (عليه السلام) عن طعم الماء ، فقال : سل تفقهاً ولا تسأل تعتياً ، طعم الماء طعم الحياة قال الله سبحانه « وجعلنا من الماء كل شيء حي » ورواه في قرب الاسناد مثله .

(٢) المصدر في كتاب طب الأئمة عند الله بن بسطام قال حدثنا ابن اسحاق ابن ابراهيم عن ابي الحسن العسكري (عليه السلام) قال : حضرته يوماً وقد شكى اليه بعض اخواننا فقال : يا ابن رسول الله ان اهلي كثيراً يصيبهم هذا الوجع الملعون ، قال وما هو ؟ قال : وجع الرأس ، قال : خذ قدحاً من ماء واقره عليه هذه الآية ثم اشربه فانه لا يضره ان شاء الله تعالى .

وبإسناده الى حماد بن عيسى يرفعه الى امير المؤمنين (عليه السلام) قال : اذا شكى احدكم وجع الفخذين فليجلس في تور كبير وطست في الماء المسخن وليضع يده عليه وليقرأ هذه الآية وفيه عن سيف بن عمير عن شيخ من اصحابنا عن ابي عبد الله (عليه السلام) قال كنا عنده فساله شيخ فقال : بي وجع وانا اشرب له النبيذ ووصفه له الشيخ فقال له : ما يمنعك من الماء الذي جعل الله منه كل شيء حي ؟ قال : لا يوافقني ، قال : فما يمنعك من العسل قال الله فيه شفاء للناس ، قال : لا اجده ، قال : فما يمنعك من اللبن الذي نبت لحملك واشتد عظمك ؟ قال : لا يوافقني قال (عليه السلام) له : تريد ان آمرك بشرب الخمر ؟ لا والله لا آمرك !

منقطع النظر - :

« افلا يؤمنون » بذلك الخالق المدبر ، المدبر الخالق ، الذي بيده كل رفق وفتق ، وبالنسبة للآلهة المختلفة ومختلفيها ، حيث فتقها الله بعد رفق .

﴿ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ^{٣١} وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَفْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ^{٣٢} .

هنا عرض لفتق بعد رفق في الأرض ، وآخر في السماء ، هما من طيات الفتقات الثلاث للسموات والأرض ، والرواسي المجعولة في الأرض - لا المخلوقة - هي الجبال الراسية المؤتدة في اعماقها ، الشاهقة رئوسها ، وعل المفعول الاول له « لجعلنا » هي الجبال قبل رسوها وقد خلقت من الأمواج السطح الأرضية ، كما سئل الامام علي (عليه السلام) مم خلقت الجبال ؟ قال : من الامواج .

ولماذا جعلت الرواسي ؟ « ان تميد بهم » حفاظاً عن الميذان وهو سرعة الدوران ، و « عدل حركاتها بالراسيات من جلاميدها ... فسكنت من الميذان برسوب الجبال في قطع أديمها » « فسكنت على حركتها من ان تميد باهلها او ان تسيخ بحملها » : « وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وانهاراً وسبلاً لعلكم تهتدون » (١٦ : ١٥) ^(١) فللرواسي علاقة عريقة بتوازن الكرة الأرضية في سبوحها الدائب بيوم الفضاء ، فلا تميد بهم وتضطرب بل هي مهد ومهاد ! .

هذه رواسي الأرض ان تميد بهم في رجفاتها ، وتلك فجاجها السبل

(١) راجع تفسير آية النحل في النحل ففيها تفصيل اكثر مما هنا ، وكذلك ... والى الجبال كيف نصبت .

سورة الأنبياء / آية ٣٠-٤٧ ٢٩٣

بينها لعلكم تهتدون ، وبأحرى منها الرواسي القيادية الروحية ، الراسية في اعماق ارض الحياة الإنسانية ، عن ان تميد بكم من ضربات ورجفات ، وهم الرعيل الاعلى الرساليين ، ثم الفجاج السبل هم العلماء الربانيون ، الوسطاء بينهم وبين الناس .

« وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً » عن التساقط من عليها الى دنياها ، اذ « رفع السماوات بغير عمد ترونها » « وعسك السماء ان تقع على الأرض إلا بأذنه » (٢٢ : ٦٥) « ومحفوظاً عن تسمع الجن الى الملأ الاعلى : » لا يسمعون الى الملأ الاعلى ويقذفون من كل جانب . دحوراً ولهم عذاب واصب . الا من خطف الخطفة فاتبعه شهاب ثاقب » (٣٧ : ١٠) « وحفظناها من كل شيطان رجيم . الا من استرق السمع فاتبعه شهاب مبين » (١٥ : ١٨) .

« وهم عن آياتها معرضون » : « قل انظروا ماذا في السماوات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون » (١٠ : ١٠١) فهم يعرضون عن آياتها كونية وشرعية .

ومن السماء السقف المحفوظ بآياتها ، سماء الوحي بآياته ، اذ لا تدخل فيها من الشياطين وسواهم من المتسمعين .

فالسقف ما يظل الانسان من علٍ والسماء هي اعلى السقوف ، ولكنها خلاف سائر السقوف فانها دون عمد مرئية ، وكذلك سماء الرسالات غير مرئية العمدة ، وهي أعمدة الوحي ورباطاته الإلهية محفوظة عن كل انفراج وانهدام وتشعث واسترمام ، كما هي محفوظة من مسارق السمع ، محصنة بمقاذف الشهب .

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ ٣٣ .

هنا تعرفنا الى سباحة الشمس والقمر، كل في فلكه الخاص به ، فما هي سباحة الليل والنهار وهما من مظاهر سباحة الأرض والشمس دونما استقلال عنها ؟ .

ان لها ثانية في يس تعني في « يسبحون » الأرض والشمس والقمر :
 « ... لا الشمس ينبغي لها ان تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون » (٤٠) حيث تسبقها الأرض ، فهي - إذا - معنية في هذه السباحة العاقلة مع النيرين .

فكذلك الأمر في هذه حيث تسبقها الأرض كما هناك ، وهنا زيادة « آياتها » ومنها نجومها بمجراتها فـ « كل » من هذه الثلاثة آياتها « في فلك يسبحون » دون حاجة الى حمل التوجيه لـ « الليل والنهار » وهما ظاهرتان من سبح الأرض بواجهتها الخاصة للشمس ! .

وقد نتلمح من هنا ان لا ثوابت في آيات السماء ، فكلها سيارات ، فردية في أفلاكها، وجماعية في مجراتها وجزائرها في خضم الفضاء ! .

هذا وقد تعني « يسبحون » فيما عنت « الليل والنهار » والمعني من سباحتهما في فلكهما مدار كل تبعاً لدوران الأرض حول نفسها وشمسها ، ولكن الليل والنهار مسبح لسباح الأرض وهما لا يسبحان ، وهنا نتأكد ان « يسبحون » تشمل « آياتها » كلها ، وهي الكواكب كلها .

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ ﴾ ٣٤ .

« الخلد » هنا هو البقاء في الحياة الدنيا ، وهي زائلة بمن فيها وما فيها ، فلا خلد لها فضلاً عن مواليدها ! « وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد » حيث قضوا نحبتهم ومنهم من ينتظر كالمسيح والخضر وسائر الأحياء .

وقد تلمح الآية انه (صلى الله عليه وآله وسلم) تمنى بقاء ، ام اكثر

عما كان كما يروى « لما نعى جبريل للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) نفسه قال : يا رب فمَنْ لأمّتي ؟ فنزلت « وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد ... »^(١) .

وبذلك تستأصل مُنية الخلود حتى عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) مهما هرف فيه هارف وخرف خارف رغم نص القرآن^(٢) .

ولمحة ثانية تستأصل أمنيّات المشركين « أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون » (٥١ : ٣٠) اذ كانوا يتربصون به الموت فيتخلصوا منه وكأنهم بعده باقون^(٣) : « أفان مت فهم الخالدون ؟ كلا إلا متعة الحياة عاجلاً أو آجلاً

(١) الدر المنثور ٤ : ٣١٨ - اخرج ابن المنذر عن ابن جريح قال لما نعى ...
(٢) و (٣) المصدر - اخرج ابن أبي شيبة عن ابن عمر قال لما قبض رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كان ابو بكر في ناحية المدينة فجاء فدخل على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو مسجى فوضع فاه على جبين رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وجعل يقبله ويبكي ويقول بابي وامّي طبت حياً وميتاً فلما خرج مر بعمر بن الخطاب وهو يقول : ما مات رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ولا يموت حتى يقتل الله المنافقين وحتى يخزي الله المنافقين ، قال وكانوا قد استبشروا بموت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فرفعوا رؤسهم فقال ايها الرجل اربع على نفسك فان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قد مات لم تسمع الله يقول : انك ميت وانهم ميتون ، وقال : وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفان مت فهم الخالدون ، قال : ثم اتى المنبر فصعد فحمد الله واثنى عليه ثم قال : ايها الناس ان كان محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) الهكم الذي تعبدون فان محمداً قد مات ، وان كان الهكم الذي في السماء لم يمّت ثم تلا : وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات او قتل انقلبتم على اعقابكم ... ثم نزل واستبشر المسلمون بذلك واشتد فرحهم وأخذت المنافقين الكآبة قال عبد الله بن عمر : فوالذي نفسي بيده لكأنما كانت على وجوهنا اغطية فكشفت ...

اقول وابشربادب الخليفة عمر كيف يقول متفيظاً « ان كان محمد الهكم » ثم ابشر بعرفته بالله كيف يمكنه في السماء ! .

في بلوى الخير والشر ، كما الرسول لهم بلوى .

وقد تلمح « لبشر » ان الخلد جائز لغير البشر كما الملائكة هم خالدون مدى الحياة الدنيا فلا يموتون ، ولا يعني الخلود الأبدية اللانهائية ، اذ لا يزعمها اي عاقل ولا مجنون ، وانما هو البقاء مدة طويلة ومنها طول الحياة الدنيا ، فذلك الخلود منفي عن كل بشر ، مهما ثبت لغير بشر .

فالموت شامل كل بشر « انك ميت وانهم ميتون » (٣٩ : ٣٠) مهما كان انتقالاً من حياة إلى أخرى ، ومن نشأة إلى أخرى دون موت الفناء ، اللهم إلا في صعقة الإ مائة حيث لا يستثنى منها إلا من شاء الله : « ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون » (٣٩ : ٦٨) .

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبَلُّوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ ٣٠ .

اترى « كل نفس » هنا تشمل كل نفس حية وسواها ، إلهية وسواها حيث اطلق على ذاته تعالى : « ويحذركم الله نفسه » (٣ : ٢٨) « تعلم ما في نفسي ولا اعلم ما في نفسك » (٥ : ١١٦) « واصطفتك لنفسي » (٢٠ : ٤١) ؟ « كتب ربكم على نفسه الرحمة » (٦ : ٥٤) ؟

كلما ! حيث النفس فيها وفي اضرابها لا تعني إلا نفس الكائن وذاته فلا تأتي إلا مضافة الى نفس الكائن ، حياً وسواه ، إلهياً وسواه ، فكما « يحذركم الله نفسه » كذلك : « استخلصه لنفسي » (١٢ : ٥٤) ورأيت الدار نفسها ، ووقع الجدار نفسه ، فبين النفس الذائقة الموت وهذه النفس الذات عموم من وجه تفرقان في الجماد ، اذ لا حياة له حتى يذوق

سورة الأنبياء / آية ٣٠ - ٤٧ ٢٩٧

الموت ، وفي الله فانه الحي الذي لا يموت ، وتجتمعان في الانفس الحية التي تذوق الموت .

فالنفس الذات لا بد لها من اضافتها الى الذات فلا تشملها غير المضافة كـ « كل نفس » مهما شملت المضافة غير الذات : « وما ابريء نفسي إن النفس لامارة بالسوء » (١٢ : ٥٤) « وكذلك سولت لي نفسي » (٢٠ : ٩٦) .

فالذات المقدسة الإلهية خارجة عن « كل نفس » كما الأنفس غير الحية ، حيث ان ذوق الموت ليس الا عن حياة ، والاضافة فيها تعني النفس الذات .

والنفس غير المضافة ، أو المضافة إلى غير ذاتها كاملة ، هي الجزء الحي من الكائن المركب من نفس وسواها ، سواء الروح ككل « ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها » (٩١ : ٧) أو الروح بخاصة من اوصافه ، كالنفس الامارة « ان النفس لامارة بالسوء » (١٢ : ٥٤) واللوامة « ولا اقسم بالنفس اللوامة » (٧٥ : ٢) والمطمئنة « يا ايها النفس المطمئنة » (٨٩ : ٢٦) ولان « كل نفس » غير مقيدة بواحدة من هذه الثلاث ، وان ذوق الموت هو لأصل النفس مصحوبة بهذه الثلاث ، فهو اذاً كل نفس حية ، وهي هنا المكلفة المبتلاة بالشر والخير ، الراجعة الى ربها ، فخاصة بالمكلفين من الملائكة والجنة والناس اجمعين ، مهما خُصّت الملائكة بالبقاء مدى الحياة الدنيا ، ولكنها قد تعرضها الصعقة إلا من شاء الله « ونفخ في الصور فصعق من في السماوات والأرض الا من شاء الله » (٣٩ : ٦٨) والصعقة بين موت وذوق الموت .

ثم « ونبلوكم » لا تنافي عصمة الملائكة وكما ابتلوا في قصة آدم ، ام انها خصوص بعد عموم ، فـ « نبلوكم » تخص غير الملائكة المعنيين بعموم

٢٩٨ الجزء السابع عشر

« كل نفس » والاول اولى ولا سيما لشموله من هم اعصم من الملائكة واعظم .

فلا تختص « كل نفس » بالنفس الإنسانية بشاهد اطلاق النفس عليها دون سواها ، فانها تشمل كل نفس مكلفة مبتلاة راجعة إلى الله ، وذوق الموت اعم من الموت نفسه ، فقد تذوقه ولا تموت موت الفوت ككل من يموت عن هذه الأدنى ، حيث الأرواح لا تموت فوتاً ، وانما تذوق موت أبدانها ، وفراقها عنها ، وقد تموت رديحاً ثم تحيى كما في صعقة القيامة « إلا من شاء الله » .

اجل « كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم .. » - « كل نفس ذائقة الموت ثم اليها ترجعون » (٢٩ : ٥٧) « كل نفس ذائقة الموت وانما توفون اجوركم يوم القيامة » (٣ : ١٨٥) .

ثم الموت قد يعني ذوقه نفسه ، كما في كل مونة عن الحياة الدنيا ، ام هو الفوت رديحاً قبل قيامة الأحياء ، أم يعنيهما ولا يخرج عن هذه الثلاث اللهم إلا موت الأبدن في النار مع النار ، حيث لا نار ولا اهل نار فانه موت الفوت ، دون الجنة فانها دار القرار .

﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ ؟

ذلك الخير حيث الخير كله بيديه ، فما هو - اذاً - الشر ، والشر ليس اليه ؟ .

فتنة الشر قد تكون جزاء وفاقاً لشر قبلها كما فتن بنو اسرائيل : « فانا فتنا قومك من بعدك واصلهم السامري » (٢٠ : ٨٥) فهذه شر بشر وهو خير في ميزان العدل مهما سمي شراً في ميزان الخلق لمكان ابتلاءهم فيها « كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون » (٧ : ١٦٣) .

وأخرى هي فتنة ملتوية صعبة ، لا تلائم النفوس في البداية ، ولكنها تبوء الى خير في النهاية كما يفتن المؤمنون بفقد الأجابة أما هيه مما هم متعلقون به ، مفتاقون اليه والعون فيه كما « قال ان الله مبتليكم بنهر » (٢ : ٢٤٩) ولقد مرض امير المؤمنين (عليه السلام) فعاده اخوانه فقالوا : كيف نجدك يا امير المؤمنين (عليه السلام) قال : بشره قالوا : ما هذا كلام مثلك ؟ قال : ان الله تعالى يقول : ونبلوكم بالشر والخير فتنة . . . « فالخير الصحة والغنى والشر المرض والفقر » (١) .

ومن البلاء الحسن نصر من الله « فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى وليبلي المؤمنين منه بلاء حسناً ان الله سميع عليم » (٨ : ١٧) .

ثم وفي واجهة عامة شاملة ، الدنيا بحذاقيرها فتنة وبلوى « إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً » (١٨ : ٧) « ولو شاء الله لجعلكم امة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم » (٥ : ٤٨) « ورفعنا بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم » (٦ : ١٦٥) « الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم ايكم احسن عملاً » (٦٧ : ٢) وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون » (٧ : ١٦٨) .

فلا كرامة في بلوى الخير ولا مهانة في بلوى الشر ، اللهم إلا بلوى العقوبات : « وأما الانسان اذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمنى ، وأما اذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهاننى ، كلاً . . . » (٨٩ : ١٥ - ١٦) وبلوى المثوبات « وليبلي المؤمنين منه بلاء حسناً » .

(١) نور الثقلين ٣ : ٤٢٩ في مجمع البيان عن ابي عبد الله (عليه السلام) ان امير المؤمنين (عليه السلام) مرض . . .

٣٠٠ الجزء السابع عشر

وترى الابتلاء بالشر ابلى او الابتلاء بالخير ، حقاً ان الابتلاء بالخير اشد وطأة وإن خُيِّل للبطاء عكسه ، فهناك كثيرون من المؤمنين يصمدون في فتنه الشر ، واما فتنه الخير فقلة قليلة تصمد لها ، فمن هذا الذي يصمد على قضية الإيمان في جراح القدرة الهائجة والسلطة المائجة إلا السابقون والمقربون ومن ثم اصحاب اليمين ؟ حيث الابتلاء بالشدة قد يثير الكبرياء ويستحث المقاومة ويجند الأعصاب ، ولكنها الرخاء ترخي الأعصاب وتفقد القدرة على اليقظة والمقاومة .

لذلك ترى هؤلاء الذين يجتازون الكثير من عقبات الشر والضر ، هم انفسهم ليسوا ليجتازوا عقبات فتن الخير ، فيسقطون في هوات الرعونات ، وينساقطون في مجالي الثروات والفرعنات ، وكما نراهم طوال التاريخ ، اعادنا الله من تلك الفتن العضال .

وكما نرى الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) يعجب من هؤلاء المؤمنين القلة قائلاً : « عجباً لامر المؤمن ان امره كله خير وليس ذلك لاحد إلا للمؤمن ، ان اصابته سراء شكر فكان خيراً له وان اصابته ضراء صبر فكان خيراً له » (١) .

« والينا ترجعون » كما منا تبدءون فـ « انا لله وانا اليه راجعون » فقد كنا قبل عالم الاختيار في خيرة الله ، إذ كنا أجنة في بطون امهاتنا ، ثم حللنا عالم الاختيار ثم التكليف الاختبار ، ومن ثم نرجع الى ما كنا دون خيرة فيه منا اللهم الا ما قدمناه لأنفسنا « وما عند الله خير وابقى » .

﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذَا يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ ٣٦ .

(١) رواه مسلم بسنده في كتاب الزهد والرقائق .

سورة الانبياء / آية ٣٠ - ٤٧ ٣٠١

« واذا رأوك ان يتخذونك إلا هزواً اهذا الذي بعث الله رسولا . إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا ان صبرنا عليها وسوف يعلمون حين يرون العذاب من اضل سبيلاً » (٢٥ : ٤٢) .

رجعة الى ما بدء به في هذه السورة من : كيف كان المشركون يستقبلون الرسول وبه يستهزؤن ؟ وذلك بعد شوط بعيد في سنن الدعوات ومصائر الغابرين ومصارعهم في صراع الحق .

« ان يتخذونك إلا هزواً » دون أن يحسبوا لك حساباً آخر ، كأنك مهزء لهم وملعب يتخذونك هزواً لأنك انت ، وانك تذكر آلهتهم بسوء « وهم بذكر الرحمن هم كافرون » حال انهم - وهم معترفون بالإله الرحمن - هم بذكر الرحمن هم كافرون ، ايماناً واختراماً بالآلهة الفروع ، وكفراً واختراماً بالإله الرحمن ^(١) .

وذكر الرحمن ، وجاء « يذكر آلهتكم » هو الذكر اللائق بالرحمن : « واذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا » (١٧ : ٤٦) كفراً بالرحمن ، ولكنهم بذكر آلهتهم مؤمنون ، وحين تذكر كما هي فهم مستائون ومستهزئون .

و « ذكر الرحمن » اضافة للمصدر الى مفعوله هو ان يذكر الرحمن ، وهو بتقدير اللام له ، مصداقاً آخران ، القرآن ونبي القرآن فانها افضل ذكر

(١) الدر المنثور ٤ : ٣١٩ - اخرج ابن ابي حاتم عن السدي قال مر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) على ابي سفيان وابي جهل وهما يتحدثان فلما رآه ابو جهل ضحك وقال لأبي سفيان هذا نبي بني عبد مناف فغضب ابو سفيان فقال : ما تنكرون ان يكون لبني عبد مناف نبي فسمعها النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فرجع الى ابي جهل فوقع به وخوفه وقال : ما اراك متهاياً حتى يصيبك ما اصاب عمك وقال لأبي سفيان اما انك لم تقل ما قلت إلا حية فنزلت هذه الآية .

للرحمن ، ثم وسائر الذكر آفاقية وانسية حيث تذكرنا الرحمن .

و « هم كفرون » تأكيد في تأنيب ، انهم الذين يستأثرون من ذكر آلهتهم بالحق تزييفاً لأنهم بهم مؤمنون ، كيف هم يكفرون بذكر الرحمن وحده وهم به مصدقون : « ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون » (٢٩ : ٦١) .

﴿ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأَرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ ٣٧ .

اترى ما هو العجل المخلوق منه الإنسان ، وعلى أي كان فلماذا يندد به الإنسان وهو من خلق الرحمن ؟ فهل انه مبالغة في مواصفته كانه مخلوق من عجل ؟ والمبالغة فيها شطر من الكذب وكلام الله منه براء ! ثم وكيف ينسب الله الى نفسه ما هو فعل الإنسان !

ام هو على القلب ان خلق العجل من الانسان ؟ وهو قلب لكلام الله ! وتغلب على ما رسمه الله ! اضافة الى مبالغة كاذبة !

«عجل» هنا هو المعجول به في نشأته إذ «خلق من ماء دافق» معجول به في إنزاله وكما أب الانسان الأول استعجل حيث خلق من عجل، وهو ترابه وروحه المستعجل في نضوجه^(١) ، فالعجل - إذا - في نشأته وذاته « ويدع الانسان بالشر دعاءه بالخير وكان الانسان عجولاً » (١٧ : ١١) منذ كان ماء دافقاً ، فهو

(١) المجمع عن ابي عبد الله (عليه السلام) ان آدم لما خلق وجعلت الروح في اكثر جسده وثب عجلان مبادراً الى ثمار الجنة وهم بالوثوب وفي تفسير القمي لما اجري في آدم الروح من قدميه فبلغت الى ركبتيه اراد ان يقوم فلم يقدر فقال الله « خلق الانسان من عجل » وفي الدر المنثور عن مجاهد في الآية قال : آدم - حين خلق بعد كل شيء آخر النهار من يوم خلق الخلق فلما اجري الروح في عينيه ولسانه ورأسه ولم يبلغ اسفله قال يا رب استعجل بخلقى قبل غروب الشمس .

سورة الأنبياء / آية ٣٠-٤٧ ٣٠٣

مستعجل بطلب ما يؤثره واستطراف ما يحذره ، والله سبحانه يعطيه ما طلب
ويصرف عنه ما رهب على حسب ما يعلمه من المصالح ، لا ما يهواه من المطالـح .

فالعجل في أصله خير تحريضاً له على الاستعجال في مسارح الخيرات ،
كدحاً منه في الطلب ، وكبحاً بلجام الصبر في مسارح الوقفة او الهرب .

فلا مأخذ على الله في خلق الانسان من عجل وفي عجل تضمنناً
لـلنجاح في طلبات الخير ، بل هو على الانسان الكادح غير الكابح في
مجالاته الحيوية حيث يدعو بالشر دعاءه بالخير وكان الانسان عجولاً .

ومن ذلك العجل الطالـح غير الصالح استعجال المكذبين بآيات الله
بعذابات الله ، ولها اجل مسمى : « ولولا اجل مسمى لقضي بينهم » ومن
قبلهم لهم آجال في الحياة الدنيا مستأجلة امهالاً وامسلاً وهم يستعجلونها !

« سأريكم آياتي » لوقتها « فلا تستعجلون » حينها بل وتسأجلونها ولات
حين مناص ، اذ قد مضى يوم الخلاص .

فالانسان بطبعه يمد ببصره ويده الى ما وراء اللحظة الحاضرة استعجالاً
لكل اجل وان كان فيه ضرره ، الا ان يتصل برحمة من الله ، ويكل امره
الى الله ، ويستسلم في كل عاجل وأجل لله ، ابتغاء مرضات الله .

فـ « اياك والعجلة بالأمور قبل أوانها ، والتساقط فيها عن إمكانها ، او
اللجاجة فيها اذا تنكرت ، او الوهن عنها اذا استوضحت ، فضع كل امر
موضعه ، وأوقع كل عمل موقعه » فـ « مع الثبـت يكون السلامة ، ومع
العجلة يكون الندامة ، ومن ابتدأ العمل في غير وقته كان بلوغه في غير
حينه » .

ثم ومـستأجل المستعجل هو كمستعجل المستأجل ، فليكن التعجيل
والتأجيل كل لوقته المؤجل .

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ٣٨ .

وترى ما هي الرباط بين صدق الوعد ومتاه وهم يرددون هذه القولة أمام الداعية كأنهم بذلك هم الغالبون ! .

و « هذا الوعد » قد يعم عاجله وآجله في عاجل الحياة وآجلها ، وعلى أية حال فهو وعد مجهول الامد ، معلوم البدد .

﴿ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُونُ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يَنْصُرُونَ ﴾ ٣٩ بَلْ يَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴾ ٤٠ .

« لو » قد تعني هنا استحالة علمهم بالزمن المحدد للوعد ، فالجواب مقدر ، لو يعلمون لكان شأنهم غير شأنهم المستهزء الشائن ، ام تعني تمني علمهم عرضاً لحالهم الظاهر من قلوبهم ، و « حين » على الوجين مفعول « يعلم » فلو يعلمون وقد نياشتهم النار من وجوههم وظهورهم ، في هذه المباغته لوعدهم ، حيث تلققهم النار وهم يلعبون : « او امن اهل القرى ان ياتيهم باسنا ضحي وهم يلعبون » (٧ : ٩٨) .

وانها مباغته تشل الارادة وتذهل العقول ، فلا هم يكفون عن وجوههم النار او عن ظهورهم ولا هم ينصرون في ذلك الكف ، اذا فتبهتهم النار التي احاطت بهم سرادقها « فلا يستطيعون ردها » بقوة ذاتية ام نصرة « ولا هم ينظرون » تأجيلاً وقد كانوا بها يستعجلون .

﴿ وَلَقَدْ اسْتَهْزَى بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ ٤١ .

تسلية لخاطر الرسول الأقدس (صلى الله عليه وآله وسلم) أن لست بدعاً من الرسل في هزئك « ولقد استهزء برسل من قبلك » ثم باغتهم

سورة الأنبياء / آية ٣٠-٤٧ ٣٠٥
العذاب في الأولى قبل الاخرى « فحاق بالذين سخرؤا منهم » نزولاً وحلولاً
« ما كانوا به يستهزئون » وهو العذاب الموعود ، وهو نفس استهزاءهم « ولا
يحيق المكر السيء الا باهله » (٣٥ : ٤٣) .

﴿ قُلْ مَنْ يَكْلُؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ
مُعْرِضُونَ ﴾^{٤٢} .

الكلاءة هي الحفظ للشيء وتبقيته ، فمن ذا الذي يحافظ عليكم من
الخطرات الناجمة لكم الهاجة عليكم إلا الرحمن الذي خلقكم ، « بالليل
والنهار » - « وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة » (٦ : ٦١) « ان
ربي على كل شيء حفيظ » (١١ : ٥٧) .

ف « قل من يلكؤكم .. من الرحمن » الا الرحمن وكما يقال : اعوذ
بك منك ! آمن يلكؤكم من بأس الرحمن .. « وان يمسك الله بضرف فلا
كاشف له إلا هو » (٦ : ١٧) فلا كاليء إلا الرحمن « بل هم عن ذكر ربهم
معرضون » فهم غافلون ألا كاليء لهم من الرحمن إلا الرحمن « فبأي آلاء
ربكما تكذبان !

﴿ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنْنَا
يُصْحَبُونَ ﴾^{٤٣} .

تلك الآلهة الواهة ، الجاهلة العاجزة الكالحة ، إذ لا يستطيعون نصر
انفسهم من بأس الرحمن « ولا هم منا يصحبون » ويجارون ، افهم
« تمنعهم من دوننا » وهم « آلهة من دوننا » ؟ آلهة من دوننا ، تمنعهم من
دوننا !

فحين لا كاليء لهم في الأولى وهي دار الاسباب والبلوى ، فكيف
- اذاً - بالاخرى وقد تقطعت الاسباب ، وحارت دونها الالباب ؟

﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾^(١) .

انه ليس لهم حول ولا قوة في منعهم من دون الله « بل متعنا هؤلاء وآباءهم » متاع الحياة الدنيا وزيتها فاترفوا فيها « حتى طال عليهم العمر » في متعهم واترافهم في كل اطرافهم ، فنسوا ذكر الله ، وذلك هو الابتلاء البعيد السحيق بالمتعة النعمة ، حيث تبدل نعمة ونقمة ، فقد بدلوا نعمة الله كفراً واحلوا قومهم دار البوار ، جهنم يصلونها وبئس القرار .

« افلا يرون انا نأتي الارض ننقصها من اطرافها . . . » - « وإما نرينك بعض الذي نعدهم او نتوفينك فإلما عليك البلاغ وعلينا الحساب . او لم يروا انا نأتي الارض ننقصها من اطرافها والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب » (١٣ : ٤١) .

ذلك الاتيان الرباني هو اتيانه بالقوة الفاهرة ارض الإنسانية لينقصها من اطرافها بعد اكملها باطرافها ، نقصاناً لناسها النسناس^(١) وهو من كمالها ، ام لناسها الناس كالعلماء الربانيين^(٢) وهو من نقصها ، وعلى اية الحالين فهو انتقاص من ارض عن ساكنيها قلة ام ثلة ، كما ومن نقصانها الزلازل والبراكين المدمرة المزججة لاطراف منها ، حيث تعني الاطراف محيطاتها الخائطة بها فهي - اذاً - كلها ، وذلك المثلث من نقصانها تهتد بمن يتمتعون كما الانعام ولا يرفعون ، فأوسطه للمسلمين الذين لا يسمعون ولا يعون من علماءهم والأختران للمكذبين بآيات الله الذين بدلوا نعمة الله كفراً .

(١) الدر المنثور ٤ : ٣١٩ عن الحسن يقول في الآية : ظهور النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) على من قاتله ارضاً ارضاً وقوماً قوماً .

(٢) في المجمع : وروي عن ابي عبد الله (عليه السلام) قال : نقصانها ذهاب عالمها .

وذلك من مسارح الغلبة الربانية على الذين هم عن ذكر ربهم معرضون « أفهم الغالبون » ؟ كيف ، ونحن نرى الأرض طول تاريخها الانساني تطوى فيها رقعة الدول المتغلبة المتألبة فتتحسر وتتقلص وتتنكس . فاذا هي ويلات في دويلات بعدما كانت امبراطوريات كالروماني والايрани ، واذا هي مغلوبة على امرها وقد كانت غالبية على آخرين .

﴿ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصَّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذِرُونَ ﴾ ٤٥ .

إنذار رسالي ليس إلا بالوحي ، دعاء لمن يسمع الدعاء ، فاحذروا أن تكونوا من الصم الذين لا يسمعون الدعاء فتطوى الأرض تحت اقدامكم ، وتقصر يد القدرة الربانية اطرافكم ، فتصبحون حيفة جيفة بعدما كنتم - كما تزعمون - في حياة ناعمة شريفة .

فلا قصور ولا تقصير في الانذار بالوحي ، وانما ذلك فيمن يُنذرون ولا يسمعون « ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون » (٨ : ٢٢) حيث تنازلوا عن السمع والعقل انسانياً ، فاصبحوا شر الدواب « لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم اعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها اولئك كالانعام بل هم اضل اولئك هم الغافلون » (٧ : ١٧٩) :

﴿ وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ ٤٦ .

« نفحة » فقط دون زيادة ، وهي النفحات الدنيوية بمختلف العذابات مستأصلة ودونها، وهي على أية حال نفحة من العذاب واصابة اليسير منه القصير ، دون نفسه الطويل العسير ، يدل واقعه على عظيم متوقعه ،

وشاهده على فطيع غائبة .

وهناك الويل والإعتراف « إنا كنا ظالمين » ولات حين مناص ، ! وقد مضى يوم الخلاص .

﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾^{٤٧} .

الموازين هي جمع الميزان : ما يوزن به ، و « القسط » عطف بيان للموازين ام وصف لها، وانما افردت تأشيراً الى وحدة الموازين في كونها قسطاً ، مهما كان لكل حالة وقالة وفعالة ميزان من نوعها هو القسط المعني منها ، كما « الوزن يومئذ الحق » حيث الحق هو الوزن ، فحق الصلاة وزن لها ، كما حق الايمان ام اياً كان هو حقه المرام ، كتاباً ونبياً هما الجناحان المحلقان على الحق المرام الطائران بنا الى الحق المرام .

فلذلك يجمع الوزن الحق بعده مفرعاً عليه : « والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فاولئك هم المفلحون . ومن خفت موازينه فاولئك الذين خسروا انفسهم .. » (٧ : ٩) .

ولان القسط هو فوق العدل فهو احق الحق ، فقد تلمح ان الله يثيب الصالحين اكثر مما عملوا قسطاً ، ويعاقب الطالحين اقل مما عملوا للحد الذي لا ينافي العدل .

فالحق القسط هما الموازين وهما متمثلان في كتابات الوحي ورجالاته^(١) ولكل جنبات من الميزان ، توزن بها الاقوال والاحوال والاعمال ثم لا وزن كما لا ميزان للباطل : « اولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت

(١) نور الثقلين ٣ : ٤٣٠ في معاني الاخبار باسناده الى هشام قال سألت ابا عبد الله (عليه السلام) عن الآية قال : هم الانبياء والاصياء .

سورة الأنبياء / آية ٤٨ - ٧٧ ٣٠٩

اعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً» (١٨ : ١٠٥) «فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية . وأما من خفت موازينه فأمه هاوية» (١٠١ : ٧) وكما يروى «الحسنات ثقل الميزان والسيئات خفة الميزان» .

فليس - اذاً - الميزان ما له كفتان ام اياً كان من وزن نتعوده فـ ان الاعمال ليست باجسام انما هي صفة ما عملوا . . «^(١) فانما هو القياس للحسنات على الحق والقسط ، فعلى قدر تمثلها فيها يكون الوزن ، ثم لا وزن للسيئات^(٢) اللهم إلا قياساً على سيئات لغير من خفت موازينه كأهل الاسلام (٢ و ٣) .

(١) البرهان ٣ : ٦١ في الاحتجاج عن ابي عبد الله (عليه السلام) في حديث له مع سائل يسأله قال : اوليس توزن الاعمال قال ان الاعمال . . وانما يحتاج الى وزن الشيء من جهل عدد الاشياء ولا يعرف ثقلها وخفتها وان الله لا يخفى عليه شيء قال فما الميزان ؟ قال : العدل ، قال : فيما معناه في كتابه : فمن ثقلت ؟ قال : فمن رجع عمله .

(٢) المصدر في روضة الكافي كلام لعلي بن الحسين (عليهما السلام) في الوعظ والزهد في الدنيا في الآية اعلّموا عباد الله ان اهل الشرك لا تنصب لهم الموازين ولا تنصب لهم الدواوين وانما يحشرون الى جهنم وانما نصب الموازين ونشر الدواوين لاهل الاسلام فانقوا الله عباد الله .

(٢) و (٣) الدر المنثور - اخرج جماعة عن عائشة ان رجلاً قال يا رسول الله ان لي مملوكين يكذبونني ويخونونني ويعصونني واضربهم واشتمهم فكيف انا منهم ؟ فقال له رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) : يحسب ما خانوك وعصوك وكذبوك وعقابك اياهم ، فان كان عقابك اياهم دون ذنوبهم كان فضلاً لك وإن كان عقابك اياهم بقدر ذنوبهم كان كفافاً لا لك ولا عليك وان كان عقابك اياهم فوق ذنوبهم اقتص لهم منك الفضل ، فجعل الرجل يبكي ويهتف فقال رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) اما تقرأ كتاب الله « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً . . . » فقال الرجل يا رسول الله ما اجد لي ولهم شيئاً خيراً من مفارقتهم اشهدك أنهم احرار .

٣١٠ الجزء السابع عشر

ومن قسط الموازين - حيث « لا تظلم نفس شيئاً » : « وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها » تصويراً لا صغراً تلحظه العيون ، تمثيلاً مثيلاً لا قسلاً الحسنات ، واما السيئات فلا يؤرق بصغائرها لمن ترك كبائرها : « ان تجنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم » (٤ : ٣١) وكذلك الكبائر المعفوة بتوبات ، وعله كذلك صغائر السيئات لمقترفي الكبائر ، فلا تكفيهم كبائرهم بأساً ، وذلك قضية الحق القسط لمقترفي السيئات (١) .

فلا يفلت عن الوزن ماله وزن « وكفى بنا حاسبين » حيث الحيلة العلمية والقدرة الآ محدودة وهو سريع الحساب .

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ أَنْفُرَقَانِ

وَضِيَاءَ وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ الَّذِينَ يَحْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ

(١) البرهان ٣ : ٦١ عن الطبرسي في الاحتجاج عن أمير المؤمنين (عليه السلام) في حديث له مع زنديق في جواب مسأله قال (عليه السلام) : واما قوله : ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً ، فهو ميزان العدل يؤخذ به الخلائق يوم القيامة يدين الله تعالى بعضهم من بعض ويجزئهم بأعمالهم ويقتص للمظلوم من الظالم ومعنى قوله : فمن ثقلت موازينه ومن خفت موازينه فهو قلة الحساب وكثرته والناس يومئذ على طبقات ومنازل فمنهم من بحاسب حساباً يسيراً وينقلب الى اهله مسروراً ، ومنهم من يدخلون الجنة بغير حساب لانهم لم يتلبسوا من الدنيا بشيء وانما الحساب هناك على من تلبس منها ههنا ومن بحاسب على النقيض والقطير ويصير الى عذاب السعير ائمة الكفر وقادة الضلال فاولئك لا يقيم لهم يوم القيامة وزناً ولا يعابهم لانهم لم يعباؤا بامرهم ونهيهم يوم القيامة فهم في جهنم خالدون تلفح وجوههم النار وهم فيها طالحون .

وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ
أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٠﴾ * وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ
مِّن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ
مَا هَذِهِ الثَّمَانِيَةُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا
أَبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ
فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنْ
الطَّالِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾
وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾
فَجَعَلَهُمْ جُودًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾
قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾
قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأَتُوا
بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَنْتَ
فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ

كَبِيرُهُمْ هَذَا فَعَلَوْهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿٦٣﴾
 فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ
 نَكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿٦٥﴾
 قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا
 يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ
 فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾
 وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَاهُ
 وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا
 لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً كُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾
 وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ
 الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا
 عَابِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا أَتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ
 الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْفَحْشَاءَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ

سَوْءٌ فَسِيقِينَ ﴿٧٦﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنْ
الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ
فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنْ
الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ
فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾

سرد لقصص من بعض المرسلين وما لا قوة وذاقوه من بأس المكذبين ،
وما نصرهم الله عليهم والعاقبة للمتقين ، تسلية لحاطر الرسول الاقدس
تأسياً بسنن المرسلين .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ^{٤٨} الَّذِينَ
يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ^{٤٩} .

« الفرقان » هو آية الرسالة الحقّة المعبر عنه هنا في التورات بـ « ضياءً وذكراً
للمتقين » : « ولقد آتينا موسى والفرقان لعلكم تهتدون »
(٥٣ : ٢) فليست التوراة بنفسها آية وفرقانا بين حق الدعوى وباطلها ،
وانما هو القرآن الذي هو بنفسه فرقان وضياءً وذكراً للمتقين ، ولذلك يعقبها
كلها بـ « هذا ذكر مبارك » ، وفرقان موسى هو ثعبان العصا واليد البيضاء
واضرابهما من آيات الله الكبرى ، وفرقان محمد (صلى الله عليه وآله
وسلم) هو القرآن : « وانزل التوراة والانجيل من قبل وانزل الفرقان »
(٤ : ٣) - « تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً »
(٢٥ : ١) .

٣١٤ الجزء السابع عشر

ثم « وضياء وذكرأ » يتمثلان في التوراة ورسول التوراة ، فليسا هما الضياء والذكر ككل ، وانما « ضياء وذكرأ » ولكننا القرآن الفرقان هو الضياء والذكر ككل « وهذا ذكر مبارك » كما هو الفرقان ككل .

و « الذين يخشون ربهم بالغيب . . » مواصفتان للمتقين المستضيئين بضياء والمتذكرين بذكر ، « يخشون ربهم » وهو « بالغيب » و « يخشون ربهم » وهم « بالغيب » عن المشاهد « ام « يخشون ربهم » بالغيب في قرارة انفسهم ، ام بسبب الغيب وهو الآخرة التي هم منها مشفقون ، محتملات اربع تحتملها كلها « بالغيب » باختلاف الجار والمجرور صدقاً ومصداقاً^(١) .

« وهم من الساعة » القيامة « مشفقون » خوفاً تشوبه الهيبة والعظمة .

﴿ وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴾ .

« ذكر مبارك » يحمل كل فرقان وضياء وذكر دون إبقاء ، فالبركة هي الرحمة الواسعة المباركة « انزلناه » بعد كتابات السماء وآياتها كلها ، وهي تشملها وزيادة قضية الخلود « أفأنتم » المألوفون بمرور الضياء وكرور الذكر والفرقان « له » الشامل لها كلها « منكرون » فباحرى ان تنكروها اذا « انتم له منكرون » .

فنكران القرآن الفرقان نكران لكل فرقان لاي نبي كان ، ولا مجال لنكرانه لكتابي حيث الالفة بوحى الكتاب تلزمه على الايمان به ولا سواه ، فانه آية بيّنة آلهية تدل على وجود الله لناكريه ، وعلى وحدته لمشريه ، وعلى وحيه الرسالي القمة للمتريدين فيه ، فهو الفرقان الضياء الذكر المبارك

(١) فالباء على الثلاثة الاول بين ظرفية وسببية ، وعلى الاخيرة سببية ، والغيب على الترتيب غيب الله - غيبهم عن الناس - غيبهم في انفسهم - غيب الآخرة .

الذي « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴾^(١) .

« من قبل » هنا قد يعني - فقط - من قبل موسى وهارون ، ولكنه ايضاح للواضح حيث القبلية الزمنية لابراهيم واضحة لدى الكل ! .

فقد تعني - فيما عنت - القبلية الرتيبة وأوليتها بالنسبة لموسى مهما شملت الزمنية ، وكما عبر عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) باول العابدين فقد « اوجس في نفسه خيفة موسى » ولم يوجس ابراهيم حين وضع في المنجنيق^(١) وابتلي بابتلاءات لم يتسل بها موسى ، وهذه من قبلته الرتيبة على موسى .

أم وقبلية في حياته ، ان رشده في الدعاية الصامدة التوحيدية كان قبل امامته ورسالته ، حيث كان في حضانة أزر وهو بعد طفل ، لم يبلغ مبلغ الرجال ولا الشباب ، فقد برزعت دعوتيه هذه منذ برزعت حياته العقلية الطفولية ، وذلك الرشده هو من عطيات الله .

« ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل » ولم تكن عطية مجانية فوضى ، بل « وكنا به عالمين » انه يوفي ويكفي أمانة الله .

(١) بحار الانوار ١٢ : ٣٥٠ عن اسماعيل بن الفضل الهاشمي قال سألت ابا عبد الله الصادق (عليه السلام) عن موسى بن عمران (عليه السلام) لما رأى جبالهم وعصيمهم كيف اوجس في نفسه خيفة ولم يوجسها ابراهيم (عليه السلام) حين وضع في المنجنيق وقذف به في النار ؟ فقال : ان ابراهيم (عليه السلام) حين وضع في المنجنيق كان مستنداً الى ما في صلبه من أنوار حجج الله عز وجل ولم يكن موسى (عليه السلام) كذلك فلهذا اوجس في نفسه خيفة موسى ولم يوجسها ابراهيم .

إذا فليس رشده المؤتى من لدنا « من قبل » فوضى جزاف ، بل انه حلّ محله اللائق اللابق ، وذلك هو الرشيد الرشيد لمن يتبعه الله رسولا الى خلقه ، انه يصنعه بعينه ورعايته ، ما يعبد طريقه الى الرسالة ، منذ أصلاب الآباء وأرحام الامهات حتى الولادة والطفولة والغلمة البالغة والكهولة والشيخوخة ، فسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا ، ولكي ياهل لحمل الامانة الكبرى ، متعباً نفسه فيها .

وهذه الآية بما بعدها حلقة رسالية شاخصة في ميادينها تحلق على تاريخها مقسمة الى مشاهد متتابعة بينها فجوات ، بادئة بسابق الرشيد لابراهيم في ذلك المسرح الصريح الجريء « وكنابه عالين » وباستعداداته لحمل الامانة الكبرى التي حملها المرسلون ، وهو صاحب الراية في الطليعة :

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ۖ ٥٢ .

وان بين قاله لآبيه آزر وقاله لقومه ردى من الزمن ، اذ قال لآبيه وهو تحت حضانته وكفالاته ولما يبلغ مبلغ الرجال والشباب ليخوض خضم المجتمع حتى يكون له قوم ، مهما كان القال نفس القال ، لوحدة المجال ، وداء الشرك العضال .

« اذ قال لآبيه يا ابت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا . يا ابت اني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني اهدك صراطاً سوياً » (١٩ : ٤٣) . « واذ قال ابراهيم لآبيه اتخذ اصناماً آلهة اني اراك وقومك في ضلال مبين » (٦ : ٧٤) . والتماثيل هي الاشباه ، اذ كانوا يعملون الصور المجسمة الشبيهة بذوات الأرواح ، وهي اشباح بلا ارواح ، وكيف يعكف ذوو الارواح لما يصنعونه من غير ذوات الأرواح ، وهم لأن يعبدوا لها أخرى من أن يعبدوها ، لأنهم اولاء صانعوها .

وفي انجيل القديس برنابا الحواري حوار بين ابراهيم وابيه أزر نذكر منها هنا مقتطفات^(١) .

و « ما هذه التماثيل » استجواب فيه تزييف آلهتهم التماثيل ، اجساداً بلا ارواح يعكف لها ذوو الارواح !؟ .

﴿ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا هَا عَابِدِينَ ﴾^{٥٣} .

قالوه عذراً لعكوفهم القاحل الجاهل على هذه التماثيل كسنة قومية محترمة بين الأقوام ، وذلك تحجراً عقلائي داخل القوالب التقليدية الميتة ، وتنازل عن العقلية الانسانية بل والحيوانية ، التي لا ترضى تذلل أمام الاذل الارذل ، المصنوع للعابد نفسه واضرابه .

﴿ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاءُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾^{٥٤} .

فالضلال المبين ، الذي يبين انه ضلال انه ليس لُتبِعَ مهما كان سنة الآباء ، وليست عبادة الآباء لأهم آباء بالتي تكسب هذه التماثيل قداسة

(١) الفصل ٢٦ : ٢٥ « كان ابراهيم ابن سبع سنين لما ابتدأ ان يطلب الله فقال يوماً لابيه يا ابتاه من صنع الانسان .. (٤٦) : اي شيء تشبه الالهة (٤٧) ؟ اجاب يا غبي اني كل يوم اصنع الهأ ابيعه لأخبرين لاشترى خبزاً وانت لا تعلم كيف تكون الالهة (٤٨) وكان في تلك الدقيقة يصنع تمثالاً (٤٩) فقال هذا من خشب النخل وذلك من الزيتون وذلك التمثال الصغير من العاج (٥٠) انظر ما اجمله الا يظهر كأنه حي (٢) حقاً لا يعوزه إلا النفس (٥٢) اجاب ابراهيم اذا يا أبي ليس للالهة نفس فكيف يهون الانفاس (٥٣) ولما لم تكن لهم حياة فكيف يعطون اذا الحياة (٥٤) فمن المؤكد يا ابي ان هؤلاء ليسوا هم الله .. (٥٧) ان كانت الالهة تساعد على صنع الانسان فكيف يتأتى للانسان ان يصنع آلهة (٥٨) واذا كانت الالهة مصنوعة من خشب فان احراق الخشب خطيئة كبرى (٥٩) ولكن قل لي يا ابت كيف وانت قد صنعت آلهة هذا عديدها لم تساعدك الالهة لتصنع اولاداً كثيرين فتصير اقوى رجل في العالم ... » .

وقيمة ، حيث القيم تنبع من الواقع المتحرر الطليق ، سواء عرفها الآباء ام جهلوها ، وليست مفتعلة تصبح سنناً متبعة مهما تواترت بين الآباء .

﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴾ ٥٥ .

ومجرد استفهامهم هذا دليل تجردهم عن الحق ، وعن اي برهان لما هم عليه ، فانه سؤال المزعزع العقيدة ، حيث لا يطمئن الى ما هو عليه ، تيه ينخبط فيه من لا يدينون دين الحق ، انحساراً وتخليفاً عن حكم الفطرة ، وانحصاراً بالاحكام التقليدية الفاحلة الجاهلة .

« اجئتنا بالحق » الناصع كما تدعيه « ام انت من اللاعبين » بعقائدنا ، تبديلاً لها الى اخرى من اضرابها ، ام من اللاعبين بالحق حيث تُظهر الباطل بمظهر الحق .

وقد يُعنى من الحق فيما يُعنى « الجِد » بقرينة اللاعبين ، هل انت مجد فيما تقول ام لاعب ، حيث الجِد بخلاف الآلهة بعيد عمن يعيش جو الاشراك .

﴿ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ ٥٦ .

بل جئت بالحق « بل ربكم رب السماوات والارض الذي فطرهن » لا هذه التماثيل التي انتم خلقتموهن ، وقد فطر الله الخلق كله بفطرة التوحيد ، ومنه الانسان المفطور على ذلك « وانا » المفطور على ما فطرهن « على ذلكم » الحق الناصع « من الشاهدين » والسماوات والارض هي كلها بمن فيها وما فيها « على ذلكم من الشاهدين » شهادة فطرية وعقلية وكونية اما هيه ، ولا تملك اية حقيقة هكذا شهود في كمها وكيفها ، ما يملكه التوحيد من شهود ، حيث الكون كله شهوده دون إبقاء ، الا من

تنازل عن فطرته وعقليته .

وعلى « فطرهن » جمعاً دون فطرهما ، لكي تشمل معها هذه التماثيل ، فهو -
إذاً - رب للعابدين والمعبودين سواء ، فكيف يُعبدون سواء ؟ .

فلست انا - فقط - الذي جاء بالحق في التوحيد ، بل الكون كله ،
ولست اقله دون ايمان كالذين « جحدوا بها واستيقنتها انفسهم » بل اشهد
به كما يشهد الشاهدون ، فلست انا من اللاعبيين ، بل جئتكم بحق مبين .
هذه شهادة ابراهيمية على التوحيد وانه الحق الجَدُّ ، وبالتالي يثنيها
بالواقع الذي توعدده .

﴿ وَتَأْتِيهِ لَآكِيْدَنَّا۟ اَصْنَامُكُمْۙ بَعْدَ اَنْ تَوَلَّوْا مُدْبِرِيْنَ ۝٥٧ ﴾ .

موقف جريء ما اجراه واجراه على يديه ، أمام تلك الحشود المحتشدة
المشرقة ، تاركاً ما اعتزمه من كيد الاصنام ، الأكيد ، مبهماً دون إفصاح ،
مما يضخم أبعاد الوعيد ، وكأنهم نظروا الى وحدته دون ناصر فوهدهته لو
اعتزم ، فلم يأخذوا وعيده بعين الاعتبار ، سناداً الى قوتهم وضعفه ،
لذلك لم يرجعوا له جواباً ، فلو كان لبان حيث الموقف موقف البيان .

كيد مؤكد لاصنامكم « بعد ان تولوا مدبرين » كما ولّوا وتركوه ،
تهويناً لكيده المعتزم وتهويناً لحقه المخترم وقبولاً لعذره الكائد المكتم « فنظر
نظرة في النجوم . فقال اني سقيم . فتولوا عنه مدبرين » (٣٧ : ٨٩) :

فلما هموا بالذهاب الى عيدين لهم ، طلبوا اليه ان يرافقهم فابى عن
الانسلاك في سلكهم بعذره العاذر : « اني سقيم » دوغماً سقم ظاهر ، إلا
سقم النفس واضطراب الحال وكسوف البال ، حيث كان يتقطع حزناً على
اشراكهم ، ويتميز غيظاً لانهم لم يلبوا نداءه ، وقد عقد عزمه ان يهدم
صرح آلهتهم التي آلهتهم ويقوِّض عرشهم ، لما رأى الحجة القولية لا تنفع

فاراد ان يشرك أبصارهم ببصائرهم ، وحواسهم مع اقتدتهم علهم الى
رشدهم يثوبون وعن غيهم يتوبون :

﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ٥٨ ﴾ .

خلى الجو من رصد العيون ، فدلف الى اصنامهم فوجد باحة قد
اكتظت بالتمثيل وانتشرت في ارجاءها الاصنام فخاطبها محترماً لشأنها « ألا
تأكلون ! ما لكم لا تنطقون » وأنى للحجارة ان تأكل او تنطق ، فأخذ يلطمها
بيده ويركلها برجله وتناول فأسا وهوى عليها يكسرها ويحطمها حتى جعلها
جذاذاً الا كبيراً لها في اجسادها ، ليجعلها جذاذاً في قلوب عابديها بذلك
الواقع ، بعد ان جعلها جذاذاً من ذي قبل بـ « ما هذه التماثيل التي انتم
لها عاكفون » جذاذات ثلاث تجث جذور الخرافة الشركية لو كانوا
يعقلون .

فلقد كاد اصنامهم بـ « افي سقيم . فتولوا عنه مدبرين » حتى خلى
الجو لما اعتزم ، ثم جعلهم جذاذاً قطعاً مكسورة مفتتة مهشمة « إلا كبيراً
لهم » يرأسهم كأنه إله الآلهة « لعلهم اليه يرجعون » حيث الموقف يتطلب
رجوعاً الى كبيرهم كمتهم في جعلهم جذاذ فيسألونه كيف وقعت الواقعة
وهو حاضر فلم يدفع عن صغار الآلهة ، ام هو الذي جعلهم جذاذاً ليقى
في الميدان وحده كما هو قضية الحال في تعدد الآلهة لو كانوا يشعرون :
« ولعل بعضهم على بعض » ! ثم رجوعاً الى ابراهيم الذي تركوه لحاله وهو
المتهم الثاني اذ لا حول ولا قوة لكبيرهم ، ومن ثم رجوعاً الى الله بعد
انتباهة هنا وهناك ، وضمير المفرد الغائب في « اليه » يتحمل الرجوع الى
كل من الثلاثة على الأبدال ، حيث الكل من بنود الرجاء لابراهيم وقد
حصل على الاولين تماماً ، وعلى الاخير بعضاً حيث زلزل اركان تقاليدهم
العمياء .

وبالفعل رجعوا إلى المعبد ، وبدل ان يرجعوا إلى انفسهم ان الالهة لا تُغلب ، إذاً فما هي بآلهة ، حيث الخرافة قد عطلت انفسهم عن انسانية التفكير ، وبدل ان يرجعوا إلى كبيرهم ثم إلى ابراهيم فالى الله ، فإذا هم يتساءلون فيما بينهم حائرين .

﴿ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ ٥٩ .

حكماً على من فعل هذا ايأ كان « انه لمن الظالمين » بلا اي عذر ولا عاذر ، حيث التغلب هكذا على الالهة ، وكسرهما عن آخرها إلا . . ان ذلك هو الظلم العظيم والضييم الحطيم فلنفتش عن الظالم ايأ كان اهو كبيرهم ام هو ابراهيم ؟

﴿ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴾ ٦٠ .

وهنا « سمعنا » دون : رأيناه او سمعناه و « فتى » دون رجلاً ، ثم « يقال له ابراهيم » دون ابراهيم ، هي توهينات ثلاث لكاسر الأصنام ، تجهيلاً لأمره وتصغيراً لشأنه وتعريضاً به انه « فتى » شاب وهذه الجرأة الظالمة هي من فعل الشباب ، مجهولاً لا يعرف « يقال له ابراهيم » كأنه اسمعه المستعار ، او ان معرفة اسمه عار ، ام انه في الاصل مجهول الاسم والرسم ليس له اي مقدار حتى يعرف بيننا باسم اورسم ، فانه مجهول حيثما دار .

وهي هي دابة دائبة عاثبة لمن يراد توهينه وتهوينه مهما كان فعله عظيماً ، اشعاراً بانه في نفسه صغير صغير ، مهما ارتكب الكبير الكبير .

« فتى يذكُرهم » بسوء ، وانه سوف يكيدهم فقد كادهم بالفعل ،

و « ابراهيم » رفعا فاعل « يقال »

﴿ قَالُوا فَاتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾ ٦١ .

فلقد تقاطرت الوفود ، وتكاثرت الجموع إلى اجساد الالهة وأجداثها ،

٣٢٢ الجزء السابع عشر

كلُّ يرغب في القصاص من ابراهيم ، فجاءوا به وسط الجمع الزاخر بالقمع
القاهر ، وأخذوا يحاكمونه استجواباً عن الطائفة الواقعة ، أمام الجماعة
المتغيظة التي تحرق الإرم حنقاً وغيظاً .

« فأتوا به » إيتاناً جاهراً « على اعين الناس » حيث يعاينونه في نفس
المشهد وقبل ان تفرقوا « لعلهم يشهدون » يشهدونه من هو هذا الجريء ،
ويشهدون عليه انه الفتى الذي كان يذكرهم ، فد « يشهدون » اقراره على
فعلته ، ثم « يشهدون » نكاله بفعاله ، كيلا يطمع طامعٌ بعدُ في فعلته ،
اجتثاءً لجذور هذه الضغينة الشكيمة بالآلهة ، ولكي يرتاح عابدها بما
يشهدون من نقمته .

شهادات اربع عليها معنية كلها حيث يتحملها اللفظ والمعنى ، فإن
« يشهدون » الأجرد عن متعلقات ، تعم كافة المتعلقات من شهادة نفسه
واققراره وعذابه والشهادة عليه انه هو لا سواه .

﴿ قَالُوا ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمَ ﴾ ٦٢

استفهام استنكار للأخذ بالاقرار حتى يشهدوا اقراره ، ليكون في
عزمهم على تحريقه إعدارهم ، و« آلهتنا » دون « الآلهة » كاعتراف منهم انه
كان ينكرهم .

وابراهيم الذي اصطنع ذلك الجلو الحاشد ، والمرح السائد ، تراه ماذا
عليه في الاجابة عن ذلك السؤال العضال ، حتى يحقق مأمله ؟ .

فهل يصارح بالواقع كما وقع : « أنا فعلت » وفي ذلك تهديم لصرح
الحجاج ، وتعجيل منهم لكل عقوبة ولجاج ، فيصبح ما صنعه باطلا يرجع
الى بوار ، فلا حجة تحصل ، ولا الرسول يبقى بل يُنكل ، حتى ان بقي فيما
فائدة بقية في حياة الرسول دون تحقيق لحجته ، بل والناكرون للتوحيد
يزدادون لجاجاً حين يرون آلهتهم جذاذاً دوغماً حجة ، تجعلها جذاذاً بها بعد

جذاذها في اجسادها !

أم يقول كذباً « بل فعله كبيرهم » باتاً في قوله ، والكذب فشل وخلل في الرسالة ، وسوء سابقة للرسول ، فلا يُعتمد على أقواله وإن كان الكذب مصلحياً ، ولماذا يكذب والحق يملك كل حجج الصديق دونما حاجة الى أي كذب ! والرواية القائلة انه كذب مطروحة او مؤلة ، لمخالفتها الآية ومسها من ساحة الرسالة الصادقة ^(١) .

عليه في ذلك المشرح المصّرع ان يأخذ امراً بين امرين تكون فيه نبتهم بحجة قارعة قاصعة في عاجله ، قبل ان يعزموا عليه نقمة لأجله ، وقد فعل فنسب الفعل في ظاهر الحال الى كبيرهم لكيلا يهجموا عليه دون امهال ولا مجال ، ثم جعل هذه النسبة في شرطية مشتملة على حجتين :

﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴾ ٦٣ .

لِي في الصديق ما أحراه بساحة الرسالة الصادقة ، حجة تجعلهم في لجة ، « بل فعله كبيرهم هذا . . ان كانوا ينطقون » - « فاسألوهم ان كانوا ينطقون » فقد « والله ما فعله كبيرهم وما كذب ابراهيم ، انما قال فعله

(١) الدر المنثور ٤ : ٣٢١ عن ابي هريرة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يكذب ابراهيم في شيء قط الا في ثلاث كلهن في الله : قوله اني سقيم ولم يكن سقيماً ، وقوله لسارة اخوتي وقوله بل فعله كبيرهم هذا وفيه عن ابي سعيد ان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : يأتي الناس ابراهيم فيقولون له اشفع لنا الى ربك ، فيقول : اني كذبت ثلاث كذبات فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ما منها كذبة الا حل بها عن دين الله ، قوله : اني سقيم بل فعله كبيرهم هذا وقوله لسارة انها اخوتي .

اقول : لقد صدق في : اني سقيم كما بيناه في آيته ، حيث سقم روحه في ضلالهم ، ثم في الحديث الثاني تضاد ، فإن لم يصلح ابراهيم للشفاعة لانه كذب ، فهو كذب غير معذور ، وان كان معذوراً في كذبه فتركه للشفاعة غير مشكور ! .

كبيرهم هذا ان نطق وان لم ينطق فلم يفعل كبيرهم هذا شيئاً»^(١) .

وهذه طبيعة الحال في الآلهة الناطقة الحية ان كبيرهم يصرع شركاءه ليتوحد هو بالآلهية : « وما كان معه من إله اذاً لذهب كل اله بما خلق ولعل بعضهم على بعض سبحانه الله عما يصنعون » (٣٣ : ٩٤) .

ثم « ان كانوا ينطقون » فهم احرى ان يُسألوا من فعل بهم هذا ، اذاً « فاسألوهم ان كانوا ينطقون » ولا تسألوني أنا، شرطية صادقة باهرة تحمل حججاً قاهرة : فاسألوهم هل قتلهم كبيرهم ام سواه ، ولا بد لهم من اجابة « ان كانوا ينطقون » فاذا لا ينطقون فما هم بآلهة ، ولو نطقوا فليس إلا كبيرهم فعله قضية التغالب في آلهة عدة ، دون عبيد كامثال ابراهيم .

فعدم نطقهم ، وجعلهم جذاذاً بفعل ابراهيم ، هما برهانان اثنان انهم اضعف من احد من العباد فكيف يعبدهم العباد .

فلقد فسحت هذه الشرطية الجميلة الجميلة تلك المجالات الفاسحة لاحتجاج ابراهيم على من حضر من عبدة الأصنام ، ولا شك ان اجتماع القوم في صعيد واحد كان أمنية ابراهيم التي طالما جاشت نفسه بها وتوخاها ليقيم عليهم الحجة جميعاً .

ويا لها من تهكم ساخر يهزمهم هزءً وهزءً هزأً ، حيث يحمل برهاناً صارخاً صارخاً في الحشد انها ليست بآلهة اذ لا تنطق ولا تحافظ على انفسها ، فضلاً عن أن تنطق بصالح عبادها ، والحفاظ على مصالحهم .

(١) نور الثقلين ٣ : ٤٣١ عن تفسير القمي في الآية : فقال الصادق (عليه السلام) والله

فقل كيف ذلك ؟ فقال : انما قال ... اقول : ان كانوا راجع الى كلتا الجملتين : فعله فاسألوهم ..

وهنا نرى تلك الأنفس الفالطة عن عقولها ، المتخبطة في كل حقولها ،
ترجع الى انفسها عند الجواب الحاسم القاصم :

﴿ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ ٦٤ .

بادرة خير في انفسهم الخاوية ان يحكموا بظلمهم انفسهم دون ابراهيم ،
حيث « انتم » تحصر « الظالمون » فيهم ، تبرئة لساحة ابراهيم عن الظلم فيما
فعل ، بل هو العادل فيما فعل حيث رجعنا إلى انفسنا واشعرنا بظلمنا
انفسنا .

فاتحة فيها بارقة الأمل كما تفأل : « لعلهم اليه يرجعون » تفتحاً
لبصائرهم لأول مرة في حياتهم المشتركة ، وتدبراً في ذلك السخف الذي كانوا
عنه صادرون ، والظلم الذي كانوا هم فيه سادرون ، وقد قالوا من قبل
« من فعل هذا بآلهتنا انه لمن الظالمين » فما مضى إلا آونات حتى حكموا على
انفسهم : « انكم انتم الظالمون » وما أحلاه كلمة حق على لسان المبطل
بحجة رسالية وامضة كهذه ، تجعل حججهم داحضة وتراهم « فقالوا » كل
للآخر ؟ والكل غرقى في لجة الحجة ! ولم يكونوا ليصارحوا بهذه النكسة أمام
ابراهيم ! ام كل لنفسه في نفسه ؟ وهذه قضية الموقف ، و« انفسهم » دون
« بعضهم الى بعض » كما « اقبل بعضهم على بعض يتلاومون . قالوا يا
ويلنا انا كنا طاغين » (٦٨ : ٣١) دون « على انفسهم » .

وقد تعني « انفسهم » هنا ما عنته « فاقتلوا انفسكم » رجوعاً لكل الى
نفسه ، ثم الى الآخرين دون مصارحة تُعرف ، في لمحات واشارات فيما
بينهم ، ولكن ابراهيم وهو شيخ العارفين عرف رجوعهم الى ذات انفسهم
فضلاً عن اشاراتهم لمن سواهم ، ومن ثم ادركتهم الحيرة وعقد الحصر
الستهم فاطرقوا برؤسهم منكبين واستجمعوا شارد عقولهم :

﴿ ثُمَّ نَكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَتَّبِقُونَ ﴾ ٦٥ .

ويا لها من نكسة على الرئوس بعد رجعة الى النفوس ، ثم قاله صارخة بتأكيد الخطاب « لقد علمت ما هؤلاء ينطقون » ارتكاسة مثلثة الزوايا بحجة واحدة في المسرح كان فيها مصرعهم لو ظلوا متبهيين ، وهذا وصف ما لحقهم من الخضوع والاستكانة والإطراق عند لزوم الحجة وقد شُبَّهوا بالمتري على رأسه ، تدويحاً بنصوع البيان ، وإبلاساً عند وضوح البرهان .

وهنا ينتهز الداعية الواعية بكلمتين كالميتين كحجة اخيرة فيها كل تأنيب على ضلالتهم :

﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ ۖ أَفْ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۚ ﴾ ٦٧

« اتعبدون ما تنحتون . والله خلقكم وما تعملون » (٣٧ : ٩٦) فعبادة الإله ، اما هي لاستجاء نفع وليست هي نافعة لأنفسها فضلاً عن عابديها ، ام لاستدفاع ضرر ، وليس هي ضارة ، بل منضرة كما جعلت جذاذاً ، ام لكمال ذاتي وان لم تنفع او تضر ، وهي ميتة لا تشعر ، ام وحتى لو كانت تشعر فكيف تعبد وهي لا تنفع ولا تضر ، « أف لكم » تضجراً وتبرماً لصنيعكم ، « ولما تعبدون من دون الله » فقد ضعف الطالب والمطلوب ، « أفلا تعقلون ؟ »

وانها قاله في حالة تقتضيها قضاء حاسماً ، استعجاباً من السخف الذي يتجاوز كل مألوف ويتجاهل كل معروف ، فضربة صارمة قاضية عليهم يفيقون ، ام يفعلون كما يشتهون .

هنالك احترقوا بما فعل ، فاخذتهم العزة بالاثم ، تجاهلاً عما قالوه ، وتغافلاً عما فعلوه ف :

﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ۚ ﴾ ٦٨ .

« قالوا ابنوا له بنياناً فألقوه في الجحيم » (٧٩: ٣٧) تحريقاً عريقاً كما احرق اكبادهم حيث جعل آلهتهم جذاذاً كوناً وكياناً ، وجعلهم جذاذاً فيما كانوا يعتقدون ، فلم يجدوا بداً إلا ان يؤمنوا وهم لا يؤمنون ، او يعكسوا امر الحرق عليه وقد فعلوا زعم انهم قاهرون .

ويا لها من آلهة كالحة ينصرها عبادها بعد جذاذها ! وذلك التحريق هو في الحق تحريق لأحداث الآلهة بعد جذاذها، ان لا حول لها ولا قوة ، حيث هي بحاجة الى نصره عبادها ، وليسوا لينصروها ولو احرقوا ابراهيم !

« قالوا » وافتعلوا ما بمكانتهم من بنيان الجحيم ، فلما القوه في الجحيم اصبحت جنة بقالة تكوينية :

﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ ٦٩ .

وهنا يطوي السياق الحال بين القالين ، مما يلمح ان لم يكن لابراهيم مقال آخر معهم ، ولا مقال مع آخر ، وإنما هي الحال والله يرى الحال على أية حال .

في هذه الحالة المخرجة يروي النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عن جبرئيل (عليه السلام) قال : لما اخذ غرود ابراهيم ليلقيه في النار قلت يا رب عبدك وخليلك ليس في ارضك احد يعبدك غيره ، قال الله تعالى : هو عبدي آخذه اذا شئت ، ولما ألقي ابراهيم (ع) في النار تلقاه جبرئيل (عليه السلام) في الهواء وهو يهوي الى النار فقال : يا ابراهيم لك حاجة؟ فقال : اما اليك فلا، وقال : يا الله يا احد يا صمد يا من لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً احد نجني من النار برحمتك، فأوحى الله تعالى الى النار : كوني برداً وسلاماً على ابراهيم^(١) .

(١) بحار الأنوار ١٢: ٣٩ بسند عن ابي عبد الله (عليه السلام) قال =

اجل « اما اليك فلا واما الى رب العالمين فنعم »^(١) .

«قلنا» هنا وفي اضرابها من الأمور التكوينية هي الارادة القاطعة الإلهية ، فالذي قال للنار كوني حرقاً وإيلاًماً ، هو القائل هنا «كوني برداً وسلاماً» والنار هي النار ، وقد تلمح له «على ابراهيم» إذا فلم تبرد النار حتى تتحول عن ماهية النار ، بل بقيت ناراً حارة إلا على ابراهيم ، ولو لم يقل «سلاماً» بعد «برداً» لأثلجت ابراهيم ببردها ، ولكنها البرد السلام فاصبح ابراهيم كانه في روضة خضراء معتدلة الهواء ، اصطيفاية الفضاء^(٢) .

= اخبرني ابي عن جدي عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عن جبرئيل قال : ... وفيه (٣٥) عن الرضا (عليه السلام) قال : ان ابراهيم لما وضع في كفة المنجنيق غضب جبرئيل (عليه السلام) فاوحى الله عز وجل : ما يفضبك يا جبرئيل ! قال : يا رب خليلك ليس من يعبدك على وجه الارض غيره سلطت عليه عدوك وعدوه فاوحى الله عز وجل اليه : اسكت انما يعجل العبد الذي يخاف الفوت مثلك ، فاما انا فانه عبدي آخذه اذا شئت قال : فطابت نفس جبرئيل فالتفت الى ابراهيم (عليه السلام) فقال : هل لك حاجة ، فقال : اما اليك فلا ، فاهبط الله عز وجل عندها خاتماً فيه ستة احرف « لا اله الا الله - محمد رسول الله - لا حول ولا قوة الا بالله - فوضت امري الى الله - اسندت ظهري الى الله - حسبي الله » فاوحى الله جل جلاله اليه ان تختم بهذا الخاتم فاني اجعل النار عليك برداً وسلاماً . اقول وليس هذا الا خاتماً بيد خاتم حيث ابراهيم (عليه السلام) اصبح تجسداً لهذه الكلمات .

(١) وفيه عن تفسير القمي مثله الا فيما نقلناه وقبله : هو عبدي آخذه اذا شئت فان دعائي اجبته فدعى ابراهيم بسورة الاخلاص : يا الله يا واحد يا احد يا صمد يا من لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً احد نجني من النار برحمتك .

(٢) نور الثقلين ٣ : ٤٣٦ عن كمال الدين وتمام النعمة عن مفضل بن عمر عن الصادق (عليه السلام) قال سمعته يقول اتدري ما كان قميص يوسف (عليه السلام) قال قلت : لا قال ان ابراهيم (عليه السلام) لما اوقدت له النار نزل اليه جبرئيل =

فما يروى انه « ما انتفع أحد بها ثلاثة ايام وما سخنت ماءهم »^(١) كانه هباءً وهُراء، حيث النار الابراهيمية كانت تحرق غيره فضلاً عن كل نار سواها، ولو بردت النيران كلها لتواترات فوق كل ما حدث في تاريخ الإنسان ! ثم لم يكن اذاً في برد النار على ابراهيم آية معجزة لو ان النيران بردت كلها، بما في ذلك البرد الشامل من ضرر على سكنة الأرض دونما فائدة لهذه الآية المخارقة إلا باثنية تقضي على كونها آية قضية الشركة بينها وبين سائر النار .

هذه آية إلهية ابراهيمية دون شك، لا تتحمل أي تأويل يجعلها خارجة عن خارقة، مثل أن تخلي ابراهيم عن كل ما سوى الله حتى عن نفسه جعله لا يشعر بحرق النار، حيث احرقته ولم يشعر أو لم تحرقه قضية الانقطاع عن

= بالقميص والبسه اياه فلم يضر معه حر ولا برد وفيه عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ان غرود الجبار لما القى ابراهيم في النار نزل اليه جبرئيل بقميص من الجنة وطفنسه من الجنة فالبسه القميص واقعدته في الطنفسة وقعد معه بمحدثه .

(١) في الدر المنثور عن عائشة ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : ان ابراهيم حين القى في النار لم تكن في الأرض دابة لا تطفئ عنه النار غير الوزغ فانه كان ينفخ على ابراهيم فامر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بقتله ! .

وفي بحار الانوار ١٢ : ٣٨ بسند عن ابي عبد الله (عليه السلام) قال : لما قال الله عز وجل : يا نار كوني برداً وسلاماً على ابراهيم « ما انتفع احد بها ثلاثة ايام وما سخنت ماءهم ورواه مثله عن ابي جعفر الباقر (عليه السلام) وفيه : لم يعمل يومئذ نار على وجه الأرض ولا انتفع بها احد ثلاثة ايام . . .

(أقول : ويقابلها المروي فيه عن الرضا (عليه السلام) قال : لما رمى ابراهيم في النار دعا الله بحقنه فجعل الله النار عليه برداً وسلاماً « والمروي عن الباقر (عليه السلام) في حديث^(٢) فنزل جبرئيل يحدته وسط النار قال غرود من اتخذ لها فليتحذ مثل آله ابراهيم فقال عظيم من عظمائهم إني عزمت على النيران ألا تحرقه قال : فخرجت عنق من النار فاحرقته . . .

حياة البدن ٩ .

ولكنها حالة ابراهيمية تقتضي البرد والسلام ، لا القالة الربانية ، وهي على أية حال لا تقتضي البرد مهما اقتضت زوال الحر ، فان قصارى هذه الحالة ألا يتأثر بحر النار ، لا ان تبدل برداً وسلاماً ! .

وكالقول ان في ذلك تضاداً في النار لحالة واحدة ، انها محرقة كل محترق سوى ابراهيم ، وكما احترقت وثاقه الملقى به في النار ولم تحرق نفسه^(١) .

وليس في نسبية الإحراق تضاد التناقض حتى يكون من المحال ، وما سواه ممكن بجانب القدرة الإلهية على أية حال ، كما الزمهرير في النار والنار معه لا يتناحran .

أو انه ألبس قميصاً من صنيع الله هو ضد الحرارة^(٢) ولا بأس به حيث الخارقة الإلهية لا تحرق ضوابط العلية والمعلولية ، وانما تقفزها قفزة لا يستطيعها إلا الله ، ولكن القميص ضد الحرارة لا يمنع المواضع الخارجة عنه ، فعلى أية حال كُوت النار على ابراهيم برداً وسلاماً بما اراد الله بقميص وغير قميص ! .

﴿ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴾ ٧٠ .

(١) الدر المنثور ٤ : ٣٢٢ - اخرج ابن ابي شيبة وابن جرير وابن المنذر عن كعب قال : ما احترقت النار من ابراهيم إلا وثاقه وفي نور الثقلين ٣ : ٤٣٩ - القمي عن الصادق (عليه السلام) في حديث النار فاذا هم بابراهيم مطلقاً من وثاقه ...

(٢) بحار الانوار ١٢ : ٤٠ تفسير الإمام ١١٥ قال الإمام قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في احتجاجه على اليهود بمحمد وآله الطيبين نجى الله تعالى نوحاً من الكرب العظيم ، ويرد الله النار على ابراهيم وجعلها عليه برداً وسلاماً ومكنه في جوف النار على سرير وفرش وثير لم ير ذلك الطاغية مثله لاحد من ملوك الأرض وانبت من حوالبه من الاشجار الخضرة النظرة الزهية وغمر ما حوله من انواع النور بما لا يوجد الا في فصول اربعة من السنة .

« فجعلناهم الأسفلين » (٣٧ : ٩٨).

هم « ارادوا به كيداً » ليحرقوه احراقاً لدعوته ، واجشاثاً لدعايته
« فجعلناهم الأخسرين » احراقاً لأكبادهم في ذلك المسرح الصارخ الصارخ
حيث يسمعه كل العالمين .

﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾^{٧١}.

لقد ضرب السياق عن مصير ابراهيم بعد البرد السلام صفحاً ، وقضية
الحال ان الطاغية لم يسطع ان ينكل به بعد حيث أرغم في اشد نكاله به ،
« ونجيناه » هنا اجمال عن نجاته من يد الطاغية « نجيناه » من بابل غرود
« ولوطاً » من سدوم وهي « القرية التي كانت تعمل الخبائث »^(٧٤) نجيناها
« الى الأرض التي باركنا فيها للعالمين » وهي القدس الشريف او فلسطين
ككل وهي الشام في اطلاقها العام ، الشاملة للأردن وسوريا ولبنان .

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴾^{٧٢}.

هذه الوهبة المباركة بجمعية الصفات ، اللامعة لمجموعة من الرحمات ،
هي « نافلة » : زائدة على سائر هباته الموهوبة ، هبة منفصلة بعد متصلة ،
هي استمرارية للكيان الابراهيمي على طول خط الرسالة العظيمة
الاسرائيلية التي تضم الوفا مؤلفة من النبيين والمرسلين .

وقد تعني « نافلة » فيما عنت-نسبة إلى « اسماعيل » فانه أول وهبة زمنياً
ورتيبياً : « فارادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين » . وقال اني ذاهب الى ربي
سيهدين . رب هي لي من الصالحين . فبشرناه بغلام حلیم . فلما بلغ معه
السعي . . . وبشرناه باسحاق نبياً من الصالحين . وباركنا عليه وعلى اسحاق
ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين » (٣٧ : ٩٨ - ١١٧).

إذاً « وكلاً جعلنا صالحين » تحقيق لسئوله في سؤاله : « رب هب لي
من الصالحين » وهم اسماعيل واسحاق ويعقوب ومن في ذريتهم من رسل

٣٣٢ الجزء السابع عشر

واثمة ونبيين ، فهذه الهبة تحلق على كافة الرسالات والقيادات المعصومة منذ اسماعيل واسحاق ويعقوب إلى كافة المرسلين الاسماعيليين والاسرائيليين ، وهاتان الرسالتان هما كل خطوط الرسالات الإلهية منذ ابراهيم الى يوم الدين .

ويا لها من هبة عظيمة قائمة الأصول ، منتشرة الفروع، حيث تشمل كافة الرسالات والإمامات ، اصالة في الاسماعيلية المحمدية مهما كانت خاتماتها ، وفرعاً في الإسحاقية الاسرائيلية ، مهما كانت من بدايتها ، هكذا :

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴾ (٣) .

و « هم » في ذلك الجعل العظيم : ابراهيم واسماعيل ومحمد والمعصومون من عترته ، كذلك واسحاق ويعقوب والمرسلون من عترته ، مهما اختلفت درجات الإمامة والهداية بأمر الله بينهم ، فمنهم أئمة اربعة من اولى العزم من الرسل محمد وإبراهيم وموسى وعيسى ، ثم الاثنى عشر المحمديون ، وهم في درجته العليا إلا الوحي ، ومن ثم اسماعيل واسحاق والرسل الاسرائيليون .

فحين يفسر « هم » بأئمتنا المعصومين (١) فهو تفسير باصدق المصاديق

(١) نور الثقلين ٣ : ٤٤١ في كتاب المناقب عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) حديث طويل في فضل علي وفاطمة (عليهما السلام) وفيه قال (صلى الله عليه وآله وسلم) : وارزقهما ذرية طاهرة طيبة مباركة واجعل في ذريتهما البركة ، واجعلهم أئمة يهدون بأمرك الى طاعتك ويأمران بما يرضيك وفيه في اصول الكافي عن ابي عبد الله (عليه السلام) قال : ان الأئمة في كتاب الله عز وجل امامان قال الله تبارك وتعالى « وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا » لا بأمر الناس ، يقدمون ما امر الله قبل امرهم وحكم الله قبل حكمهم قال : وجعلناهم أئمة يدعون الى النار - يقدمون امرهم قبل امر الله =

واعلاها بعد الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وبعدهم هم كافة

= وحكمهم قبل حكم الله ويأخذون باهوائهم خلاف ما في كتاب الله ، وفيه وفي العيون عن الرضا (عليه السلام) في حديث الامامة قال : ثم اكرمه الله عز وجل يعني ابراهيم بأن جعلها يعني الامامة في ذريته واهل الصفوة والطهارة فقال عز وجل : « ووهبنا له اسحاق ويعقوب نافلة وكلا جعلنا صالحين وجعلناهم ائمة يهدون بامرنا واوحينا اليهم فعل الخيرات واقام الصلاة وايتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين » فلم تنزل في ذريته يرثها بعض عن بعض قرناً قرناً حتى ورثها النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال الله جل جلاله : ان اولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المتقين فكانت خاصة ...

وفي تفسير البرهان ٣ : ٦٥ ابن بابويه بسند متصل عن زيد بن علي قال كنت عند ابي علي بن الحسين (عليهما السلام) اذا دخل عليه جابر بن عبد الله الانصاري فيبينما هو يحديثه اذ خرج اخي محمد من بعض الحجر فاشخص جابر ببصره نحوه ثم قال يا غلام اقبل فاقبل ثم قال ادبر فادبر فقال شمسائل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ما اسمك يا غلام ؟ قال : محمد قال : ابن من ؟ قال ابن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب (عليهم السلام) قال : اذن انت الباقر (عليه السلام) فاتكى عليه وقبل رأسه ويديه ثم قال يا محمد ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقرئك السلام ، قال : وعلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) افضل السلام وعليك يا جابر بما فعلت ، ثم عاد الى مصلاه فاقبل يحدث ابي ويقول ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال لي يوماً يا جابر اذا ادركت ولدي محمداً فاقرأه مني السلام اما انه سمي واشبه الناس بي علمه علمي وحكمه حكمي سبعة من ولده امناء معصومون ائمة ابرار السابغ منهم مهديهم الذي يملأ الارض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً ثم تلا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : وجعلناهم ائمة يهدون بامرنا واوحينا اليهم فعل الخيرات واقام الصلاة وايتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين .

وفيه محمد بن العباس . . عن ابي جعفر (عليه السلام) في الآية قال (عليه السلام) يعني الأئمة من ولد فاطمة (عليها السلام) يوحى اليهم بالروح في صدورهم ثم ذكر ما اكرمه الله به فقال : فعل الخيرات .

الرسول الإبراهيميين .

« وجعلناهم » هؤلاء المصطفين - ككل - من ذكروا هنا ومن يُذكروا
« أئمة يهدون بامرنا » فكما « جعلناهم أئمة بامرنا » كذلك هم « يهدون
بامرنا » فان « بامرنا » متعلق بكليهما ، فالإمامة المجعلولة بأمر الله ، هي
الهادية بأمر الله ، هدى معصومة من امامة معصومة لا قصور فيها ولا
تقصير ؛

فليست الإمامة الهادية بامر الأمة شورى وسواها ، ولا بأمر الإمام معصوماً
وسواه ، وانما الإمامة بجعل الله ، وهدايتها بأمر الله لا سواه وحتى رسول الله
(صلى الله عليه وآله وسلم) ، اذ لا يسمح له ان يجعل إماماً معه أم يخلفه
بعده .

و « يهدون » يعم التكوينية وهي الايصال الى الهدى ، الى جانب
التشريعية وهي الهدى نفسها ، فهم يهدون الناس بشرعة الله بامر الله ،
ويهدونهم توفيقاً للهدى بأمر الله ، فلا هم انفسهم يهدون تشريعياً ولا
تكوينياً ، وانما هم اداة رسالية بياناً لشرعة الله ، وايضالاً الى هدى الله :
« انك لا تهدي من احببت ولكن الله يهدي من يشاء » (٢٨ : ٥٦) ف « ليس
لك من الأمر شيء » (٣ : ١٢٨)

وكما ان كلتا الهديتين للأئمة رسلاً وسواهم ، هما بوحى الله وامره ،
كذلك « فعل الخيرات واقام الصلاة وإيتاء الزكاة » حيث « اوحينا اليهم فعل
الخيرات . . . لا - فقط - كيف يفعلون ؟ فانه وحي الشرعة ، بل نفس ما
يفعلون ، فانها بوحى الله ، عصمة وتسديداً من الله ، وليس ذلك الوحي
فوضى جزاف دوئماً صلاحية لهم مسبقة ، بل « وكانوا لنا عابدين » قبل مثلث
الوحي ، حتى استحقوه فاصطفاهم الله له رسالياً أم سواه .

هذه هي الامامة المعصومة لا تجعل إلا بأمر الله ، كما هدايتهم للناس
بأمر الله بنص خاص ، ولتكن كذلك الإمامة غير المعصومة في أية درجة من

درجاتها بأمر الله ، ان تنطبق على النصوص الواردة في شروط الامامة ، حيث القيادة الروحية هي من اختصاصات الربوبية ، فلا تصلح لمن سواه إلا بأمره .

﴿ وَلَوْطاً آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ ﴾ ٧٤ .

عل «حكماً» هو حكم القيادة الروحية «وعلماً» علمها بماذا يقود وكيف يقود وهذه هي الإمامة و «القرية» هي سدوم و «تعمل الخبائث» مؤثراً قضية ادب اللفظ، حيث خلقت خبائث أهلها جوهاً تماماً لحدّ كانها كانت تعمل الخبائث، ثم و «انهم» مذكراً قضية المعنى وهم عاملوا الخبائث «كانوا قوم سوء فاسقين» . . . «نجيناه الى الأرض التي باركنا فيها للعالمين» فكان مع ابراهيم وفي حضن رسالته وامامته ، مع انه ايضاً كان اماماً لأمة .

﴿ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ٧٥ .

وهكذا يكون دور كل صالح في ميزان الله انه يدخله في حرمة قدر صلاحه وصلوحه ، رحمة في النشأت الثلاث ، والرحمة الأخيرة هي حق الخلاص .

﴿ وَنُوحاً إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ ٧٦ .

«ونوحاً» ومن بعده عدة من هؤلاء الأئمة ، منصوبين إعراباً لأنهم منصوبون كسائر الأئمة في «جعلناهم أئمة» .

«ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون» (٣٧ : ٧٥) «نادانا» بقوله «رب اني مغلوب فانتصر» فحملناه على ذات السواح ودر . تجري باعيننا جزاء لمن

٣٣٦ الجزء السابع عشر

كان كفر « (٥٤ : ١٤) » والكرب العظيم « هو الغم الشديد واهم المديد من تماديه في الطغيان ، وهو الطوفان الشامل ، كما « واهله » أهل كفرية على ثاني الكربين ، ومنهم من آمن معه في غير اهله « واهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل . . . (١١ : ٤٠) .

﴿ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ٧٧ .

ولأن نوح من اولي العزم من الرسل ، فشرعته عالمية تخلق على كافة المكلفين ، اذا « فاغرقناهم اجمعين » يستغرق كافة المكذبين به في الكرة الأرضية كلها .

وَدَاوُدَ وَسَلِيمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ

فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفِثَتْ فِيهِ غَمُّ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ

شَاهِدِينَ ﴿ ٧٨ ﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا

حُكْمًا وَعَلَّمْنَا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرُ

وَكَنَّا فَاعِلِينَ ﴿ ٧٩ ﴾ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكَ لِنُحْضِنَكَ

مِنْ بَاسِكُرٍّ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴿ ٨٠ ﴾ وَسَلِيمَانَ الرِّيحَ

عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا

وَكَنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ ﴿ ٨١ ﴾ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ

يُغُصُّونَ لَهُ^ط وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ^ط وَكُنَّا لَهُمْ
حَافِظِينَ ﴿٨٧﴾ * وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ^ط أَنِّي مَسْنِيَ
الضُّرَّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٨﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ^ط فَكَشَفْنَا
مَا بِهِ^ط مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ
عِنْدِنَا وَذِكْرَى^ط لِلْعَبِيدِ ﴿٨٩﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ
وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿٩٠﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي
رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٩١﴾ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ
مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ
لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٩٢﴾
فَاسْتَجَبْنَا لَهُ^ط وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُخَيِّجُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾
وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ^ط رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ
خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٩٤﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ^ط وَوَهَبْنَا لَهُ^ط إِيحَى
وَأَصْلَحْنَا لَهُ^ط وَزَوْجَهُ^ط إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ
وَيَدْعُونََنَا رَغَبًا وَرَهَبًا^ط وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٥﴾ وَالَّتِي

أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا

وَأَبْنَاءَ آيَةٍ لِلْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾

﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفِثَتْ فِيهِ غَمَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ٧٨ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ٧٩ ﴾ .

الحكم هنا هو القضاء فضلاً لخصومة في قضية واقعة ، لا الحكم الشرعي العام من الشريعة الإلهية ، فان تفهمه من لزامات الرسالة ، وذلك الحكم المختلف فيه بين داود وسليمان كان مسرحاً للإمتحان دون امتهان لداود ، واحترام لسليمان « وكلأ آتينا حكماً وعلماً » على سواء ، بل « وسخرنا مع داود الجبال .. » .

إنما ذلك لكي يثبت داود ويعلم معه العالمون انه خاطيء في حكم خاص لولا تفهيم من الله ، فضلاً عن حكم الإمامة الرسالية وهو عامة الشريعة الإلهية .

ويبدو ان داود (ع) -لأنه كان الملك النبي والحاكم المطلق في بني اسرائيل ، وقد جعله الله خليفة في الأرض : « يا داود انا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق » (٢٦: ٣٨) - يبدو أنه لذلك كان هو المسؤول في تلك المنازعة . « ففهمناها سليمان » فأبدى ما فهمه ربه وطبعاً باذن من داود ، اظهاراً للقصور الذاتي للمرسلين لولا الوحي ، ولأهلية سليمان للمخلاقة بعده (١) .

(١) البحار ١٤ : ١٣٢ عن الكافي بسند عن ابي عبد الله (عليه السلام) قال : ان =

«وكلا آتينا حكماً وعلماً»!

وهل ان داود حكم قبل ان يفهمه الله ؟ وذلك خلاف حكم الله والحكمة الرسالية ولا سيما عند الاختلاف بين حاكمين رساليين !

كلاً ! ولا اشارة هنا انه حكم ، بل «اذ يحكمان» دون «اذ حكما» دليل انها كانا يتشاوران ويتناظران^(١) في حكم القضية، ثم الحاكمان المتفقان فضلاً عن المختلفين ليسا ليحكمهما في قضية واحدة، ولا سيما إذا كان احدهما الحاكم

= الامامة عهد من الله عز وجل معهود لرجال منسبين ليس للإمام ان يزويها عن الذي يكون من بعده ، ان الله تبارك وتعالى اوحى الى داود (عليه السلام) ان اتخذ وصياً من اهلك ، فانه قد سبق في علمي ان لا ابعث نبياً الاوله وصي من اهله وكان لداود (عليه السلام) اولاد عدة وفيهم غلام كانت امه عند داود (عليه السلام) وكان لها محباً فدخل داود عليها حين اتاه الوحي فقال لها : ان الله عز وجل اوحى الي يامرني ان اتخذ وصياً من اهلي فقالت له امراته : فلتكن ابني ، قال : ذاك اريد ، وكان السابق في علم الله المحتوم عنده انه سليمان ، فواوحى الله تبارك وتعالى الى داود ان اجمع ولدك فمن قضى بهذه القضية فأصاب فهو وصيك من بعدك فجمع داود ولده فلما ان اقتضى الخصمان قال سليمان : يا صاحب الكرم متى دخلت غنم هذا الرجل كرمك ؟ قال : دخلته ليلاً ، قال : قد قضيت عليك يا صاحب الغنم باولاد غنمك واصوافها في عامك هذا ثم قال له داود فكيف لم تقض برقاب الغنم وقد قوم ذلك علماء بني اسرائيل فكان ثمن الكرم قيمة الغنم ؟ فقال سليمان : ان الكرم لم يبحث من اصله وانما اكل حمله وهو عائد في قابل فواوحى الله عز وجل الى داود ان القضاء في هذه القضية ما قضى سليمان به ، يا داود اردت امراً وارادنا امراً غيره فدخل داود على امراته قال : اردنا امراً واراد الله غيره ولم يكن الاما اراد الله عز وجل فقد رضي بنا بأمر الله عز وجل وسلمنا ، وكذلك الاوصياء ليس لهم ان يتعدوا بهذا الامر فيجاوزون صاحبه الى غيره .

(١) المصدر عن ابي جعفر (عليه السلام) في الآية قال : لم يحكما ، انما كانا يتناظران « ففهمناها سليمان » ، وفي الفقيه بسنده الصحيح عن جميل عن زرارة مثله .

٣٤٠ الجزء السابع عشر

الأصل والثاني هو الفرع ، اللهم إلا تشاوراً في « كيف الحكم » ؟ فكل يرتأي رأياً في نقاش بينهما ، حتى تنتج الشورى حكماً واحداً .

ثم « ففهمناها سليمان » دليل انه كايه داود كان مختاراً في الحكم خاطئاً لولا تفهيمه .

ثم « وكنا لحكمهم شاهدين » قد تعني احكام المرسلين ككل ، ولذلك « ففهمناها سليمان » وإلا فحق الصيغة « كنا لحكمهما شاهدين »^(١) ام - وباحرى - لحكمه، والشهادة هي الحضور علمياً وتعليمياً « ففهمناها سليمان » قبل ان يحكم أحدهما .

ام و « لحكمهم » الواحد ، حاكمين ومحكوم عليهم ، ولكنه - أن عُني وحده كان خلاف الفصيح والصحيح ، والجمع اجمع واجمل .

فلم يحكم داود - اذاً - بغير الحق خلافاً لامر الله « فاحكم بين الناس بالحق » اذ لم يكن الحكم بالحق في السنة الداودية إلا بالواقع المطلق ، وليس - اذاً - إلا بتفهم الله وقد فهمه سليمان دونه للمصلحة .

والروايات الواردة ان داود حكم بخلاف الحق الذي فهمه سليمان ،

(١) البحار ١٤ : ١٤١ - عن تفسير القمي في الآية حدثني ابي عن عبد الله بن يحيى عن ابن مسكان عن ابي بصير عن ابي عبد الله (عليه السلام) قال : كان في بني اسرائيل رجل كان له كرم ونفشت فيه غنم لرجل آخر بالليل وقضمته وافسدته فجاء صاحب الكرم الى داود (عليه السلام) فاستعدى على صاحب الغنم فقال داود (عليه السلام) اذهب الى سليمان ليحكم بينكما فذهب اليه فقال سليمان : ان كانت الغنم اكلت الاصل والفرع فعلى صاحب الغنم ان يدفع الى صاحب الكرم الغنم وما في بطنها ، وان كانت ذهبت بالفرع ولم تذهب بالاصل فانه يدفع ولدها الى صاحب الكرم وكان هذا حكم داود وانما اراد ان يعرف بني اسرائيل ان سليمان (عليه السلام) وصيه بعده ولم يختلفا في الحكم ولو اختلف حكمهما لقال : وكنا لحكمهما شاهدين .

هي مأولة ام خلاف الحق^(١) ولا يصدق من سواها إلا ما يصدقه القرآن انها كانا يحكمان تشاوراً غير باتٍ « ففهمناها سليمان » فرضيا به حكماً ، دون ان يكون هناك نسخ فانه خلاف النص ، وان النسخ ليس إلا في شرعة لولي عزم ولم يكن سليمان صاحب شرعة مستقلة^(٢) .

وعلى الجملة فالقصد من ذلك التفهيم في ذلك التحكيم للرسول الفرع أمام الرسول الإمام الأصل ليس تحطيم ساحته والمس من كرامته نقدياً للمفضول على الفاضل ، وانما هو لبيان القصور الذاتي حتى للمرسلين حتى لا يزعم زاعم انهم على شيء من عند انفسهم ، او انهم مخولون فيما يحكمون ، بل هو فيض قدسي إلهي مستمر مع الرسالات ، وليست هذه الفلتات - ان

(١) المصدر عن الفقيه بسنده الصحيح عن الرشاء عن احمد بن عمر الحلبي قال سألت ابا الحسن (عليه السلام) عن هذه الآية قال : كان حكم داود (عليه السلام) رقاب الغنم والذي فهم الله عز وجل سليمان ان يحكم لصاحب الحرث باللبن والصوف ذلك العام كله .

اقول : عل « كان حكم داود » غير حكمه البات ، وانما كان يرئى مشورة ولكن حكم سليمان باللبن والصوف خلاف حكمه اذ حكم بولدها كما في احاديث اخرى .

(٢) نور الثقلين ٣ : ٤٤١ عن الكافي بسند عن ابي بصير عن ابي عبد الله (عليه السلام) قال قلت له : قول الله عز وجل « وداود وسليمان اذ يحكمان في الحرث . . . » قلت حين حكما في الحرث كان قضية واحدة ؟ فقال (عليه السلام) : انه كان اوحى الله عز وجل الى النبيين قبل داود الى ان بعث الله داود : اي غنم نفشت في الحرث فلصاحب الحرث رقاب الغنم ولا يكون النفش الا بالليل فان على صاحب الزرع ان يحفظ بالنهار وعلى صاحب الغنم حفظ الغنم بالليل فحكم داود بما حكمت به الانبياء (عليهم السلام) من قبله واوحى الله عز وجل الى سليمان (عليه السلام) واي غنم نفشت في زرع فليس لصاحب الزرع الا ما خرج من بطونها وكذلك جرت السنة بعد سليمان (عليه السلام) وهو قول الله عز وجل « وكلا آتينا حكماً وعلماً » فحكم كل واحد منهما بحكم الله عز وجل .

صح التعبير - قاصدة مع المعصومين ، إلا بياناً عن ذاتياتهم « لولا ان رأى برهان ربه » .

﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ .

اجل وان داود هو النبي المفضل في بني اسرائيل بعد موسى والمسيح فان هما شأنهما : « ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتيناه داود زبوراً » (١٧ : ٥٥) « ولقد آتينا داود منا فضلاً يا جبال اوبي معه والطير وألنا له الحديد » (٣٤ : ١٠) فليس - اذاً - « ففهمناها سليمان » احتراماً لداود واحتراماً لسليمان ، بل هي حكمة بالغة إلهية ولطف خفي بأمر جلي مهما كان ظاهره إمرأ .

ومن تسخير الجبال معه « يا جبال اوبي معه » أوبة منها تتبع اوبته كما يسمعها وكذلك الطير ، وليس ذلك بدعاً منا لخصوص داود ، بل « وكنا فاعلين » في سلسلة الرسالات بمختلف الجلوات .

وقد عرف داود بمزاميره الرنانة الحنّانة ، تسابيح لله يرتلها بصوته الحنين الحزين ، فتتجاوب معه الجبال والطير ، وكأنما الكون كله فرقة مرتلة عازفة مسبحة معه بجلال الله وحده .

صحيح انه « وان من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » (١٧ : ٤٤) إلا أن داود فُقه تسبيحهم بل وكان يسمعهم كيف يسبحون ربهم ، فالجبال هنا مثل الجوامد ، والطير مثل الحيوان وبينهما النباتات ، فعله فُقه منطق كل شيء ، ام ما حوله من الجبال والطير دمجاً للجماذ في الحيوان الى تسبيحه !

﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لَتَحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴾ (٨٠) .

« وعلمناه » تلمح بأن ذلك العلم المعلم بادىء من داود ، فلم يكن يُصنع قبله لبوس ، وهذا يلمح انه الدرع والمغفر ام وسائر ما يلبس لخصوص البأس إحصائياً منه ، و « لبوس » مبالغة « لباس » ما يبالغ في لبس الإنسان حالة البأس ، وهو الحرب ، ومما عبّد له علمها وصنعه بسهولة « وألناله الحديد » لإلانة دون اسباب معوذة « ... » وألناله الحديد . ان اعمل سابغات وقدّر في السرد واعملوا صالحاً اني بما تعملون بصير » (٣٤ : ١١) والسابغة هي الدرع التام ، وتقدير السرد هو نضج الحديد فنسج الدرع « لتحصنكم » اللبوس المقدّر المسرود ، ام والمغفر وعله اخرى « من بأسكم » حرباً « فهل انتم شاكرون » ذلك الإحصان الاحسان اليكم منذ داود (عليه السلام) بما في هذه الصفة من تطورات حيث الحضارة البشرية سائرة في طريقها الى التقدم خطوة خطوة وراء الكشف المتجددة يوماً فيوماً دون قفزة ولا طفرة ، ولكن صنعة لبوس لكم بإلانة الحديد وعمل السابغات كانت قفزة وطفرة تخرق العادة المألوفة .

﴿ وَلَسَلِيمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا
وَكُنَّا يَكُلُّ شَيْءٌ عَالِمِينَ ﴾^{٨١} .

« ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر .. » (٣٤ : ١٢)
« تجري بامره رخاء حيث اصاب » (٣٨ : ٣٦) ، والريح منصوب حيث هو معطوف على مفعول التسخير « وسخرنا لسليمان الريح .. » .

ريح عاصفة غدوها شهر ورواحها شهر ، تجري بامره رخاء حيث اصاب ، الى الأرض التي باركنا فيها وسواها حيث اصاب^(١) « وكنا » من قبل ومن بعد وفي ذلك الذي علمناه وسخرناه « بكل شيء عالين » .

(١) راجع تفسير الأيتين في سبأ وص تجد فيها تفصيل جريان الريح حيث اصاب .

وليس فقط تسخيراً لمن لا يعقل وليس له اختيار ، بل وسخرنا له
« من الشياطين من يغوصون ... » :

﴿ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ
حَافِظِينَ ﴾^{٨٢} .

« ومن الشياطين » وهم بعضهم الذين استخدمهم لشاقة الاعمال « من
يغوصون له » في البحر لاستخراج متاع منه « ويعملون عملاً دون ذلك »
حيث « يعملون له ما يشاء من محاريب وتمائيل وجفان وقدر راسيات .. »
(٣٤ : ١٣) ام ودون ذلك مما لانعلمه والله يعلمه « وكنا لهم » الشياطين
العاملين له « حافظين » عن شيطاناتهم وتخلقاتهم في اعمالهم لسليمان ،
حفظاً عن الهرب واي افساد وجرب ، لصالح الخدمة السليمانية .

وعلى الشياطين هنا نعم شياطين الجن والانس ، وقد لا ينافيه
« ... ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن امرنا
نذقه من عذاب السعير . يعملون له ما يشاء ... » (٣٤ : ١٣)
فالشياطين نص في الكفار ظاهر في شياطين الجن والانس ، والجن نص في
الجن ظاهر في كفارهم وسواهم ، والنصان متوافقان في شياطين الجن ،
فهم القدر المعلوم من عماله ، ثم يخرج مؤمنوا الجن والانس ، ويبقى
شياطين الانس في الظاهر الاول ، ولا ينافيه نص الجن لعدم الحصر .

« ولو ان احداً يجد الى البقاء سلباً او لدفع الموت سبيلاً لكان ذلك
سليمان بن داود الذي سخر له ملك الجن والانس مع النبوة وعظيم الزلفة
فلما استوفى طعمته واستكمل مدته رمته قسي الفناء بنال الموت واصبحت
الديار منه خالية والمساكن معطلة ، ورثها آخرون »^(١) .

(١) نهج البلاغة ١ : ٣٤١ - ٣٤٢ .

ويا لها من نعمة سابغة لسليمان حيث يُسخر له الشياطين رغم انوفهم ، ولكي تظهر رحمة الله وعنايته الخاصة لسليمان النبي الملك ، حيث يخلق في سلطته على الجبال والطير والشياطين ، لا فقط على الانس المؤمنين ، ولكي نعلم ان العاقبة للمتقين ، وانه يأتي على العالم زمان يسيطر فيه من يصطفيه الله حاكماً وقائداً على كل العالمين ، وهو الإمام القائم المنتظر المهدي من آل محمد (عليهم السلام) .

﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ^{٨٣} فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذَكَرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ^{٨٤} ۝

وقصة ايوب مفصلة في « ص » ومجملة هنا ، وقد فصلناها هناك كما فصلت ، ونجملها هنا كما اجملت ، وهي دعاء واستجابة ومزيد ، وما الطفه وانظفه دعاء لا يتطلب فيه المبلى كشف بلاءه ، وانما هو عرض بلاءه : « اني مسني الضر » وعرض الرب بعلياه « وانت ارحم الرحمين » فلا يدعو بتغيير حاله ، ولا يقترح شيئاً على ربه ، تأدباً معه وتوقيراً وصبراً على بلائه ، فهو من افضل النماذج للعبد الصابر في بليته ، دون اي قلمل ! .

ثم نرى الإستجابة « فاستجبنا له » سؤله المعلوم عن عرضه وسؤاله « فكشفنا ما به من ضر » والضر ضماً يختص بما يمس غير الروح ، وليس للشيطان سبيل الى ارواح النبيين « اني مسني الشيطان بنصب وعذاب » (٣٨ : ٤١) وهي فتحاً يعمها ، وضماً كما هيه يخص غير الروح ، وعمل العذاب عبارة عنه اخرى .

وعمل « اهله » يعم زوجه وولده ، أم وكل من كان يعوله من اقرباءه وانسابه ، سواء الذين هلكوا في ضره ، ام تفرقوا عنه ، فـ « آتيناه » نعم

إحياء من هلك ، ورجوع من سلك ، ثم « ومثلهم معهم » قد تعني مماثلة الكم والكيف ، والمعية وهي الملائمة الموافقة ، قد تلمح ان الزوجة الثانية انضمت الى الاولى بكل وثام واحترام ، وكل ذلك « رحمة منا » لايوب الصابر في محنته « وذكرى للعابدين » على مر الزمن ليستقفوا اثره في الصبر على الضر لله وفي الله ، دونما شكوى على الله ! وهنا اللمحة اللامعة ان العبودية كلما ازدادت وتقدمت ازداد العبد بلاءً ، ولكي يرتقي العابد بذلك المرقى ما لا يرتقي بسواه .

﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ ^{٨٥} وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ^{٨٦} .

واذكر « اسماعيل » ابن ابراهيم « وإدريس وذا الكفل » في حياتهم الرسالية ف « كل من الصابرين » ولا سيما اسماعيل اذ قال له ابوه « يا بني اني ارى في المنام اني اذبحك فانظر ماذا ترى قال يا ابت افعل ما تؤمر ستجدني ان شاء الله من الصابرين » .

فلذلك الصبر البالغ ذروته « وادخلناهم في رحمتنا انهم من الصالحين » فالصبر الصالح والصالح الصابر داخل في رحمة الله ، والصبر مفتاح الفرج ^(١) .

﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ^{٧٨} فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ^{٨٨} .

« ذا النون » هذا وهو يونس بن متى النبي ، يضرب هنا مثلاً مذكراً

(١) راجع تفسير قصة ادريس في « مريم » واسماعيل في « الصفات » وذو الكفل في « ص » .

لقصور الصبر اللائق في تطبيق الرسالة ، بعد التذكير بأنبياء صابرين ، وكما يلمح في « القلم » : « فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم . لولا ان تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم فاجتباه ربه فجعله من الصالحين » (٦٨ : ٥٠) والقصة مذكورة فيها وفي يونس والصفات ، وفي كل تفصيل كما تعنيه آيتها ، وهنا كما هي ، دون اعادة شاملة للثلاثة الباقية .

وتراه هنا « اذ ذهب مغاضباً » ممن ؟ أمن ربه ؟ وهو كفر به ، واين يذهب مغاضباً من ربه وليس له مكان ، فانه محيط بكل كائن ومكان ، وهو مع كل انس وجان ! ثم « مغاضباً » تعني غضب المتناوئين ، فليس غضباً حتى يعنيه هو على ربه وسبحانه ، وانما « مغاضباً » وطبعاً مع من كانوا معه في قريته ، فقد غضب عليه قومه لكرور دعوته وصموده في دعايته ، فأيس منهم وغضب عليهم فد « ذهب مغاضباً » غضباً على قومه في ذات الله اذ غضبوا عليه لدعوته الدائبة الى الله ، فأيس من ايمانهم بالله ، ولكنهم كان لهم استعداد للايمان ما كان يعلمه يونس ولا رجاء : « فلولا كانت قرية آمنت فنفعها ايمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم الى حين » (١٠ : ٩٨) .

فلان الموقف كان موقف الإيأس من ايمانهم ، فلم ير - اذاً - بأساً من الذهاب عنهم مغاضباً ، ولان ذهابه كان ذهاب المغاضب دون فرار عن الدعوة ام تمهل فيها « فظن » حسن ظنه بربه « ان لن نقدر عليه » تضيقاً في ذلك الذهاب ، فليس « نقدر » من القدرة ، بل هو القدر الضيق كما « الله ييسر الرزق لمن يشاء ويقدر » في آيات عدة^(١) « ومن قدير عليه

(١) وهي ١٣ : ٢٦ و ١٧ : ٣٠ و ٢٨ : ٨٢ و ٢٩ : ٦٢ و ٣٠ : ٣٧ و ٣٤ : ٣٦ و ٣٩ و ٣٩ : ٥٢ و ٤٢ : ١٢ ، ثم لا نجد « لا يقدر » بمعنى القدرة الا في =

رزقه فلينفق مما آتاه الله » (٦٥ : ٧) .

فقضية الموقف الحاسم ، ان لن يضيق عليه بذهابه عنهم مغاضباً ، فلم يكن يرى في ذلك الذهاب بأساً ، بعدما استعصى عليه قومه وهو مستقص في دعوتهم ، فغادرهم مغاضباً ولم يصبر على معاناتها بمماداتها وعرقلاتها ، ظاناً ان الله لن يضيق عليه الأرض ، فهي فسيحة والقرى باقوامها كثيرة ، وانه لن يضيق عليه توبيخاً لذهابه عنهم ، اذ رأى نفسه معذورة في ذهابه .

هذا الذي ظنه ذا النون ، ولكن الرسالة الإلهية لها مسؤوليتها الخطيرة ، المحلقة على سائر المسؤوليات ، فليس لصاحب الدعوة الرسالية ان يتركها ، او يترك جو الدعوة بسند الإيأس عن تأثيرها ، فانها ليست - فقط - نذراً ، بل « عذراً او نذراً » فحتى ان أيقن الداعية بعدم تأثير الدعوة فعليه المواصلة فيها حتى النفس الاخير ، ولا يسمح له بالذهاب عنهم إلا اذا خاف على نفسه عذابهم الناكل ام عذاب الله عليهم ، ام مساً من كرامة الدعوة ، فهناك المهاجرة حفاظاً على الدعوة والداعية ، لا إراحة لنفسه عن الدعوة غير المؤثرة .

إذا فقد كان من ذا النون بعض التقصير في الدعوة الصامدة ، مهما يعذره بعض الإعذار ظنه ان لن يضيق عليه ربه في ذهابه عنهم مغاضباً ، ولكنه كان ظناً بغير حساب ولا صواب ، حيث الموقف الصالح لذلك الظن او اليقين بعدم التضيق هو تمام الدعوة ، ولا تتم بنفس الإيأس الا اذا واجه امراً اهم إمرأ من واجب الدعوة العاذرة غير المؤثرة ، كالخطر

= ٢ : ٢٦٤ و ١٤ : ١٨ و ٥٧ : ٢٩ ، مما يجعل الترجيح للمعنى الاول عند التردد ، فضلاً عن موضع اليقين كما في ذا النون .

سورة الأنبياء / آية ٧٨ - ٩١ ٣٤٩

على الدعوة او الداعية ، وقد هاجر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أرض الدعوة الاصيل الى اخرى لما هجره وارادوا ليقتلوه ، فانقلب واجبه المقام الى المهاجرة الى المدينة ، حتى اسس فيها دولة الاسلام ورجع في نهاية امره الى مكة فاتحاً محبوراً مشكوراً .

وهاجر موسى ومن معه فراراً من بأس فرعون وملاءه ، وابراهيم ولوط حيث نجاهما الله الى الأرض المباركة ، ولوط حيث نجى باهله عن قومه المهاجم عليهم الخطر الناجم عن تكذيبهم « فأسر باهلك بقطع من الليل » !

واما ان يذهب الداعية عن جو الدعوة بمجرد انهم بالفعل لم يتأثروا بها ، فلا ، عليهم يتأثرون في المستقبل ، ام تلزمهم الحجة الدائبة عليهم اذا كسانوا ممن « سواء عليهم ءانذرتهم ام لم تنذرهم لا يؤمنون » ولكن الدعوة المتواصلة ليست سواء عليك وانما عليهم .

فأصحاب الدعوات رسولية ورسالية لا بدل لهم ان يتحملوا تكاليفها ، صبراً على التكذيب بها والإيذاء من أجلها ، ومهما كان تكذيب الصادق الأمين مريباً عليه ولكن الصبر عليه هو بعض تكاليف الرسالة .

لا يجوز للداعية ان ييأس من اصلاح النفوس المتمردة ، فاذا كانت المثاق لم تصل الى القلوب فلتكن ألفاً وآلاف ، فقد تصل مرة الى القلب مهما كان كرور الدعوة المستمرة مُرة ، وحتى اذا ايقن - وكيف له ذلك وأن - انه سواء عليهم الانذار وتركه ، فليواصل في دعوته عذراً ، كما كانت قبل نُذراً .

اجل ، وان طريق الدعوات ليست هينة ولا استجابة النفوس يسيرة ، فهناك ركام من مختلف الشبهات والشيطنات تجثم على القلوب لا بد من ازالتها بكرور الدعوة ، باية وسيلة ممكنة ، تلمساً لكافة المراكز الحساسة ، محاولة العثور على العصب الحساس ، وقد تُصادف إحدى اللمسات ذلك

٣٥٠ الجزء السابع عشر

العصب فيتحول تحولاً، وكما قوم يونس آمنوا لما رأوا بأس الله ، إيماناً صالحاً لدفع العذاب ، رغم ان الإيمان عند رؤية البأس لا يفيد : « فلولا قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم الى حين » (١٠ : ٩٨) .

ان الدعوة هي الاصل « عذراً او نذراً » لا شخص الداعية ام شخصيته ، اللهم الا فيما اصبحت الدعوة في خطر بالقضاء عليها ام على الداعية ، فالى المهاجرة حفاظاً على اصلها واستمراريتها في مجالات اخرى .

لقد سجن ذا النون في بطن الحوت النون تأديباً له أديباً لماذا استعجل عن قومه « فنادى في الظلمات » ظلمة بطن الحوت وظلمة الليل وظلمة البحر^(١) « ان لا اله الا انت » اقراراً بالتوحيد « سبحانك » تنزيهاً لله عن كل ما يمس من كرامته وعن ان يظلم عبده في ظلماته ، ثم اقراراً بظلمه : انتقاصاً عن واجب الدعوة « اني كنت من الظالمين » ظلماً بنفسي لمكان نقصي كرَسُول .

وتراء كيف ناله عهدٌ من الله رسالة « ولا ينال عهدي الظالمين » اذا كان ظلماً قبل الرسالة ، وهو ظالم حين الرسالة ؟ « وان يونس لمن المرسلين . اذ ابق الى الفلك المشحون » (٣٧ : ١٤٠) ! .

ان « عهدي » الذي لا ينال الظالمين هو عهد الإمامة دون مطلق الرسالة ، والظلم الذي ينافي الرسالة هو المعتمد الخائن في حمل الرسالة او اداءها ، دون الانتقاص عن كمالها ، المجبر بتأديب الله ، ولا سيما اذا كان الله يمتحن الرسول بذلك الانتقاص ، تنبيهاً له انه ليس على شيء لولا

(١) البحار ١٤ : ٣٨٣ في رواية ابي الجارود عن ابي جعفر (عليه السلام) قال في تفسير الظلمات . . . وفي ٣٨٧ روى مثله عن الإمام الرضا (عليه السلام) .

رحمة من الله وعصمة وتسديد ، وقد يصدق فيه ما يروى عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في دعائه « اللهم ولا تكلني الى نفسي طرفة عين ابداً » فسأله ام سلمة في ذلك فقال (صلى الله عليه وآله وسلم) يا ام سلمة وما يؤمنني وانما وكل الله يونس بن متى الى نفسه طرفة عين فكان منه ما كان ^(١) وقد يشبهه ظلمه هذا ظلم موسى « قال رب اني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له » (٢٨ : ١٦) مهما كان ذلك قبل رسالته ، وهما

(١) البحار ١٤ : ٣٨٤ عن تفسير القمي حدثني ابي عن ابن ابي عمير عن عبد الله ابن سنان عن ابي عبد الله (عليه السلام) قال : كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في بيت ام سلمة في ليلتها فقدته من الفراش فدخلها من ذلك ما يدخل النساء فقامت تطلبه في جوانب البيت حتى انتهت اليه وهو في جانب من البيت قائماً رافعاً يديه يبكي وهو يقول :

اللهم لا تنزع مني صالح ما اعطيتني ابداً ، اللهم ولا تكلني الى نفسي طرفة عين ابداً ، اللهم لا تشمت بي عدواً ولا حاسداً ابداً ، اللهم لا تردني في سوء استنقذتني منه ابداً ، قال : فانصرفت ام سلمة تبكي حتى انصرف رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ليكائها فقال لها ما يبكيك يا ام سلمة ؟ فقالت : يا ابي انت وامي يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ولم لا ابكي وانت بالمكان الذي انت به من الله قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، تسأله ان لا يشمت بك عدواً ابداً وان لا يردك في سوء استنقذك منه ابداً وان لا ينزع منك صالح ما اعطاك ابداً وان لا يكلك الى نفسك طرفة عين ابداً فقال يا ام سلمة . . . (نقلناه بكامله عن الهامش نقلاً عن الاصل) .

وفيه (٣٨٧) عن الكافي ٢ : ٥٨١ عن ابن ابي يعفور قال سمعت ابا عبد الله (عليه السلام) يقول - وهو رافع يده الى السماء - رب لا تكلني الى نفسي طرفة عين ابداً ، لا اقل من ذلك ولا اكثر ، قال : فما كان باسرع من ان تحدر الدموع من جوانب لحيته ، ثم اقبل عليّ فقال : يا ابن ابي يعفور ان يونس بن متى وكله الله عز وجل الى نفسه اقل من طرفة عين فاحدث ذلك الذنب قلت : فبلغ به كفراً اصلحك الله ؟ قال : لا ولكن الموت على تلك الحال هلاك .

على أية حال أدنى من ظلم آدم حين عصى ربه فغوى .

ثم وعلّها لابن متى كما لموسى كانت رسالة تدريبية تجميعية ، حتى اذا اكتمل بعثه لرسالة اصلية ، وقد تشهد له « وارسلناه الى مائة الف او يزيدون » بعد قوله بعدة آيات « وان يونس لمن المرسلين » ولكي يثبت على حاق رسالته وحققها دون اي تفلّت عنها او تفلّت !

فلما أناب ذا النون الى ربه بما اناب « فاستجبنا له » دعاءه « ونجيناها من الغم » عما قصّر « وكذلك ننجي المؤمنين » حين يدعون كذلك الذي دعى ذا النون .

ولقد تكاثرت الروايات وتضاربت حول قصة يونس ، بين ما تكذبها الآيات ام لا تصدقها ، وما تصدقها الآيات ، فلا نصدق منها إلا ما صدقته ، ولا نكذب إلا ما كذبه ، ثم نتردد في عوانها لا مصدقة ولا مكذبة .

﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾ ٨٩ .

ان قصة ولادة يحيى العجيبه مضت في سورة آل عمران ومريم ، وهنا « لا تذرني فرداً » استدعاء لولد « فهب لي من لدنك وليا يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضياً » (١٩ : ٦) .

ولما كانت هذه الوراثه المطلوبه توهم أن لولاها لم تكن هناك وراثه والله خير الوارثين ، يلحق دعاءه بتلك الوراثه الإلهيه ، وانه يطلب وارثا من جنسه حتى يرثه في حمل الرساله الإلهيه ، فحتى ان لم ترزقني ولداً فـ « انت خير الوارثين » وان رزقتنيه ايضاً فـ « انت خير الوارثين » .

﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَاهُ لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ ٩٠ .

« واصلحنا » زوجه عن عقرها اذ كانت عاقراً ، ثم « ووهبنا له يحيى » من قبل ، قد تعني فيما عنت إصلاح حاله عن كبره اذ « قال رب اني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيياً . . . واني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقراً فهب لي من لدنك ولياً » .

هذه تبين لنا ان المسارعة في الخيرات والدعاء رغباً ورهباً والخشوع لله ، ان في ذلك مادة الاجابة الخارقة للعادة في الادعية الصالحة ، وكما نرى السابقين والمقربين وشطراً من اصحاب اليمن تستجاب لهم دعواتهم العجيبة .

والعبادة « رغباً » هي الرغبة في الله ثواباً ولقاء ورضواناً ، و« رهباً » هي الإشفاق من الله خوفاً ورهبةً وفرقاً منه ، والدرجة العليا من الرغب والرهب تناسب السابقين والمقربين الذين يعبدون الله حباً له ، ثم سائر الناس عبيد « رهباً » ام تجار « رغباً »^(١) .

﴿ وَالَّتِي أَحْصَيْتُ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ٩١ ﴾

والروح المنفوخ فيها هو المسيح ، وفي الطلاق « ومريم ابنت عمران التي احصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا . . . » (١٢) بياناً ان الموضع

(١) نور الثقلين ٣ : ٤٥٧ في كتاب الخصال عن يونس بن ظبيان قال قال الصادق (عليه السلام) ان الناس يعبدون الله على ثلاثة اوجه فطبقة يعبدونه رغبة في ثوابه فتلك عبادة الحرصاء وهي الطمع وآخرون يعبدونه فرقاً من النار فتلك عبادة العبيد وهي الرهبة ولكني اعبدته حباً له فتلك عبادة الكرام .
اقول : ولان هؤلاء الرسل هم من الكرام فعبادتهم رغباً ورهباً لا تعني ما عتته هذه الرواية .

المنفوخ فيه الروح منها هو فرجها لا سواه، وقد فصلناه في محالها الانسب كالطلاق وسواها .

وترى كيف جعلاهما « آية للعالمين » لا « آيتين » والمسيح بنفسه آية إلهية بما معه من آيات ؟ القصد من « آية » هنا هي الذاتية الكونية ، وهذه الولادة المنقطعة النظير آية واحدة ، قائمة بكلا الولد والوالدة ، لولا أحدهما لم يكن الآخر آية ، إذا فهما آية نظرا الى هذه الولادة القائمة بهما كليهما ، آية واحدة فذة في تاريخ الانسان على مر الزمان ، ومثل واحد من ذلك النوع يكفي تأملاً للإنسانية في أجيالها على طولها وعرضها في سماءها وأرضها ، لمسأ معرفياً وواقعياً ليد القدرة المطلقة المطلقة الإلهية التي تخلق النواميس ، دون حصر واحتباس داخل النواميس !

و « روحنا » هنا هي روح المسيح اضافة الى جسمه وقد جرت من مجراها في مريم نفخاً دون علق من ذكر، ولا انتقال من طبق إلى طبق، واضيفت الى الله لمزية الاصطفاء بالتكريم والاختصاص بالتعظيم في بعدي خرق العادة لخلقها ، والميزة على سائر الأرواح ، اللهم الا التي ساماها بل فضلت عليها كروح محمد والمحمديين من عترته الطاهرين صلوات الله عليهم اجمعين .

إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً

وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿١٦٠﴾ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ

كُلُّ إِلَهِنَا رَاجِعُونَ ﴿١٦١﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ

وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ ﴿١٦٢﴾

وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا
فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴿٩٦﴾
وَأَقْرَبَ الْوَعْدُ الْحَقِّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ
كَفَرُوا يُنَوِّلُنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾
إِنكُم مَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا
وَرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَؤُلَاءَ إِلَهًا مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا
خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَوْجُهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ
الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾
لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا أُشْتَبِهَتْ أَنْفُسُهُمْ
خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَخْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّيْنَهُمُ الْمَلَائِكَةُ
هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ نَطْوِي
السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِ لِلْكَتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُمْ
وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ
بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾

إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٥٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا
رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُمُ إِلَهٌ
وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٥٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنُكُمْ
عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ ﴿١٥٩﴾
إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِنْ
أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٦١﴾ قُلْ رَبِّ أَحْكُم
بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٦٢﴾

﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُون ﴾ ١٥٦ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ
بَيْنَهُمْ كُلُّ إِلَهًا رَّاجِعُونَ ﴿١٥٧﴾

« ان هذه » الأمم بأسرها وعن بكرتها « امتكم » أيها الرسل بأسركم
وعن بكرتكم « أمة واحدة » في مغزاها ومرماها ، كما الرسالة واحدة مهما
حملها مرسلون عدة ، وهما تتلاقيان في « وانا ربكم » دون سواي ، اذا
« فاعبدون » دون سواي : « يا ايها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً
اني بما تعملون عليم . وإن هذه امتكم أمة واحدة وانا ربكم فاتقون .
فتقطعوا امرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون . فذرهم في غمرتهم
حتى حين » (٢٣ : ٥٤) .

آيتان كريمتان في الذكر الحكيم تؤكدان على وحدة الرسالة ووحدة الأمم في
عبادة الله الواحد وتقواه والرجوع اليه فـ « انا لله وانا اليه راجعون » .

ويا له من آله واحد ورب واحد مبدةً ومرجعاً ، ويا لهم من امة واحدة على ضوء رسالة واحدة تلتقيان على عبادة واحدة وتقوى واحدة « وانا ربكم فاعبدون .. فاتقون » ! خطاباً شاملاً للرسل بامهم ، هم يحملون « كيف يُعبد الله ويُتقى » الى كل الامم ، فمهما اختلفت الطقوس والصور فالأصل والاتجاه واحد هو عبادة الله وتقواه .

ولان الرسالة تعم العالمين ككل من الجنة والناس ومن سواهما اجمعين ، فالكمل هم « امتكم » كما و « كم » تعم رسل الجن الى جانب رسل الانس مهما كانت الرسالة الاولى على هامش الثانية .

فالرسالات كلها هي باتجاه واحد من آله واحد والى آله واحد ، وكل رسول يحمل شرعة خاصة من الخمس ، يجمع العالمين على رسالته ، وكل لاحق هو على خط سابقه ، وعلى كل امة لاحقة اتباع شرعتها اللاحقة ، تركاً للسابقة صورة ، وتمسكاً بها سيرة ، فلم يكن القصد من شرعة بعد شرعة - وهي كلها عن دين واحد - ان تُخلق امم متصارعة طول تاريخ الرسالات ، حيث الاختلافات على اية حال مرفوضة ، والوحدة في كل حال ملحوظة مفروضة « ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم » (١١٨: ١) !

« لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم امة واحدة ولكن ليلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات الى الله مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون » (٤٨ : ٥) « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي اوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ... » (٤٢ : ١٣) .

فقد امروا بالتوحيد في دين الله بشرعته ولكنهم « تقطعوا امرهم بينهم .. » تقطعاً الى امم ، وتقطعاً في كل امة الى مذاهب ، وتقطعاً في

كل مذهب ايضاً الى مذاهب ... « تقطعوا امرهم » وهو دينهم بشرعتهم ، رغم ان « كل الينا راجعون » في الاولى تكويننا وديننا ، وفي الاخرى خلقاً جديداً وجزاء على دين !

امر واحد لله هو امرهم ، « ثم جعلناك على شريعة من الامر فاتبعها .. » (٤٥ : ١٨) ولكنهم بدليل ان يظلوا تحت ظله متوحدين ، جعلوا امرهم فرقة وامراً ، تفرقاً في الأهواء ، واختلافاً في الآراء ، وتقسماً في المذاهب ، وتشعباً في الولايج .

فقد كانوا حسب وحدة التكوين ووحدة الدين امة واحدة ، بينهم وسائل متناسجة ، وعلائق متشابهة ، ثم تباعدوا تباعد قطع لتلك العلائق ، وشذب لتلك الوسائل ، فصاروا أخياراً مختلفين ، واوضاعاً مفترقين ، واوضاعاً مختلفين .

وهل من منجى في ذلك بين البائن ، والاختلاف الشائن ، ام كل في شأنهم شائنون ؟ .

﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ ﴾ ٩٤ .

انما الأصل المنجي في هذا بين والبينونة هو عمل من الصالحات على ركيزة الايمان ، جناحان لاي مؤمن يعمل من الصالحات ، يجنحان به عن كل مصيدة ومكيدة الى سماء الرحمة والرضوان ، فأياً كان الايمان وعمل من الصالحات ، ومن اي كان وايان « فلا كفران لسعيه » لصالح العمل بصالح الايمان « وانا » بجمعية الصفات رحمانية ورحيمية « له » لسعيه ايماناً وعملاً صالحاً « كاتبون » في مختلف الكتابات الأربع : اعضاء واجواء وملائكة وأنبياءهم شهداء على الاعمال يوم يقوم الأشهاد ، وهي كتابة الاستنساخ لمثلث الاحوال والاعمال والاقوال في سجلاتها كما هيه .

اجل ، فالإيمان اينما حلّ بصالح العمل كان مشكوراً محبوراً مهما
اختلفت الدرجات ، كما ان ما سواه اينما حلّ كان مكفوراً منكوراً مهما
اختلفت الدرجات .

وكضابطة شاملة توضّح الآية آية البقرة : « ان الذين آمنوا والذين
هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم
اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (٢ : ٦٢) وكذلك
الامر في آية المائدة (٦٩) وآية آل عمران اوضح من جهة : « ليسوا سواء
من اهل الكتاب امة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون .
يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون
في الخيرات واولئك من الصالحين . وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله
عليم بالمتقين » (١١٣ : ١١٥) .

إذا ف « ليس بامانيكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءً يُجزّبه ولا
يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً » (٤ : ١٢٣) .

« فلا كفران » اذا لسعي الساعي المؤمن العامل من الصالحات مهما
كان يهودياً او نصرانياً ، ولا شكران لغير الساعي بمجرد انه مسلم ولكنه لا
يعمل من الصالحات وهو مؤمن ، الا ان الايمان الاسلامي وعمل
الصالحات على ضوئه له درجته بين الدرجات ، « ولا يظلمون نقيراً » .

﴿ وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ٩٥ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ
بَأْجُوجٌ وَمَأْجُوجٌ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ٩٦ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا
هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا
ظَالِمِينَ ٩٧ ﴾

آية « لا يرجعون » بما بعدها هي معركة الآراء المتضاربة بين
المفسرين ، كلّ بحوم فيها حول ما يروم تأويلها كما يروم ، والتجرد في

٣٦٠ الجزء السابع عشر

تفسيرها مع التأمل فيها وما يحتفُّ بها دون تحميل عليها ، يهديننا الى معناها ومغزاها .

هنا الموضوع « قرية اهلكناها » وهي كل قرية هالكة لذنوبها بعذاب الاستئصال ، على مدار الزمن في تاريخ الرسالات « حتى اذا فتحت ياجوج وماجوج » .

ثم « وحرام على » هي طابع الحرمان على القرى الهالكة « حتى اذا ... » و « أنهم لا يرجعون » هي مادة الحرمان ، فذلك الحرمان ايأ كان هو لزام القرى الهالكة « حتى اذا فتحت ياجوج وماجوج » فيزول عنهم حرمانهم هذا ، فلم يكن - اذاً - حرمانهم الى يوم الوعد الحق على طول خط البرزخ ، وانما « حتى اذا فتحت ... » واقترب الوعد الحق « فهم فيه يرجعون » .

ولأن الحرمان عرفياً ليس إلا عما يرام ، فليكن رجوع القرى الهالكة قبل الفتح مما يرومونه ، وكما هو الواقع المذكور في آيات عدة « ولو ترى اذا المجرمون ناكسوا رؤسهم عند ربهم ربنا ابصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً انا موقنون » (٣٢ : ١٢) - « حتى اذا جاء احدهم الموت قال رب ارجعون لعلى اعمل صالحاً فيما تركت كلا انها كلمة هو قائلها .. » (٢٣ : ١٠٠) .

فالرجوع الى حياة التكليف هو أمل المجرمين ، وآية « لا يرجعون » تخيَّب ذلك الأمل رجاء العمل « حتى اذا فتحت ... » واقترب الوعد الحق « فاذا هم راجعون لا للإصلاح ، وانما لذوق العذاب يوم الرجعة » .

وذلك مضاعفة للعذاب الحساب ، في ثالث منه ، هلاك في الاولى ، ثم في رجوعهم يوم الرجعة اليها ، ومن ثم في « الوعد الحق فاذا هي شاخصة ابصار الذين كفروا » .

فلأن الحرمان عن عدم الرجوع يوم القيامة لا يخص « قرية اهلكناها » فانها يوم الجمع ، وان ذلك الحرمان محدّد بـ « حتى اذا فتحت . . . » فليكن رجوعاً خاصاً قبل يوم الجمع ، وذلك حسب تلميحات آيات وتصريحات روايات محتوم على « من محض الايمان محضاً او محض الشرك محضاً »^(١) .

إذاً « أنهم لا يرجعون » هي بيان لمادة الحرمان « حرام . . . أنهم لا يرجعون » أم هي بتقدير اللام « لأنهم لا يرجعون » .

فقيلة القائل ان « لا » هنا زائدة ، هي نفسها قيلة زائدة بائدة ، اللهم إلا على غرار « ما منعك ألا تسجد » حيث تعني ما منعك عن السجود ، ولكن الممنوع هناك غير مذكور، يعرف من « ألا تسجد » ما منعك عن السجود ألا تسجد ، فلا زائدة هنا وهناك .

ثم « حتى اذا » تحتم رجوعهم عند الفتح لانه غاية محتومة لحكم الحرمان ايأ كان ، فان كان حرماناً عن الرجوع الى الدنيا فهو رجوع عند الرجعة واقترب الوعد الحق ، كما يلوح من الآية ، وان كان حرماناً عن عدم الرجوع فهم يرجعون « حتى اذا فتحت يا جوج ومأجوج » رجوعاً محتوماً عند الفتح ، ومحروماً عنه قبل الفتح .

وفي الحرمان الثاني تعريض على الناكرين للرجوع يوم الدين ، فانهم لو صدقوا رجوع « من يعمل من الصالحات وهو مؤمن » فيما هم بمصدق رجوعهم ، والآية هنا تقول « وحرام عدم رجوعهم » يوم الدين ، بل وعدم رجوعهم حتى يوم الفتح ، فهم على أية حال راجعون مرة ليوم الجمع

(١) البحار ٥٣ : ٣٩ عن ابي عبد الله (عليه السلام) . . وان الرجعة ليست بعامة وهي خاصة لا يرجع الا من محض الايمان محضاً او محض الشرك محضاً .
اقول والقرى الهالكة هي القدر المعلوم عن محض الشرك محضاً فهم يرجعون .

٣٦٢ الجزء السابع عشر

ككل ، ام واخرى قبلها « حتى اذا فتحت ياجوج وماجوج .. » وهو للقري
الهالكة ، وقد يعينهم « فوجاً ممن يكذب بآياتنا » في النمل «ويوم نحشر من
كل فرقة فوجاً ممن يكذب بآياتنا .. » (٨٣) .

فالرواية القائلة ان القرى الهالكة لا ترجع لا تناسب آيتي الانبياء
والنمل ، فهي مأوله أو مطروحة^(١) .

وفي رجعة اخيرة الى الآية « وحرام على » تعني حرماناً شاملاً على
القرى الهالكة ، يبينه « انهم لا يرجعون حتى .. » ام لا « انهم لا يرجعون
حتى .. » ام هم محرومون عن عدم الرجوع - اذاً - فهم يرجعون حتى ..
فهم على آية حال راجعون يوم الرجعة ليلذوقوا وبال امرهم مرة اخرى ،
ولعذاب الآخرة أمر وانكى .

(١) البحار ٥٣ : ٥٢ عن تفسير القمي حدثني ابي عن ابن ابي عمير عن ابن سنان عن ابي
بصير وعمر بن مسلم عن ابي عبد الله وابي جعفر (عليهما السلام) في الآية قالاً : كل
قرية اهلك الله اهلها بالعذاب لا يرجعون في الرجعة فهذه الآية من اعظم الدلالة في
الرجعة لان احداً من اهل الاسلام لا ينكر ان الناس كلهم يرجعون الى القيامة من
هلك ومن لم يهلك فقله : « لا يرجعون » عني في الرجعة فاما الى القيامة يرجعون حتى
يدخلوا النار .

اقول : ولكن لا يرجعون - ايا كان - محدد بـ « حتى اذا .. » فهم اذا يرجعون !

وفيه (٦١) عن القمي وقال الصادق (عليه السلام) كل قرية اهلك الله اهلها بالعذاب
لا يرجعون في الرجعة فاما الى القيامة فيرجعون ومن محض الايمان محضاً وغيرهم ممن لم
يهلكوا بالعذاب ومحضوا الكفر محضاً يرجعون .

وفيه (١١٨) تفسير النعماني في ما رواه عن امير المؤمنين (عليه السلام) قال : واما الرد
على من انكر الرجعة وقوله سبحانه « وحرام على قرية اهلكناها انهم لا يرجعون » في
الرجعة فاما في القيامة فهم يرجعون ،

اقول ويرد كل ذلك « حتى اذا فتحت » إذا فهم عنده يرجعون !

« حتى اذا فتحت ياجوج وماجوج ... » فصلناها في آية الكهف ،
وانه فتح الشر الشامل للأرض ، حيث تملأ به الأرض ظلماً وجوراً ، ثم
يملاها الله بالمهدي (عليه السلام) قسطاً وعدلاً .

« فإذا همي شاخصة ابصار الذين كفروا » وهم كل من محض الكفر محضاً
أحياء وأمواتاً ، حيث هم يحشرون يوم الرجعة عند اقتراب الوعد الحق .

ثم « وهم من كل حذب ينسلون » قد تعني كافة الاحداب والمرتفعات
الجوية والبرية والبحرية ، والنسل هو الانفصال عن الشيء ، انفصلاً عن
مثلث المرتفعات لإفساد الأرض بمن عليها ، وانفصلاً عن احداب
الاصلاب والأرحام ، اذا فالاشرار كلهم ينسلون ولادة عن كل حذب ،
ونزولاً عن كل حذب .

وقد يعني : « ياجوج وماجوج » فيها يعنيه ، المفسدين من بني اسرائيل
وسواهم ممن يعيث في الأرض فساداً في المرة الثانية من مرقى الافساد
الاسرائيلي ، حشراً من كل حذب لجموع المفسدين ، يرأسهم « ياجوج
وماجوج » و « بنو اسرائيل » كاصول ، ثم وسائر المفسدين في الأرض هم على
هوامشهم وأثارهم يهرعون .

فآية الإسراء « ولتعلن علواً كبيراً » تؤصل بني اسرائيل في عالمة
الإفساد ، وهذه توصل « ياجوج وماجوج » اذا فهما اصلان في ذلك
الميدان ، يتميزان ام يتناحران في الافساد العالمي بعلو كبير « فاذا جاء وعد
الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما
علوا بتبراً » !

فطالما لا ذكر عن « ياجوج وماجوج » في الإفساد الاول ، ولكنهم
محادبون مع بني اسرائيل في الثاني « وهم من كل حذب ينسلون » .

ان احزاب الافساد العالمي باحداها ، ليست لتنهض النهضة الاخيرة المدمرة إلا عندما « اقترب الوعد الحق » تعييداً سلبياً لاقامة دولة الحق ، كما وإيجابيته هي التحصل على انصار هذه الدولة المباركة .

فدولة الباطل الاخيرة تكرر كافة الطاقات المفسدة وامكانياتها لكي تملأ الأرض ظلماً وجوراً ، ثم دولة الحق تملأها قسطاً وعدلاً .

وعلى « كل حذب » دون « كل مرتفع » للتأشير الى اصلاب الأحداب الناسلة عنها كل يأجوج ومأجوج ، وكذلك كافة القوات المتظاهرة المتظاهرة ، فان اصل الحذب هو مرتفع الظهر ، فانه ظهير القوة البدنية ، اذا فـ « كل حذب » قد تعني كل طاقة مرتفعة مترفعة انتسالية ، ام حربية وسياسية واقتصادية وثقافية وعقيدية اما هي من احداب وقوات بشرية ، حيث تُحشر في آخر الزمن ، فتهدر الانسانية الى هوات البهيمية من ناحية والى سقطات مختلف الموتات روحية وبدنية من اخرى ، فتصبح الحياة الانسانية ظلمات بعضها فوق بعض ، ويخلق الظلم على كافة جنبات الحياة ، فلا يبقى من الحيوية الانسانية أثراً وثمراً الا اجترم ، ولا حرمة الا اجترم ، حتى يقوم قائم الحق الذي « به يملأ الله الأرض قسطاً وعدلاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً » !

وقد تؤشر « ولتعلن علواً كبيراً » لبني اسرائيل ، ان يأجوج ومأجوج ، هم ايأ كانوا ، ليسوا إلا من جنودهم الأصلاء في الافساد العالمي بعد الجنود الاسرائيليين ، حين يسيطر بنو اسرائيل على كافة الأحداب ، فتتسلل يأجوج ومأجوج ومن معهم من « كل حذب » وكما هم انفسهم ينسلون .

فاذا تم فسادهم وطم « واقترب الوعد الحق فاذا هي شاخصة ابصار الذين كفروا » هنا في دولة الإمام القائم المهدي (عليه السلام) ، وهناك في القيامة الكبرى قائلين هنا وهناك :

« يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا بل كنا ظالمين » فانها كانت غفلة التغافل التجاهل ، عامدة مقصرة غير قاصرة ، تفجع المفجوء الذي تتكشف له الحقيقة الرائعة المروعة بغتة فيذهل ويشخص ببصره فلا يطرف ، ويدعو بالويل والثبور ، معترفاً بالتقصير متندماً وقد فات الاوان .

فهذه الدولة المباركة السعيدة - بتلك الرجعة عندها - هي من اشراط الساعة ، كما والرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) هو نبي الساعة ونبوته من اشراط الساعة ، كما وبعض آياته الرسالية كانشقاق القمر ، هي من اشراط الساعة : « اقتربت الساعة وانشق القمر » ولكنها الدولة الاخيرة هي اقرب شرط من اشراط الساعة ، وهي باقية حتى الساعة ! .

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ ٩٨ .

« ما تعبدون » تعبد كل ما يُعبد من دون الله اوثنائاً وطواغيت ، فلا تعني « ما » فقط غير ذوي العقول بل وذوي العقول ايضاً كالطواغيت فانهم احرى حصباً لجهنم مما لا يعقل ، ولا ضير في شموله - اذاً - لعباد الله الصالحين حيث هم ناجون لمكان مكانتهم من الله ، وانهم لم يدعوا احداً الى عبادتهم ، وقد سبقت لهم الحسنى فهم عنها مبعدون كما بعد آيتين ، واستعمال « ما » في ذوي العقول ، او في المجموعة غير شاذ في القرآن ، و « لو كان هؤلاء » تؤيد هنا العموم ، وعمل « ما » هناك دون « من » للتأشير الى ان عبادتهم خلاف المعقول ، وان الداعي منهم الى نفسه داع الى غير معقول ، فغير الداعي الذي لا يدعي لنفسه ما يدعون ، كالذين سبقت لهم الحسنى ، فهم عنها مبعدون .

وترى هؤلاء الطواغيت حقاً عليهم انهم معهم حصب جهنم ، فما بال الاصنام وهي لا تشعر وليست لها دعوة ؟ .

انها لا تلمس العذاب ولكن عابديها يلمسونه بما تدخل هي في النار ،
عذاباً لهم فوق العذاب ان آهتهم كامثالهم وقود النار ، فكما ان ابدانهم
انفسهم لا تحس العذاب وانما الاحساس للارواح ، كذلك اوثانهم ، والقصد
ايصال العذاب نفسياً الى ارواحهم الجهنمية ، وكما تبينه :

﴿ لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلَهُ مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ ٩٩ .

حيث الإله يورد النار ولا يردها ، اذا فما هؤلاء الواردون فيها بآله ،
وكل من العابدين والمعبودين فيها خالدون ، وهذه الحجة برهان واقعي
ووجداني ينتزع من نفس المشهد الواقع هناك ، المعروض عليهم هنا وكأنه
المشهد الآن ! وحصب جهنم هي وقودها التي تتقد النار بها ، لأنهم
اصول الضلالة عابدين ومعبودين ، فليكونوا اصول الجحيم « فاتقوا النار
التي وقودها الناس والحجارة اعدت للكافرين » (٢ : ٢٤) فالناس هم
العبد والطواغيت هم المعبدون والحجارة هي الأصنام « واولئك هم وقود
النار » (٣ : ١٠) .

فما الحصب - فقط - الحطب ، اذ لا حطب في الجحيم ، وانما الوقود
اجساداً واحجاراً هنا ، ووقودات اخرى تناسب تلك النار المتأججة
الشديدة ، من طاقات حرارية فوق ما نعرفها في حياتنا الدنيا .

والحصب في اصل اللغة هو ما يرمى به من الحصباء وهي الحصى
الصغار ، يقال : حصينا الجمار : قذفناها بالحصباء ، فشبه سبحانه
قذفهم في جحيم النار بالحصباء المرمية فيها ، من ذل مقاذفهم ، وهوان
مطارحهم .

ولماذا هناك « انتم لها واردون » وهنا « ماوردوها » ؟ علّ اللام للتأشير
انهم كحصب الوقود يصلحون للنار حيث يصلحونها احراقاً لمن في النار ،
فمن اهل النار من يردها وهم المصطلون بوقودها الصلاء ، ومنهم من

سورة الأنبياء / آية ٩٢-١١٢ ٣٦٧
يردونها لأنهم انفسهم الصلاء .

﴿ لَّهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴾^{١٠٠} .

« لهم » العابدين والمعبودين اللهم إلا غير ذوي العقول منهم « فيها زفير » وهو صوت برد النفس الى داخل ضغطاً عليها حتى تنتفخ منه الضلوع ، وازدفر فلان كذا ، اذا تحمله بمشقة فتردد فيه نفسه ، « وهم فيها لا يسمعون » بعضهم اصوات بعض كما لم يسمعوا يوم الدنيا صوت الحق .

وحين يصل الأمر الى ذلك الحدد الحديد الإمر ، قد ينبري المشركون قائلين للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : تزعم ان الله انزل عليك هذه الآية « انكم وما تعبدون . . . » وقد عبدنا الشمس والقمر والملائكة وعزير وعيسى بن مريم ، كل هؤلاء في النار مع آلهتنا ؟! فتزل اذا :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾^{١٠١} (١) .

مركز تحقيق كامبوتر علوم إسلامي

(١) نور الثقلين ٣ : ٤٥٩ عن تفسير القمي في رواية ابي الجارود عن ابي جعفر (عليهما السلام) قال : لما نزلت هذه الآية وجد منها اهل مكة وجداً شديداً فدخل عليهم عبد الله بن الزبيري وكفار قريش يخوضون في هذه الآية : - انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم . . . فقال ابن الزبيري أحمد تكلم بهذه الآية ؟ فقالوا : نعم - قال ابن الزبيري لئن اعترف بها لا خصمته فجمع بينهما فقال : يا محمد ارايت الآية التي قرأت آنفاً فينا وفي آلهتنا خاصة ام الامم وأهتهم ؟ فقال : بل فيكم وفي آهتكم وفي الامم وفي آهتهم الا من استثنى الله فقال ابن الزبيري خصمتك والله الست تثني على عيسى خيراً وقد عرفت ان النصراني يعبدون عيسى وامه وان طائفة من الناس يعبدون الملائكة ؟ افليس هؤلاء مع الالهة في النار ؟ فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : لا ، فضجت قريش وضحكوا ، قالت قريش خصمك ابن الزبيري فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : قلت الباطل اما قلت : الا من استثنى =

٣٦٨ الجزء السابع عشر

... «مبعدون» عابدين ومعبودين ، وسابق الحسنى وسابغه الاخرى هو للملائكة والنبين ، مَنْ عُبِدُوا من دون الله وسواهم على سواء ، فانما حصب جهنم هو للدَّاعي الى نفسه كإله ، والمتقبل ان يُعبد من دون الله وان لم يدع الى نفسه صراحاً ، والعابد من دون الله ، فذلك

= الله وهو قوله تعالى : ان الذين سبقت لهم منا الحسنى اولئك عنها مبعدون ، لا يسمعون حسيها وهم فيما اشتهت انفسهم خالدون ، وقوله : حصب جهنم يقول يقدفون فيها قذفاً وقوله : اولئك عنها مبعدون «وبعني الملائكة وعيسى بن مريم (عليهما السلام)» .

وفيه عن قرب الاسناد للحميري باسناده الى ابي عبد الله (عليه السلام) عن ابيه عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : ان الله تبارك وتعالى ياتي يوم القيامة بكل شيء يُعبد من دونه من شمس او قمر او غير ذلك ثم يسأل كل انسان عما كان يعبد فيقول كل من عبد غير الله : ربنا انا كنا نعبد ما لتقربنا اليك زلفى ، قال : فيقول الله تبارك وتعالى للملائكة اذهبوا بهم وبما كانوا يعبدون الى النار ما خلا من استثنيت فاولئك عنها مبعدون .

واخرج مثله في الدر المنثور ٤ : ٣٣٨ بالفاظ عدة يجمعها ذلك الاستثناء ، ابن مردويه والضياء في المختارة عن ابن عباس قال جاء ابن الزبير الى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال : تزعم ...

وفي تفسير البرهان ٣ : ٧٢ عن محمد بن العباس عن النعمان بن البشير قال : كنا ذات ليلة عند علي بن ابي طالب (عليه السلام) سماراً اذ قرأ هذه الآية «ان الذين سبقت لهم من الحسنى اولئك عنها مبعدون» فقال : انا منهم واقامت الصلاة قريب وهو يقول : لا يسمعون حسيها وهم فيما اشتهت انفسهم خالدون» ثم كبر للصلاة ، ورواه ايضاً صاحب كشف الغمة عن النعمان بن بشير .

وفي تعليقات احقاق الحق ٣ : ٣٩٠ عن ابي حيان الاندلسي وروي ان علياً كرم الله وجهه قرأ هذه الآية ثم قال : انا منهم (بحر المحيط ٢٦ : ٣٤٢) ومن اخرجه الترمذي في مناقب مرتضوي (٥٩) والالوسي في روح المعاني ١٧ : ٨٩ والبيضاوي ٣ : ١٠٠ .

سورة الأنبياء / آية ٩٢-١١٢ ٣٦٩

الثالث المنحوس « حصب جهنم » ثم سائر اهل النار يُتَحَصَّبُونَ بهم اتقاداً في النار ، حيث يُتَحَسَّبُونَ منهم أتباعاً .

« الذين سبقت لهم منا الحسنى » هم السابقون والمقربون وشطر من اصحاب اليمين الداخلين الجنة بغير حساب ، مبعدين عن النار على طول خطها في البرزخ والاخرى ، ثم بين من هم حصب جهنم والسابقة لهم الحسنى ، درجات ودركات لم يذكروا هنا وهناك .

والحسنى السابقة ، منها الصابغة لهم استجابةً لربهم : « للذين استجابوا لربهم الحسنى » (١٣ : ١٨) وهي الصابغة لهم الحسنى الأخرى كما هنا وفي سواها : « ويجزي الذين احسنوا بالحسنى » (٥٣ : ٣١) .

وهي الحياة الحسنى الموعودة لهم سابقةً فقد « سبقت لهم الحسنى » واقعاً هنا ووعداً لما هناك .

ولماذا « مبعدون » وهي تلمح بدخولهم فيها ثم إبعادهم عنها ؟ علّه لأنه « ان منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً » ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً » (١٩ : ٧٢) .

﴿ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴾ ١٠٢ .

والحسيس هو الصوت المحسوس من زفير وشهيق ، ولكنهم وهم واردوها مع اهلها كما لا يعذبون بحررها ، كذلك « لا يسمعون حسيسها » ثم « وهم فيما اشتتهت انفسهم خالدون » عند ورودها وخروجها ودخول الجنة ، دون اي سغب ولا لغوب .

﴿ لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ ١٠٣ .

ومن الفزع الأكبر ما يطم كل اهل الحشر في النفخة الاولى : « ويوم

٣٧٠ الجزء السابع عشر

ينفخ في الصور ففزع من في السماوات ومن في الأرض الا من شاء الله « (٢٧ : ٨٧) وذلك فزع الصعقة للارواح موتاً ام غشية : « ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله « (٣٩ : ٦٨) « ان زلزلة الساعة شيء عظيم يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد « (٣٣ : ١ - ٢) .

فلائهم - وهم ممن شاء الله - لا يفزعون ولا يصعقون في تلك النفخة ولا يعذبون بعذابها الشامل إذا فلا يحزنهم الفزع الأكبر « بل و « تتلقاهم الملائكة « لقيامه الإحياء في النفخة الثانية « ثم نفخ فيه اخرى فاذا هم قيام ينظرون « « فلا يبقى ذور روح إلا انخلع قلبه وطاش لله وذكر ذنبه وشغل بنفسه الا ما شاء الله « (١) .

قائلين لهم « هذا يومكم الذي كنتم توعدون « وهذه الحياة المشرقة فيه هي من الحسنى السابقة لهم .

ليس فقط انه « لا يحزنهم الفزع الأكبر « بل « من جاء بالحسنة فله

(١) نور الثقلين ٣ : ٤٦١ في ارشاد المفيد ولما عاد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من تبوك الى المدينة قدم عليه عمرو بن معد يكرب الزبيدي فقال له النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) اسلم يا عمر ويؤمنك الله من الفزع الاكبر فقال : يا محمد وما الفزع الاكبر فاني لا افزع ؟ فقال (صلى الله عليه وآله وسلم) : انه ليس كما تظن وتحسب ان الناس يصاح بهم صيحة واحدة فلا يبقى ميت الا نشر ولا حي الا مات الا ما شاء الله ثم يصاح بهم صيحة اخرى فينشر من مات ويصفون جميعاً وتنشق السماء وتهد الأرض وتخر الجبال وتزفر النار بمثل الجبال شرراً فلا يبقى ذور روح الا انخلع قلبه وطاش لبه وذكر ذنبه وشغل بنفسه الا ما شاء الله فاين انت يا عمر ومن هذا ؟ قال : الا اني اسمع امراً عظيماً، فأمن بالله ورسوله وآمن معه من قومه ناس ورجعوا الى قومهم .

خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون » (٢٧ : ٨٩) .

فلا الموت عن الحياة الدنيا يفرعهم لانه لقاء الله ، ولا النفخة المفرعة المصعقة تفرعهم او تصعقهم ، لانهم ممن شاء الله ، ولا اي فزع يومئذ ، فانما « تتلقاهم الملائكة » بكل سلام ووثام الى يوم الله .

« فبادروا باعمالكم تكونوا مع جيران الله في داره ، رافق بهم رسله ، وأزارهم ملائكته ، واكرم اسماعهم عن أن تسمع حسيس نار ابدأ ، وصان اجسادهم ان تلقى لغوياً ونصباً ، « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم »^(١) .

وفي ظل « الذين سبقت لهم منا الحسنى » « المتحابون في الله في ظل الله يوم لا ظل الا ظله على منابر من نور يفرع الناس ولا يفرعون »^(٢) .

فـ « الذين سبقت لهم منا الحسنى » « لا يحزنهم الفزع الاكبر » « وتتلقاهم الملائكة .. » وتراه اي يوم « يومكم .. » و « لا يحزنهم ؟ انه :

﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾^{١٠٤} .

وذلك يوم قيامة الامامة ، فاذا لا يحزنهم ذلك الفزع العام الطام لاهل

(١) نهج البلاغة عن الإمام علي أمير المؤمنين (عليه السلام) .

(٢) الدر المنثور ٤ : ٣٤٠ - اخرج الطبراني في الاوسط عن ابي الدرداء قال سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول : ... واخرج البزار وابن مردويه عن ابي سعيد الخدري قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) للمهاجرين منابر من ذهب يجلسون عليها يوم القيامة قد امنوا من الفزع ، واخرج الطبراني عن ابي امامة ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال بشر المدجلين في الظلم بمنابر من نور يوم القيامة يفرع الناس ولا يفرعون .

الحشر لانهم ممن شاء الله فبأحرى الا يحزنهم الأفراع التي بعده في مسارح الحساب والجزاء .

وطي السماء هو نقض بنيتها وإعفاء جملتها عن صورتها ، حيث تطوى حتى تجتمع بعد انتشارها ، وتتقارب بعد تباعد أقطارها ، فتصبح كالسجل المطوي وهو ما يكتب فيه ، والكتب هنا جمع الكتابة .

إذا نظوي اوراق السماء المتفرقة المتباعدة بما كتب عليها من كواكب ، نظويها للكتب جديداً ، لا طياً فيه القضاء التام الحاسم على السماء بكتبتها ، فلأخرى سماء كما للأولى ، ولسماء الاخرى كتب كما للأولى بل هي احسن واخرى « والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون » (٣٩ : ٦٧) .

وقد يحتمل ان الكتب هنا كما في غيرها هي المكتوبات ، فالسجل هو الصحيفة المكتوبة هي فيها ، اذا طويت انطوت بطيها كتبها عن الشهود ، وهي في الغيب لا تخلو عن وجود ، فكما السجل المطوي لا ينعدم ، وكتبها لا تنمحي عن الوجود ، كذلك سجل السماء بكتبتها الانجم ، وكتبها الاعمال المسجلة عليها ، المستنسخة فيها ، انها لا تنمحي ، فمهما تنمحي صورة الكون ، ولكن صور الاعمال باقية في سجلات الكون ، حيث سجلت فيها للشهادة يوم يقوم الأشهاد^(١) .

وعلى « السماء » هنا هي صيغة اخرى عن الكون كله ، فانها مطلق

(١) تفسير البرهان ٣ : ٧٥ ابن بابويه بسند عن ابي جعفر (عليه السلام) قال : ان في الهواء ملكاً يقال له اسماعيل على ثلاثة آلاف ملك كل واحد منهم على مائة الف يحصون اعمال العباد فاذا كان رأس السنة بعث الله اليهم ملكاً يقال له السجل فانتسخ ذلك منهم وهو قول الله تبارك وتعالى : يوم نظوي السماء كطي السجل للكتب .

سورة الانبياء / آية ٩٢-١١٢ ٣٧٣

الجو الحامل للكرات ، والأرض كسائر الكرات من المعلقات في جو السماء .

والمعنيان - عليهما - معنيان ، فالطيآن اذاً مرعيان ، وذلك يناسب الحالة الطليقة في اسلوب القرآن ، وهما يناسبان هنا ادب اللفظ وحذب المعنى ! .

آيات ثلاث بين اضرابها تقرر ان هناك مضاهاة بين العود والبدء ، فكما كان أول خلق من الانسان - وهو آدم - « خلقه من تراب » كذلك ثاني خلقه .

وكما الانسان الأول خلق من صلصال من حماء مسنون (١٥ : ٢٦) ومن طين لازب (٣٧ : ١١) كالفخار (٥٥ : ١٤) وكل ذلك دون تحول للتراب منياً ثم جينياً ، ودون نسل من صلب ومكوث في رحم ، بل هو قفزة من تراب الى انسان تسلاً في سلالات ، فكذلك خلقه ثانياً في المعاد ، حيث يعاد كل من طينه كما يناسب العدل والحكمة الإلهية وقضية الحساب والجزاء والخلود .

فأصل القفزة في المعاد للمعاد كما الانسان الأول ، والتسلل فيها كما يخلق كل انسان « ولقد خلقنا الانسان من سلاله من طين . ثم جعلناه نطفة في قرار مكين » (٢٣ : ١٣) « وبدء خلق الانسان من طين . ثم جعل نسله من سلاله من ماء مهين » (٣٢ : ١١) .

فسلالة الماء المهين هي النطفة الجرثومية المتسللة عنه ، فليكن كذلك العود طبق البدء في صورتيه ، قفزة في التحول ، وتسلاً عن ترابه .

إذا فالمعاد في المعاد هو نفس النطفة التي خلقت منها ، بما معها من الاجزاء الاصلية التي تعيشها طول حياتها ، وقد نمتها فطمتها وأتمتها جينياً

حتى « انشأناه خلقاً آخر فتبارك الله احسن الخالقين » (١) .

ثم وكما بدأنا عراة حفاة كذلك الاعادة حيث « استبدلوا بظهر الأرض بطناً وبالسعة ضيقاً ، وبالاهل غربة ، وبالنور ظلمة ، فجاءوها كما فارقوها حفاة عراة ، قد ظعنوا عنها باعمالهم الى الحياة الدائمة والدار الباقية كما قال سبحانه » كما بدأنا اول خلق نعيده وعداً علينا انا كنا فاعلين » (٢) .

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ
الصَّالِحُونَ ﴾ ١٠٥ .

بشارة عظيمة في إشارة تحملها هذه الكريمة بين الكرميات الى الدولة الاسلامية الاخيرة العالمية ، وعداً من الله محتوماً لا حول عنه كما « وعد الله

(١) الدر المنثور ٤ : ٣٤٠ - اخرج ابن ابي حاتم عن السدي قال يبعثهم الله يوم القيامة على قامة آدم وجسمه ولسانه السريانية عراة صفاة عزلاً كما ولدوا ، اقول : المصدق منه الجملة الاخيرة واما قامة آدم ولسانه فلا اللهم ان يعني كما خلق آدم من تراب .

(٢) نهج البلاغة عن الإمام علي امير المؤمنين (عليه السلام) وفي المجمع ويروى عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) انه قال : تحشرون يوم القيامة عراة حفاة عزلاً (جمع الاعزل وهو الذي لم يخن) « كما بدأنا اول خلق نعيده وعداً علينا انا كنا فاعلين » .

وفي الدر المنثور ٤ : ٣٤٠ - اخرج ابن جرير عن عائشة قالت دخل علي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وعندي عجوز من بني عامر فقال (صلى الله عليه وآله وسلم) من هذه العجوز يا عائشة ؟ فقلت : احدي خالاتي ، فقالت ادع الله ان يدخلني الجنة فقال (صلى الله عليه وآله وسلم) : ان الجنة لا يدخلها العجوز فاخذ العجوز ما اخذها فقال (صلى الله عليه وآله وسلم) : ان الله ينشئن خلقاً غير خلقهن ثم قال : تحشرون حفاة عراة غلفاً ، فقالت : حاش الله من ذلك فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بلى ان الله تعالى قال : كما بدأنا اول خلق نعيده وعداً علينا انا كنا فاعلين . . .

سورة الأنبياء / آية ٩٢-١١٢ ٣٧٥

الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من بعدهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئاً . . . « (٢٤ : ٥٥) .

فذلك وعدٌ للحياة الدنيا في عاقبتها « والعاقبة للمتقين » (٣٨ : ٨٣) وكما وعدوا كذلك ميراث أرض الجنة طبقاً عن طبق : « وقالوا الحمد لله الذي أورثنا الأرض ننوء من الجنة حيث نشاء » (٣٩ : ٧٤) فـ « أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس » (٢٣ : ١١) .

فلا يختص الوعد المكتوب « في الزبور من بعد الذكر » فقط ميراث الأرض بعد الموت برزخاً وأخرى^(١) كما لا يختص بالحياة الدنيا وإن كانت هي الظاهرة من « الأرض » حين إطلاقها ، وقد سيود الشمول لها ، تلحيق الآية بالآخرة وقبلها الرجعة إلى الأولى : « فمن يعمل .. وحرام .. حتى إذا فتحت .. واقترب الوعد الحق .. انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم .. يسوم نطوي السماء .. » ولقد كتبنا .. « فلتحق آية الورثة لـ « عبادي الصالحون » - « لقوم عابدين » كلتا الوراثتين في كلتا النشأتين ، فمهما كانت الأولى هي القدر المعلوم من نفس الآية ، ولكن الثانية تلحقها بآيات القيامة وآية الزمر واضرابها ، مهما اختلف ميراث الآخرة عن الأولى في درجات ، ولكنها يلتقيان في ظاهرة باهرة لدولة الإيمان ، ولا سيما بين دويلات الكفر التي يقضى عليها في هذه الدولة المباركة الكريمة .

(١) تفسير البرهان ٣ : ٧٥ عن محمد بن العباس بسند عن أبي الحسن موسى بن جعفر (عليهما السلام) في الآية قال : آل محمد صلوات الله عليهم أجمعين ومن تابعهم على مناهجهم والأرض أرض الجنة أقول قد يؤل أرض الجنة بأن أرض الدنيا حينئذ تصبح كأرض الجنة ، أم أنها تشمل أرض الدنيا الجنة وأرض الجنة .

والوراثة الاولى لـ «عبادي الصالحون» هي السلطة الطليقة عن اسر الطواغيت بأسرها ، ليلغ بها «الصالحون» لها كما لا رهم المقدرة لهم في هذه الحياة، مادية - هي من الذريعة - ومعنوية هي الغاية المعنية في دولة مباركة عالمية ، فلا يتكسون حيواناً في وسط الحضارة المادية المزخرفة ، ولا يهبطون الى دركات اللانسانية المتخلفة ، ولا يبتعدون عن مظاهر الحياة متقشفين عن الماديات ، اخلاء لبيادين الحياة للشيطانات والفرعنات ، وانما صلاحاً تاماً طاماً كافة جنبات الحياة ، دون ان تزوى عنها شطرات ، جاعلين غير الصالحين في زواياهم منعزلين عن كل حيوية الاصالحة .

ونحن نرى طول التاريخ الرسالي والانساني عدم التوازن والتناسق في الحياة الارضية المرضية ، حيث تشيل كفة من ميزانها وترجع اخرى .

فقد يغلب - تغلباً - على الأرض بكل ثرواتها وبركاتها جبارون وظلمة وطغاة ، ام همج متبربرون غزاة ، ام كفار فجار يحسنون استغلال طاقاتها وثرواتها في الشهوات والحيوانات ، وهي الاكثرية المطلقة في الطول التاريخي والعرض الجغرافي ، فلا تبقى للصالحين رمقاً إلا محقاً وسحقاً ، وهم بين قاصرين لا حول لهم ولا قوة ، ومقصرين متقشفين يرون الحياة انعزالية عن وراثة الأرض .

فحيثما يجتمع صالح الايمان - وهو ايمان القلب - وصالح العمل الجبار في امة صامدة قائمة ، فعندئذ تتحقق وراثة الارض في كافة الحيوانات الميسورة منها .

ولكن حين يفرقان هذان العنصران ، فالميزان يتأرجف ، فتقع الغلبة للأخذين بالواجهة المادية للحياة ، حين يهمل المؤمنون الاخذ بها ذريعة لتحقيق دولة الايمان ودولته .

فـ «عبادي الصالحون» هم الجامعون لكل صلاحيات الحياة

سورة الأنبياء / آية ٩٢-١١٢ ٣٧٧

وحسنيها ، اذ لا قوة للايمان بجانب القوات الكافرة وزخرفات الحياة ، إلا على ضوء دولة قاهرة باهرة تخلق على كافة الطاقات الحيوية ، مجتشة جذور الافسادات والشيطانات ، ليخلو جو الحياة لتطبيق الحق كما يحق .

تلکم البشارة المسجلة « في الزبور من بعد الذكر » هي الشاملة للصالحين ورثة للأرض ، وللطالحين منغلين عن وراثة الأرض ، وهي كما يعلمه العالمون لم تتحقق حتى الآن ، وحتى في زمن المرسلين ، فلها - اذا - ميعاد يأتي .

وترى ما هو الزبور من بعد الذكر ، المكتوب فيه هذه البشارة ، وما هو الذكر ؟ .

اللائح من « الزبور » مفرداً هو زبور داود تحمله آيات ثلاث ، هذه « وآتينا داود زبوراً » (٤ : ١٦٣ و ١٧ : ٥٥) مهما كانت هنالك سبع اخرى في جمعه الجامع لكل الزبور^(١) وقضية الإفصاح في كتاب البيان القرآن « الزبر » - ان كان المعني من « الزبور » كل الزبر ، اضافة الى ان « الذكر » ايضاً من الزبر ، توراة ام قرآناً ام سواهما مما زبر من كتابات الوحي .

و « الذكر » السابق على هذا الزبور هو التوراة،ولانه الاصل في الكتابات الاسرائيلية ، وما تخصص الزبور بالذكر « من بعد الذكر » الا لبالغ اهميته بين الكتابات الملحقه بالذكر ، اللاحقة له ، وان هذه البشارة بينة صريحة في آيات من الزبور .

وقد اطلق الذكر على التوراة في هذه السورة مرتين « فاسألوا اهل الذكر »^(٧) - « وذكراً للمتقين »^(٤٨)

(١) ومسي ٣ : ١٨٤ و ١٩ : ٤٤ و ٢٦ : ١٩٦ و ٢٥ : ٣٥ و ٥٤ : ٤٣ و ٥٢ و ٢٣ : ٥٣ .

و « من بعد الذكر » كما تتعلق بمقدر « الكائن » ولقد كتبنا في الزبور الكائن من بعد الذكر ، كذلك تتعلق بـ « كتبنا » فهذه الكتابة تعم الذكر ، ومن ثم - وعلى هامشه - الزبور، كتبنا في الزبور من بعدما كتبنا في الذكر .

بشارة مسجلة في كتابات التوراة خاصة وعامة^(١) ومن بعد « في الزبور » وهو ابعد من التحريفات والتجديفات التي ابتلي بها الذكر، وقد يعني الذكر هنا كل ذكر سماوي قبل الزبور^(٢) كما نجد هذه البشارة تصریحة وإشارة في كتابات أخرى قبل التوراة وبعدها ، ولا سيما في « الزبور » .

ام ان « الذكر » هو الذكر الحكيم في اللوح المحفوظ « عند الله » و « الزبور » هو جنسه الشامل لمطلق الزبر السماوية^(٣) .

وقد يعني « الزبور من بعد الذكر » كل ما ذكر على الترتيب الرتيب ، دون اختصاص بواحدة دون الأخرى ، مهما كان الأولى كل أولى فأولى حسب القرائن المسرودة عندها .

وزبور داود ، المخصوص بالذكر هنا، يحمل تصريحات عدة بشأن وراثته

(١) التوراة الخاصة هي الاسفار الخمسة ، والعامة هي هبة وسائر أسفار الانبياء من بني اسرائيل .

(٢) البرهان ٣ : ٧٥ القمي في معنى الآية قال قال الكتب كلها ذكر الله ان الارض يرثها عبادي الصالحون قال قال : القائم (عليه السلام) واصحابه .

(٣) نور الثقلين ٣ : ٤٦٤ في اصول الكافي بسند عن عبد الله بن سنان عن ابي عبد الله (عليه السلام) انه سأل عن قول الله عز وجل « ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر » ما الزبور وما الذكر ؟ قال : الذكر عند الله والزبور الذي انزل على داود وكل كتاب نزل فهو عند اهل العلم ونحن هم .

الأرض في الدولة الاخيرة التي يقودها ابنه من بنته : القائم المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف .

واليكم فيما يلي نصوصاً من تلك البشارة الغالية ، تجدد تفاصيلها في كتابنا « رسول الإسلام في الكتب السماوية » وهنا نماذج ملتقطة تخلق على كل ذكر في كتابات السماء .

ففي المزمور ٣٧ من الزبور : ^١ لا تفر من الاشرار ولا تحسد عمال الإثم ^٢ فانهم مثل الحشيش سريعاً يقطعون ومثل العشب الاخضر يذبلون ^٣ كف عن الغضب واترك السخط ولا تغتر لفعل الشر ^٤ لان عاملي الشر يقطعون والذين ينتظرون الرب هم ^٥ يرثون الأرض ^٦ بعد قليل لا يكون الشرير تطلع في مكانه فلا يكون ^٧ اما الودعاء ^٨ فيرثون الأرض ^٩ ويتلذذون في كثرة السلامة ^{١٠} الشرير يتفكر ضد الصديق ويحرق عليه اسنانه ^{١١} الاشرار قد سلوا السيف ومدوا قوسهم لرمي المسكين والفقير لقتل المستقيم طريقهم ^{١٢} سيفهم يدخل في قلبهم وقسائم تنكسر .. ^{١٣} السرب عارف ايام الكملة و ^{١٤} ميراثهم الى الابد يكون ^{١٥} .. الشرير يستقرض ولا يفي اما الصديق فيتراف ويعطي ^{١٦} لان المباركين منه ^{١٧} يرثون الأرض ^{١٨} والملعونين منه يقطعون .. ^{١٩} الصديقون يرثون الأرض ويسكنونها الى الابد ^{٢٠} .. انتظر الرب واحفظ طريقه فيرفعك ^{٢١} لتراث الأرض إلى انقراض الاشرار تنظر ^{٢٢} .. لاحظ الكامل وانظر المستقيم ^{٢٣} فان العقب لانسان السلامة ^{٢٤} اما الاشرار فيبادون جميعاً ، عقب الاشرار ينقطع ^{٢٥} اما خلاص الصديقين فمن قبل الرب حصنهم في زمان الضيق .

هذه آيات بينات مكررات ثمان عدد ابواب الجنة تصرح « ان الارض يرثها عبادي الصالحون » والآية (٣٤) تصرح ان داود (عليه السلام) من

سواعد تلك الدولة المباركة في وراثة الارض !

وهذا الفصل فقط من الزبور يحمل اربعين آية كلها تحوم حوم انقراض
الاشرار ووراثة الأرض للأخيار^(١) .

وفي المزمور ٧١ : ١ - ٢٠ مواصفات للقائد الأول لهذه الوراثة ومنها
١٧ « يكون اسمه الى الابد ، ما دامت الشمس ، ينمو اسمه ويتبارك فيه
جميع قبائل الأرض وتغبطه كل الامم .. »^{١٩} وتبارك اسم مجده الى الابد
ولتمتلىء الأرض كلها من مجده . آمين ثم آمين^(٢) .

وفي مزمور ٤٥ : ١٨ « يكون بنوك عوضاً عن آبائك تقيمهم رؤساء
على جميع الأرض » .

وفي « اهو نودغات » في يسناغاتا ٤٨ : ٢ - ١١ : الترجمة الحرفية عن
الاصل البهلوي الاوستائي^(٣) : « عرفني يا أهورا ! (الله) هل ان قبل
القيامة يوم الجزاء المحتوم سوف يهزم أتباع الصدق أتباع الكذب فإنه حقاً
بشارة حسنة لهذا العالم .

وفي يسناها ٣٠ : ١٠ بعد استرجاء الحياة الجديدة في آخر الزمن يقول
« وفي ذلك الزمان ينكسر عالم الكذب بفلاح الصدق ، وكذلك في عالم
الخير (القيامة) .. » .

وفي يسناها ٤٦ : ٣ « متى يا مزدا (الله) يصلنا أول النهار الشريعة

(١) راجع رسول الإسلام في الكتب السماوية ٢٢٧ - ٢٢٨ .

(٢) راجع رسول الإسلام ٢٢٩ - ٢٣٣ .

(٣) نقلنا عن الترجمة الفارسية عن الاصل للاستاذ بور داود استاذ اللغة الاوستانية
في جامعة طهران .

الصادقة تشمل وتعم الكون . . للإنبياء والإعلان بعثتك (١) .

وهنا آيات توراتية تدلنا على اجتماع كافة الأمم في آخر الزمن ، وليس ذلك إلا عند وراثة الأرض للصالحين .

ففي سفر التكوين ٤٠ : ١٠ « لا تنهض عصي السلطنة من يهودا ولا الحكم من بين رجله حتى يأتي شيلوه الذي يجتمع فيه كافة الأمم » .

وذلك الاجتماع أمر واقع لا مرد له ، دون ان يكون أملاً لا يتحقق ، فانه يعم اولي العزم من الرسل كافة دون اختصاص بـ « شيلوه » وفي التراجم العربية ١٧٢٢ و ١٨٢١ و ١٨٤٤ فسر « شيلوه » بـ « الذي له الكل واياه تنتظر الأمم » وهذا هو حقاً رسول الإسلام الذي تجتمع الأمم في دولة المهدي القائم من آله (٢) .

وفي دانيال ٢ : ٤٤ « وفي ايام هؤلاء الملوك يقيم آله السماء مملكة لا تُنْقَضُ الى الابد ومُلْكُه لا يُتْرَك لشعب آخر فتسحق وتفتني جميع تلك الممالك وهي تثبت الى الأبد » وفي الآية (٢٩) يعبر عنها بمملكة رابعة تكون صلبة كالحديد لان الحديد يسحق ويطحن كل شيء فكما ان الحديد يحطم كذلك هي تسحق وتحطم جميع ذلك .

وفي دانيال ٧ : ٢٧ « ويعطى الملك والسلطان وعظمة الملك تحت السماء باسرها لشعب قديسي العلي وسيكون ملكه ملكاً ابدياً ويعبده جميع السلاطين ويطيعونه » .

وفي حبقوق ٣ : ٣ - ٦ « الله من جبل فاران يأتي ابدياً . غطي جلاله

(١) راجع رسول الإسلام ٢٠٩ - ٢٢٢ - واوست يعزى الى زردتست لما قبل ستين قرناً وهو خليط من تعليمات ابراهيمية من صحيفة وزيادات من زردشت ام سواه .

(٢) راجع رسول الإسلام ٢٣ - ٢٧ .

٣٨٢ الجزء السابع عشر

السموات وامتلات الأرض من تسبيحه^٣ شعاعه كالشمس وشع من يمينه النور وهناك استتار قوته^٤ وقفت ومسح الأرض وأذاب الأمم وتبددت الجبال القديمة وخسفت وانحنت آكام وأتلال القدم مسالك الازل له^(١) .

وفي انجيل متى ٢٥ : ٣١ - ٤٦ يذكر قيام المهدي (عليه السلام) قائلاً : ^{٣١} ومتى جاء ابن الانسان في مجده وجميع الملائكة معه فحينئذ يجلس على عرش مجده^{٣٢} وتجمع لديه كل الأمم فيميز بعضهم من بعض كما يميز الراعي الخراف من الجداء^{٣٣} ويقيم الخراف عن يمينه والجداء عن يساره^{٣٤} حينئذ يقول الملك للذين عن يمينه تعالوا يا مباركي خالقي ﴿ رثوا الملك المعد لكم منذ إنشاء العالم ﴾ . . .^{٣٥} حينئذ يقول أيضاً للذين عن يساره ، اذهبوا عني يا ملاعين الى النار الابدية المعدة لابليس وملائكته . . .^(٢) .

وفي اشعيا ١١ : ٩ بعد ما يذكر ميزات لذلك الزمن يقول « لأن الأرض تمتلئ من معرفة الرب كما تغمر المياه البحر^{١٠} وفي ذلك اليوم اصل يسى القوائم راية للشعوب إياه تترجى الأمم ويكون مثواه جيداً » وفيه ٦ : ٢١ « ويكون شعبك كلهم صديقين والى الابد يرثون الأرض . . . » .

وفي انجيل متى ٢٥ . . .^{٣٢} وتجمع لديه كل الأمم . . .^{٣٤} حينئذ يقول الملك للذين عن يمينه تعالوا يا مباركي خالقي رثوا الملك المعد لكم منذ انشاء العالم . . . » .

هذه نماذج يسيرة من هذه البشارة والتفصيل راجع الى رسول الإسلام .

ثم « الأرض » هي الأرض كلها بكافة سلطاتها الروحية والزمنية حيث

(١) و (٢) راجع رسول الإسلام ٤٦ - ٥٣ .

تلتقيان في زعيم الدولة الاخيرة ، ثم آخرون من اضرابه الذين يجمعهم « عبادي الصالحون » وكما يروى عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قوله سناداً الى الآية « فنحن الصالحون »^(١) فانه يرأسهم يوم الدنيا ويوم الدين ، و « هم آل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) »^(٢) و « هم اصحاب المهدي في آخر الزمان »^(٣) فهم - اذاً - كل صالح ليكون من اعضاء هذه الدولة المباركة واعضادها من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن اولئك رفيقاً ، بمختلف درجاتهم .

﴿ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغاً لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴾ ١١٦ .

« هذا » هنا هو إرث الأرض للصالحين ، وطبعاً فيه بلاغ لقوم عابدين ، حيث يأخذون حريتهم وحيويتهم الطليقة الايمانية في ذلك الزمن .

وذلك البلاغ يدفع قوماً عابدين للصمود في عبادة الله مهما بلغت بهم الصعوبات ، ناظرين بلوغهم الى ذلك الزمن ، فلذلك يحضرون انفسهم ليكونوا من اعضاء تلك الدولة الكريمة ، دون تقشُّف وتقاعُس عن القيام بواجباتهم الجماعية سياسية وثقافية واقتصادية وعسكرية أمأهيه، وكما امرهم الله : « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة . . » .

فلقد جاءت هذه الرسالة الاخيرة كتاباً مفتوحاً للعقول المفتوحة ،

(١) الدر المنثور ٤ : ٣٤١ - اخرج البخاري في تاريخه وابن ابي حاتم عن ابي الدرداء قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال الله تعالى : ان الارض يرثها عبادي الصالحون « فنحن الصالحون » .

(٢) تفسير البرهان ٣ : ٧٥ عن ابي جعفر (عليه السلام) في الآية قال : هم آل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) .

(٣) المصدر عنه (عليه السلام) في الآية هم اصحاب المهدي في آخر الزمان .

شاملة لكافة الاصول الحيوية البنائة للحضارة الحقيقية المرضية ، واضعة اصول المنهج الدائم للحياة الانسانية المتجددة ، كافلة للعقل الانساني حرية العمل بكفالة حقها في التفكير الطليق .

ومن قيم هذه المنهجية الحيوية انها متوازنة متناسقة ، لا تعذب الجسد لتسمو بالروح ، ولا يهمل الروح ليستمتع الجسد ، ولا تقيد الفرد - فقط - لتحقيق مصلحة الجماعة او الدولة ، ولا تطلقه في نزواته وشهواته الطاغية لتؤدي الجماعة ، ولا تقيد - كذلك - الجماعة لخدمة الفرد ، بل يستخدم كل فرد فرد لصالح نفسه ولصالح الجماعة على سواء .

وهذه هي المصلحية اللابئة اللائقة لتأسيس الدولة العالمية ، من عباد صالحين ، و « ان في هذا لبلاغاً لقوم عابدين » .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ ١٠٧ .

وتلك الرحمة العالمية الرسالية لا تطبق إلا على ضوء دولة عالمية ، ولكي ينتفع منها العالمون اجمع ويستظلوا في ظلها ، حين تذوب الفوارق الجغرافية والجنسية والعنصرية والطائفية اما فيه تحت رعاية هذه الدولة الاخيرة الاسلامية العالمية ، وذلك من المعني لقوله تعالى : « هو الذي ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا » (٤٨ : ٢٨) ، حيث الظهور هو الغلبة على الدين كله ، وهو الطاعة كلها ، ان ذلك يتخطى الأمل الى العمل وليس الا في دولة القائم (عليه السلام) .

صحيح ان كل رسالة مستقلة هي عالمية الاتجاه والرحمة مبدئياً ، ولكنها - وحتى الرسالة المحمدية (صلى الله عليه وآله وسلم) - ما حلفت زمن رسولها وأتمتها - إلا الغائب - على العالمين ككل ، وليس « رحمة للعالمين » غاية خيالية غير واقعية ، بل ان لها واقعها في مستقبل الزمن .

لا بد في ذلك الزمن ان يتأثر العالمون اجمعون بتلك الرحمة طوعاً او كرها ، ليستروحوا فيها نسائم السماء الرخية في هجير الارض المحرق المطبق ، كلما ازدادوا تخلفاً عن الشرعة الالهية ، يلمسون حاجة اكثر بهذه الرحمة .

ومن آيات تحليق هذه الرحمة الرسالية على واقع العالمين مستقبلاً ، ان « رحمة للعالمين » تختص بهذا الرسول دون سواء كما النذارة المحمدية عالمية بواقعها ، لا فقط في مغزاها « تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً » (٢٥ : ١) « ان هو إلا ذكر للعالمين » (٣٨ : ٨٧) و « العالمين » مكررة في القرآن (٧٣) مرة ، وهم جموع المكلفين ولا اقل من ثلاثة مهما لم نعرف حتى الآن الشالطة ، وتلك النذارة الذكر الرحمة تصلهم - يوماً ماً - اجمعين ، ولم تصل لحد الآن كافة الناس وحتى نذارته ، فضلاً عن واقع رحمته ، التالية لتأثير نذارته !

وقد يروى عن رسول الرحمة وَمُضَاتٍ من تلك الرحمة العالمية وكما يقول « انما انا رحمة مهداة »^(١) ولانه كله رحمة ما كان يلعن احداً من الطاغين قائللاً « ان الله بعثني رحمة للعالمين وهدى للمتقين »^(٢) واذا « قيل يا رسول الله الا تلعن قريشاً بما اتوا اليك؟ قال لم أبعث لعاناً انما بعثت رحمة

(١) الدر المنثور ٤ : ٣٤٣ - اخرج البيهقي في الدلائل عن ابي هريرة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) . . . وفي المجمع روى ان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال لجبرئيل لما نزلت هذه الآية هل اصابك من هذه الرحمة شيء ؟ قال : نعم اني كنت اخشى عاقبة الامر فامنت بك لما اتى الله علي بقوله : ذي قوة عند ذي العرش مكين » وقد قال (صلى الله عليه وآله وسلم) : انما انا رحمة مهداة .

(٢) المصدر اخرج ابو نعيم في الدلائل عن ابي امامة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) . . .

يقول الله : وما ارسلناك إلا رحمة للعالمين ﴿١٠٢﴾ .

اللهم إنا نرغب إليك في دولة كريمة تعز بها الإسلام وأهله وتذل بها النفاق وأهله ، اللهم انا نشكو اليك فقد نبينا وغيبته ولينا وشدة الفتن بنا وتظاهر الزمان علينا ، اللهم فسهل مخرجه واجعلنا من انصاره واعوانه آمين .

﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أُنْتُمْ مُسْلِمُونَ ۚ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَذِرِي أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدُ مَا تُوعَدُونَ ۚ ۝١٠٩﴾ .

فالتوحيد والتوحيد فقط هو العنصر الموحد الوحيد في تلك الرسالة الاخيرة المكملة لما قبلها ، ومنه تنبثق الرحمة العالمية في كافة الجهات والجنابات ، انقاذاً للعالمين من أوهام الجاهلية الجهلاء ، ومن اثقال الوثنية الحمقاء ، ومن ضغوط الخرافات الجارفة العمياء .

التوحيد الذي يربط الكائنات كلها إلى بعض ، ويربطها الى الله الواحد القهار ، ويوحد كافة الفعليات والانفعاليات دون أية شتات واختلافات واختلاقات .

ذلك هو طريق الرحمة العالمية ، وملقى النعمة الشاملة للعالمين ، الذين يتبناها دين الله كله ، وشرعة الله كلها .

هنا « إنما .. إنما » حصر على حصر يحصران ما يوحى الى الرسول في « إلهكم إله واحد » توحيداً أكيداً يخلق على الدين كله ، مما يتفرع عليه او ينحل اليه ام يتبناه عقائدياً وعملياً وقولياً وفي كافة الامور المختارة « فهل انتم مسلمون » لذلك الوحي ام معرضون ؟ .

« فان تولوا » بعد كافة الحجج على التوحيد « فقل » لهم « آذنتكم »

(١) المصدر اخرج عبد بن حميد عن عكرمة قال قيل يا رسول الله الا تلعن ...

اعلاماً مجازاً بالوحي بحق التوحيد وبمصير الذين يقولون عنه « على سواء » حيث شملتكم الحجة فيها على سواء دون تمييز ولا تبعض ، وإذا انتم تتساءلون متى هذا الوعد فـ « ان أدري أقرب ام بعيد ما توعدون » اذ لم يوح الى الا أصله دون أمده وفصله ، سواء أكان وعداً لعذاب الإستصال هنا ، ام لعذاب البرزخ بالموت ، ام عذاب الآخرة بقيام الساعة مهما كانت قريبة نسبياً ، فهذه الساعات الثلاث غيب إلا ما اظهره الله ، ولم يظهر لي إلا أصل « ما توعدون » فانه غيب من غيب الله لا سواء إلا من أعلمه اياه .

فطلما الايذان متعود في الحرب كإعلام الإنذار لفترة السلم الإختبار ، ولكنه هنا في العهد المكي حرب باردة في جبهة الإحتجاج المنذر ، فالقصد منه - إذن - انني قد نفضت يدي منكم ، وتركتم على علم بمصيركم في مسيركم .

﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴾ ١١٠ .

« يعلم الجهر من القول - ويعلم ما تكتُمونه » ، من قول أو نية أم فعل ، على سواء ، فـ « سواء منكم من أسر بالقول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار » (١٣ : ١٠) .

فامركم مكشوف له كله ، يعذبكم على علم وحكمة او يرحمكم على علم وحكمة دونما فوضى جزاف .

﴿ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّ فِتْنَةً لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ ١١١ .

وذلك اللأادري هنا بارقة أمل لهم عليهم يفيقون عن غيهم فيرجعون ، عل الله يحدث بعد ذلك الايذان امراً بغير إمر، إن احدثتم أمراً فيه نجاتكم ام لاقل تقدير « ومتاع الى حين » تأجيلاً لعاجل العذاب الى

مستقبل من حياة التكليف ، ام بعد الموت^(١) .

فهو بذلك التجهيل تأجيلاً وتعجيلاً يلمس قلوبهم المقلوبة لمسة قوية ويذرهم يتوقعون كل احتمال ، وتوقع العذاب على غير موعد محدد مضروب يترك النفس متوجسة ترتقب في كل لحظة لحظة ما تُوعِدَت من عذاب ، ام « ومتاع الى حين » تأجيلاً له فتنة وابتلاء فالى رحمة ام مزيد عذاب .

ولما وصلت حالته الدعائية في بلاغه لهذا الحد الحديد المديد ، هنا يتركهم مؤدياً امانته ، متوجهاً الى من حمله اياها ، ملتمساً منه متطلباً :

﴿ قُلْ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾^{١١٢} .

« رب احكم بالحق » بيني وبين هؤلاء المكذبين ، حكماً لي بما بلغت الرسالة كما حملت ، وحكماً عليهم بما كذبون ، حكماً عينياً بما كانوا يوعدون ، كما حكمت بوحي من قبل ، حكماً يطبق ما حكمت .

وقد كانت الانبياء تقول في نهايات الامور « ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وانت خير الفاتحين » فاستن الرسول بستهم في قوله « رب احكم بالحق » طلباً لإنجاز الوعد الحق ، وقد كان اذا شهد قتالاً قال رب احكم بالحق^(٢) .

(١) الدر المنثور اخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة ان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كان ...

(٢) نور الثقلين ٣ : ٤٦٧ في عيون الاخبار في باب جمل من اخبار موسى بن جعفر مع هارون الرشيد ومع موسى بن المهدي حديث طويل يقول فيه رأيت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ليلة الاربعاء في النوم فقال لي : يا موسى انت محبوس مظلوم ، =

سورة الانبياء / آية ٩٢-١١٢ ٣٨٩

هذا - ومن ثم تأكيد للحكم الحق في رجعة اخيرة اليهم «ربنا الرحمن»
صاحب الرحمت كلها ، « المستعان » لرسله والمؤمنين به « على ما تصفون »
فلا يعجز عن عونهم ولا يخلف الميعاد .

ويا لهذه السورة ختاماً كما بدأت ، تجاوباً في طرفيها بايقاع نافذ باهض
وبينهما حجاجات من حملة الرسالات ، ثم تصديقات من كتلة مؤمنة ومن
الآخرين لجاجات .



مركز تحقيقات كاميتر علوم اسلامی

فقلت : نعم يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) محبوس مظلوم فكرر ذلك علي
ثلاثاً ثم قال : وان ادري لعله فتنة لكم ومتاع الى حين .
وفيه عن الاحتجاج للطبرسي وروى انه لما قدم معاوية الى الكوفة قيل له ان الحسن بن
علي (عليهما السلام) يرتفع على انفس الناس فلو امرته ان يقوم دون مقامك على المنبر
فتدركه الحداثة والعي فيسقط من اعين الناس ، فابى عليهم وابوا عليه الا ان يأمره
بذلك فامرهم فقام دون مقامه في المنبر فحمد الله واثنى عليه ثم قال : اما بعد فانكم لو
طلبتم ما بين كذا وكذا لتجدوا رجلاً جده نبي لم تجدوه غيري وغير اخي وانا اعطينا
صفقتنا هذه الطاغية - واثار بيده الى اعلى المنبر الى معاوية - وهو في مقام رسول الله
(صلى الله عليه وآله وسلم) ورأينا حقن دماء المسلمين افضل من اوراقها « وان ادري
لعله فتنة لكم ومتاع الى حين » واثار بيده الى معاوية فقال له معاوية : ما اردت بقولك
هذا ! فقال : اردت به ما اراد الله عز وجل .



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

الفهرس

الموضوع	الصفحة
« سورة طه » محتملات حول آياتها الثلاث الأولى	١٧- ١٠
العرش وما تحت الثرى بمختلف الأبعاد - السروما أخفى - الأسماء الحسنی	٣١- ٢٩
« فاخلع نعليك » في وجوه ستة ، مذباع النداء لموسى وكيفيتها ؟	٤٦- ٣٥
إختیار موسى ، « أقم الصلاة لذكرك » في ٢٤٠ وجهاً ، و « أكاد أخفيها » في وجوه	٦٣- ٥٦
عصى موسى في حلقات ، لماذا « سيرتها الأولى » دون صورتها ؟	٧١- ٦٣
أسئلة موسى المستجابة ، تشابه وزارتي هرون وعلي للرسولين	٨٧- ٧٣
الوحي إلى أم موسى ؟ وآخر إلى اليم والساحل ، ورابع لقرعون وأهله ، حفاظاً على موسى « ولتصنع على عيني » كيف « أعطى كل شيء خلقه » وليس قبل الخلق شيء !	١٢١- ١١٧
كيف « أوجس في نفسه خيفة موسى » وهو رسول الهدى ؟	١٣٧- ١٣٦
هل إن « جهنم لا يموت فيها ولا يحيى » دليل على الخلود اللانهائي ؟	١٤٧- ١٤٥
لماذا أعجل عن قومه موسى ؟ وقصة عجل السامري وأثر الرسول ، والمحااجة المثلثة الزوايا فيها	١٨١- ١٥٩
كلام حول الشفاعة	١٩٧- ١٩٤
ما هي عجلة الرسول بالقرآن قبل قضاء وحيه إليه ؟	٢٠٣- ١٩٩
نسيان آدم لعهد الله وعصيانه إياه	٢١٥- ٢٠٣

الموضوع _____ الصفحة

ما هي المعيشة الضنك والعمى لمن أعرض عن ذكر الله	٢٢٢- ٢١٩
أوقات الفرائض	٢٢٦- ٢٢٤
« سورة الأنبياء » كيف اقترب للناس حسابهم ومرسى الساعة	
الحساب مجهولة ؟ حدوث كلام الله	٢٤١- ٢٣٨
قضية البشرية السارية المفعول في الرسل بلا أخطاء	٢٤٧- ٢٤٥
العروبة - كما سواها - المنفصلة عن القرآن - في دار البوار	٢٤٩- ٢٤٨
بحث عريق فلسفي حول « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا »	٢٦٣- ٢٥٨
على ضوء « لا يسأل عما يفعل .. »	٢٦٩- ٢٦٣
كيف « لا يسبقونه بالقول » وقد سبقه الملائكة في سئوالهم ؟	٢٧٥- ٢٧٤
« ولا يشفعون إلا لمن ارتضى » وإبعادها	٢٧٨- ٢٧٥
رتق السماوات والأرض وفتحها في قول فصل - حياة كل حي من الماء	٢٩٢- ٢٨١
ذوق الموت لكل نفس ، والنفوس وسواها المستثناة عنها	٢٩٩- ٢٩٥
ما هي « الموازين القسط »	٣٠٩- ٣٠٧
هل كذب إبراهيم في « بل فعله كبيرهم هذا ؟ »	٣٢٤- ٣٢٢
كيف كُوت النار برداً وسلاماً ؟ إسحاق ويعقوب نافلة، أئمة يهدون بأمرنا.	
	٣٣٥- ٣٢٦
كيف « فهمناها سليمان » دون أبيه داود ؟	٣٤١- ٣٣٧
ماذا يعني « ومثلهم معهم » فيما أوتي أيوب اهله ؟	٣٤٥- ٣٤٤
« فظن أن نقدر عليه .. إني كنت من الظالمين » كيف يلائمان الرسالة ؟	٣٥١- ٣٤٥
مريم وابنها آية واحدة ؟	٣٥٣- ٣٥٢
أمة واحدة برسالة واحدة ؟	٣٥٨- ٣٥٥
.. إنهم لا يرجعون . حتى إذا فتحت بأجوج ومأجوج ، هل تعني	
الرجعة ؟	٣٦٤- ٣٥٨
« إن الأرض يرثها عبادي الصالحون » في الزبور وسائر الكتب	٣٧٣- ٣٧٣

